المركز الثقافي الإعلامي لسمو الشيخ سلطان بن زايد آل نهيان ممثل صاحب السمو رئيس الدولة

كتاب الموسم الثقافي (2010)

المحاضرات والندوات



رقم التصنيف: تصنيف ديوي العشري ، محاضرات وندوات، 081

المؤلف ومن هو في حكمه: المركز الثقافي الإعلامي لسمو الشيخ سلطان بن زايد ممثل صاحب السمو رئيس الدولة

عنوان الكتاب: كتاب الموسم الثقافي 2010 (المحاضرات والندوات)

الموضوع الرئيسي: محاضرات وندوات ثقافية وأدبية وفكرية وتراثية لنخبة من المفكرين والكتاب

الناشر: المركز الثقافي الإعلامي لسمو الشيخ سلطان بن زايد ممثل صاحب السمو رئيس الدولة

توصيف الكتاب: الكتاب قياس 17× 24، تجليد فني، أربعة ألوان. عدد الصفحات: 400

الترقيم الدولي 8 - 102 - 16 - 9948 - ISBN978

الطبعة الأولى 2011

لجنة إعداد كتاب الموسم الثقافي 2010 (المحاضرات والندوات):

الإشراف العام **حبيب الصايغ**

الإعداد والتحرير: **محمد فاتح زغل**

المدير الفني. **فواز ناظم**

التنفيذ و الإخراج: **غادة حجاج - إيناس درويش**

مراجعة المادة. **منصور سعيد المنصوري**

التوثيق: **محمد أحمد محمد علي**

إصدارات

المركز الثقافي الإعلامي لسمو الشيخ سلطان بن زايد ممثل صاحب السمو رئيس الدولة

The Cultural and Media Centre for H.H. Sheikh Sultan Bin Zayed

Al Nahyan H.H. The President's Representative

ص.ب: 5727 أو 6420 فاكس: 0097126663088 هاتف: 0097126666130

Website: www.cmc.ae Email:administration@cmc.ae

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

المركز الثقافي الإعلامي لسمو الشيخ سلطان بن زايد آل نهيان
ممثل صاحب السمو رئيس الدولة

كتاب الموسم الثقافي (2010)

المحاضرات والندوات



المغفور له الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان - رحمه الله

مؤسس دولة الإمارات العربية المتحدة



صاحب السمو الشيخ خليفة بن زايد آل نهيان

رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة



سمو الشيخ سلطان بن زايد آل نهيان

ممثل صاحب السمو رئيس الدولة

رئيس نادي تراث الإمارات - رئيس المركز الثقافي الإعلامي



الفريق أول سمو الشيخ محمد بن زايد آل نهيان

ولي عهد أبوظبي

نائب القائد الأعلى للقوات المسلحة

19 تقديم .... سمو الشيخ سلطان بن زايد آل نهيان
ممثل صاحب السمو رئيس الدولة
رئيس المركز الثقافي الإعلامي

المحاضرات

23 أزمة العلاقات العربية – الغربية .... أ. د. برهان غليون
47 أهمية العلاج بالأدوية في إدارة الألم .... أ. د محمد يوسف حسن بني ياس
59 القصة القصيرة في واقع متغير .... أ. سعيد الكفراوي
71 قراءة في فكر الجابري .... أ. د. كمال عبد اللطيف
87 دور التربية في تحقيق الأمن .... الفريق ضاحي خلفان تميم
103 تنمية الموارد البشرية في دولة الإمارات (تحديات وآفاق مستقبلية) .... أ. حميد القطامي
111 نموذج دولة الإمارات العربية المتحدة لتطوير الطاقة النووية السلمية ...... السفير حمد علي الكعبي
125 الشريعة الإسلامية كنظام قانوني يتجاور مع الأنظمة القانونية الكبرى ... د. عبد الوهاب عبدول
139 أثر التأسي بالرسول صلى الله عليه وسلم في مسيرة الحياة .... د. مبروك عطية
149 قبس من نور الله.. ومابكم من نعمة فمن الله .... د. عبلة الكحلاوي
163 أزمة الثقافة العربية .... أ. د. حسن حنفي
187 الصحافة وتحديات العصر .... أ. جهاد الخازن
197 الجراحة التجميلية - ما هو الخطأ وما هو الصواب؟ .... أ. د إبراهيم كلداري
209 الرواية ومأزق الهوية (قراءة للتجربة الروائية في الخليج) .... د. سعيد السريحي
221 أبوظبي من 1981 إلى 2010 (مجلس التعاون لدول الخليج العربية.. إلى أين؟) ..... د. نايف علي عبيد
269 اللوحات الإبداعية في الشعر الجاهلي (الرؤية والمنهج) .... د. عبد الحميد المعيني
287 كيف درست اللغة العربية؟ .... د. دينيس جونسون ديفيز
295 الغربية.. لمحات من ذاكرة البر والبحر وتراث البيئة والإنسان .... أ.عبدالله عبدالرحمن

الندوات

الندوة الأولى: أنا المرأة الإماراتية .. وهذه تجربتي

313 الورقة الأولى .... أ. د رفيعة غباش
325 الورقة الثانية .... د. نجاة مكي

الندوة الثانية: ذاكرة المكان الإماراتي

331 الورقة الأولى .... أ. عبد العزيز المسلّم
341 الورقة الثانية .... أ. فرح البستكي
351 الورقة الثالثة .... أ.أحمد محمد عبيد

الندوة الثالثة: كيف نستقبل رمضان ؟

365 الورقة الأولى .... د. أحمد الكبيسي
373 الورقة الثانية .... الشيخ الحبيب الجفري

الندوة الرابعة: المجلس الوطني الاتحادي.. التجربة والأفق

383 الورقة الأولى .... أ. أحمد بن شبيب الظاهري
389 الورقة الثانية .... أ. أحمد الخاطري
395 الورقة الثالثة .... أ. ميساء راشد غدير

تقديم

سلطان بن زايد آل نهيان
ممثل صاحب السمو رئيس الدولة
رئيس المركز الثقافي الإعلامي

كثير هو الكلام، ولكن القليل منه هو المفيد والمؤثر، وكثيرة هي الأنشطة، ولكن القليل منها هو الفريد والمتميز.

نبدأ تقديمنا لكتاب الموسم الثقافي للمركز الإعلامي لعام 2010 بهذه الكلمات، والأمل يحدونا أن يضيف إلى المكتبة العربية، وإلى الإنسان العربي، وإلى الأمة العربية شيئاً من كل ما أملناه، ومن كل ما تمنيناه، مما قلّ منه أو كثر.

وإذ نقدم للقارىء الكريم هذا الجهد لنشير إلى أنه يأتي ضمن الجهود الكبيرة التي تبذلها دولة الإمارات العربية المتحدة، بقيادة صاحب السمو الشيخ خليفة بن زايد آل نهيان، رئيس الدولة، حفظه الله، لتعظيم شأن الثقافة، وإعلاء قيمة الفكر، متسقاً مع ما تشهده دولتنا الحبيبة من نهضة ثقافية شاملة، إلى جانب ما تشهده وتحققه من نهضة في المجالات الأخرى على جميع المستويات.

كما نود الإشارة كذلك إلى أننا راعينا عند التخطيط لهذا الموسم، وحرصنا عند تنفيذه على عدة أمور، منها إتاحة الفرصة أمام المفكرين والمسؤولين وأصحاب القرار من إخواننا وأبنائنا المواطنين للتعبير عن أنفسهم وعن أفكارهم وعرضها أمام الجمهور مباشرة من دون وسيط، وما أحوجنا وأحوجهم إلى ذلك، فهم أبناء الدولة وبناتها، وهم حملة همومها والأقدر والأجدر على طرحها ومناقشتها والاجتهاد في التعامل معها.

إلى ذلك، حرصنا على رفد الموسم بشخصيات فكرية وثقافية لها وزنها من دول متعددة، عربية وأجنبية، ليكون الناتج مزيجاً من الأفكار، وتنوعاً في الموضوعات، وتعدداً في الثقافات، وليستفيد من الموسم أكبر عدد من الجمهور، وليجد كل منهم في محاضراته ما يريد، وبالإجمال لتثري هذه الأفكار الموسم الثقافي وتجعله كما أردناه.

وبالرغم من كل ذلك، فما زلنا نطمح إلى تقديم المزيد من الأفكار، والمزيد من الشخصيات، لننهل جميعاً ومعاً من معين الثقافة الواعية بقضايا وطنها وأمتها، المنفتحة على مستجدات عصرها، والمستجيبة لمتطلباته.

كما نأمل أن تسود ثقافة الحوار، واحترام الآخر، ومقارعة الأفكار بالأفكار، ومناقشة ما يعرض منها، وعرضها على مبادئنا وعاداتنا وتقاليدنا، واختيار ما يناسبنا منها، وترك ما عداها وعدم تسفيه ما لا يناسبنا، بل محاولة وضعه في إطاره الطبيعي من كونه في نهاية الأمر، مجرد اجتهاد، قد يصيب وقد يخطىء، مع الحفاظ على الرغبة الدائمة في المعرفة، والمعرفة المتجددة، لأن في ذلك كله، وبه كله، تتقدم الأمم وتصنع ثقافتها ومن ثم نهضتها.

وأجدها مناسبة طيبة لتجديد العهد والولاء لقائد مسيرة التنمية والتمكين، صاحب السمو الشيخ خليفة بن زايد آل نهيان، رئيس الدولة، حفظه الله، الذي يعرف للإنسان على هذه الأرض قيمته، ويحفظ للثقافة في هذا البلد الطيب قدرها ■

المحاضرات

المحاضر:

أ.د. برهان غليون

أستاذ علم الاجتماع السياسي ومدير مركز دراسات الشرق المعاصر بجامعة السوربون بباريس.

عنوان المحاضرة:

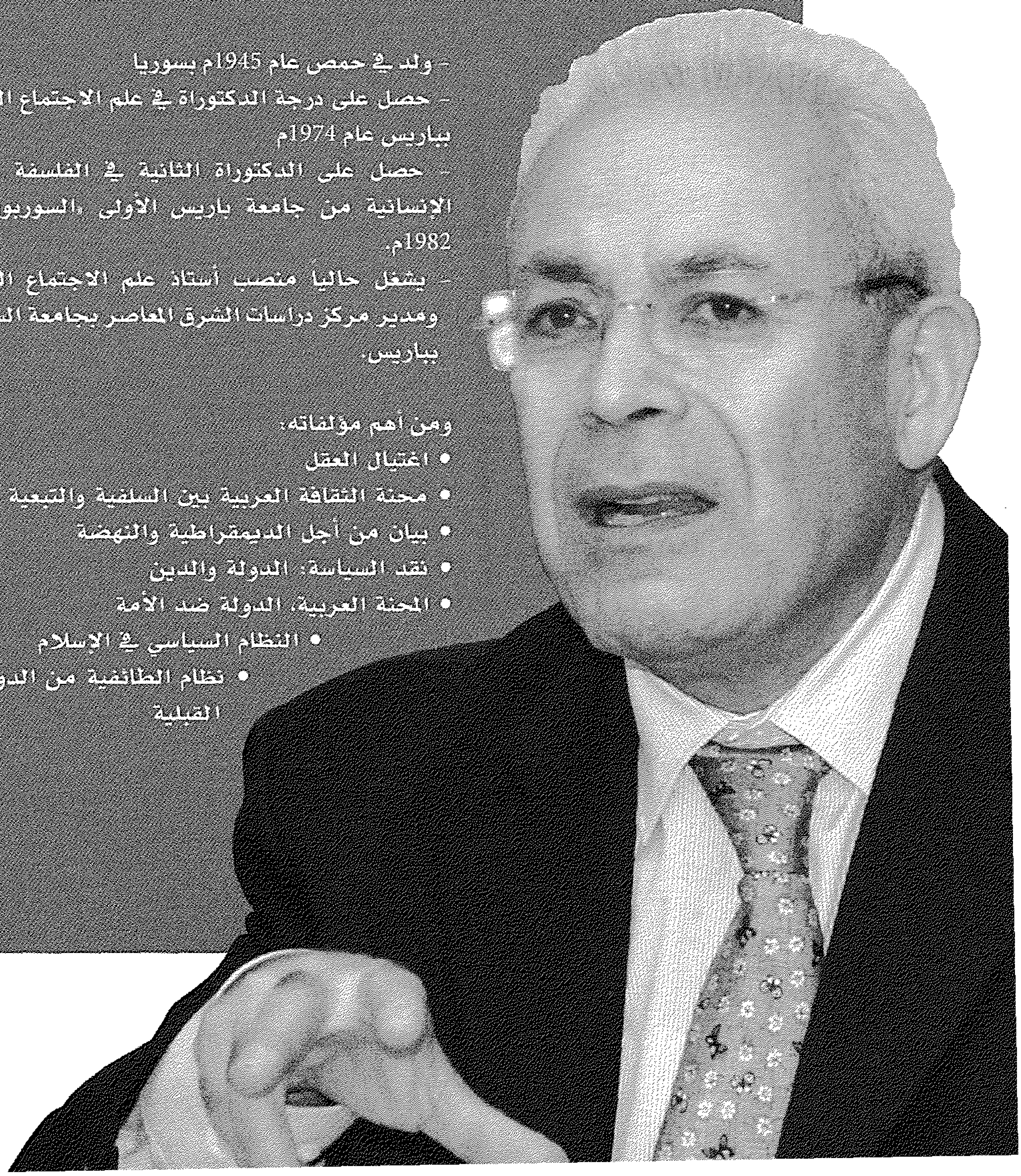
أزمة العلاقات العربية - الغربية

سيرة ذاتية

- ولد في حمص عام 1945م بسوريا
- حصل على درجة الدكتوراة في علم الاجتماع السياسي بباريس عام 1974م
- حصل على الدكتوراة الثانية في الفلسفة والعلوم الإنسانية من جامعة باريس الأولى «السوربون» عام 1982م.
- يشغل حالياً منصب أستاذ علم الاجتماع السياسي ومدير مركز دراسات الشرق المعاصر بجامعة السوربون بباريس.

ومن أهم مؤلفاته:

- اغتيال العقل
- محنة الثقافة العربية بين السلفية والتبعية
- بيان من أجل الديمقراطية والنهضة
- نقد السياسة: الدولة والدين
- المحنة العربية، الدولة ضد الأمة
- النظام السياسي في الإسلام
- نظام الطائفية من الدولة إلى القبلية



أزمة العلاقات العربية - الغربية

لا يحتاج المرء إلى جهد كبير حتى يدرك أن العلاقات العربية الغربية تمر بأزمة هي الأعمق من كل ما عرفته من أزمات سابقة. وبسبب تعدد مستوياتها وديمومتها أصبحت من أهم المشاكل الدولية التي تؤثر على حياة كوكبنا وتشكل محوراً رئيساً من محاور النقاش العالمي، إن لم تكن بامتياز المحور الأول فيه. يكفي للبرهان على ذلك مطالعة الصحف اليومية وإحصاء عدد المقالات والدراسات والكتب التي تصدر عن دور النشر الغربية والعربية، بل والعالمية، ومراقبة الندوات والمؤتمرات الدولية التي تخصّص سنوياً وفي جميع أقطار العالم للصراع بين الحضارات وحوار الثقافات والأديان، ومعاينة حركة الدبلوماسية الدولية التي تكاد قضية النزاعات المرتبطة بالشرق الأوسط تحتكر القسم الأكبر منها، من دون ذكر ما تنشره الصحافة اليومية المكتوبة والمرئية حول مسائل متعددة تعنى بتطور الفكر الإسلامي أو بعلاقة الإسلام والغرب، والإسلام والإرهاب، والإسلام والديمقراطية، والإسلام والحداثة، وبوضع الجاليات الإسلامية في الغرب، أو بتغطية النزاعات المتعددة الأبعاد والجوانب التي تجري في مناطق المسلمين أو تضعهم في مواجهة أعداء آخرين، كالأوروبيين، أفراداً وجماعات دينية، ودولاً وتكتلات.

1 - العالم العربي والغربي.. نظرة متعاكسة

يتهم الغربيون - عموماً - العالمين العربي والإسلامي باحتضان التطرف والإرهاب، سواء المحلي أو الدولي، وتشجيع الحركات التي مارسته ولا تزال، في الداخل وعلى الصعيد العالمي. ويقدّمون هجوم 11 سبتمبر 2001 وما نجم عنه من تفجير استهدف برجي مركز التجارة العالمي في نيويورك، مثالاً قوياً على خطورة

هذه الظاهرة التي لن تكف عن الانتشار، كما تشير إلى ذلك العمليات اللاحقة التي أدمت العديد من العواصم الأوروبية في باريس ولندن ومدريد وبرلين بعد واشنطن ونيويورك، في السنوات القليلة الماضية، بالإضافة إلى عمليات أخرى جرت وتجري في القارات الأخرى وتنسب إلى القاعدة.

ويشير هؤلاء في السياق نفسه إلى الصعود الكاسح داخل البلاد العربية والإسلامية لحركات الإسلام السياسي، الذي زعزع أسس استقرار الدول العربية والإسلامية التي تربطها بالغرب والعالم عموماً علاقات اقتصادية وسياسية واستراتيجية عميقة، وتعزز الاعتقاد بأن الإسلام والعنف شيئان لا ينفصلان. ويمكن الإشارة هنا إلى سلسلة الاضطرابات والحروب الداخلية العنيفة التي أثارتها هذه الحركات، أو بعض أطرافها وفرقها، ذهب ضحيتها مئات الألوف من الأبرياء، كما حصل في الجزائر ومصر والسودان ولبنان والمغرب والعربية السعودية والعراق والصومال والهند والفيليبين وأندونيسيا وباكستان وأفغانستان ونيجيريا، في العقد الأخير من القرن العشرين، كما يشيرون إلى ما خلفته النظم السياسية التي تدعي الإسلام من أزمات وطنية ودولية لا أمل في معالجتها، مثل ما هو حاصل في إيران الخميني وأفغانستان طالبان وصومال المحاكم الدينية وسودان البشير وباكستان مشرف وغيرها من البلاد التي أصبح العنف جزءاً لا يتجزأ من حياتها اليومية.

كما يبرز هؤلاء - في السياق ذاته - اعتماد الحياة السياسية العربية الداخلية على العنف والانقلاب والمنازعات الدموية، وعداء نظمها السياسية للديمقراطية واستسلام مجتمعات العرب للديكتاتورية، وصمتها على الانتهاكات الخطيرة والدائمة للحقوق المدنية والسياسية للأفراد، وفساد النخب الحاكمة، وتقهقر شروط الحياة المادية والمعنوية. وما رافق هذا التقهقر في السنوات الماضية من تنامي معدلات الهجرة من العالم العربي إلى الغرب، وتزايد عدد الجاليات الإسلامية هناك ومعها الخوف من أن تتحول إلى غيتوات أو معازل مغلقة، وتنقل معها تقاليدها وأفكارها ونزاعاتها الأصلية إلى بلاد المهجر. وهذا ما دفع بالعديد من الدول الغربية، في الولايات المتحدة وأوروبا إلى إصدار تشريعات تحد من حرية الأفراد، وتضع العرب والمسلمين في دائرة الشك المسبق والمراقبة الدائمة. فصارت

متطلبات الأمن في تناقض واضح مع مبادئ الحرية الفردية والثقة المبدئية.

وعلى العموم، يبدو العالم العربي والإسلامي في نظر الغربيين اليوم مصدر مخاطر وتهديدات أمنية واقتصادية وسياسية وثقافية كبيرة وراهنة. فسيطرة التيارات الإسلامية على الحكم في هذه البلدان أو في بعضها تهدد مباشرة مصادر الطاقة التي يعيش عليها الاقتصاد الصناعي وبالتالي الغربي، كما تهدد الأسس التي قامت عليها العلاقات الماضية والنظام الدولي بأكمله. وبالإضافة إلى ذلك ليس هناك أي ضمانة أن لا تشكل الجاليات الإسلامية والعربية المقيمة في الغرب حاضنة للتيارات المتطرفة، ومنطلقاً لعمليات تزعزع الأمن والاستقرار فيها. وليس هناك ضمانة أيضاً بأن لا يؤثر انتشار القيم والأفكار الدينية لدى قسم كبير من الرأي العام الإسلامي على الرأي العام الغربي نفسه، وأن لا تزيد الضغوط على قاعدة العلمانية التي يقوم عليها النظام الاجتماعي في الغرب.

بالمقابل، لم يشعر العرب في أي حقبة سابقة بعمق الهوة التي تفصلهم عن الغربيين ونزاعهم معهم، بما في ذلك الحقبة الاستعمارية المظلمة كما يشعرون بها اليوم. ويبدو عداء الغرب لهم عداء شاملاً؛ فهو:

عداء ديني؛ يرمي إلى تشويه صورة الإسلام وتقويض أركانه واستبداله بعقائد مادية أو دينية والمسّ بموقعه في النظام الاجتماعي باسم العلمانية.

وعداء ثقافي؛ يهدف إلى تغيير منظومة القيم والمعايير المرجعية والاختيارات الفكرية التي تنظم الحياة العمومية، ومن وراء ذلك تدمير الهوية العربية وقطع الطريق على إحياء الحضارة العربية الإسلامية، باسم الديمقراطية وحقوق الإنسان.

وعداء سياسي على النفوذ والتأثير المادي والمعنوي داخل المجتمعات العربية. حيث يتهم الغرب بتحالفه مع النخب الحاكمة والضلوع معها في تثبيت الأوضاع القائمة باسم الاستقرار، ومشاركته في بلورة السياسات الفاسدة واللاوطنية فيها، من خلال دعم السياسات القمعية أو ممارسة الضغوط الاقتصادية والعسكرية والسياسية أو حتى القيام بالانقلابات العسكرية.

وعداء جيوسياسي؛ يتعلق بسعي الغرب إلى الإبقاء على سيطرته الاستراتيجية

في الشرق الأوسط، وفي سبيل ذلك عمل كل ما من شأنه أن يحول دون تحقيق أي تكتل عربي، بل منع التفاهم البسيط والعادي بين النظم والأسر الحاكمة المتنازعة والمتنافسة على الاستمرار لأقصى فترة ممكنة في السلطة.

وهو عداء اقتصادي؛ يتعلق بنهب ثروات العرب ومواردهم الطبيعية، وفي مقدمها النفط، واستغلالها للسيطرة على العرب وحرمانهم من فرص التنمية والازدهار المادي.

وهو أخيراً عداء عسكري؛ يتجلى عبر الحروب العديدة التي تشنها الدول الغربية على العرب، مباشرة أو عبر وسيطها التاريخي والإقليمي الرئيسي إسرائيل، سواء في فلسطين أو لبنان أو العراق أو السودان أو الصومال أوفي أفغانستان وغيرها.

وترتبط صورة هذا العداء الحاضر بذاكرة تاريخية غنية بالحوادث المريرة، فيبدو الصراع مع الغرب صراعاً دائماً لا يعبّر عن سياق معين ولكنه يعبر التاريخ ويكونه. فهو يبدأ مع الغزوات الرومانية والبيزنطية، ويتجلى عبر حروب الاسترداد الكاثوليكية في إسبانيا والأندلس وطرد العرب منها، كما يتجلى عبر الحروب الصليبية التي استهدفت إخضاع المشرق العربي للسيطرة الغربية، ليتوج أخيراً بالحروب الاستعمارية التي أخضعت فيها العواصم الأوروبية دول المنطقة العربية وقامت بإعادة تشكيل خريطتها الجيوسياسية. وينتهي بإجهاض حروب التحرير الوطنية، وإشعال النزاع التاريخي المستمر منذ عقود طويلة حول فلسطين، بدعم من الغرب وتغذيته، وما رافقه في السنوات القليلة الماضية من حروب وحشية ارتبطت بفكرة حل نظام الشرق الأوسط القديم وإعادة بنائه حسب حاجات تكريس السيطرة العالمية الأمريكية الغربية.

ومثل الغربيين، يعتقد القسم الأكبر من الرأي العام العربي بأن العرب يواجهون تحديات مصيرية. وفي مقابل الحرب العالمية على الإرهاب التي تبنتها الكتلة الغربية في مواجهة ما أسمته بالمخاطر المرتبطة بالإسلام استعادت فكرة الجهاد مكانتها في الفكر السياسي العام، واختلطت بفكرة الصراع الحتمي مع الغرب ومواجهة مخططاته. وهي المهمة التي تأخذ بعض الفرق الإسلامية المتطرفة على عاتقها مسؤولية القيام بها.





هنا، تبدو القطيعة حاسمة ونهائية على جميع مستويات العلاقة بين العالمين العربي والغربي. وبينما لا يكف العرب عن الشكوى من عداء الغرب لقضاياهم وتحططهم عليهم، واستهدافهم في كل الميادين الدولية، يتساءل الغربيون، عن أسباب كره العرب والمسلمين لهم!. ولهم في ذلك مؤلفات وكتب ومواقف مشهورة. فعلى «الإسلاموفوبيا» الغربية التي يتهم بها العرب وأنصارهم الموقف الأوروبي الشائع إزاءهم، يرد الغربيون بتهمة كراهية الغرب التي يعتقدون أنها نزعة متأصلة في الشعور العربي والإسلامي، ومنتجة لمشاعر وعواطف وأفكار وقيم تمنع العرب من التفاهم مع العالم وتحرمه من استيعاب قيم الحضارة بمقدار ما تدفعه إلى الانغلاق في دائرة الخصوصية القومية والمحورية الذاتية الضيقة.

2 - أسباب النزاع في النظريات الغربية والعربية السائدة

حتى فترة قريبة كان العرب ومفكروهم يميلون عموماً، انسجاماً مع النظريات الاجتماعية السائدة إلى إرجاع هذه الأزمة إلى أسباب سياسية واستراتيجية واقتصادية، ويرون فيها ثمرة لاستمرار الغرب في اتباع سياسات معادية لاستقلال العرب وسيادتهم، أو إلى تطبيق استراتيجيات تحرمهم من حقوقهم الوطنية والتاريخية في فلسطين وغيرها، أو ممارسة الضغوط الاقتصادية والسياسية لتقسيمهم ومنعهم من تحقيق أهدافهم القومية في الوحدة والتقدم والسيادة. وربما كانت سياسة الرئيس الأمريكي جورج دبليو بوش التي طبقتها الإدارة الأمريكية في الشرق الأوسط في الأعوام الثمانية الأخيرة برهاناً على هذا الطرح الذي يحمل الغرب المسؤولية الرئيسية عن تفاقم أزمة العلاقات العربية الغربية.

ومن هذا المنظور الذي ينسجم مع مقاربات العلوم الاجتماعية والإنسانية الحديثة وتطبيقاتها في ميدان العلاقات الدولية ليست القطيعة التي تميز العلاقة بين العرب والغرب سوى التعبير عن صراع المصالح المادية والاستراتيجية. وربما وجد من يعتقد، أكثر من ذلك، بأن غياب المقدرة على التوصل إلى تفاهم حول المصالح القومية العليا، كما يحصل عادة بين القوى والتكتلات السياسية، يرجع إلى إسرائيل والمكانة التي تحتلها في نظام العلاقات الغربية، ومساعيها للإيقاع بين

العرب والغرب. وعلى جميع الأحوال كان العرب ولا يزال قسم كبير منهم يعتقد أن مشكلة إسرائيل والقضية الفلسطينية المرتبطة بها، هما أحد أهم عوامل التأزم في العلاقات العربية الغربية، وأن حل المسألة الفلسطينية وتحقيق السلام في المنطقة يشكل مدخلاً مهماً لتجاوز الأزمة وبناء علاقات تعاون وشراكة حقيقية مع الغرب. وبالمقابل، وانسجاماً مع تطور المدارس الأنثروبولوجية الحديثة بدأت تنتشر في العالم الغربي، ثم في ما بعد في البلاد العربية نفسها، مقاربة ثقافوية تركز على أهمية اختلاف الثقافة والهوية في بناء العلاقات الاجتماعية والدولية، وتنزع إلى النظر إلى المجتمعات العربية على أنها تمثل حالة خاصة، تختلف عن غيرها من الحالات القومية، ولا تنطبق عليها مناهج العلوم الاجتماعية المعروفة، وهو ما أطلق عليه اسم «الاستثناء العربي». فللعرب من هذا المنظور مناحي تطور خاصة لا تتفق مع ما عرف حتى الآن من مناحي تطور المجتمعات الحديثة.

تتغذى فكرة «الاستثناء العربي» من الشعور المتنامي عند الرأي العام الغربي بأن المجتمعات الإسلامية لا تتطور في الاتجاه الصحيح أو العام الذي يسيطر على اتجاه تطور البلاد الأخرى، ولذلك فهي تبدو وكأنها تسير عكس اتجاه التاريخ. فهي لا تزال تتمسك بالعنف وتمارسه كوسيلة لتحقيق أهداف سياسية وفلسفية، وتعود إلى الاستثمار المبالغ فيه في الدين في ما يتعلق بتنظيم الحياة الاجتماعية والدولية، وترفض الاعتراف بالتعددية والاختلاف، ولا تثق بالمعرفة العلمية كسبيل لفهم الواقع أو بلوغ المعرفة الموضوعية، وتنمي الاستبداد والطغيان، وتغيب عن حياتها العمومية كل أنواع الحريات المدنية والسياسية، وتستمر على السلوك حسب منظومات القيم والأعراف التقليدية، وترفض الاعتراف بقيم السلام والمساواة والأخوة الإنسانية، وتمارس التمييز بين الرجل والمرأة والأنا والآخر، ولا تشعر بالحاجة إلى التفاعل مع القيم العصرية، إنها باختصار تسير في عكس طريق الحداثة التي سارت عليه ولا تزال بقية الشعوب.

وهذا ما ينعكس على تعاملها مع الشعوب الأخرى، ورفضها منطق الحوار والاحتكام للقانون وبناء العلاقات الدولية على أسس التعاون والمصالح المتبادلة، وتبني بعض أعضائها أو قطاعات رأيها العام الأكثر تطرفاً استراتيجيات إرهابية

تستهدف استقرار المجتمعات الغربية وحرياتها وازدهارها. وهذا ما يثير الخوف والقلق عند هذه المجتمعات الغربية ويدفعها بالمقابل إلى اتخاذ مواقف وإجراءات تعكس هذا الخوف وتصب في ما اصطلح على تسميته بالإسلاموفوبيا أو عقدة الخوف من الإسلام.

هكذا يميل الغربيون اليوم إلى الاعتقاد، ليس على صعيد الرأي العام العادي فحسب، وإنما على صعيد البحث الاجتماعي أيضاً، بأن السبب الرئيسي لغياب إمكانية التفاهم مع العرب هو تناقض الثقافة العربية وفي مقدمتها الإسلام - نواتها الدينية - مع الثقافة الغربية السائدة. وهذا ما عبرت عنه أفضل تعبير، منذ نهايات القرن الماضي، نظرية «صدام الثقافات» أو «الحضارات» التي أطلقها «صاموئيل هنتنغتون»، والتي حظيت بانتشار لا مثيل له، ليس في الغرب فحسب، وإنما في العالم أجمع وفي البلاد العربية والإسلامية أيضاً.

ومع تراجع مكانة الأيديولوجيات العصرانية «القومانية واليسارية» بدأت الأطروحات السياسية والاجتماعية تنحسر في العالم العربي أيضاً لصالح هذه الأطروحات الثقافوية التي تركز على تعارض الثقافات ومنظومات القيم والنماذج الحضارية. وتتفق هذه الأطروحات مع الأيديولوجيات الإسلاموية السائدة اليوم، والتي تؤكد على الاختلاف الحضاري، من خلال تركيزها على خصوصية الثقافة أو الحضارة العربية، ومراهنتها على العودة إلى الأصول بوصفها الاستراتيجية الوحيدة الناجعة لمقاومة نزعة الاستلاب للغرب، والتحرر من سيطرته الثقافية والسياسية، وبناء المقاومات القوية القادرة على مواجهته والتصدي لسياساته العدوانية. وتكاد هذه الحركات تكون الأكثر استهلاكاً لأطروحات صدام الحضارات، واستلهاماً لها في سياساتها وممارستها اليومية. فأهم ما يهدف إليه الغرب من سياساته العدوانية وسيطرته على العالم العربي والإسلامي يكمن - في نظرها - في محاربة الهوية العربية الإسلامية، ونزع الشخصية، من أجل استرجاع الشرق إلى الأملاك الغربية، كما كانت تهدف الحروب الصليبية. فلا ينبع العداء للعرب من مطامع جزئية أو من صراع على مصالح مادية أو استراتيجية وإنما من رهانات كلية، تتعلق بالوجود نفسه، أي الوجود الحضاري. ولذلك فهي لا ترى الأزمة من منظار الحاضر

والنزاعات المرتبطة به، وإنما تنظر إليه كاستمرار لصراع حضاري طويل، بدأ مع نشوء الإسلام، ولا يزال مستمراً إلى اليوم، مروراً بالحروب الصليبية، ثم الحروب الاستعمارية، واليوم حروب فلسطين والعراق والسودان والصومال وغيرها من الحروب التي أشعلها الغرب ولا يزال يغذيها في أكثر من بلد عربي أو إسلامي.

ينجم عن ذلك أن الصدام مع الغرب والصراع معه هو قانون تاريخي لا فكاك منه. وأن المقاومة والممانعة هي الطريق الوحيد للحفاظ على الهوية والسيادة والحقوق التاريخية، وطريق التحرر من الاستلاب الثقافي والسياسي والتبعية الاقتصادية والعودة إلى الحلول الأصيلة المستمدة من ثقافة المسلمين ودينهم وتقاليدهم. فالصراع السياسي القائم بين العرب والغرب يخفي في نظر التيارات الإسلامية السائدة، كما هو الحال في الغرب، صراع وجود بين ثقافتين ودينين، أوهذا معنى الصراع بين حضارتين. وهو بالتالي صراع مفتوح على الزمان والمكان، من دون حدود، بمقدار ما أن الحضارات تجسد تشكيلات جيوثقافية ثابتة تتجاوز التاريخ، وتعبر الحدود الجغرافية لتؤسس لأنماط حياة وتفكير وأذواق ومشاعر متباينة هنا وهناك.

ومن الطبيعي أن يؤدي اللقاء حول فكرة صدام الحضارات وصراع الأديان بين الطرفين الغربي والعربي إلى تفاقم الأزمة واستفحال القطيعة. فهي تقدم لهما أيديولوجية جديدة تغذي الشعور بأن الصراع القائم بين العرب والغرب ليس صراعاً مؤقتاً ولا عابراً، ولا يتعلق بمصالح محددة يمكن حصرها وتعيينها، وبالتالي التفاوض من حولها، وإنما هو صراع دائم، يدور من حول الوجود بأكمله بمقدار ما يمس الهوية، أي الدين والثقافة والقيم الخصوصية والذاتية. ومن هنا لم يعد الصراع خياراً من بين خيارات عدة، وإنما أصبح أمراً مفروضاً، وبالتالي واجباً لا يمكن تجاوزه ولا الالتفاف عليه. من هنا كان لا بد أن يلتقي أصحاب عقيدة صدام الحضارات على استنتاج مشترك وهو حتمية الحرب والجهاد. فكما يبين صاموئيل هينتغتون هدفه بوضوح في نظريته عن صدام الحضارات، وهو أن يعرف الغرب أن الحرب مع عالم الإسلام حرب حتمية لا يمكن تجنبها ولا بد من الإعداد لها منذ الآن، لا يخفي أصحاب عقيدة الجهاد من السلفيين المحافظين بأن الجهاد

واجب ديني، لا اختياراً سياسياً، وأن القيام به هو جزء من العقيدة، وفريضة بقيت غائبة لفترة طويلة ولا بد من إحيائها والعمل بها حماية للمسلمين ودفاعاً عن دينهم وعقيدتهم، وتحقيقاً للوعد الإلهي بالنصر. فالصراع بين الغرب والعرب المسلمين مطبوع في بنية التاريخ ومنطقه العميق، وجزء من مفهوم الغرب والشرق الإسلامي والعربي وعلاقتهما الأبدية، لا يمكن أن ينفصل عنهما.

في منظور هذه القراءة التاريخية، تبدو الأمور مفهومة وواضحة وبسيطة. ولا تطرح أي مشكلة على البحث الاجتماعي. فالصراع يقدم نفسه منذ البداية على أنه بديهة عقلية. الغرب غرب والشرق شرق ولا يمكن أن يلتقيا. بالعكس، إن تصور نمط آخر من العلاقات بين الغرب والشرق هو الذي يطرح في هذه الحالة مشكلة، لأنه لا يجد أساساً يقوم عليه، بعد أن بين التاريخ في الماضي والحاضر، وجود هذه العلاقة العدائية واستمرارها. وهذا هو انطباع الإنسان العادي الذي يميل إلى التعميم السريع وينزع إلى تبني التفسيرات الجاهزة.

بيد أن هذا ليس موقف الباحث العلمي الذي لا يؤخذ بالمظاهر السطحية، ولا يبني موقفه على تعميم الملاحظات الجزئية أو التفسيرات البسيطة أو المبسطة التي تحل التناقضات والنقائص في المعرفة التاريخية بتعديد الأمثلة التاريخية. بالعكس تبدو هذه القطيعة العميقة التي يعيشها العرب على مستوى وعي العلاقة مع الغرب استثنائية من نواح عديدة؛ لأنها مناقضة للوقائع المادية ولمنطق التاريخ في الوقت نفسه. من هنا تطرح إشكالية التأويل العلمي، ليس من حيث هي إعادة قراءة الوقائع وتأويلها، وإنما لما تحمله من مخاطر الخلط بين تفسير التاريخ وتبريره بذريعة إيجاد الاتساق والانسجام غير الموجود أصلاً فيه. وهذا ما يحصل عادة عندما يخفق المؤرخ في إدراك الطابع الاستثنائي وأحياناً المركب والمفارق للظواهر التي يسعى إلى تفسيرها.

فأين يكمن العادي، أي التاريخي، الذي ينسجم مع منطق التاريخ وقوانينه العادية، في هذا الصراع بين العرب والغرب، في تطور العالم العربي، وأين يشكل هذا التطور، بالعكس، ظاهرة استثنائية تتجاوز السياقات التاريخية ومنطق العلاقات الدولية العادية، وبالتالي تظل مستعصية على الفهم وخارجة عن نطاق

السيطرة والتغيير والتبديل ؟ أين يكمن الصراع الذي لا مهرب منه والمتعلق بالدفاع عن الهوية والوجود وأين يكمن الصراع الذي يدور حول موارد ومواقع ومكتسبات، ويمكن أن تحصل من حوله تسوية تاريخية؟ في الإجابة على هذه الأسئلة تتحدد إمكانية أو عدم إمكانية الخروج من الصراع أو تقييده وإصلاح العلاقات العربية الغربية أو تحسين للتواصل بين الجماعتين.

سأحاول أن أبيّن نطاق عمل القراءتين، تلك التي تركز على الصراع بين حضارتين في سبيل الحفاظ على شخصيتهما وكيانهما، وتتجاوز الحيثيات التاريخية، وهي التي تنبع من رؤية خصوصوية، وتلك التي تنظر إلى الصراع من زاوية النزاع على موارد ومكاسب مادية أو استراتيجية، وترتبط بسياقات تاريخية، وترتبط برؤية كونوية تخضع فيها الحوادث والعلاقات بين الجماعات لقوانين أو قواعد واحدة. وليس هناك في نظري ما يدعو إلى أن تنفي واحدتهما الأخرى. لكن حتى يستقيم ذلك ينبغي من جهة إعادة النظر في مفهوم الحضارة والحضارات، والنظر إليه من زاوية مختلفة ونسبية معاً، بحيث لا يبقى تعبيراً عن هوية أو ماهية ثابتة وإنما عن نزوع وميل لا ينفصلان هما أنفسهما عما يطرأ في التاريخ العالمي من تحولات وتبدلات تؤثر في الهوية والثقافة وتعيد توجيههما. وبالمثل لا ينبغي النظر إلى الصراع التاريخي على أنه مجرد طمع في الموارد وسطو على ثروات الآخرين أو تحسين مواقع استراتيجية وتبّؤ سدة السيادة العالمية، وإنما ينبغي وضع هذا الصراع في سياق صراعات المدى الطويل المرتبطة لا محالة بالتباينات الثقافية.

3 - العرب والغرب: الأفكار الشائعة والواقع

تثبت الدراسة التاريخية المتأنية للعلاقات بين العالمين أن النزاع الذي اتخذ حسب الحقب أشكالاً مختلفة، عسكرية ودينية وسياسية واستراتيجية، لم يكن صراعاً دائماً على طول التاريخ. وإنه حتى عندما كانت العلاقات نزاعية استمر التفاعل والتبادل والتواصل والتأثر والتأثير المتبادلان مستمراً ونشيطاً بينهما. فالحروب بالتعريف مؤقتة لا يمكن أن تشغل تاريخ العلاقات بين الجماعات والأمم. وإذا كان العداء السمة الغالبة على العلاقة بينها في هذه الفترة أو تلك، فالتعاون أو

التبادل هو السمة الغالبة في حقبة أخرى. كما أن الحرب والصراع عموماً لا يمنعان من استمرار التعاون والتفاعل والتبادل بين الثقافات والشعوب، وهو ما نعيشه كل يوم من دون أن ندركه أو نعيه. فالعداء لا يغير الوقائع التاريخية العميقة ولا يمنع الإعجاب بالخصم أحياناً وتقدير خصائصه ومنجزاته وفنونه، بل والاعتراف بتفوقها أو بأسبقيتها. ومن هنا لا يشكل العداء إلا جزءاً من الصورة، أما الجزء الثاني فهو الاندراج في الغرب والالتحاق العملي به.

ولذلك، بعكس ما تشيعه الأيديولوجية السائدة في الغرب والشرق معاً، أي أيديولوجية المحافظة الجديدة والسلفية الإسلامية، لم يكن العالم العربي أقرب إلى الغرب مما هو عليه اليوم، في أنماط تفكيره واستهلاكه وتحالفاته الاستراتيجية والسياسية. ولا ينبغي للشعور الساحق بالعداء للغرب وسياساته، وهو حقيقة قائمة، أن يمنعنا من ملاحظة سيطرة الليبرالية وقيمها، ولو كان ذلك في صورتها الأكثر انحطاطاً وابتذالاً، في ميدان الحياة العملية، في الاقتصاد والسياسة والمجتمع، وفي المعارضة والدولة على حد سواء. ولا تشكل السلفية الدينية إلا آلية دفاعية، أو حجاباً، يجنبنا مواجهة الحقيقة المرة، أعني تناقض الممارسة والواقع مع المبادئ والأفكار والالتزامات الأخلاقية. وهو ما يعبر عنه أفضل تعبير وضع القضية الفلسطينية، حيث يتم استعمار فلسطين الثاني وانتزاعها من أيدي العرب، في ظل سيطرة خطاب جهادي لم يعرفه العالم العربي في أي حقبة سابقة.

وتأويل ذلك أن منطق الحياة اليومية وزمانيتها لا يتطابقان مع منطق الصراعات الجيوستراتيجية بل الاستراتيجية الكبرى وزمانيتها. إذ إن النزاع على السيطرة، أو مقاومة الخضوع والاستسلام والهيمنة، لا يقضيان على الحاجة إلى تأمين متطلبات الحياة اليومية، حسب ما يقتضيه العصر، وعلى ضوء قيمه ورمزياته، ولا يشكلان بالتالي وبالضرورة، الانشغال الدائم للجماعات والأفراد، لا في الشمال ولا في الجنوب. فمنطق الصراعات الجوستراتيجية يعمل في الخفاء وعلى مدى طويل، ولا يدخل في حسابات الناس الذين يعيشون حياتهم بشكل طبيعي، ويخضعون في تفكيرهم لمنطق سد حاجاتهم اليومية الضاغطة. ولم تمنع الصراعات الجوستراتيجية العميقة من نشوء أسواق مشتركة، وتبادل السلع، بل

ونسج علاقات صداقة وزواج حميمية بين شعوب ضفتي المتوسط، حتى في أحلك ظروف الحرب والقتال، كما يدل على ذلك تاريخ العلاقات بين المسلمين وسكان الممالك الصليبية في القرون الوسطى.

وهذا ما ينطبق أيضاً على وضعنا الحالي. فلا يمنع العداء المتبادل بين العرب والغربيين عموماً تبادل المصالح والمنافع، ولا استيراد السلع من الغرب وتصدير السلع العربية للغربيين. وأكثر من ذلك لم يمنع الصراع بين العرب والاسرائيليين، وهو صراع ثقافي وسياسي وعسكري استراتيجي، نعيشه يومياً وبشكل حي، بعكس الصراعات الجيوسياسية التاريخية، من أن يعيش العرب بأغلبهم حياتهم الطبيعية، ويتبادلون في كل الميادين مع الدول التي تدعم إسرائيل علناً، بل يوقعون معاهدات دفاعية معها، في الوقت الذي لم تتوقف المعارك في داخل فلسطين ومن حولها، ولا تزال حركة الاستيطان الاستعماري في اتساع مستمر. بل لم يمنع العداء العميق والقطيعة الكاملة النفسية والثقافية والسياسية والاقتصادية التي نشأت بين العرب وإسرائيل منذ قيامها عام 1948 من إقامة بعض الدول العربية علاقات دبلوماسية مع تل أبيب وفتح سفارات لها، واستقبال قادتها وزعمائها. وليس للتأثر بالغرب علاقة ضرورية بالتنكر للهوية، ولا للعداء له بالضرورة علاقة بالوطنية. ولا ينبغي علينا أن نطابق ببساطة بين المواقف النظرية التي يتخذها البعض، وما يجري في الممارسة العملية. فالعداء للغرب لا يمنع بالضرورة من الخضوع له والتكيف مع سيطرته، تماماً كما أن التعلق بثقافة الغرب أو الدفاع عن الإيجابي منها لا يحكم على أصحابهما بالعمالة للغرب أو الخضوع لأوامره. بل من الممكن القول إنه في ما وراء المواقف المختلفة والمتمايزة، تفرض الوقائع أنماطاً من العلاقة غالباً ما تكون مخالفة للموقف النظري أو الشعور السائد. فتثمين النهضويين والإصلاحيين العرب والمسلمين للتراث العلمي والتقني والأدبي والفني للغرب قد دفعهم إلى النشاط والاجتهاد من أجل بناء ثقافة عربية حديثة مستقلة عن الغرب ومناظرة له. وطور لديهم شعوراً بالندية يكمن في أساس النهضة الفكرية والأدبية التي لا نزال نرجع إليها في مشاريع تطوير حداثتنا الثقافية. وبالمثل، لم يمنع الأخذ بمفاهيم الدولة والسياسة والوطنية القوميين والليبراليين العرب والمسلمين في القرن الماضي من





بذل الجهود لاقتلاع جذور الاستعمار والعمل ضده. فقد كان ذلك شرطاً للنجاح في إقامة دول مستقلة وذات سيادة وتبني نظم التعددية والديمقراطية لإضفاء الشرعية القانونية عليها. ومن دون التمسك بمفاهيم الحداثة السياسية ما كان من الممكن تصور مشروع دولة وطنية ديمقراطية وتعددية تستمد سلطتها من الشعب، وإنما عودة إلى الصيغة التقليدية السلطانية، بما يفترضه ذلك من صراع لا ينتهي بين القوى المتنازعة على إقامتها والسيطرة عليها وإخضاعها لحاجات الهيمنة الدينية. وبالعكس، تشهد الحقبة الراهنة، التي تسود فيها نظرة الرفض الشامل لثقافة الغرب وحضارته وسياساته الاستعمارية معاً، خضوع العالم العربي والإسلامي بشكل لم يسبق له مثيل للغرب وتبعيته له، في اقتصاده وأمنه وعلمه وتقنيته وأدبه وثقافته أيضاً، وانتشاراً واسعاً لأنماط المعيشة الغربية، من استهلاك ونماذج تسلية وترفيه ومناهج تربية ولغات يتجاوز تداولها أكثر فأكثر ميدان التعليم الخاص أو العالي ليدخل في صميم العلاقات العائلية والرسمية. ولم يعرف العالم العربي فترة كان فيها الاعتماد قوياً على الغرب في ضمان الأمن والاستقرار في المنطقة كما هو عليه اليوم، ولا كان الاعتماد المتبادل في الاقتصاد والمال مثل ما هو عليه في الحاضر. ولم يكن النزوع إلى نقل حضارة الغرب ومؤسساته العلمية والفنية ومراكز أبحاثه أكبر في العالم العربي مما هو عليه الآن، حتى أصبح هناك بالفعل خطر على التعليم الرسمي الجامعي أمام منافسة فروع الجامعات الأجنبية، بل على استمرار اللغة العربية كلغة للمعرفة العلمية والبحث. وتدرج سياسات العولمة الاقتصادات العربية بشكل سريع في الاقتصاد الدولي والغربي منه بشكل خاص فتحل الشركات الصناعية والتجارية الكبرى في المحل الأول من بين الشركات العاملة في بلداننا بينما ينمو حجم استثماراتنا في الخارج ليصل إلى أكثر من 2 تريليون دولار قبل الأزمة المالية العالمية التي أبرزت هي نفسها درجة ارتباطنا بالغرب أيضاً وبمنظومته المالية.

وكما أن نخبنا السياسية لا تجد مفراً من وضع نفسها بصورة مباشرة أو غير مباشرة في حماية الدول الكبرى الغربية للاحتفاظ بسلطانها والاستمرار في السيطرة على مقاليد أمور شعوبها، لا تجد معارضاتنا من معين لها ولا كفيل سوى

تلك الدول نفسها أو بعض المنظمات والقوى السياسية والمدنية التابعة لها. باختصار نحن نرفض الغرب ونكرهه أكثر مما كنا نفعل في أي حقبة سابقة، ونعتمد عليه ونقلده ونحذو حذوه ونتعبد إلهه كما لم نفعل في أي وقت مضى.

وبالمثل، لا يمكن لمفهوم صراع الحضارات أو الثقافات أو الأديان أن يقدم أي نظرية جدية في تفسير العلاقات التاريخية بين الأمم والجماعات. فهو ينفي منذ البدء وحدة الإنسانية التي تشكل القطب الثاني الذي يعمل مع الخصوصية والتفرد والتعدد في بناءِ أي جدلية تاريخية. كما يجعل من البشر رهائن حضاراتهم، وهي تركيبات نفسية وثقافية تبدو وكأنها آلية حتمية تتحكم بهم، وتوجههم من دون علم منهم، وتقرر في مكانهم اختياراتهم الأساسية.

ويكفي الخروج من مثال المواجهة العربية الغربية، والانطلاق في تحليل العلاقات بين ما يسمى الحضارة العربية والهندية والصينية حتى يدرك المرء خطأ هذه المقاربة القائمة على افتراض حتمية صراع الحضارات نتيجة اختلافها، بل على افتراض وجود مثل هذه الحضارات المستقلة والقائمة بذاتها التي تحبس المجتمعات في تاريخهم الخاص وتحرمهم من إمكانية التفاعل مع منتجات الحضارات الأخرى وفهم قيمها وآدابها.

وأكبر برهان على خطأ هذه المقاربة ما نلاحظه من انعدام أي عداء أو شعور بالعداء بين ما يسمى بالحضارة العربية وهذه الحضارات الآسيوية أو الروسية أو الأفريقية اليوم، وهذا ما لم يكن سائداً في الحقبة القرسطوية عندما كانت آسيا تتعرض لضغوط قوية، سياسية ودينية، من عالم الإسلام. وبالمثل لم يكن عداء العرب والمسلمين منصباً على الغرب في نهاية الحقبة العثمانية. بل لقد تطلع العرب إلى التحالف الاستراتيجي مع الغرب في مواجهة الاضطهاد والظلم الذين بدؤوا يشعرون بهما بعد انحسار قوة السلطنة العثمانية ودخولها في عملية تحول إلى امبرطورية استعمارية.

4 - أزمة العلاقات العربية الغربية بين صراع المصالح وصراع القيم؟

غير صحيح إذن ما تعيشه عقيدة المواجهة في الغرب من أن الثقافة العربية

والإسلامية المعاصرة ثقافة تقليدية وقرسطوية غير قادرة على استيعاب قيم الحداثة المرتبطة بالعقل والحرية والحياة المدنية والسعادة الأرضية. وغير صحيح أيضاً ما تغذيه عقيدة المواجهة ذاتها في العالم العربي من أن الحداثة بضاعة غربية وأن الانخراط فيها يعني حتماً الاستسلام للهيمنة الأجنبية والتبعية وفقدان السيادة والاستقلالية الروحية.

أصل النزاع بين الأمم جميعاً، وداخل كل منها أيضا، الصراع على المصالح. وهو أمر موضوعي وطبيعي، والاعتراف به هو أساس تقدم النظم المدنية. وليس هناك أي شك في أن هناك العديد من المصالح المتضاربة بين العرب والغربيين: الهيمنة على المنطقة المتوسطية الحساسة استراتيجياً، التحكم بمصادر الطاقة الرئيسية المتوفرة للاستخدام والتجارة في عالم اليوم، الموقف من حل المسألة اليهودية ومكانة إسرائيل في الشرق الأوسط وحدود توسعها ودورها فيه، الاستثمارات الثقافية والتجارية والاقتصادية المختلفة إلخ. ما هو غير طبيعي ومفهوم بالمقابل هو تحول هذا النزاع إلى مواجهة شاملة، إن لم يكن إلى قطيعة ترافقها هجمات وحروب وتدخلات عسكرية مستمرة..

من أين يأتي هذا النزوع إلى تعميم المواجهة وتعميق القطيعة النفسية والثقافية والسياسية والعسكرية بين عالم العرب وعالم الغرب المعاصرين؟ بالتأكيد ليس من الصراع على المصالح الذي هو قاعدة العلاقات الدولية اليوم، وإنما من السعي إلى التغطية على هذه المصالح ذاتها، وطمسها، إما لأن الاطراف المعنية تشعر بأنها مصالح غير طبيعية أو مبالغ فيها أو غير مشروعة «الاستعمار الاستيطاني كما هو الحال في فلسطين اليوم، التلاعب بمصير الدول وسيادتها، المس بسيادة الدول ومصائر الشعوب وحياة أبنائها، التضحية بالشعوب أو بجزء منها أحياناً كحروب التطهير العرقية، إلخ» أو لأن احترامها لا يتحقق إلا باستخدام وسائل لا مشروعة «الإرهاب، العنف بكل أشكاله، المادية والمعنوية، السكوت على الانتهاكات الخطيرة لحقوق الإنسان في الاستيطان وطرد السكان أو في اضطهاد الأقليات».

وليس لنظرية صراع الحضارات سوى وظيفة واحدة هي خلط الأوراق وطمس طبيعة المصالح المادية والاستراتيجية المتنازع عليها، وإغراقها في مصلحة مطلقة

ومجردة لا يمكن النقاش حولها ولا التنازل فيها، ولا مجال لحفظها إلا القتال، كما هو الحال في مسألة الهوية. ففي صراع الحضارات، فإن الطرفين، الغرب وعالم الإسلام، لديهم الحق نفسه في الدفاع عن هويتهما، أي في تبرير جميع أشكال العنف والخداع والتشويش وتشويه صورة الآخر، طالما تحولت المسألة إلى مسألة حياة أو موت للحضارة والهوية نفسيهما.

حرب الحضارات تعني إذن خلط الأوراق وقلب الوقائع ومعاني الأحداث بحيث لا يعرف أحد أو لا يستطيع أحد من الجمهور البسيط أن يميز المصالح الشرعية من المصالح غير الشرعية، وحيث يغطي النزاع على الرموز، مثل الحجاب والصورة الكاريكاتورية والمقال والتصريح والكلمة الجارحة، النزاعات الحقيقية والواقعية على مصالح استراتيجية واقتصادية وسياسية لا يريد أحد الكشف عنها أو تعريضها للنقاش والمساءلة.

هكذا تستخدم النخب الغربية استراتيجية خلط الأوراق فتوهم بأن سبب النزاع ومسببه عنف الثقافة العربية أو ثقافة العنف التي ترفض الآخر وتحاربه، حتى تحرف النظر عن السياسات غير الأخلاقية وغير القانونية التي تطبقها في الشرق، سواء في ما يتعلق بالدعم اللامشروط لمشروع الاستيطان والاستعمار الاستيطاني في الأراضي الفلسطينية، أو في ما يتعلق بالإبقاء على علاقات الهيمنة الاستراتيجية والسياسية والاقتصادية التي تفرضها على بلدان المنطقة، بذريعة الحفاظ على مصالح حيوية، أو استراتيجية، أو محاربة الإرهاب وضمان الأمن. وبتشويشها على صراع المصالح هذا تأمل النخب الغربية في تبرير سياساتها غير المشروعة تجاه رأيها العام أولاً والرأي العام العالمي ثانياً. وتعتقد أنها تضمن بذلك استمرار نفوذها في منطقة حساسة جيواستراتيجيا. ويلوح معظمها بالخطر الإسلامي والإرهابي الشامل والحتمي ليجعل من المشروع استخدام وسائل تدينها مبادئ نظامها الفكري والسياسي نفسه، أي انتهاك سيادة الشعوب والتضحية بها، والتدخل الدائم في الشؤون الخاصة لدول المنطقة، واستتباعها والتلاعب بمصيرها ورأيها العام ودعم لنظمها الاستبدادية. ولأنها لا تزال ترفض الاعتراف بالعرب كمحاور أصيل وكفؤ وشرعي، فهي لا تقبل التفاوض معهم على ما تعتبره مصالحها

الحيوية والاستراتيجية، وتفضل النظر إليهم من زاوية البنى العشائرية والطائفية والعائلية البدائية. وبمقدار ما تنجح النخب الغربية في تعميم صورة عن العرب تحرمهم فيها من سمات الأمم والشعوب والمجتمعات المنظمة العادية والطبيعية، تضفي على سياستها هذه سمة السياسة العقلانية والشرعية معاً. فهي حتى عندما تدرك أنها تدافع عن مصالح وامتيازات غير قانونية وبوسائل لا شرعية أو على حدود الشرعية، لا تجد ما تلوم نفسها عليه، طالما أنها تعتبر أن ما تنتزعه منها هي مصالح لا تستحقها الشعوب المحلية، وربما لا تعرف قيمتها. تبدو السياسات الغربية في هذه الحالة وكأنها عندما تدافع عن مواقع وامتيازات تتنافى مع المبادئ الأخلاقية والأعراف الدولية المرعية، فهي لا تنتهك حقوق أي أمة سيدة، ولكنها تتقاسم المنافع مع فئات وأشخاص وملوك وسلاطين انتزعوها هم أنفسهم من شعوبهم. وفي هذه المناسبة يلعب خطاب الاستثناء العربي، وتعارض الثقافة العربية والدين الإسلامي مع الديمقراطية ليرسخ هذا الاعتقاد وغياب الشعور بالذنب أو الملامة على اختراق العرف وتجاوز قواعد الأخلاق. والواقع أن هذا هو المنطق ذاته الذي تبرر به النخب الإسرائيلية مشروع استيطان الأراضي الفلسطينية. فهي تنفي عن سيطرتها على الأراضي صفة الاحتلال بذريعة أنه لم تكن هناك دولة فلسطينية مستقلة عندما أخذتها عام 1967، فقد كانت أراض محتلة من مصر والأردن، وبالتالي فهي تستوطن أراضي لا مالك لها. ويذكرنا هذا أيضاً بفكرة شعب بلا أرض لأرض بلا شعب. وبالرغم من أن أكثر من نصف قرن من المقاومة والفداء، لا تزال النخبة الإسرائيلية تعتقد أن الشعب الفلسطيني هو اختراع عربي لإحراج إسرائيل، وأنه لا وجود له، وبالتالي فليس للأفراد الذين لا ينتمون بهذا المنطق لأي شعب، حق في أن يكونوا أسياداً على أرض. باختصار إن تحقير الثقافة العربية والإسلامية وتسويد صفحتها يهدف إلى حرمان الشعوب التي تنتمي إليها من أهليتها الإنسانية، او على الأقل من الحق في الندية، ويبرر استخدام المعايير المزدوجة إزاءه إن لم يضعف الشرعية على سرقة موارده. والذين يتحدثون دائماً عن مصالح حيوية تخصهم في الشرق الأوسط لا يخطئون ولو مرة واحدة ويتحدثون عن المصالح الحيوية لشعوب المنطقة نفسها في السلام والأمن والتنمية والاحترام

والكرامة والحرية والحقوق الإنسانية. الاستثناء الثقافي العربي هو إذن أفضل وسيلة لاستثناء العربي من الثقافة بما هي حقوق وحريات ومبادئ ومعايير إنسانية.

ولسبب مماثل تلقفت النخب العربية بسرعة البرق نظرية صراع الحضارات نفسها. فهي تفيدها في التغطية على مسؤولياتها في أخطر قضيتين تعاني منهما الشعوب العربية. الأولى فشلها المريع في النهوض ببلادها والدخول بها في القرن العشرين، أعني تحديثها اقتصادياً وسياسياً وثقافياً، وتركها في حالة يرثى لها، بما يتضمن ذلك من خسارة معركة التحرر التي أطلقنا عليها، في منتصف القرن العشرين، اسم التحرر الوطني، وبناء أسس حياة سياسية واجتماعية واقتصادية وطنية سليمة ومرضية. والثانية إضفاء الشرعية على نظم حكم تنتمي للقرون الوسطى بكل معنى الكلمة، وتعامل الشعوب كرعايا لا يملكون حقاً ولا أهلية، وفي السياق نفسه تبرير تأييد هذه النظم والفئات الحاكمة في السلطة وتأليه رجالها وزعمائها، وفي بعض الحالات رفعهم إلى مستوى الألوهية. تقدم شيطنة الغرب وإدانة ثقافته باللاإنسانية والعداء الطبيعي والحتمي للعرب وسيلة للتهرب من المسؤولية وتوجيه التهمة في ما وصلت إليه الأوضاع العربية إلى عدو خارجي وحشي لا يرحم ولا يخضع في سلوكه لأي معيار منطقي أو أخلاقي. وهذا ما يضمنه التوحيد المطلق بين ثقافة الغرب وسياسة حكامه ويحوله إلى كارثة طبيعية أو شبه طبيعية لا يمكن لا لسياسة ولا لغيرها التفاهم معها أو الحد من شرها.

يخدم تشويه صورة الغرب في نظر الرأي العام العربي وألبسته تسويد فكرة العرب الضحية. فهم، شعوباً ومسؤولين، ضحية مشتركة وواحدة لسياسات عدوانية ومجرمة. وأمام هذا التحدي فوق الطبيعي وغير العادي الذي يحول الجميع إلى ضحية، لا يبقى هناك فرق بين حاكم ومحكوم. فالنخب ضحية مثلها مثل الشعوب. وهذا أفضل وسيلة للتغطية على المسؤولية الذاتية، أي على تقصير النخب وعجزها عن الارتفاع إلى مستوى المواجهة التي كان يتطلبها التحرر من السيطرة الغربية. والنخب التي أخفقت في فهم شروط المواجهة وتأمين وسائل النجاح فيها هي التي تعمم هذه النظرية المؤامراتية عن الغرب وخداعه. فهي تضع الأخلاق موضع السياسة حتى تقطع الطريق على نقد هذه السياسة ومن ورائها على واجب تغيير

المسؤولين عنها، وبالتالي التحويل السياسي. وهذا ما يفسر أن الهجوم على الغرب وتغذية العداء له يترافق هنا مع الهجوم على الديمقراطية وفكرة التغيير السياسي بل حتى على قيم حقوق الإنسان ومبادئ العدالة والمساواة المدنية.

من هنا يمكن القول إن المأزق الذي وصلت إليه العلاقات العربية الغربية بجعلها الصراع صراعاً على الثقافة والقيم بدل الصراع على المصالح، وبالتالي لا يحسم إلا بتغيير أحد الأطراف لمنظومة قيمه، سواء أكان ذلك بضرب قلعة الكفر في الغرب وفي أمريكا بالذات أو قلعة الظلام والفاشية والشمولية الوحيدة الباقية في العالم العربي والإسلامي وتغيير نظرة المسلمين للدين والعقيدة والسياسة والعلم، أي تغيير ثقافتهم، هو ثمرة التقاء خوفين كبيرين: خوف النخب الغربية التي تعيش حالة انحسار واضح للهيمنة في المنطقة على ضياع مصالح استثنائية ورثتها من موقعها السابق كقوة استعمارية أو شبه استعمارية وحرصها على حمايتها من أي تهديد، وبأية وسائل، بما في ذلك التحايل على القانون أو انتهاكه، وخوف النخب العربية على مواقعها السياسية والاجتماعية بعد الإخفاق الكبير الذي عرفته في مشروعها الوطني والتحرري، ورغبتها في تخليد حكمها وسيطرتها بوسائل لا قانونية. وهذا الخوف الذي يوحد بينهما هو الذي يوحد أيضا فكرهما ويجعلهما يشاركان في عقيدة صراع الثقافات والذوات نفسها. فلا يعادل فكرة الاستثناء العربي التي يرعاها الغرب سوى فكرة الخصوصية الحضارية التي تستخدمها النظم العربية لتبرير رفضها أي تحولات ديمقراطية تسمح بتوسيع هامش الحريات واحترام الحقوق المدنية لمواطنيها. فوراء القطيعة المتزايد والمصطنعة إلى حد كبير بين الشعوب وثقافاتها يكمن إذن التحالف الموضوعي العميق، وأحيانا الذاتي والواعي بين نظامين آفلين للسيطرة الداخلية والخارجية. وكلاهما يدرك أنه لم يعد يستطيع البقاء من دون تعليق القانون وتجاوز السياسة ووضع العالم والشعوب تحت إشراف قانون طوارئ وأحكام عرفية دائمين. وكلاهما يبرر سياساته اللاإنسانية بالتأكيد على تخلف الشعوب وافتقارها لمعاني الحرية والسيادة والحقوق، وبالتالي استحقاقها للمعاملة الإنسانية العادية. وكلاهما يؤكد على أن جوهر هذه الخصوصية وتلك الاستثنائية يكمن في دين من طبيعة خاصة، يتقدم حيث تتراجع الأديان ويخلط بين الروحي

والزمني حيث تفصل الأديان. من هنا التركيز المتزايد على الإسلام كعلة أولية أو علة العلل. فهو الذي يغذي في نظر هؤلاء جميعاً، بسبب تجمده المفترض، وقرسطويته وتخلفه ورفضه الحداثة والعلمانية والعقل والحرية. التعصب والأصولية والعنف، ويبرر بالتالي، الحرب على الإرهاب، أي المعاملة الاستثنائية للشعوب العربية، بما في ذلك فكرة التدخل العسكري والضغط المباشر والتلاعب بالسيادات والمصالح والمصير، بل إملاء شروط التغيير، كما يبرر استمرار النظم الاستبدادية ورفض التحويل الديمقراطي الذي سيكون وسيلة لانتصار الإسلام الأصولي المتخلف في نظر النخب الفاسدة الحاكمة في العالم العربي.

هكذا نكتشف في النتيجة أن العلاقات العربية الغربية بالرغم مما يشاع ويكتب عن أزمتها، ليست قطيعة نهائية ولا شاملة ولا حقيقية أيضاً. فلم تكن التبادلات المادية والرمزية بين العالمين أكثر اتساعاً وكثافة في أي حقبة سابقة مما هي عليه الآن. ولم تكن التبعية أكثر وضوحاً، في الأمن والسياسة والاقتصاد والسياسة والثقافة والتقنية والعلم، أكثر قوة كما هي اليوم، ولا التفاهم بين النخب العربية الحاكمة بل والمثقفة والغرب أفضل مما هو عليه في هذه الحقبة النزاعية. بل إن القطيعة ليست هي نفسها سوى سياسة تهدف إلى إخفاء جذور هذا التحالف والتضامن الموضوعي بين النخبتين، من أجل حمايته وتعزيزه، وهو التحالف الذي يعني من وراء هذه القطيعة الشاغلة للشعوب، أن النظام العربي الاستثنائي القائم ليس في حقيقة الأمر سوى جزءاً من النظام الغربي أو نظام السيطرة الاستثنائية العالمي. وأن النزاع العميق الذي يغلي تحت الأرض بين الشعوب المتلاعب بمخيالها هنا وهناك، والتي أصبحت تكره بعضها بعضاً إلى حد أصبح الحديث فيه عن الكراهية المتبادلة جزءاً من أدبيات الحقبة، هو وقود التحالف القائم وأساسه.

في هذه الحالة كيف وأين يكمن الحل ؟

أولاً في مراجعة سياسات الحكومات الغربية المستهترة بحقوق الشعوب العربية، والطامحة إلى تخليد نموذج من السيطرة شبه الاستعمارية في المنطقة، لم يعد من الممكن الحفاظ عليه من دون تكاليف معنوية وسياسية بالغة

وخطيرة النتائج. وثانياً مراجعة أساليب الحكم السياسي المحلي، ووضع حد لنظام السيطرة بالقوة وتخليد الحكم الاستثنائي والعرفي الداخلي، والعمل من أجل تحويل ديمقراطي يعيد الحياة المدنية والسياسية في المجتمعات العربية إلى إطارها الطبيعي، ويقيمها على مبدأ الاختيار والمسؤولية لدى الحاكمين والمحكومين معاً، والكف عن استخدام صورة الضحية أو الكارثة الطبيعية والحتمية للتغطية على الإخفاقات الوطنية.

وأساس هذه المراجعة الفصل الواضح، عند الجمهور العربي، ومثقفي التغيير، بين الحداثة والغرب، أو إذا شئنا تحرير فكرة الحداثة من ممارساتها وتجسداتها في المجتمعات الغربية في شكل نظم وسياسات استعمارية. فالحداثة شيء والاستعمار والسيطرة التي هي قانون العلاقات الدولية منذ القدم، قبل الحداثة وبعدها، شيء آخر. ولا يزال النظام الدولي يحتاج إلى إصلاح حتى من وجهة نظر الحداثة ذاتها، لأن مبادئ الحداثة بقيت بعيدة عنه وليس العكس.

وأساسها أيضاً، عند الجمهور والرأي العام الغربيين، الفصل بالمثل بين الإسلام، من حيث هو دين وثقافة وتقاليد خاصة بشعوب عديدة، وبين المسلمين والعرب كتشكيلات تاريخية وكنظم اجتماعية وسياسية. العنف لا يأتي من الإسلام ولكن من تأويل المسلمين للإسلام في سياق ظروف خاصة، لا يمكن فصلها عن الظروف التي يضعهم النظام العالمي فيها، وبشكل خاص ظروف السيطرة الغربية وتحدي السيادة وإرادة التحرر والتقدم والبناء الوطني والقومي والإنساني.

ليس لاختلاف الثقافات إذن ذنب في تفجير الحروب الدولية. وليست القطيعة حتمية ولا المواجهة ضرورية للحفاظ على أي هوية. بالعكس إن التعاون والتضامن والتكافل بين الشعوب والثقافات هو اليوم شرط الحفاظ على حضارة تعددية وعولمية بامتياز ■

المحاضرة بتاريخ 3/ 5 / 2010

المحاضر:

أ. د. محمد يوسف حسن بني ياس

عميد كلية الطب والصحة بجامعة الإمارات.

عنوان المحاضرة:

أهمية العلاج بالأدوية في إدارة الألم

سيرة ذاتية

- حاصل على الدكتوراه في علوم الصيدلة من جامعة اليرموك سنة 1988 والدكتوراه في الطب من جامعة ويلز سنة 1992.
- نائب مدير جامعة الإمارات للعلوم الطبية.
- عميد كلية الطب والصحة بجامعة الإمارات.
- ترتكز اهتمامات البروفيسور بني ياس البحثية على المجالات التالية:

الدراسة الوبائية للأدوية.
التفاعل العكسي للدواء.
التربية الصحية.
سمية المعادن الثقيلة.
علم الأدوية العصبية.

• نشر العديد من البحوث والمقالات العلمية في مجال التسمم وعلم الأدوية وتأثيرات العقاقير، وغيرها.



أهمية العلاج بالأدوية في إدارة الألم

يجمع الجميع على أن المغزى الشامل من الحياة هو الحد قدر الإمكان من المعاناة والألم. حتى رجال السياسة عندما يتحدثون عن السلام فإنهم يقولون بأنهم يرغبون في الحد من معاناة البشر وإحلال السلام. الأمر نفسه ينطبق على الوسط الطبي حيث يسعى الأخصائيون إلى الحد من معاناة المريض حتى لا يشعر بدنه بالألم، والحد من معاناته النفسية حتى لا يشعر عقله بألم الإجهاد النفسي. تلكم هي أهداف الطب. وفي هذا الصدد يقول الحكماء في حديثهم عن الألم إن الشخص الذي يعاني من وطأة الألم يعد أكثر خطورة من الموت نفسه.

ويعد الألم عاملاً مهماً في حياة الإنسان حيث بمجرد شعور المرء بأي شكل من أشكال الألم يبدأ في البحث عن سبل الحد منه وعلاجه. فهو بمثابة أداة إنذار تخبر الجسد أن هناك خطباً ما يستوجب إيلاؤه الاهتمام اللازم من طرف الشخص المعني أو الطبيب.

لكن لو رجعنا إلى أصل مصطلح «الألم» ومعناه في اللغة اللاتينية نجد أنه يشتق من كلمة «عقاب» الإغريقية . لذلك نفهم أن الألم عبارة عن إنذار على خضوع البدن لنوع من «العقاب». ولنتخيل أن جرس إنذار ظل يرن لفترة ممتدة في قاعة تغص بالأشخاص، هل يمكنهم الاستمرار في التواصل والعمل والنقاش؟ طبعاً لا.. ما لم يتم أولاً إغلاق هذا الإنذار. لذلك يعد الألم جرس إنذار جيد ومفيد يعلمنا بضرورة التدخل لإصلاح الخلل سواءً كان بدنياً أو نفسياً.

وهنا تجدر الإشارة إلى نقطة هامة ألا وهي أن يكون هناك أي أثر بدني للألم بينما يكون المصدر الرئيسي لهذه المعاناة هو الدماغ. لذا يتوجب على الطبيب احترام المريض والوثوق فيه حتى في غياب الإشارات الجسدية للألم لديه، لأنه قد تكون

هناك عناصر وعوامل أخرى مسببة للألم لم يكتشفها الطب بعد وأخرى تسترعي نوعاً مختلفاً من الفحص.

ويعد الألم كذلك بمثابة آلية للنقل، حيث لدى الجسم مستقبلات وأنسجة مبرمجة خصيصاً لتلقي مسببات الألم ونقل المعلومة في شكل إشارات كهربائية إلى الدماغ، وبدوره يقوم الدماغ بإرجاع المعلومة إلى الجسم في شكل إنذار يخبره بالعمل على تجنب المصدر المسبب للإزعاج واتخاذ التدابير الضرورية لإزاحة الألم. وتوضح الصورة كيف تنتقل المعلومة من الخلايا العصبية «المستقبلات» في النسيج المتضرر إلى الدماغ عن طريق الحبل الشوكي لتعود مجدداً لتحفيز البدن على القيام بردة فعل.

وعندما يستقبل الجسم الإنذار من الدماغ يقوم بثلاثة أمور : أولها المحاولة قدر الإمكان للابتعاد عن مصدر الألم، ثانياً تخزين المعلومة الخاصة بمصدر الألم ذاك في الدماغ حتى يتسنى للجسد التعرف على العامل المسبب للألم «حرارة، كهرباء، آلة حادة، إلخ» في المستقبل وتجنب معاناته من الألم مرة أخرى.

ثالثاً يخلق نوعاً من ردة الفعل النفسية بحيث يصبح الشخص المعني قلقاً وفي حالة انزعاج من الألم.

هناك نظرية حول الألم في الجسد تدعى بـ «نظرية البوابة» وهي أن الألم كي يصل إلى الدماغ ينبغي عليه عبور عدد من البوابات من بينها بوابة الحبل الشوكي وبوابة الدماغ على سبيل المثال. ومن ناحية أخرى تنتشر عبر جسد الإنسان مرسلات تسمى مرسلات عصبية، وهي تشبه المحولات أو المضخمات الكهربائية، حيث أنه بمجرد انطلاق الإشارة العصبية من موضع هامشي في الجسد في اتجاه الدماغ تقوم «محطات» أو مرسلات عصبية -وهي عبارة عن مواد كيميائية- بتضخيم نبضة الإشارة للمساعدة على وصولها للدماغ وإطلاعه بشأن الألم الذي حدث على مستوى الموضع الهامشي.

ومن المهم إجراء تقييم صحيح للألم لأنه في حال أغفلنا ذلك نكون قد فشلنا في تشخيص أمراض محتملة. فمثلاً في حال عدم تمحيصنا عن أسباب حدوث صداع قد نكون فوتنا تشخيص سرطان أو ارتفاع في ضغط الدم على سبيل المثال. والأمر نفسه ينطبق على الآلام على مستوى الصدر والتي قد تنذر باحتمال حدوث نوبة قلبية.


المركز الثقافي الإعلامي



لذلك من الضروري التحري بشأن نوع الألم ومصدره ومدى حدته وقدرة المريض على تحمله والعوامل المخففة أو المفاقمة للألم وما إذا كان للمريض سجل سابق غيرها من الإشارات الأخرى التي تكون حاسمة في تحديد العلة و طريقة علاجها.

إن الألم شيء موضوعي وشخصي في الوقت ذاته. ومعنى ذلك أن الألم يرتبط بالإحساس الجسدي وبالمشاعر في آن واحد، بحيث نجد بعض الأشخاص يبدون قدرة على تحمل درجة من الألم لا يقدر البعض الآخر على تحملها. بل إنه في بعض الثقافات – الإفريقية منها كالسودان مثلاً – من العار على المرء البوح بشعور الألم، و بدل ذلك يفضل تحمل الألم لأقصى درجة ممكنة.

لذا تختلف درجة تحمل الألم بين الأشخاص وفقاً لعدة اعتبارات، وهنا يأتي دور الطبيب المعالج لكي يجري تقييماً دقيقاً لهذا الألم و يدعو المريض إلى المساعدة في هذا التقييم عن طريق تحديد درجة وحدة الألم الذي يشعر به على سلم درجات رقمية «مثلاً من واحد إلى عشرة»، ومتابعة مدى تحسن الحالة أو تدهورها خلال الأيام التالية. لذا يعد الألم عنصراً مهماً في تشخيص الأمراض. إلا أنه في حالات عديدة، حتى بعد اكتمال عملية التشخيص، يستعصي على الأطباء إيجاد علاج للمرض «مثل السرطان وغيره» وسط معاناة المريض من الألم المترتب عنه. وهنا يأتي دور مفهوم إدارة الألم، بحيث يتم وضع برنامج معين وفق الحالة للتخفيف من آلام المريض عبر الأدوية المستخدمة لهذا الغرض.

الأدوية المستخدمة في إدارة الألم:

تنقسم الأدوية المستخدمة في إدارة الألم إلى عدة مجموعات من بينها الأدوية المضادة للالتهاب غير ستيرويدنية، أدوية التخدير الموضعي، المسكنات الأفيونية، الأدوية المضادة للاكتئاب، الأدوية المضادة للصرع، الأدوية المضادة للهيستامين.

المهدئات العصبية:

الأدوية المضادة للالتهاب لا ستيرويدية

هذه الفئة من الأدوية شائعة الاستعمال وتشمل الباراسيتامول، الأسبيرين،

البروفين، فولتارين، تايلينول، حمض ميفيناميك، إيبوبروفين، فينبروفين، كيتوبروفين، نابروكسين، دولفينال.

وتقوم هذه الأدوية بتخفيض الحرارة وتخفيف الألم والالتهاب. وطبعاً يختلف مفعولها بين دواء وآخر، فالبانادول «باراسيتامول» على سبيل المثال يعتبر الأفضل على مستوى خفض الحرارة، كما أن الأسبيرين يتميز بفاعلية أكبر على مستوى الحد من ألم العضلات، في حين أن الإيبوبروفين يصلح لكلا الحالتين. هذه فئة جيدة من الأدوية وهي آمنة ولا تسبب الإدمان. غير أن هناك مشكلين يرتبطان بهذا النوع من الأدوية: أولاً أنها لاتصلح إلا لحالات الألم الخفيف إلى المعتدل وتكون غير فاعلة في حالات الألم القوي والحاد. ثانياً ليس هناك من دواء آمن 100 %، هذه الأدوية يمكن أن تصبح خطيرة للغاية وتكون لها آثار جانبية في حال تم تناولها بشكل مفرط ومستمر. فالبانادول على سبيل المثال لا يبدو ضاراً لكنه في حال مزجه مع الكحول يصبح قاتلاً وإذا ما أفرط في استعماله يمكن أن يتسبب في تسمم الكبد. الأمر نفسه ينطبق على عقار ديكلوفيناك الذي يسبب تسمم في الكليتين عند تناوله بشكل مطول «أكثر من ستة أشهر».

أدوية التخدير الموضعي

هذه الأدوية يستخدمها الأشخاص الذين يزاولون الرياضة في حالات الإصابة، كما يستخدمها أطباء الأسنان والجراحون.

وهي تقوم بمنع العصب في مكان الإصابة من إرسال الإشارة إلى الدماغ، وذلك عن طريق تخدير المكان. وأول مخدر تم استخدامه لهذ الأغراض تم استخلاصه من النباتات، ويتعلق الأمر بالكوكايين الخطير والفتاك.

إلا أنه تم تطوير أدوية لها نفس التأثير وبشكل آمن من بينها: البوبيفاكايين، البروكايين، تيتتراكايين، الليدوكايين، بينزوكايين، ليدوكايين، كسايلوكايين وأخرى تنتمي لنفس الفئة. وهي كلها أدوية مستخدمة للاستخدام الموضعي تأتي في شكل مستحضرات أو كريمات أو بخاخات.

لكن في حال تم تناول هذه العقاقير فإن أضرارها تكون وخيمة وتسبب الهلاك.

فمثلاً في حال تجرع شخص ما محلولاً يحوي عقار كسايلوكايين فإن نبضات القلب تبدأ بالتسارع و تعمل على نحو غير منتظم قبل أن يتوقف القلب عن العمل. والأمر نفسه يحصل على مستوى الدماغ إذ سوف يصاب بنوع من النشاط المفرط قبل أن يتعرض لنوبة صرعية وينهار هو الآخر. لهذا هذه الأدوية لا ينصح بتناولها. بل حتى عند وضع هذه الأدوية على الجلد يجب استخدام كميات قليلة.

المسكنات الأفيونية «Opioids»

هذه العقاقير يتم استخلاصها إما من نبتة الأفيون مباشرة أو يتم صنعها كيميائياً في المختبر، في كلا الحالتين لها مفعول مسكن للألم. وتتمثل إحدى أعراضها الجانبية في إبطاء عمل الدماغ والتسبب في النعاس. لكن المشكل الأكبر المرتبط بها هو إدمان الجسم عليها بحيث يطلب المزيد منها على نحو متواصل. وهنا تبرز المعضلة التالية: في حال كان المريض يعاني من السرطان ويئن من وطأة الألم هل نعطيه مخدر المورفين المسبب للإدمان والفعال في هذه الحالة أم نفكر في تجنيبه الإدمان؟ الجواب هنا هو أن الإدمان ليس أولوية طبية في هذه الحالة، الأهم هو التخفيف على المريض وخصوصاً في حالات الألم الحاد المرتبطة بأمراض مزمنة أو مستعصية.

الأدوية المضادة للاكتئاب

سبق وأشرنا ألى أن الألم معاناة ترتبط بالإحساس الجسدي وبالمشاعر في آن واحد لدى المريض. وهنا لا بد أن نشير إلى أن الألم النفسي كذلك يستدعي نوعاً من العلاج، خصوصاً وأن هنالك نوعين من الأمراض النفسية المرتبطة بالألم بشكل وثيق وهي القلق والاكتئاب. ففي الحالة الأولى يطور المريض دون أن يدري نوعاً من الشعور خلال معاناته من ألم ألمّ به جراء حادث مثلاً «كسر في الرِّجل على سبيل المثال». فخلال عملية علاج الألم الجسدي «الكسر» لا يعلم المريض أنه يعاني كذلك من مشكل آخر ألا وهو القلق، الأمر الذي يستدعي إخضاعه لعلاج موازٍ للجزء النفسي للألم.

أما النوع الثاني من الأمراض النفسية فيرتبط بحالات الألم المزمن. فالأشخاص الذين يعانون من آلام طيلة سنوات مثلاً دون وجود سبيل للتخلص منها ينتهي

بهم المطاف إلى الشعور بالاكتئاب والدخول في حلقة مفرغة يتفاعل فيها الألم مع الاكتئاب لدرجة لا نعرف فيها أيهما يسبب الآخر: الألم أم الاكتئاب؟ وهنا يأتي دور الأدوية المضادة للاكتئاب التي تكون فعالة سواء في الحد من الألم أو علاج الاضطرابات النفسية.

ولقد أظهرت أبحاث أجراها زملاء بريطانيون، على رأسهم الدكتور أليكس غراي، بأن مضادات الاكتئاب لها فاعلية كبيرة في التخفيف من شعور الاكتئاب وفي نفس الوقت مساعدة المرضى على التعامل بشكل أفضل مع الألم والحد منه. لهذا السبب بات الأطباء يستخدمون العديد من الأدوية المضادة للاكتئاب لعلاج الصداع، وآلام السكري، وآلام أسفل الظهر، فضلاً عن آلام السرطان والتهاب المفاصل. لكن يجب تناول هذه الأدوية بحذر شديد لأن أية جرعة زائدة تكون لها آثار خطيرة « مثل انسداد الأوعية القلبية، وحدوث نوبة مرضية، وانخفاض ضغط الدم».

الأدوية المضادة للصرع

الفئة الأخرى من الأدوية المستخدمة في علاج الألم وتحديداً آلام الأمراض العصبية هي الأدوية المضادة للصرع. وتستخدم في معالجة الصرع والنوبات المرضية والعصبية. أحد أفضل الأمثلة في هذا الصدد هو عقار جابابنتين أو نوروتين الذي طُور في الأساس لعلاج الصرع والنوبات المرضية، لكن الأطباء اكتشفوا أنه فعال كذلك في الحد من آلام مرضى السكري. ومن بين الأدوية الأخرى ضمن هذه الفئة نجد: الفينيتون، وكاربامازيبباين «شائع الاستخدام»، وفالبورات وفيجاباترين.

الأدوية المضادة للهيستامين

هذه الأدوية تساعد على الاسترخاء والنوم ولها مفعول مسكن. وتستخدم عادة في حالات الإصابة بالبرد أو الحساسية. وتؤخذ مع المستحضرات الأفيونية والعقاقير المضادة للالتهاب لاستيرويدية. وهي نوعان: مضادات الهيستامين التي تؤثر على البدن دون الوصول إلى الدماغ، ومضادات الهيستامين التي تصل إلى الدماغ وتبطىء عمله قليلاً.

وعموماً تساعد هذه الفئة من العقاقير المريض على الهدوء والاسترخاء والنوم

جيداً. وتوجد ضمن هذه المجموعة عقاقير مثل: هيدروكسيزين «المفيد في الحد من آلام السرطان والآلام الحادة عموماً والصداع العصبي وآلام الظهر الخفيفة»، وفينيلتولوكسامين «الصداع»، وأورفينادرين «مرخي للأعصاب يستخدم في حالات آلام ما بعد العمليات الجراحية وآلام الظهر الخفيفة».

المهدئات العصبية

يعتقد العديد من الناس أن المهدئات العصبية تخفف الألم لكنها في الواقع ليست كذلك بل تستخدم لتهدئة أعصاب المريض. وأهم دواء لتهدئة الأعصاب هو فينوثيازينس غير أنه لم يتم إثبات فعاليته في التسكين بشكل جيد.

هناك أيضاً عقار بروميثازين الذي ينفع عند تناوله مع أدوية أخرى في التسكين. ثم الميثوتريميبرازين الذي يتمتع ببعض خواص التسكين ويؤخذ لعلاج آلام مرض السرطان وآلام ما بعد العمليات الجراحية والآلام المزمنة. غير أن المشكل مع هذه الأدوية أنها تسبب الإدمان، وعند أخذها بجرعات كبيرة فإنها قد تتسبب في الغيبوبة والموت أحياناً. لذا وجب أخذها تحت مراقبة الطبيب.

وأخيراً سوف نتطرق إلى بعض الحالات المرضية التي ينجم عنها الألم والأدوية التي يمكن استخدامها في علاج هذه الحالات والحد من الألم:

1 - الحالة المرضية

رجل يبلغ من العمر 45 عاماً يعاني من آلام مستعصية ومزمنة أسفل الظهر دامت لـ 10 سنوات: أصيب في ظهره في حادثة عمل وأجرى عمليتين لاستئصال الصفيحة الفقرية وعلاج انصهار العمود الفقري. ويقول الجراحون أنه ليس هناك ما يمكن القيام به. وكشف التشخيص عن وجود التهاب على مستوى عنكبوتية النخاع.

فما هو العلاج الأنسب في هذه الحالة؟

التعليق:

استخدام المسكنات الأفيونية لن يكون ذا جدوى في هذه الحالة. المريض هنا خضع

لعدة عمليات جراحية؛ ولهذا نعطيه أدوية استيرويدية توفر له تخدير موضعي مثل حقن ستيرويد ديكساميتازون، فضلاً على مضادات التشنّجات ومضادات الاكتئاب. وقد يحتاج المريض كذلك إلى جلسات علاج فيزيائي من قبيل الوخز بالإبر على الطريقة الصينية.

2 - الحالة المرضية

سيدة تبلغ من العمر 55 عاماً تعاني من سرطان ثدي إنبثاثي «منتشر». وتعاني أيضاً من آلام حادة في مناطق عديدة فضلاً عن قلة النوم والفتور.

من ضمن الأدوية التي تتناولها: المورفين «30جم» مرتين في اليوم والتيمازيبام «20 ملغ» ليلاً، إلى جانب التاموكسيفين «20 ملغ» يومياً.

ما السبيل الأنسب لإدارة آلامها؟

التعليق:

طريقة العلاج المفصلة في هذه الحالة ليست جيدة. حيث إن كمية المورفين التي تعطى لها ليست كافية في مثل هذه الحالات التي يكون فيها الألم شديداً للغاية. كما أن كل الآلام قد لا تكون ناتجة عن السرطان وحده.

ويبدو أن الأدوية الأفيونية المستخدمة ليست كافية، وتحتاج المريضة إلى أدوية تساعد كذلك على معالجة الغثيان والإعياء. الملاحظة الأخرى هي أنه في مثل هذه الحالات يجب إعطاء المريض مضادات الاكتئاب مراعاةً لحاجاته العاطفية والروحية، خصوصاً وأنه قد لا ينجو في هذه الحالة المرضية وبذلك يحتاج إلى دعم معنوي أو روحي للتخلص من الاكتئاب الذي يشعر به.

3 - الحالة المرضية

سيدة تبلغ من العمر 78 عاماً تعاني من آلام حادة على مستوى الجزء العلوي من وجهها. قبل ثلاثة أشهر تعرضت لنوبة من القوباء المنطقية «Shingles» أصاب هذه المنطقة من وجهها، وهو مرض فيروسي أكثر سوءاً من إنفلونزا الخنازير «H1N1». المعالجة الأولية تضمنت دواء اسايكلوفير وباراسيتامول للتخلص من الفيروس، متبوعين

بجرعات من الستيرويدات طوال فترة قصيرة. وبعد زوال الطفح لا تزال المريضة تعاني من آلام حارقة تأتي بشكل متقطع في شكل وخزات حادة.

كيف يتعين معالجة هذا الألم؟

التعليق:

هنا يجب إعطاء الأولوية لتخفيف الألم عن المريضة. كما يتعين إخضاعها لتخدير موضعي لتعطيل الأعصاب الحركية الجسدية «somatic nerves» والأعصاب الودية «sympathetic nerves». ويتعين إعطاؤها أدوية مضادة للتشنُّجات مثل: Valproate Carbamazepine وGabapentin ومضادات الاكتئاب مثل: Amitriptyline وDesipramine. هذا مع الإشارة إلى أن بعض المرضى لا يستجيبون جيداً لمثل هذا العلاج.

إدارة الألم – الشق القانوني

قضية كارولاينا الشمالية الشهيرة في 1993 «جيمس ضد مؤسسة هيلهافن» رجل مسن يعاني من سرطان البروستاتا وانبثاثات للعمود الفقري وعظم الفخذ الأيسر وصف الطبيب اليكسير مورفين 7.5 مج كل ثلاث ساعات ذكرت الممرضة أن المريض أدمن المورفين ورفضت إعطاءه المسكّن مات المريض وهو يتألم آلاماً مبرحة وشاهد أفراد أسرته معاناته أمامهم أمرت المحكمة بتعويض قدره 15 مليون دولار يدفع للأسرة.

إدارة الألم – الشق الأخلاقي

لتفادي الوقوع في مأزق أخلاقي هناك عدد من القيم والفضائل التي يجب احترامها وأخذها بعين الاعتبار في المجال الطبي وخصوصاً في مجال إدارة الألم، وهي:

- التصرف من منطلق الإحسان:

يجب توفير الرعاية لأن ذلك يعطي نتائج طيبة لدى المريض.

- عدم المخالفة:

تفادي التسبب في أي ضرر وعدم حجب العلاج على المريض.

- العدالة:

ضرورة إدارة آلام جميع المرضى بغض النظر عن انتماءاتهم.
- الاستقلالية:
ضرورة احترام قيم المريض وخياراته بشأن الخضوع للعلاج.
مع التذكير أن الهدف من التطبيب هو معالجة الألم بطريقة جيدة وتخفيف المعاناة.

إدارة الألم: الاتجاه الجديد

رغم توفر المركبات الدوائية للآلام الحادة والمزمنة، لا يزال هذا العلاج غير كاف. وهذا الواقع يكون مصحوباً بالآثار السلبية لمثل هذا العلاج على حياة المرضى، إلى تشريعات إدارة الألم. وقد التزمت اللجنة المشتركة لاعتماد منظمات الرعاية الصحية «JCAHO» بتصنيف مدى جودة جميع مرافق الرعاية الصحية في تقدير وعلاج الألم.

وتؤكد التعليمات الجديدة على مسؤولية الأطباء في علاج الألم بكل الوسائل. وفي الواقع فإن الفشل في علاج أو إدارة ألم المريض يعد عملاً غير أخلاقي سواء من وجهة النظر الخيرة أو تلك المرتبطة بعدم المخالفة. وعلاوةً على ذلك فقد صدرت أحكام قانونية جديدة لتعطي دفعةً في اتجاه توفير إدارة الألم بطريقة كافية.

وبناء على ذلك بات من المهم إطلاع مديري الألم على أحدث الإجراءات الأخلاقية والقانونية في هذا المجال إضافةً إلى تقديم لمحة عامة لإدارة الألم السليمة بما في ذلك الوسائل والمركبات المتعددة المتاحة لهم.

وفي الختام أود إنهاء هذه المحاضرة بالمقولة التالية للفيلسوف الفرنسي مشيل دو مونتينيّ: الشيء الذي يجعلنا نعاني من الألم بهذا القدر من نفاذ الصبر هو أننا لسنا معتادين على الشعور بالرضى تجاه روحنا .«Michel De Montaigne» ■

المحاضرة بتاريخ 17/ 5/ 2010

المحاضر :

سعيد الكفراوي

كاتب قصة مصري

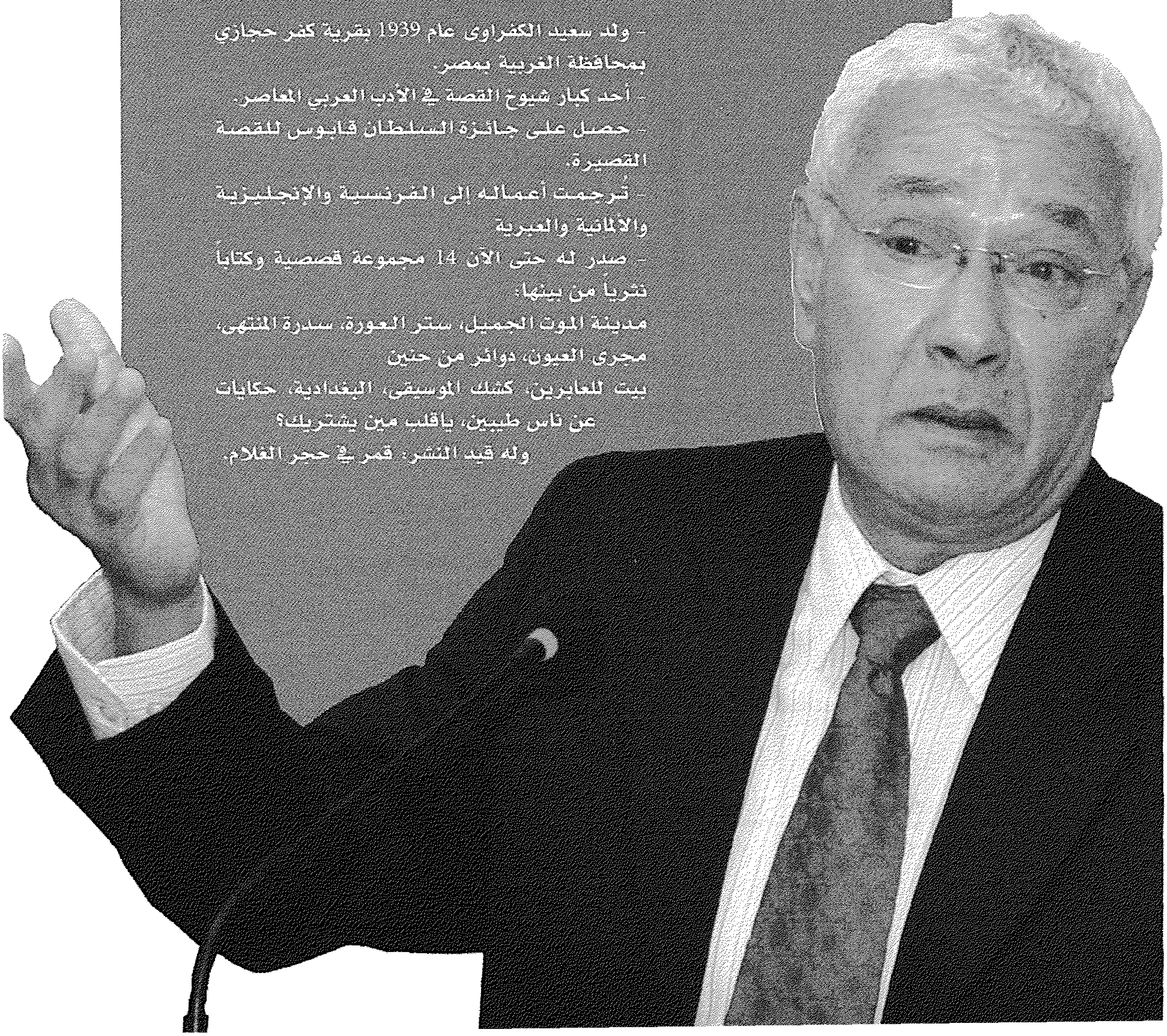
عنوان المحاضرة:

القصة القصيرة في واقع متغير

سيرة ذاتية

- ولد سعيد الكفراوى عام 1939 بقرية كفر حجازي بمحافظة الغربية بمصر.
- أحد كبار شيوخ القصة في الأدب العربي المعاصر.
- حصل على جائزة السلطان قابوس للقصة القصيرة.
- تُرجمت أعماله إلى الفرنسية والإنجليزية والألمانية والعبرية
- صدر له حتى الآن 14 مجموعة قصصية وكتاباً نثرياً من بينها:

مدينة الموت الجميل، ستر العورة، سدرة المنتهى، مجرى العيون، دوائر من حنين
بيت للعابرين، كشك الموسيقى، البغدادية، حكايات عن ناس طيبين، ياقلب مين يشتريك؟
وله قيد النشر: قمر في حجر الغلام.



القصة القصيرة في واقع متغير

أنا كاتب قصة، كل جيل يغادر القصة إلى الرواية التي أصبح لها زمن ولها أفق، أنا أنتمي لجيل اسمه جيل الستينيات، وهو الجيل الذي نشأ حول نجيب محفوظ على «مقهى ريش»، خرجنا أوائل الستينيات من قرانا وجئنا إلى القاهرة، لنجد رجلاً يجلس على القهوة، هو الأستاذ نجيب محفوظ، فالتففنا حوله. لقد تعرفنا على الروّاد في شبابنا الأول أمثال؛ يحيى حقي، ونجيب محفوظ، وبعض الرموز التي كانت في ذلك الزمن، أتذكر أننا كنا حوالي عشرين كاتباً يكتبون القصة القصيرة، لم يكن من بيننا روائي، يعني صنع الله إبراهيم لم يكن قد كتب رواية «تلك الرائعة»، كنا نأتي بالقصة مخطوطة، ونعطيها للأستاذ نجيب محفوظ بالمقهى ليأخذها. في الشتاء كان يأتي كل يوم جمعة، وفي الصيف كان يأتي كل يوم، يأتي قارئاً للنص ومكوناً رأياً فيه ويطلق أحكامه على شاكلة بأن هذه القصة رمزية، وهذه القصة واقعية وهكذا. كان نجيب محفوظ - رحمه الله - يتمتع بسماحة وتواضع ونال جائزة نوبل في الأدب.

أتذكر أنني جئت من القرية عام 1964 - 1965، وذهبت إلى مجلة «المجلة» التي كان يرأس تحريرها – آنذاك- الأستاذ يحيى حقي، ويحيي حقي هو من هو، مؤسس حقيقي لعلم الأسلوب واللغة وصاحب قصص وروايات عظيمة. دخلت عليه بالمكتب وأنا في مقتبل العمر، وقلت له: صباح الخير يا أستاذ يحيي، فقال لي: صباح الخير يا ابني، قلت له أنا معي قصة وأريد نشرها في مجلة «المجلة «، قال: في مجلة «المجلة» لماذا يا كفراوي هل هي نشرة سرية؟ قلت له بمظهري المتواضع و«الغلبان»: نعم، فقال لي: هل تعرف من يكتب فيها، فقلت له يكتب فيها الشيخ شاكر، ولويس عوض، وادوارد الخراط، وأساطين الكتابة في ذلك الوقت. نهض يحيى حقي من كرسيه، وقال لي: تعال يا كفراوي، وأخذني إلى شرفة مجلة «المجلة» وقال لي: إقرأ يا كفراوي، جلست

وقرأت القصة، مرة أخرى قال لي: إقرأ مرة أخرى يا كفراوي، قرأت القصة، قال لي: يا ابني هناك سكرتير يجلس عند الباب، اترك عنده القصة. آخر الشهر وجدت القصة منشورة في مجلة «المجلة» بمباركة وتقديم منه. ذلك هو الجيل، بعد 15 سنة قابلت الأستاذ يحيى حقي وزوجته الفرنسية في المركز الثقافي الفرنسي في القاهرة ولم أكن رأيته، وبمجرد ما رآني، قال لي: هل تتذكر يا كفراوي لمّا كنت تأتي لمجلة «المجلة» ومعك القصص، وتمشى بعض الشيء ثم قال لي: كانت أيام جميلة يا كفراوي.

هذا الجيل الذي أعطى للثقافة المصرية النوع، والموضوع، والرؤية، وأسس فنون الحداثة في وطننا العربي. كان أكثر أجيال مصر ليبرالية وتواضعاً. لقد اعتقلت بسبب قصة قصيرة، فعندما كان عفيفي مطر الشاعر يصدر مجلة اسمها «سنابل»، نشرت قصة اسمها «المهرة »، عن مهرة يركبها الأخ الكبير ولا يتركها لأخيه الصغير إلى أن استطاع الصغير أن يركب المهرة، فجلده لأنه ركب المهرة، فسّر النص على أن المهرة هي مصر، والأخ الكبير هو عبد الناصر، والأخ الصغير الشباب الذي يحلم بالمستقبل واعتقلت ستة أشهر. هناك تم التحقيق معي بأنني من الإخوان المسلمين، وجماعة أخرى تحقق معي بالليل باعتباري «ماركسي»، كان نجيب محفوظ جالساً في القهوة وقلت له ما حدث معي بالمعتقل بالكامل، فقال لي اقطع هذه المرحلة من حياتك، وبعد ثلاثة أشهر صدرت «الكرنك»، قال لي: يا كفراوي، أنت إسماعيل الشيخ، وعُرفت هذه المعلومة، وعلم بها المثقفون، وقد لعب هذه الشخص في الفيلم الفنان نور الشريف.

القصة القصيرة كانت بنت الستينيات، وعندما أطلق صديقنا جابر عصفور، مقولة «الزمن زمن الرواية»، كانت صرخة أضرت بهذا الفن. أنا في الحقيقة كتبت شهادة حول القصة القصيرة، أريد أن نتشارك ونقرأ جزءاً كبيراً من هذه الشهادة.

القصة القصيرة في واقع متغير باعتبارها الشكل الأمثل للسرد

في عقيدة هذا الكاتب، وفي إيمانه: أن الفنون جميعها ومن بينها الأدب، بطبيعة الحال، هي الوسائط التي من خلالها يحقق الإنسان شغفه بالحقائق القديمة التي ما تزال صالحة لإثارة الدهشة، والتي تساعده على ممارسة وجوده الإنساني عبر استخدامه لخياله ليفتح نافذة يطل من خلالها على مستقبله.

لقد اختار الإنسان فعل الكتابة لأنه يسعى من خلاله لامتلاك حريته، وتحقيق بعضاً



من شوقه إلى العدل والجمال ، وأنه بحاجة للتعبير عن تلك الجماعة التي ينتمي إليها والتي بالضرورة – في واقع قائم على الاحتمالات – تعيش أزمتها الإنسانية .

رحم الله «خورخي لويس بورخيس» «Jorge Luis Borges 1899 - 1986»، رجل الأدب الذي جعل مصيره مما هيأ لإبداعه، بل إنه من حلم بالفردوس وتخيله على هيئة مكتبة شاسعة، وأمضى عمره حتى رحيله سيداً للسرد، وحكيماً لأحكام النصوص. في مقدمة أحد كتبه تخيل «بورخيس» رجلاً اقترح على نفسه مهمة رسم العالم. وخلال سنوات طويلة من عمره أثث الفضاء بصورة الأقاليم والممالك والجبال والخلجان والسفن والأسماك والمنازل والأدوات والكواكب والخيول والأشخاص. وقبل أن يقضي نحبه بقليل اكتشف الرجل أن متاهة الخطوط التي دأب زمناً على رسمها إنما كانت ترسم صورة وجهه هو.

يحيلك «بورخيس» لنصه السحري الذي يجسده وعي حاد بالتفرد، يرى أن الإنسان هو آخر الأمر الرمز والدلالة والمعنى، وبالتالي فإن نص الكاتب هو جوهر وجوده.

يصف «بليز باسكال» العظيم«Blaise Pascal 1662- 1623» صوت القصة القصيرة، فيقول: «إن الصمت الأبدي لهذه الآماد اللانهائية يرعبني». وهي آخر الأمر نبوءة نواجه من خلالها أهوال الحياة والموت. وأنا أحد ضحايا هذا الفن الذي يحمل صوت الأبدية، والصوت الخفي لكاتبها.

لقد شاعت في الفترة الأخيرة مصطلحات التعريف الناجزة، المنجَزة على أن الزمن قدّم نفسه باعتباره زمناً للرواية، وعلى بقيّة الفنون أن تبحث لنفسها عن أزمنة تستعيرها. المصطلح أطلقه الصديق الناقد الكبير د. جابر عصفور، واعتبر أن هناك أكثر من علاقة تحيط بنا ، تجعلنا نزداد يقيناً أننا نعيش في زمن الرواية منها: الإنجازات المتميزة بتراثها الكمي قطرياً وقومياً وعالمياً. كذلك قدرة الرواية على التقاط الأنغام المتباعدة لإيقاع عصرنا معتبراً الرواية حسب « جورج لوكاش» «Gyorgy Lukács 1885 - 1971» ملحمة الطبقة الوسطى في بحثها عن المعنى والقيمة، وأنها أخيراً هي تجربة الفرد الذي لا يعرف أن يكون صيغة للجمع، وينتهي د. عصفور باعتبار أن الرواية هي الشكل الأمثل للتأكيد على فكرة المثقف حيث هو الفاعل الاجتماعي الذي يتعامد على زمنه.

يخرج الشعر، وتتبعه القصة القصيرة من زمن الإبداع الفاعل، وينتهي أمرهما إما إلى النسيان، أو الحفظ في متاحف التاريخ، فيما نحن كتّابها الذين عاشوا في ظلها نصف قرن تقريباً . نتأمل ما يجري بدهشة تدفعنا في أغلب الأحيان إلى الحزن، ونتذكر «أنطون بافلوفيتش تشيكوف» «1860 - 1904» Anton Tchekhov و«فرانز كافكا» «1883- 1924» Franz Kafka و «إرنست ميلر همنجواي» «1899- 1961» Ernest Miller Hemingway بأسى يثير الرثاء، بل نتأمل ما كتبته أيدينا من مجموعات القصص، أو ما نشرنا عبر المساند العربية ، وما ترجم لنا من أعمال شاعرين بغصة في القلب، وأسى في الروح.

أنا قاصّ؛ قضيتُ عمري كله ناسكاً في تلك المساحة التي نطلق عليها محراب القصة القصيرة، وعبر هذا الشكل من السّرد كتبت 13 مجموعة قصصية تحمل أسئلة، ومعنى، وتنشغل بجدليات أمضيت عمري كله أبحث عنها، وبالتالي أكتبها على مهل.

آمنت برفقة بعض المخلصين لكتابة هذا الشكل؛ بأن القصة القصيرة هي سعي للمعرفة ودفاع عن أحوال الحياة والموت، وبأنها آخر المطاف مثل النبوءة تستدعي الغائب والبعيد، وأنها ذلك الفن الذي لا بطل له، وأنها الشكل الأمثل للتعبير عن الجماعات المعمورة وأهل الهامش من البشر، والمنكسرين في أرواحهم، طالبي الستر المعزولين تحت ضغط الظروف الاجتماعية، ساعين للبحث عن خلاصهم في واقع يتسم بالقسوة.

قرأت وتعلّمت أن تلك الجماعات التي يتناولها هذا الشكل تختلف من كاتب لآخر، وعرفت أنه في الآداب العالمية والقومية كما يقول «اوكوثور» أنهم عند «ديكستر» هؤلاء الفقراء الذين ينتمي هو إليهم. وعند «جوجول» الموظفون. وعند «دوباسان» البغايا. وعند «تشيكوف» العظيم الأطباء والمدرسون وخدم البيوت والمصورون، وعند «شيرود أندرسون» أهل الريف، وعند «هيمنجواي»؛ الذين يخسرون بشرف في مشوار حياتهم في ذلك الزمن بين الميلاد والموت. وعند «بورخيس»؛ هؤلاء الذين يعيشون أسطورتهم، ويفعلون عبر الحلم والواقع إعادة صوغ العالم من خلال ذكرياتهم حيث تلتقي المصائر السرية وسؤال المكان وحضور المتاهة. وعند «نجيب محفوظ»؛ سكان الحارات والعطوف والدروب والبيوت القديمة والتكايا وأصوات الدراويش هؤلاء الذين يجسدون زمناً من لؤلؤ، ويتوقون لحكمة العدل والخلاص. وعند «يوسف إدريس»؛ هؤلاء الذين يواجهون





القمع وافتقاد الحقوق محاولين أن يتجاوزوا هزائمهم، وأهل الريف والحضر الذين تختصرهم المدينة في أشباح وأصفار. وعند «زكريا تامر»: هم الأطفال أحباب الله يصنعون أمثولتهم بحثاً عن البراءة المفتقدة في واقع أكثر وحشية، وعند «مستجاب» هم أهل الصعيد قساة القلوب من حيلوا على الضرب بالبلطة فتشج الرأس وتسيل الدماء، وعند «محمد المر»: هي التأمل الهادئ لرحيل الماضي في الأبنية والدور، والعجائز الذين يقيمون في الظلال الباهتة لزمن منسي مع تأمل للمتغيرات التي جرت في المكان والزمان، وسعي الفرد في المساحة بين الصحراء والماء، ومحاولة الفهم لزمن مغاير، ومستقبل يحمل أسئلة للفهم.

يرى أحد شيوخ القصص في العالم وهو الأرجنتيني كبير المقام «خوليو كورتاثار» أن القصّة جنس مغلق سري ذو لغة تجعل منه الأخ الشقيق للشعر، وأن القصة آخر الأمر لا يمكن وضع تعريف لها، وأنها حتى تصل لكمالها الفني والأسلوبي لابد أن تتميّز بالإيجاز والتركيز ،وأن تخلو من البلاغة والحشد والتعاليق الزائدة. ويعتبر «كورتاثار» أن الجملة الأولى في القصة حاسمة ومصيرية. كما يوصي بالاهتمام بالإيقاع الذي يرى أن النص الجيّد يخلق إيقاعه الخاص. كما ينشغل هذا الكاتب الكبير بموضوع القصّة الذي يستمده من اليومي والمألوف، وليس من المواقف الاستثنائيّة، وأن احترافية الكاتب تكمن في قدرته على تحويل العادي والعابر إلى استثنائي.

ويرى أنه لا وجود لموضوعات أحسن من أخرى، وإنما يتوقف نجاح الموضوع على طريقة تناوله من طرف الكاتب، فكل قصة خالدة هي كالبذرة التي تنام في داخلها شجرة عظيمة، سوف تنمو هذه الشجرة بيننا وتلقي بظلالها على ذاكرتنا.

يرتبط نمو الأدب القصصي في مصر بنمو الطبقة المتوسّطة التي شاركت في تطوير هذا النوع من الأدب.مثل شيوخ الأزهر والأعيان والوطنيين وطلاب المدارس والعائدين من بعثاتهم الذين شاركوا في الحركة الوطنية المصرية التي ازدهرت إبانها الآداب والفنون والتعليم بشكل خاص، والتي واكبت ثورة 1919 الخالدة.

وكما هو معروف فإن القصة الحديثة مصدرها الأدب الأوروبي عند روّاده الذين ذكرنا طرفاً منهم . ولقد عرف الأدب العربي نوعاً من القصص يشبهه، ولكنه لا يخضع لقواعده مثل «الخبر»، وله تاريخ قيّم أنتجه الجاحظ في كتابه «البخلاء»

و«المحاسن والأضداد». ثم كانت المقامة عند بديع الزمان الهمذاني ثم «الحريري» في مقاماته،ثم النقلة المهمة حتى «حديث عيسى بن هشام» للمويلحي عام 1898، حتى ظهرت القصة الحديثة بشكلها التقليدي عند جيل من الروّاد الشباب مع ثورة 1919، الذين نظروا لكتابة القصة القصيرة باعتبارها المعبّر عن الحياة الاجتماعية عند الطبقة البورجوازية المصرية، وتمثّلت ريادة هذه المدرسة في عدد من أبناء الطبقة الأرستقراطية مثل: محمد تيمور، ومحمود تيمور، وعيسى عبيد، وشحاته عبيد. ثم جاءت النقلة الهامّة عند المدرسة الحديثة: يحيى حقي، وحسين فوزي ثم لاحقاً نجيب محفوظ.

وسيطرت القصّة الواقعيّة في الثلاثينيات وأوائل الأربعينيات ثم حلّ مكانها نوع من الكتابة المرتبطة بتغيّر الحياة في الواقع المصري، وما أحدثته الحقبة الليبرالية والحزبية، وتغير الحياة نحو أفق تطلّ عليه الدولة الحديثة، فكان «المازني» إلى جانب بعض الأعمال المترجمة وإنتاج نجيب محفوظ الغزير من القصة القصيرة، ثم كانت الأربعينيات التي جاءت بكتابة القصة المرتبطة؛ بالشعب، وبالحركة الوطنية، والنضال ضد الإنجليز مع بزوغ المذهب الاشتراكي الذي قدم العديد من أصوات الكتابة، التي تتناول الصراع في الواقع المصري بين من يملكون ومن لا يملكون، وتكشف مدى التفاوت الاقتصادي والاجتماعي والسياسي. وكان عبدالرحمن الشرقاوي، وسعد مكاوي، وفتحي غانم، وبدر الديب، ومحمود السعدني، ومحمد عبدالحليم عبدالله، واستمرار نجيب محفوظ بالكتابة ودخول يوسف الشاروني، وبدر الديب، وإدوار الخرّاط، ثم كان يوسف إدريس بموهبته الحوثية ليؤسس تياراً جديداً من فن القصة القصيرة.

ظلت تلك المدرسة فاعلة حتى بعد قيام ثورة يوليو، وشكّلت بإنتاجها الإبداعي أهم ما قدّمته هذه الثورة من إبداع في الرواية والمسرح والقصة، حتى جاء جيل الستينيات ورفع شعاره «نحن جيل بلا أساتذة». هذا الجيل الذي جاء أغلبه من أقصى اليسار، وكان ابناً لثورة يوليو تعلّم على ضفافها، وتشكّل وعيه في مؤسساتها، وكان ابناً لهزيمتها الكبرى في يونيو، حزيران 1967، كما شكّل عبر إبداعاته المعارضة الحقيقية لتلك الثورة وتجاوزاتها الإنسانية. ثم قدّم في الكتابة رؤى جديدة وتجريبية لم تعرفها الثقافة المصرية من قبل سواء في السرد أو في الشعر، وكان من أهم أصواته؛ أمل

دنقل، وعفيفي مطر، وصنع الله إبراهيم، ويحيى الطاهر عبدالله، وإبراهيم اصلان، ومحمد مستجاب، والبساطي ومعهم إدوار الخرّاط .

أنتمي بالكتابة لهذا الجيل، وعالمي يتحدد في كل أحواله من إنتاج عدد من الكتب التي تحمل تجربتي؛ تشمل عدداً من القصص هي الشكل الأمثل لنمط من السرد عن تجربة إنسانية عشتها. ومن خلالها حاولت التعرّف على تلك المنطقة الغامضة من الواقع المصري، ومن الخيال القروي بكل تجلياته في الحكي والمأثور، وارث الطفولة الفادح، وإقامة علاقة خبرتها قديماً خلال العيش في هذا المكان وبين أهله من ناس القرى وأساطيرهم وبإحساسهم تجاه الزمن، هؤلاء الذين تواصل قهرهم آلاف السنين ولم ينقضي.

انشغلت بالتعبير عن الطفولة التي تعني عندي محاولة فهم الغامض والشغف بالطلاسم، وكان في وعيي دائماً مقولة «كامي» «أي طفل لا يكون شيئاً بذاته»، هي الإرث الفادح الذي أحمله على ظهري سطوراً بقهر الكبار والحرمان أول العمر.

وأنا أحد الذين يكتبون القصص ولا يستهويهم النص السهل المباشر مفضوح الدلالة، يستهويني النص المهموم بسؤال المصير وبجدلية الحياة والموت، وبتلك الحسية الجسدية، والحضور الأسطوري الذي تخترقه العجائبية، عالم مثل هذا لا يحيط به إلا الشعر. كنت أنصت لهم وأنا صغير، يتكلمون، أو يحكون، وكنت أسمع أصواتهم في الليل يقصون حكايات من ألف ليلة وليلة، أو عن الأرض والمحاصيل، والأعراس وأعيادهم، وسيرة عنترة والزير سالم، وأخبار الشطّار.

وجدتني أكتب قصصاً مستعيناً بهذا الخيال الذي كون وعي الغلام. وأنا آخر الأمر أسير ما تربيت عليه، وقريتي هي كوني الذي أعرفه مثل راحة يدي، يلتبس عليّ الأمر كلما حاولت فهم الزمن الذي عشته، والذي وصفه يوماً أستاذي الجليل شكري عياد «الزمن عند الكفراوي كتلة واحدة لا يتميّز فيها الماضي من الحاضر أو المستقبل، القصة تتحول إلى تمثال حين يتحول الزمن إلى زمن بئر تتقطر منه تجارب البشرية، التي لا تختلف في جوهرها؛ بين إنسان عاش منذ آلاف السنين، وإنسان يولد اليوم أو يموت في قرية مصريّة. فالولادة والموت أيضاً لا فرق بينهما في الزمن البئر. والزمن البئر هو مفهوم الفنان للخلود والروح والحضارة وتاريخ الإنسان».

يحيّرني الزمن فيما أكتبه وأسعى إليه. وتدهشني تلك العلاقة بين الجدّ والغلام، والماضي يذهب إليه الحاضر والمستقبل، وقد حددته عندي أستاذتي الدكتورة سيزا قاسم بقولها «الكفراوي لا يتكلم عن الماضي الجميل ولكنه عن قدرتنا في أن نعيش في أزمنة مختلفة، وأن نتخلص من نير التاريخ».

في قصة «قصّاص الأثر»؛ كان الرّاوي من آخر سلالة من أصحاب البصائر الذين يعيشون على الحلم، يصرخ صرخة اليائسين «غايتي أن أستحوذ على زمن يضيع». وفي «تلة الملائكة»؛ يشتري الحَبر فانوس رمضان للغلام، وحين يشع ضوؤه يفتح الفجر بطن الغلام ويخرجون قلبه، ويغسلونه بماء الورد وروح الياسمين، فيما هو يردد الدعاء لجده.

والمكان عندي يشبه المكان في الواقع، حتى إذا جاءني في الحلم فله نفس ملامح الأمكنة التي عشت فيها؛ المسجد القديم، بيت الطين بين النهر والحقل، المقبرة الموروثة عن الحديد، المسجد الذي كان يضاء بالفوانيس التي ترتعش ذبالات مصابيحها بفعل نسمة هواء، حتى السكك التي تفضي للاحتمالات، والأزقة المسدودة على سرها، وأشياء المولى سبحانه التي تتحدث وتتهامس والتي تسألني دوماً:

ما الذي فعلته بي عندما كتبتني؟. واللغة كما يقول عمّنا الفاضل إدوار الخراط هي سقف العالم، ولغتي هي بناء عالمي الذي أكتبه؛ تحمل خوفي، وتحشد بالشعر والأساطير، تعبّر عن الجماعة لأنهم يتكلمون هكذا. وأنا مقيم في تلك اللغة التي تشبهني، والتي تنطبق عليها مقولة «كافكا» ماذا يمكن أن يجذبني إلى هذه الأرض المهجورة سوى الرغبة في أن أمكث هنا.

مقتطف من قصة يوم غائم

«.. كأنني أقف وحدي في شارع قصر العيني بالقاهرة، أين ذهبت الخلائق والسيارات والعادم وسكان العمائر والعصافير الطائرة ومحطات البنزين وحكايات المدينة، المتوجة بالشمس والصولجان، الشارع خال تماما وصامت إلى آخر مدى الجنون، كأنني أرى أبي الميت، يطوف في المكان على وجهه الفزع وغبرة من تراب المقابر، لا نجمة ولا ربيع على عجل، كأنني أود اختراق جسد الشارع، للوصول إلى السر، جسد العالم دافعاً بقوة كل رغباتي ناحية الشمس الغائمة وسط ضباب الصيف، وشبورة الشتاء المتعفنة على الشارع

الصامت، كل تلك الفصول رازحة على مدينة بلا مجد، أغلق مسرح السلام وتصالبت أخشابه على بابه العمومي، والنحت من فوق الجدران العناوين، كست واجهة نادي القصة بيوت العناكب وبراز الذباب، وحلت في مسقط النور ظلمة غامضة فارقها جوهر الضوء، العلم الأمريكي على ساريته فوق مبنى الجامعة يخفق في سماء الوطن وفي زمنه الممدود من ألوف السنين، الوزارات مبنى البحث العلمي، ضريح سعد، كنيسة الآباء القديسين، أروقة تتعفن فيها الذاكرة، تروع بصوت مكبرات الصوت، هل كنت أحلم أم كنت روعت بما أرى؟، ريح صفراء شردة تهب كانسة الأضرحة والشارع والأقبية المسحورة في قصور الترك، والأسيجة وطاسات النحاس والهراوات، كأنني مشرف على الغرق وأنا أطل على المأساة، دوت في الصمت صافرة إنذار، عندما رأيت طفلاً يعدو وكأنه يطير من غير جناحين، ينفلت ابن التاسعة من الباب عارياً كيوم مولده، يعدو في الشارع الخالي كأنه أرنب صغير، يتهدل شعره الأسود الغامر كليل وينداح على وجهه وكأنه يسبح في خليج من ضياء، للطفل سرعة العدو كالفريسة، وللشارع صمت المقبرة، ولي أنا المندهش غرفة جانحة في القلب، وفضاء أقذف عبره الخديعة، حضور الطفل في الشارع خبز له طعم الفضاء، والصمت والغياب الكبير لرفيف الأجنحة، كوكب صغير يتحرك في مجرى الشارع، يدفع عنه الرماد ويشكل في الفضاء احتجاجه الصغير، فجأة وعلى غير ما توقع تخرج بندقية من النافذة الشرقية للبيت العتيق ملساء باردة كالهذيان، أطلق الطفل صرخته، دوت الطلقات في الشارع الصامت دفعة واحدة، لتستقر في البدن الصغير وتندفع الدماء بفصاحة على الأسفلت ويكتسي بالدماء المسجد القديم، والكنيسة وقبة البرلمان وهامات البشر، وقسم الشرطة،بينما يمعن الطفل في موته الباتر وقد قبضت يد على العشب وأنا أشاهد ما يحدث أمامي وكأنني خارج من الظلام إلى زحمة الأسماء..»

أطلت عليكم، أعترف بذلك، لكن عزائي هو الرغبة في التواصل وفي الرضى المستحيل، لأنني آخر الأمر، وعلى أرض هذا الوطن الكريم الذي أحبه، وأحب ناسه أطمح في أن أنحت طريقاً من التواصل بيننا.. ولكم كلّ الشكر ■

المحاضرة بتاريخ 7/ 6 / 2010

المحاضر:

أ.د . كمال عبد اللطيف

أستاذ التعليم العالي بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة محمد الخامس

عنوان المحاضرة:

قراءة في فكر الجابري

سيرة ذاتية

- أستاذ التعليم العالي بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة محمد الخامس.
- عضو اتحاد كتاب المغرب.
- حاصل على جائزة المغرب للكتاب في العلوم الإنسانية سنة 1999.
- عضو تحرير مجلتي «المناهل» و«الثقافة المغربية» الصادرتين عن وزارة الثقافة المغربية.

• كتب ودراسات منشورة

مفاهيم ملتبسة في الفكر العربي المعاصر.

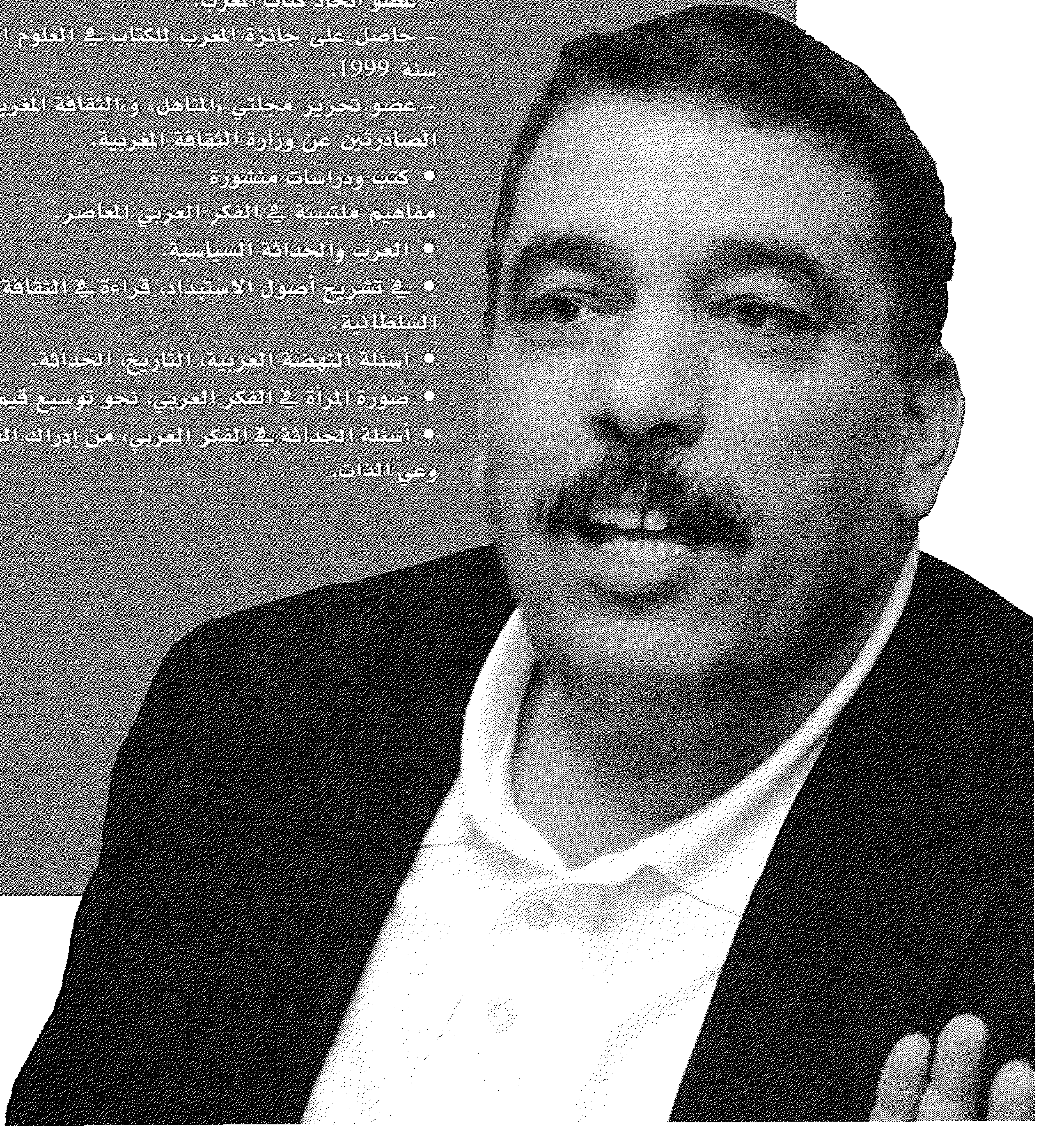
• العرب والحداثة السياسية.

• في تشريح أصول الاستبداد، قراءة في الثقافة السياسية السلطانية.

• أسئلة النهضة العربية، التاريخ، الحداثة.

• صورة المرأة في الفكر العربي، نحو توسيع قيم التحرر.

• أسئلة الحداثة في الفكر العربي، من إدراك الفارق إلى وعي الذات.



قراءة في فكر الجابري

ساهمت الأعمال الفكرية التي أنتج الأستاذ محمد عابد الجابري، في بناء مجموعة من المواقف والاقتناعات الفكرية والتاريخية، في موضوع قراءة التراث العربي الإسلامي، وفي موضوع التفكير في مشروع النهضة العربية. وقد تميزت هذه الأعمال بقدرتها الكبيرة على تحقيق نوع من الانخراط المنفعل والفاعل، في فضاء الفكر العربي المعاصر.

ونحن نعتقد، أن ما مَنَحَ إنتاجه الفكري الاعتبار الرمزي، الذي ناله في المجال الثقافي العربي، طيلة العقود الثلاثة المنصرمة من القرن الماضي، هو كفاءته في صوغ سِجلٍّ من الأسئلة الموصولة بمجالات الصراع السياسي في فكرنا. لقد تمكن الجابري بفضل تجربته في الحياة ونوعية حضوره في المشهد السياسي المغربي والعربي أن يركب جملة من المصنفات، ويبني صرحاً فكرياً لا نجازف عندما نعتبر أنه يعد واحداً من بين مجموعة قليلة من الصروح النظرية، الفاعلة في قلب الحركة الفكرية العربية المعاصرة.

وإذا كنا نسلم بأن أسئلة الفكر العربي المعاصر اليوم، تعكس بمناهجها الخاصة في المقاربة والفهم، نوعيات تمثلها لمختلف أشكال الصراع الحاصلة في الواقع، فإن الأعمال الفكرية المُؤَسِّسَة في فضاء هذا الفكر، ومن بينها أعمال الجابري، تعد في كثير من أوجهها بمثابة الروح المعبرة عن أنماط من التوتر والتحول الحاصلة في الواقع العربي.

وما يعزز حكمنا السابق، هو نوعية انخراط محمد عابد الجابري في مجابهة إشكالات عصرنا. فقد مَكَّنه انخراطه في البحث، المسنود باختيارات إيديولوجية وفلسفية معلنة وواضحة، من تحقيق نوع من الحضور الثقافي والسياسي المتميزين.

ونحن نفهم هذه المسألة بكثير من الوضوح، عندما نأخذ بعين الاعتبار مبدأ عدم إمكانية فصل أعماله الفكرية عن ممارسته السياسية وسياسته الثقافية. فقد ساهم التزامه بالعمل السياسي المباشر، كما ساهمت ممارسته الفكرية الموصولة أساساً بقضايا الصراع الإيديولوجي والسياسي في المغرب وفي الوطن العربي، في عمليات بنائه لجملة من الاقتناعات الهادفة إلى تطوير المجتمع العربي.

وعندما نراجع سيرته الثقافية، ونحن نتابع عمليات إنتاجه المنتظِم للمصنفات التي تراكمت طيلة ما يزيد على أربعة عقود من الكتابة والبحث والتدريس، ندرك أننا أمام جهد فكري لافت للنظر، بكفاءته في التنظير والتركيب، وبحرصه الشديد على العناية بمتغيرات الواقع في تحولها المتواصل، إضافة إلى احتكام إنتاجه النظري إلى جملة من المبادئ والمقدمات العامة التي لا يمكن أن يفهم من دونها.

انطلاقاً مما سبق، يمكننا في بداية هذا العرض، الذي نتوخى منه التوقف أمام محورين كبيرين، محور نهتم فيه ببناء الجبهات التي خاض فيها معارك متعددة، وفيها تشكل مساره في الفكر وفي العمل وفي الحياة. ونتوقف في محور ثان، أمام السمات الكبرى التي تحدد طبيعة إنتاجه وخصائصه العامة.

يقف المتابع والمهتم بالمسار الفكري لمحمد عابد الجابري، على جملة من العناصر الصانعة لخلفيات منتوجه النظري الفلسفي، سواء في المجال الفلسفي أو في مجال قراءاته للتراث، او إنتاجه الذي بنى فيه مواقفه الوطنية والقومية وتصوراته لمشروع النهضة العربية.

جبهات ومعارك في المسار الفكري للجابري

نتجه في بداية هذا المحور إلى استعراض الجبهات التي صنعت المسار الفكري لمحمد عابد الجابري، يتعلق الأمر أولاً بجبهة تدريس الفلسفة في المدرسة وفي الجامعة، ثم جبهة التراث، وهي جبهة خاضها وهو يبحث عن صيغة جديدة للمواءمة بين التراث وبين مقتضيات الحداثة والتحديث، في زمن جديد اتسم بثورات عديدة في المعرفة والسياسة والتكنولوجية. ثم ثالثاً جبهة العمل السياسي، وقد انخرط فيها يافعاً، وظل حضوره المتفاعل مع مقتضياتها قائماً، حتى عند

مغادرته للعمل السياسي المؤسسي، بحكم أن مشروعه الفكري لم يكن مفصولاً عن عمله السياسي، وذلك من الزاوية التي ارتأى أن يمارس بها حضوره السياسي، سواء في المستوى الوطني أو في المستوى القومي، أو في المستويات الأخرى التي كان لا يتوقف عن إبداء الرأي فيها، معتمداً البعد النقدي والرؤية التاريخية، أثناء مواجهته للإشكالات التي يطرحها فضاء العمل السياسي في عالم متغير «مواقفه من العولمة والإرهاب وحوار الثقافات، وأدبيات المؤسسات الاقتصادية الدولية إلخ..».

1 - جبهة الفلسفة والدفاع عن العقلانية:

استغرق كفاحه داخل هذه الجبهة عمره المهني كاملاً «1967-2002»، وبرزت مواقفه فيها في الأدوار التي مارسها في مجال تعليم الفلسفة وتعميم الوعي الفلسفي في المجتمع المغربي منذ منتصف الستينيات، حيث أصدر الجابري صحبة زميليه المرحوم أحمد السطاتي والأستاذ مصطفى العمري سنة 1966، كتاب «دروس في الفلسفة»، وكان إذ ذاك مسؤولاً عن الإشراف التربوي في وزارة التربية الوطنية. ففي هذا العمل الذي ظل كتاباً رسمياً في المدرسة الثانوية المغربية، طيلة ما يزيد عن عقد من الزمن. نتبين بداية انخراط الرجل في مواجهة الأسئلة والمعارك، التي صاحبت ولا تزال إلى حدود هذه اللحظة، تصاحب ظروف تعليم الفلسفة في بلادنا.

وإذا كنا نعرف أن تعليم الفلسفة في مجتمع متخلف، تسود فيه درجات عالية من التفكير التقليدي المحافظ، فإن صدور كتاب دروس في الفلسفة في طبعاته العديدة، شكل تحولاً نوعياً في التعليم العصري في المدرسة المغربية. لقد كان الكتاب المذكور يدافع عن برامج تعليمية تستوعب قيماً منفتحة على ثقافة أخرى، ويبني جملة من المفاهيم القادرة على المساهمة في صناعة وعي جديد. ولهذا السبب اعترضت جهات متعددة علىالكتاب، وحَرِصَ المرحوم محمد عابد الجابري على إيجاد مخرج مناسب من أجل تحصين تدريس مادة الفلسفة، بالشروط التي تتيح إمكانية تقديمها، وجعلها قادرة على أن تكون عنصر إخصاب في تربة المدرسة

والمجتمع المغربي.

وعندما التحق الجابري بعد ذلك بشعبة الفلسفة داخل أول جامعة مغربية بالرباط في أكتوبر من سنة 1967، كانت الجامعة المغربية في بداياتها. وقد عمل ضمن شروط البدايات بكل خَصَاصِها ونواقصها، مكافحاً ومناضلاً، حيث مارس صحبة قلة من زملائه تدريس أغلب المواد الفلسفية، يحدوه في ذلك مبدأ ظل ملتزماً به طيلة عمره المهني، يتعلق الأمر بتعلمه ثم تعليمه، وذلك بهدف إتاحة الفرص للأجيال القادمة، من أجل أن يكون للفلسفة مسكن كبير في الثقافة المغربية وفي الفكر العربي المعاصر.

درَّس الجابري في الجامعة تاريخ الفلسفة، كما درس الماركسية والتحليل النفسي، ودرس علم الكلام وابن خلدون في الفكر العربي الإسلامي، ثم ترجم في مجال نظرية المعرفة والإبستمولوجيا، جملة من النصوص لرواد فلسفة العلوم في الفكر الفرنسي المعاصر. وأشرف على الأطروحات الجامعية الأولى داخل قسم الفلسفة بكلية الآداب بالرباط. وخلال ما يقرب من أربعة عقود، لم يتوقف عن العطاء في مجال الدرس الفلسفي داخل الجامعة وفي الندوات الكبرى لكلية الآداب في السبعينيات وبداية الثمانينيات، وهي الندوات التي شهدت ميلاد طلائع تعليم الفلسفة في الجامعة المغربية، نقصد بذلك الندوات الآتية: «ابن خلدون، ابن رشد، الإصلاح في الفكر العربي الإسلامي، الفلسفة اليونانية والثقافة العربية في سنوات السبعينيات ومطلع الثمانينيات..».

كان الجابري في مختلف هذه الندوات، يقدم أبحاثا مجتهدة ومثيرة للجدل، حيث يعمل على تطويع وتجريب المناهج وبناء الأطروحات. لقد كان وحده عبارة عن مختبر كبير للفعل وللإنتاج النظريين. وفي قلب كل ذلك، كان يقف بالمرصاد لأولئك الذين كانوا يتربصون بالفلسفة والفكر العقلاني، ولم يكن وقوفه أمامهم يتمثل في السجالات التي لا تستطيع مهما كانت قوتها رفع التحدي وإيقاف النزيف، بل اختار أمراً آخر وطريقاً آخر. لقد اختار الانخراط في الإنتاج وفي التأليف، وأثمرت جهوده مصنفات عديدة في هذا الباب. ونستطيع اليوم أن نقول دون مجازفة، إن مكاسب درس الفلسفة في الفكر المغربي، تعود إلى مجمل النجاحات





التي حققها في معاركه داخل جبهة تدريس الفلسفة وتوسيع العناية بها.

2 - **جبهة نقد التراث ونقد العقل العربي:**

شكلت عناية الجابري بالظاهرة التراثية مدخلاً كبيراً في أعماله الفلسفية والفكرية العامة. ويعرف المتابعون لمساره الفكري أن أطروحته لنيل الدكتوراه الدولة في الفلسفة والتي ناقشها عام 1970، كانت في موضوع العصبية والدولة في فكر ابن خلدون.

لكن ينبغي الإشارة إلى أن الجبهة التراثية في مساره الفكري، كانت عبارة عن جبهة مفتوحة على معارك عديدة، بحكم أن الحدوس الأولى لمشروعه الفكري كانت تستوعب انتباهه إلى خطورة هذه الجبهة. وذلك لأن الموروث التراثي في الثقافة المغربية والعربية كان سجين آليات تكرارية في النظر. ولهذا الأمر كما نعرف أثره في الحياة المجتمعية، وفي الوسائل الثقافية السائدة داخل بنية المجتمع المغربي والعربي. وهنا سينتبه الجابري إلى أن الأدوات التي تعلمها في مختبر درس الفلسفة، يمكن أن تسعف بإيجاد مخرج من هيمنة القراءات التراثية للتراث.

بدأ المشروع في البداية، منطلقاً من مخاطرة التفكير في مقالات تراثية فلسفية بعينها، مقالة عن الفارابي، مقالة عن الغزالي، ثم مقالات اعتنى فيها بفلسفة ابن رشد، وقد أثمرت عودته إلى هذه المقالات بعدة منهجية وبمفاهيم تنتمي إلى درس الفلسفة المعاصرة، ودروس المنهجية في العلوم الإنسانية، أثمر كل ذلك نتائج جديدة، في مقاربة بعض النصوص والمواقف التراثية، وقد توجت هذه الأعمال بكتاب أصدر فيه أبحاثه الأولى حول فلاسفة الإسلام يتعلق الأمر بنص نحن والتراث الصادر سنة 1980، ونحن نعتبر هذا النص بمثابة بيان حول موقف من التراث، وهو يختزن النواة الأولى لمشروعه في نقد العقل العربي.

ففي هذا النص، سيصبح الجابري مالكاً لرؤية أولية في النظر بطريقة جديدة للظاهرة التراثية، رؤية وضح ملامحها الأولى فيما أطلق عليه نقد القراءات التراثية للتراث، وبديل القراءات المذكورة، هو ما أثمر خلال عقدين كاملين من الزمن، رباعية نقد العقل العربي، وهي رباعية التي قدم فيها الجابري جهداً كبيراً، في باب ما أطلقنا

عليه، المواءمة بين التراث والحداثة «تأويل العقل العربي 1984، بنية العقل العربي 1986، العقل السياسي العربي 1990، العقل الأخلاقي العربي 2001».

يندرج هذا الموقف الذي بناه الجابري بكثير من الجهد والمثابرة في إطار الإشكالات الكبرى للفكر العربي المعاصر، حيث يقدم مشروعاً يهدف إلى محاولة التحرر من كل ما هو متخشب في إرثنا الثقافي، من أجل فسح المجال بلغته «للحياة كي تستأنف فيها دورتها» أي من أجل الإعلاء من راية النقد في زمن سيادة التقليد.

استغرق بناء هذا التصور كما قلنا، أزيد من عقدين من الزمن«2001-1984»، ويعرف الذين واكبوا إنتاج الرجل، أهم مراحل تمفصله، وأبرز الحلقات التي استوى فيها مغامرة ومشروعا، ثم ملامح أولية في مقالة وبحث، ثم اطروحة، وجملة من النتائج، ثم قضية تهم الآخرين، كما تهم صاحبها. وقد لا نجازف إذا ما قلنا، قضية تخص جيلا كاملا، وتعكس في كثير من وجوهها، جملة من الطموحات والآمال، وجملة من الحوافز، وصورة من صور الاستواء الفكري، المعبر عن صيرورة تاريخية نظرية معقدة.

تعلن مقدمات موقفه من التراث، بعبارة صريحة، أن وعياً نقدياً جديداً بالتراث، يعد أولية ملازمة لكل انفصال تاريخي عنه. ولا تكون المعاصرة ممكنة في نظره «تملك أصول الحداثة» دون إعادة بناء مقومات الذات، بالصورة التي تحول منتوجات الحداثة وممكناتها إلى أفق طبيعي، في سياق تطور الذات.

إن قراءة التراث هنا أشبه ما تكون بعملية حفر تبحث لمقومات الحداثة عن تاريخ آخر، سياق آخر مخالف لسياقها، لكنه يمتلك في نظر الباحث كل العناصر التي يمكن أن تحوله إلى جذر آخر لها. لكن هذه القوة تزداد وتتعاظم، عندما نضع مكاسبها وثمارها، بجوار الخطاب التراثي، الذي يتمظهر اليوم في لغات وحساسيات جديدة.

إن أبحاث الجابري في التراث ومعاركه في جبهته التراثية لا تندرج ضمن البحث التراثي التقليدي، إنه يشتغل في الجبهة التراثية ليعلن أولاً أن المجال التراثي ذاكرة جماعية، وهو ذاكرة لا يحق لأحد التفرد باحتكارها واحتكار رأسمالها الرمزي والتاريخي، إنها ذاكرة الجميع، ومن حق الجميع أن يرتبوا نوعيات علاقاتهم

بمنتوجها وآليات إنتاجها، بالشكل الذي يناسب اهتمامهم واختياراتهم الفكرية العامة، ويناسب في الوقت نفسه طموحهم التاريخي المتجه صوب المستقبل.

3 - جبهة العمل السياسي في الدفاع عن الحرية والتحديث السياسي

انخرط الجابري بحماس في العمل السياسي، واتسم فعله السياسي المتنوع بفضائل العمل السياسي الذي يرعى قوة المبادئ. وكان يعلن دائماً عدم اقتناعه بلا جدوى العمل السياسي، الذي يقلل من قيمة المبادئ والقيم. ورغم أن هذه القضية تثير اليوم كثيرا من النقاش، في موضوع العمل السياسي وإكراهاته، إلا أن ارتباط الجابري بالحركة السياسية الوطنية، منذ خمسينيات القرن الماضي، والتزامه بصف الحركة التقدمية واليسار المغربي، جعل مواقفه الفكرية والسياسية تندرج ضمن رؤية معينة للسياسة والعمل الحزبي.

لقد كان رجلاً يساهم في المجال الثقافي، انطلاقاً من مقدمات سياسية محددة، ويمارس في السياسة أدوار المثقفين، وهذا النوع من المزج بين السياسة والفكر والأخلاق أمرٌ نادر اليوم. وقد كان جائزاً في مراحل معينة من تطور المؤسسات السياسية والعمل السياسي في مجتمعنا.. ومَثَّل الجابري في غمرة عمله السياسي الصورة الواضحة للفعل السياسي الموسوم بالنزاهة والاستقامة. ويمكن أن نفترض أن الرجل لم يستطع التكيف مع مستجدات العمل السياسي، التي أصبحت تقلل اليوم من شحنة المبادئ في عالم رُكِّب فيه المشهد السياسي على قواعد جديدة، وكانت خيارات الرجل السياسية والأخلاقية تمنعه من التلاؤم معها. ولهذا توقف مؤسسياً عن العمل السياسي تحت ضغط ملابسات، ليس هنا مجال تقديمها ولا فحصها، ولذلك مقامات أخرى.

لقد توقف عن العمل السياسي المباشر كما أشرنا، لكنه ظل حاضراً في قلب المشهد السياسي. وتكشف مختلف أعماله المرتبطة بموضوع الحداثة ونقد التراث اسطفافه في العمل السياسي من منظور ثقافي، حيث تحضر في أعماله الفكرية الغائية السياسية مشفوعةً بمطلب النجاعة التاريخية.

لم ينسحب الجابري إذن، من العمل السياسي حتى عندما قرر وقف أنشطته السياسية. إن أفعاله في الفكر والثقافة كانت أفعالاً سياسية بامتياز، فظل

الجابري في الجبهة السياسية، متحصناً ببلورة الموقف الفكري، والجهد النظري الذي يضيء أفعال وتفاعلات المشهد السياسي، ويتوخى بلوغ أهداف معينة.

وتكشف نصوصه التي نشرت في سلسلة الكتاب الشهري، الذي كان يطلق عليه اسم «مواقف»، محاولته الساعية إلى رسم معالم الحياة السياسية المغربية. وقد أصدر خلال العقد الأول من الألفية الثالثة ما يزيد عن سبعين عدداً من هذه الكتب الصغيرة الحجم، والمستوعبة لمواقفه وآرائه ونصوصه القديمة والجديدة في الشأن السياسي المغربي. كما أن أطروحته في «نقد العقل العربي» تعد بدورها بمثابة جواب على انخراطه السياسي في العمل الفكري، الذي يساهم في إغناء الحياة السياسية والفكرية مغربياً وعربياً، ذلك أن خلاصات هذه الأطروحة في بعدها السياسي الحاضر بقوة في أجزائها الأربعة، تنخرط في مواجهة احتكار بعض التيارات السياسية للإسلام وتراثه، الأمر الذي يكشف أننا أمام مشروع فكري مجسد في أطروحة نقد العقل العربي، وهي أطروحة تساهم في بلورة مواقف من التيارات السياسية المعادية للُغة العقل والتاريخ والمصلحة في العمل السياسي.

ظل الجابري منخرطاً في العمل السياسي دائماً، وبكثير من الحماس والاستماتة. وتبرز اجتهادته ومواقفه في هذا الباب، جهوداً تستحق أن تعمم، ذلك أننا، في البداية وفي النهاية، أمام خطاب في التنوير يتجه لتحديث المجتمع العربي. وحاجتنا إلى التنوير في المغرب وفي العالم العربي حاجة ملحة، وخاصة عندما نعاين مدى تزايد المد النصي والقطعي والسلفي في ثقافتنا.

ويمكن أن نشير في إطار هذه الجبهة، إلى أدواره التربوية في المدرسة والجامعة ومراكز البحث، بهدف تعميم مكاسب الفلسفة في الفكر العربي وأبرزها العقلانية والفكر التاريخي. فهذه الأدوار يمكن أن تقرأ كشكل من أشكال الحضور السياسي، إضافة إلى ملامحها النظرية التي ترتبط بشكل أو بآخر بجبهة الفلسفة ونقد التراث.

سمات المشروع النقدي في خطاب الجابري

1 - يتسم المشروع الفكري لمحمد عابد الجابري أولاً، باقتناعه الراسخ

بالوظيفة التاريخية للفكر والمفكر. وقد سمح له هذا الاقتناع برسم حدود معينة لمساره الثقافي والسياسي، فهو يعتبر أن تعقل وإضاءة أسئلة المجتمع والتاريخ لا تكون إلا بهدف المساهمة في تغييره وتطويره. وقد عمل في مختلف مؤلفاته، على إنتاج الأفكار التي يعتقد بقدرتها على إسناد مشاريع ومؤسسات التغيير في المجتمع. وتعتبر هذه الخاصية في فكره محصلة لتكوينه الفلسفي المتشبع بتصور معين لنزعة فلسفية تمنح المثقف والسياسي امتياز صناعة وتوجيه الأحداث في التاريخ، نستطيع التأكد من ذلك، في مختلف أعماله، كما نستطيع معاينة ذلك ونحن نستمع إلى الرجل مشاركاً في الندوات واللقاءات العلمية والسياسية.

ويتسم مشروعه ثانياً، باهتمامه بإشكالات التحول السياسي الوطني في المغرب، وإشكالات مشروع النهوض القومي في أبعاده الثقافية والسياسية، حيث تقدم أعماله مداخل قوية في مجال النظر إلى هذه الإشكالات. وقد ساعده في إنجاز ما أنجز من آثار نصية في هذا الباب، استثماره كما قلنا لتكوينه الفلسفي، ولمجموع العبر والخلاصات التي ترتبت عن التزامه بالعمل السياسي الوطني والقومي، وكذا مواكبته للمتغيرات المرتبطة بأشكال الصراع الدائر في العالم. فقد سمحت له محصلة العناصر المذكورة بتركيب المعطيات المعبرة عن مسعاه النظري، الهادف إلى إعادة بناء المشروع النهضوي العربي، بالصورة التي تجعله يستوعب متغيرات التاريخ ومكاسبه، ومن دون إغفال مقتضيات الصراع التاريخي العالمي، التي تشكل القضايا العربية في إطاره محوراً مركزياً، وذلك بحكم عوامل عديدة، أبرزها نتائج التركة الاستعمارية، ونتائج الصراع الإيديولوجي الذي ساد في العالم بعد الحرب العالمية الثانية. ثم نوعية التحولات التي عرفتها نهايات القرن العشرين وما خلفته من نتائج ومعطيات جديدة، معمقة لدرجات وآليات الصراع الدائر في مجال العلاقات الدولية. فعندما يعمل الجابري في أبحاثه على مواجهة كل ما ذكرنا، فإنه يتجه أساساً إلى تركيب أشكال جديدة من المواءمة بين الطموح التاريخي لأمة معينة، ومتطلبات الشروط والظروف المؤطرة للحاضر، دون أن يعني ذلك التفريط في المبادئ الكبرى، التي لا يتأسس المشروع النهضوي العربي من دونها، ونقصد بذلك الاستقلال والتحرر والنهضة.

نتبين في مجمل إنتاجه ما يمكن اعتباره نواة مركزية في جبهة الفكر النقدي في الفكر العربي المعاصر. أما الملامح الكبرى المؤسسة لهذه الجبهة، فتتمثل في نظرنا، في مشروع نقده للعقل العربي، وهو مشروع يهدف من ورائه إلى تفكيك آليات عمل الفكر العربي، من أجل تخليص الثقافة العربية من الوسائل الفكرية التقليدية المتحكمة في أنماط مقاربتها وفهمها للظواهر، ولا شك في أن إشكالات الحاضر العربي في أبعادها ومستوياتها المختلفة، هي التي أملت عليه العناية بسؤال التراث وبنائه لأطروحة فكرية في موضوعه، أطروحة تجسدها بكثير من الجهد والاجتهاد مجلدات أربعة كبيرة، سمحت له ببناء أطروحة متميزة في باب الموقف من التراث.

نعاين في هذه الأطروحة تجليات المشروع الفكري الذي أنتج محمد عابد الجابري. وفيها نكتشف العناصر الرئيسية لروح تجربته في الفكر، وفي نقد أعباء العقل التراثي المقيدة لحركة فكرنا المعاصر.

بذل الجابري في المصنفات الأربعة التي ركب بواسطتها معمار أطروحته، بذل جهداً كبيراً بنى من خلاله عملاً نظرياً تجاوز فيه القراءات التمجيدية للمنظومات التراثية، كما تجاوز فيه المواقف السلبية من التراث. وقد حاول توظيف نتائج وخلاصات قراءته في معارك الحاضر العربي بالصورة التي تدعم الاختيارات العقلانية والنقدية في فكرنا، ولهذا السبب بالذات نحن نعتبر أن العصب الحي في فكره يتمحور في أطروحة نقد العقل العربي، بحكم أنها تدعم بطريقتها الخاصة قيم النقد والروح النقدية في ثقافتنا، وتقترح علينا آليات معينة في كيفية تجاوز مظاهر الارتباك الثقافي في الفكر العربي.

2 - تندرج جهود محمد عابد الجابري الفكرية في دائرة الفكر النقدي في الثقافة العربية المعاصرة، ليس لأنه صاحب أطروحة نقد العقل العربي التي أشرنا إليها آنفاً، بل لأن مختلف أعماله الفكرية والسياسية تتسم بمنحاها النقدي. فقد وظف الجابري بعض مناهج ومفاهيم الفكر الفلسفي المعاصر، لإنتاج مقالة نقدية في قضايا الفكر العربي، سواء تعلق الأمر بالأسئلة التراثية، أم تعلق بإشكالات الحداثة والتحديث في الفكر العربي المعاصر، فإن المبضع النقدي يشكل الأداة البارزة في أعماله.

وعندما نعاين كيفيات تشخيصه للظواهر والنصوص التي يعنى بها، نكتشف الملامح العامة لاختياراته التاريخية النقدية، فنتبين أننا امام مواقف فكرية موصولة بأسئلة محيطها السياسي والثقافي، مواقف وضعت نصب عينها الحاضر والمستقبل العربي.

يتأسس الاختيار العقلاني النقدي في أعمال الجابري، استناداً إلى مكاسب الفكر المعاصر، كما يتأسس في أفق استلهام جملة من العناصر المتضمنة في المكون التراثي الذاتي. ولا يجد الجابري أي حرج في المزج بين الاثنين، وذلك بحكم عنايته، كما أشرنا سابقاً، بمقتضيات الصراع والتحول في الحاضر العربي، في أبعادها السياسية المختلفة. ولهذا السبب بالذات تنحو عقلانيته النقدية منحى خاصاً مختلفاً عن الاختيارات النقدية الجذرية، وهذا الاختلاف تؤسسه في نظرنا الرهانات التي تمنحها تيارات الفكر في ثقافتنا المعاصرة لتصورها لوظيفة الفكر من جهة، ولنوعية اعتبارها لدور المتغير السياسي في عمليات تحول المجتمع من جهة ثانية.

يستحضر الجابري في أطروحته في نقد العقل العربي، اسم ابن رشد وابن خلدون والشاطبي. يستحضر هذه الأسماء ليعزز اختياراته في الدفاع عن العقلانية الموصولة بتاريخنا القومي، وذلك لإيمانه الشديد واقتناعه الراسخ، بأن الذات المسلحة بعناصر من مكونات تاريخها الخاص، تكون مؤهلة أكثر من غيرها للاستفادة من مكاسب الفكر المعاصر والتفاعل معه. ففي المناحي العقلانية والتاريخية والوضعية، المتضمنة في فكر الرموز التراثية المشار إليها، ما يسعف في تصور الجابري بتأسيس عقلانية جديدة متصالحة مع ذاتها.

ولا تقلل الازدواجية الفكرية المترتبة على الموقف المذكور، من القيمة الفعلية لأطروحته ومشروعه في النظر إلى إشكالات الواقع العربي. ولأن الجابري يريد لنفسه حضوراً فاعلاً في المجتمع وفي الثقافة العربية المعاصرة، فإنه يراهن على مقدمات تقضي بأن يشكل استحضار بعض معطيات التكوين الذاتي، عاملاً من العوامل المساعدة في رسم حدود الاختيارات الفكرية الأكثر نجاعة، في عمليات تفاعلها المخصب لتطلعات الحاضر. ولهذا السبب يرجح الجابري اختيارات فكرية

وسياسية معينة، لا يمكن في نظرنا فصلها عن الأفق النقدي المتفاعل مع ممكنات التحول القائمة في الواقع العربي.

وعندما تكون على بينة من بعض مظاهر الصراع السياسي، التي توظف العامل التراثي في حاضرنا، ندرك أهمية القراءة المستنيرة التي حققتها أعمال الجابري في هذا الباب. فقد رفع لواء الاجتهاد والنقد، وعاد إلى الذاكرة التراثية محاولا توظيف معطياتها في أفق ترسيخ القيم الفكرية العقلانية والنقدية. وكشف هذا الاختيار محدودية القراءة التراثية للتراث، وفتح المجال على ممكنات أخرى في القراءة والتأويل، ممكنات نعتقد أنها أقرب إلى منطق العقل والتاريخ والإبداع.

عود على بدء

ركزنا أثناء تقديمنا لمشروع الجابري في مجال الفكر المغربي والعربي المعاصر على الجبهات الصانعة لمساره في الفكر، وتوقفنا عند مشروعه النقدي في قراءة التراث، ومعنى هذا أننا اعتبرنا أن جهوده الفكرية في باب تطوير الفكر الفلسفي المغربي والعربي، تتمثل في أطروحته القارئة للمكون التراثي في علاقته بإشكالية النهضة العربية.

لايعني هذا أن جهوده الفكرية قد انحصرت كلية في هذا المجال وحده، قدر ما يعني أن قراءاته للتراث وتركيبه لأطروحة نقد العقل العربي، تقدم رؤية متكاملة ومتماسكة في باب تعيين كيفيات مواجهة التراث، وكيفيات الاستفادة الخلاقة والمنتجة من آثاره في معارك الحاضر والمستقبل.

والذين تابعوا إنتاج الرجل وجهوده الفكرية، يدركون التجليات والمظاهر الأخرى للأعمال التي رَكَّب وبنى طيلة عمره (1936-2010)، وخاصة في مجال الفكر العربي المعاصر، حيث يواصل الباحث مساءلته لمشروع النهضة العربية في علاقاته المتنوعة بإشكالات الوجود القومي، وإشكالات الصراع العالمي التي تنخرط فيها المجموعة العربية، بحكم المواقع التي تحتل في فضاء الصراعات القائمة والمحتملة الوقوع في العالم.

إن تنويعات الجابري في البحث، تعود لتستثمر اختياراته الأساسية في باب

الموقف من التراث. والنقد كآلية عمل العقل اليقظ والفاعل، العقل المستوعب لروح المعرفة العلمية في صيرورتها، والمعرفة الفلسفية في كفاءاتها التنظيرية النقدية الخلاقة، هو القاعدة الكبرى الناظمة والموجهة لمختلف التنويعات، التي بلورها وهو يعالج قضايا وإشكالات عديدة.

ويمكن أن نوضح هنا أن مفهوم النقد في أعمال الجابري لا يحيل إلى مرجعية مخصوصة، ولا إلى مدرسة فلسفية بعينها، وهو يحيل دون شك إلى عقلانية فلسفة النهضة، العقلانية الديكارتية في تجاوزها للإرث الأرسطي، وإرث العصور الوسطى اللاهوتي، كما يحيل إلى العقلانية الكانطية وعقلانية الأنوار في القرن الثامن عشر، ولعل المفهوم كما يستعمله الجابري يستوعب أيضاً جوانب من روح عقلانية القرن التاسع عشر كما تبلورت في المنظومة الفلسفية الماركسية، وهذا في مستوى الإيحاءات المرتبطة بتاريخ الفلسفة الحديثة والمعاصرة، ولكن المفهوم يحيل كذلك في أعماله، إلى نتائج الأبحاث الجارية في مجال الإبستمولوجيا، حيث يتم تركيب معقولية وعقلانية المعارف العلمية المختلفة في إطار الأنساق الأكسيومية، وذلك تحت تأثير الدور الذي أصبحت تلعبه الرياضيات في المعرفة العلمية المعاصرة.

يستفيد الجابري من مختلف مكاسب درس الفلسفة، في مجال ترتيب وتعيين ملامح النقد، وذلك بهدف الاستعانة بهذه المكاسب في تحليل القاعدة التراثية المهيمنة بطابعها النصي الوثوقي، ومعطياتها المعطِّلة، لكفاءة النظر والتفكير، بفعل ما لحقها من تهميش وتراجع، وذلك تحت ضغط الطفرات المعرفية المواكبة للثورات العلمية المعاصرة.

لا يتوانى الجابري في مراجعته النقدية للتراث عن توظيف كل الإيحاءات التي تسعف بممارسة رصد قادر على كشف محدودية المكون التراثي في علاقته بأسئلة الحاضر، وفي علاقته بمحصلة الفكر المعاصر. لكن الحضور الأقوى للدلالة النقدية يتمثل في عنصرين نظريين أساسيين : إيحاءات النقد الأنوارية، المستوعبة ضمن المكاسب الجديدة للعلوم الإنسانية، وإيحاءات العمل المركب الذي يضفي على النقد والمشروع النقدي روح التجربة الخاصة، وذلك بإضافة محمولات دلالية توسع وتضيق من دلالته النظرية العامة، المؤسسة في سياقات تاريخية فكرية أخرى، مختلفة عن الإطار الجديد التي يتم فيه استيعاب المفهوم، لأداء وظائف محددة في سياق الفكر العربي المعاصر، وضمن معادلات

تاريخية اجتماعية جديدة وهنا في نظرنا تكمن قوته وإجرائيته.

هل نستطيع القول بناء على ما سبق إن النقد في رباعية نقد العقل العربي يستفيد من روح المفهوم، ويعمل على تبئيته بهدف تطويره ومنحه إجرائية أوسع؟ نحن لا نشك في هذا الأمر، فالمفهوم في أعمال الجابري يكتسي طابعاً خاصاً، إنه يرتبط فعلاً بالمرجعيات التي حددت ملامحه العامة، ودلالته المركزية، لكنه يكتسي أبعاداً أخرى في لحظات استعماله الجديدة.

وبعد، يفتقد الفكر العربي بموت محمد عابد الجابري علماً كبيراً من أعلام التنوير العربي..

ولهذا السبب أريد في خاتمة هذا العرض أن أشير إلى أهم الخصال التي كان يتمتع بها.. لقد مكنني التواصل معه كمسؤول عن الإشراف التربوي في المدارس الثانوية، وكمؤطر لأطروحاتي الجامعية، ثم كزميل في شعبة الفلسفة خلال ما يزيد عن ربع قرن. مكنني كل ذلك من ملامسة بعض السمات والخصائص النفسية، التي لا يمكن التعرف عليه بدونها.. يتعلق الأمر بالنزاهة والاستقامة والمسؤولية. وكانت هذه السمات تعد بمثابة أسماء مرادفة لاسمه، إنها أسماء مطابقة لنوعية الحياة ونوعية الخيارات التي استقر عليها طوال عمره الذي توقف دون أن يتوقف، ذلك أنه من حسن حظنا أن الموت يوقف العمر، لكنه لا يوقف دلالة الأثر، فيظل الأثر عنواناً لحياة بعد الموت. رحم الله الفقيد ■

المحاضرة بتاريخ 13/ 6 / 2010

المحاضر:

الفريق / ضاحي خلفان تميم

القائد العام لشرطة دبي

عنوان المحاضرة:

دور التربية في تحقيق الأمن

سيرة ذاتية

- عُين قائداً عاماً لشرطة دبي سنة 1980م.
- حاز على عدة أوسمة وشارات وجوائز نذكر من بينها:
- وسام الخدمة المخلصة ونوط الخدمة الممتازة لخدمته الفعلية طوال40 عاماً، وشارتي تقدير من الدرجة الأولى 2010.
- الديوس الذهبي من المفوضية العليا للأمم المتحدة لشؤون اللاجئين 2007.
- شهادة الاعتراف والتقدير من منظمة الأمم المتحدة للطفولة 2007.
- جائزة أفضل شخصية تنفيذية إقليمية في الشرق الأوسط 2004.
- جائزة الأمم المتحدة لأبرز شخصية عربية في مكافحة المخدرات 2002.
- يترأس عدداً من الجمعيات الأهلية والمجالس المحلية.
- كما نشرت له عدة مؤلفات في المجال الأمني والإداري والعام.



دور التربية في تحقيق الأمن

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه

في الحقيقة إذا أراد الإنسان أن يتحدث في التربية ، لا يمكن ولا يجوز أن يتحدث عن التربية ودورها دون أن يعود ويستمد من المغفور له بإذن الله الشيخ زايد بن سلطان طيب الله ثراه ، صاحب التوجيهات السديدة التي تعد دستوراً تربوياً لكل من ينشد بناء مجتمع قادر على تحقيق الإنجازات العملاقة . لا يمكن أن نتحدث عن التربية و ننسى المربي العظيم .

موضوعي لا يستهدف أشخاصاً ولا يتطرق إلى فئة ولا يحمل أحداً مسؤولية دون غيره ، ذلك لأن التربية مسؤولية جماعية لذا فإن طرحي سيكون طرحاً عاماً وإذا اقترب أو لامس طرفاً ما من الأطراف فهو لا يعبر إلا عن وجهة نظر شخصية تحمل الصواب و الخطأ . وما التوفيق إلا من عند الله سبحانه وتعالى .

بدايةً لنلقي نظرة على بعض من الدروس التربوية التي علمنا إياها الشيخ زايد رحمة الله عليه:

من أقوال المغفور له بإذن الله تعالى الشيخ زايد

«في بداية الاتحاد كان كثير من الناس لا يؤمن بالاتحاد، ولكن بعد مرور ثلاث سنوات من هذه التجربة أصبح لا يوجد هناك من لا يرغب في الاتحاد ومنجزات الاتحاد لأنه أصبح يراها بعينه ويلمسها بيده ويتذوقها بلسانه» .

- «المصير واحد لا يوجد مصير لإمارة ومصير لإمارة أخرى،أو مصير فرد دون غيره من الأفراد الآخرين. فالمصير واحد والحق واحد والمصلحة واحدة والسعادة واحدة. ونحن نعيش السعادة الآن بعد ما قمنا بإنشائها وبعدما تعبنا في بنائها ، سنبقى مستمرين متحدين فيما كل ما يجلب لنا السعادة نحن وإخواننا وأبناءنا.»

- «الله سبحانه وتعالى هو الذي يعطي المال للإنسان. ماذا يفعل بهذا المال وماذا سيقول لله عما فعله بالمال الكثير، فلابد من توزيعه على الناس وعلى من يعاني ومن يحتاج ، و يوفر الدعم لهم. فالله عندما يختص شخصاً بأموال و السلطة فعليه أن يسخر هذه الأموال لخدمة الناس و المحتاجين، وعليه أن يطلع على أحوالهم و معيشتهم و توفير السكن لهم».

- «إن تعاون دول الخليج هو دعم للأمة العربية بأسرها وللجامعة العربية خاصة ، ونطالب إخواننا أنهم يتعاونون ويتآزرون لاسترجاع حقوق إخواننا وأشقائنا العرب لأننا نؤمن أن استرجاع الحقوق لا يتم إلا بالتآزر والتعاون. ونرجو أن يكون مجلس الخليج بمثابة القوة العربية و بمثابة برهان للدول الشقيقة على أن هذا التعاون أصبح مفيداً وأصبح قوياً».

- «لا شيء يخلد أبداً. لا الإنسان ولا المال .. فالخالد هو الوطن وعمل الإنسان ، و كل فرد منا سيُذكر بعمله».

إذن من هذه الدروس ومن هذه العبر ومن هذه التربية أستَمد حديثي اليوم عن التربية ودورها في تحقيق الأمن ، فالتربية تدور في فلك المعلم والمنهج والطالب والمدرسة والمنزل، وقلب هذا الفلك هو الدولة. فالتربية ليست مسؤولية جهة واحدة . كل منا مسؤول عن التربية. فعلى سبيل المثال أتساءل ، ويمكن بعضهم أن يتساءل مثلي، هل يعلم أحد منكم ما هي مخرجات التعليم في الإمارات؟ أنا لا أعرفها ولا أعرف شيء عنها ، ولكني استعنت بالإنترنت وبحثت عن جملة «سنغافورة – مخرجات التعليم»، و كانت النتيجة أني حصلت على مخطط شامل وتفصيلي حول هذه المخرجات. و هذا يعطينا فكرة حول كيف تعلم الأمم أبناءها، وكيف تخطط وكيف تضع الاستراتيجيات وكيف تكون مخرجات التعليم واضحة ومنشورة على الشبكة العنكبوتية ليراها الجميع، هذه هي المخرجات التي نتطلع إليها . أما نحن فلا نعرف ماذا نريد وهنا المشكلة. بعد كل هذه الفترة من التعليم ولازلنا لا نعرف ماذا نريد، وما هي مخرجات التعليم التي يجب أن تكون لدينا. لنلقي نظرة على نموذج سنغافورة :

مخرجات التعليم في سنغافورة :

1. ينبغي على الطالب في نهاية مرحلة المدرسة الابتدائية أن يكون قادراً على التمييز بين الصواب والخطأ.

2. أن يعرف الطالب نقاط قوته والأوجه التي يحتاج أن ينميها.
3. أن يكون قادراً على التعاون والمشاركة والاهتمام بالآخرين.
4. أن يكون لديه فضول حيوي حول الأشياء.
5. أن يكون قادراً على التفكير والتعبير عن نفسه بثقة.
6. أن يفخر بعمله.
7. أن يملك عادات صحية ووعياً بالفنون .
8. أن يعرف ويحب سنغافورة .

كل هذه المخرجات يُتوقع توفرها لدى طالب الابتدائي في سنغافورة. نحن قد نستغرب من ذلك لكن هكذا يعلمون أبناءهم في ذلك البلد. و طبعاً المرء هنا يتساءل حول نوعية وطبيعة المدخلات التي يقدمونها للطلاب حتى يحصلوا على هذه النتائج والمخرجات .

أما طالب المرحلة الثانوية فينبغي عليه في نهاية دراسته الثانوية :
1. أن يتحلى بالنزاهة الأخلاقية.
2. أن يؤمن بقدراته ويكون قادراً على التكيف مع المتغيرات.
3. أن يكون قادراً على العمل كفريق ويظهر التعاطف مع الآخرين .
4. أن يكون مبدعاً وله عقل مفكر ومحقق.
5. أن يتحمل المسئوولية عن تعليمه. « أما نحن نتحمل مسئوليتهم حتى بعد تخرجهم من الجامعات ، ما خلقنا في أولادنا شعور تحمل المسؤولية منذ الصغر، ولذلك كنت أمر أمام جامعةعريقة في ألمانيا في مدينة ميونخ فوجدت أمامها عدد كبيراً من الدراجات الهوائية، ومررت بمدرسة ثانوية في دبيّ وجدت أمامها أحدث الماركات من السيارات الفخمة .. كيف تريدون من أجيال بهذه النزعة وحب التملك أن تكون أجيالا طموحة ؟»
6. أن يتمتع بالأنشطة البدنية ويقدر الفنون.
7. أن يؤمن بسنغافورة ويفهم ما يهم بلده.

أما في مرحلة ما بعد الثانوية بعامين ينبغي عليه ما يلي :

1. أن يتحلى بالشجاعة الأدبية للوقوف إلى جانب الحق. «أضرب لكم مثلاً من كوريا عندما قام بيريز رئيس إسرائيل بزيارة جامعة كورية لأخذ الدكتوراه منها قالوا

له لن تحصل على درجة الدكتوراه من جامعتنا بسبب ارتكابك للمذبحة التي حدثت في غزة وتم شطبه من برنامج الجامعة، هكذا تعلم الشعوب في جامعاتها ومدارسها أبناءها كيف يقفون مع الحق.»

2. أن يكون صامداً في وجه المحن .
3. أن يكون قادراً على التعاون بين الثقافات، وأن يكون مسؤولاً اجتماعياً.
4. أن يكون مبتكراً ومغامراً.«ليست كتلك المغامرة التي يقوم بها أولادنا في الشوارع»
5. أن يكون قادراً على التفكير بشكل ناقد،والتواصل بشكل مقنع.
6. أن يكون هادفاً في السعي لتحقيق التميز .
7. أن يتبع أسلوب حياة صحي ولديه حسن التقدير لعلم الجمال.
8. أن يفتخر بكونه سنغافوري ويفهم سنغافورة بالنسبة للعالم .

« أي يتحدث في الخارج عن سنغافورة بشكل يجعل الناس يحبون سنغافورة ».

الحقيقة أنني ذهبت إلى الموقع الإلكتروني الخاص بوزارة التربية والتعليم الإماراتية وبحثت كثيراً فلم أعثر على أثر لمخرجات التعليم. ولكن أحسب أن الوزير الحالي سيولي هذا الوضع جل الاهتمام،لأن هذه الاستراتيجية تحتاج إلى وقت . ولكني أحب أن أسجل شهادتي للسيد/علي الشرهان في مرحلة ما وضع خطة استراتيجية وبذل فيها جهد كبير ولكن طالت الاستراتيجية ولا ندري أين انتهى بها المطاف. و في كل مرة نعيد صياغة التصورات من جديد ، ولا ندري إلى أي اتجاه يسير التعليم.

أنا أمضيت فترة طويلة في مجالس المناطق التعليمية بداية من المدارس وكرئيس لمجلس الآباء،المشكلة أن عندنا حلقات التعليم لا يوجد بها ترابط أو تسلسل أو الإمكانيات التي تمكن الطالب من الخروج بمخرجات تحقق لنا نحن أبناء الإمارات ما نصبو إليه لتحقيق الرسالة والرؤية التي أطلقها المغفور له الشيخ زايد بن سلطان حينما أقام هذه الدولة بحيث تكون دائماً في تعليمنا وفي شبابنا وفي نتائجنا عموماً على مختلف المستويات نتائج عظيمة ومقدرة على كل الأصعدة . أما بالنسبة لحلقات التعليم على موقع الوزارة فهي ممثلة في العديد من الجوانب وإني في الحقيقة تتبعت كل هذه الجوانب فما وجدت إلا بعضها، أما الأشياء الهامة فيها فهي شبه مغيبة.

و في ما يخص دور التربية العامة في تحقيق الأمن نجد عدة حلقات تغطي مختلف



جوانب التربية «البدنية ،و الفكرية، و الإجتماعية ،و الأخلاقية، و السياسية وغيرها» تلعب دوراً مباشراً في تحقيق هذا الأمن. أولاً هل التربية الجسدية والبدنية في مدارسنا تحقق الأمن الصحي لأبنائنا ؟ أذكر مثلاً أنه عندما كنا في مراحل الدراسة كان لدينا دوري قوي في كرة القدم بالرغم من عدم توفر الملاعب آنذاك،فكانت المدارس تغذي الأندية باللاعبين، أما الآن أرى شباباً وطلاباً تبدو عليهم السمنة الشديدة وعدم اللياقة البدنية ومن الأسباب المهمة في ذلك الوجبات السريعة التي يتناولونها والتي لم نعرفها في شبابنا. فهل قمنا بترسيخ أهمية الرياضة في مدارسنا أبداً لم نقم بذلك إلا بشكل ضعيف جداً، لا أقول كل المدارس ولكن الغالبية العظمى منها لا يهتم بتثقيف الطلاب بأهمية الرياضة ولا التوعية التي تمكنهم من ممارستها حتى في بيته ، ولا أنشطة المدارس نظراً لأزدحام المناهج بكلام فية حشو كما ضيقوا على الأبناء صحتهم وعقولهم لأن العقل السليم في الجسم السليم.

دور التربية في تحقيق الأمن الفكري :

أي حماية العقول من الانحراف الفكري أو العقائدي، لا أتكلم عن الإمارات في هذا الجانب فهي أقل ضرراً ولكن هناك دول في المنطقة جعلت أبناءها يتخرجون من المدارس متطرفين،وأصبحت تواجه أعمالاً إرهابية نتيجة لهذه التربية، وقد طالنا هنا في دولة الإمارات بعضاً من هذه الجماعات التي أساءت التصرف وأصبحت قناعتها في قيادات ليست قياداتنا الوطنية، ولكن قيادات خارجية تديرها وتُنصِّب نفسها وعناصرها «أمراء» ضمن جماعات متطرفة . هل هذه التربية وهل التعليم مسئوولية الدولة وحدها أم هو مسؤولية الأسرة؟ لقد انصرف أغلبنا أو بعضنا عن الخط الصحيح للتربية فهل التربية الفكرية لدى أبنائنا تمنعهم من الالتحاق بالجماعات التي تقوم بعمليات إرهابية لاقدر الله، وهل استطعنا أن نخلق مجتمعاً سليماً من هذه العلل.

دور التربية في تحقيق الأمن المجتمعي :

هل التربية الاجتماعية التي لدينا تحقق العدالة الاجتماعية والتعاضد الاجتماعي وتجعل من مجتمعنا مجتمعاً يقدر دور الفرد في المجتمع ؟وبالمقابل هل يقدر هذا الفرد دور

المجتمع ؟ في كثير من هذه الجوانب أعتقد أننا ابتعدنا كثيراً عن الخط الصحيح وأضحت اشكاليات عندنا واضحة حتى في المحاكم، حيث تشهد محاكمنا أحياناً خصومات على إرث بين عوائل وصراعاً على شيء تافه مادي في الوقت الذي لم يكن عندنا نحن أبناء الإمارات هذا الصراع. لم نر تفككاً اجتماعياً يحدث بسبب إرث أو خلافات أسرية بسيطة. كان رب الأسرة وكبيرها قادراً على احتواء الأزمة، وحل الإشكالية، وإقناع الأطراف كلها بأن الأمور ينبغي أن تحل وتنتهي بالتراضي. في أيامنا هذه أصبحنا نتجه إلى قاعات المحاكم أكثر من اتجاهنا إلى بيت كبير القوم، أو كبير الأسرة مثلما كان يحدث في الماضي .

دور التربية في تحقيق الأمن التقني والمعلوماتي:

هل علمنا أبناءنا رغم أن هذا الأمر طاريء علينا في المجال التربوي . بمعنى أنه لا ينبغي أن ننشر أسرار وصور الناس على مواقع الإنترنت أو الهواتف المحمولة. هذا يعد سلوكاً إجرامياً ومخالفاً للقانون، و يدخل ذلك في إطار إساءة استخدام هذه التقنيات. يجب علينا أن نستفيد من التقنية بالشكل السليم لتحقيق المزيد من التقدم و الرقي لا للعبث وسوء السلوك،ولا يجوز أيضاً التجسس على الآخرين عن طريق تقنيات وأجهزة مثل البلاك بيري والاطلاع على أسرارهم على اعتبار أن ذلك نوعاً من «الشطارة» أو «الذكاء». فهذا إن دل على شيء فإنما يدل على خلل في الفكر وخلل في التربية. فالإنسان المربى تربية سليمة لا يسمح لنفسه أن يتصرف على هذا النحو . أعتقد أن ما يحدث عندنا في فهم أبنائنا لهذه التقنية شيء يحز في النفس .

دور التربية في تحقيق الأمن الدولي :

هناك مقولة للشيخ زايد ،رحمه الله في أنه عندما يكون لديك مال،ينبغي أن تفكر أن هذا المال ليس لك وحدك ،فإن الله أعطاك هذا المال ويريد أن يجعل منك إنساناً يقدر هذه النعمة وتعطيها للمحتاج أينما كان.

رأيت عبر وسائل الإعلام كثيراً من التبرعات تقدمها الدولة للخارج، ولكن أين نحن من هذه التبرعات ؟ يجب علينا أيضاً أن نساهم في تلك التبرعات ، الأغلبية منا لم تعلم أبنائنا هذا الشعور بالمبادرة. فلابد من غرس حب مساعدة الآخرين خارج الحدود،و التبرع بالمال

لدى أبنائنا منذ نعومة أظفارهم. الدولة تبذل قصارى جهدها لإعلامنا عن من هم في أشد الحاجة للمساعدة والتبرع ، صحيح قد نجد من يتبرع، ونجد من يتبرع على استيحاء أو مجاملة،ولكن لا نجد ما يمكن أن نسميه إقبالاً شعبياً على التبرع، فأتمنى أن نبادر بتقديم المساعدات المادية على قدر استطاعة كل واحد منا، كيف لا و نحن تربينا في مدرسة زايد بن سلطان،رحمه الله.

دور التربية في تحقيق الأمن الجنائي :

أعتقد أن تعليمنا وتربيتنا الدينية مع الأسف الشديد خلقت منا أناساً يؤمنون بشيء واحد وهو اقتناص الفرص، فازدادت الرشاوى،ومحاولات الاستيلاء على أموال الدولة، واستغلال الوظيفة وخيانة الأمانة في مختلف إمارات الدولة. للأسف هنالك مواطنون تسلموا مسؤولية كبيرة ووُضعت في أيديهم أموال طائلة حكومية وشبه حكومية، فما ردهم دينهم أو خلقهم عن ممارسة السرقة و الاحتيال و الاستيلاء على المال العام بسبل غير مشروعة، وهؤلاء الأشخاص عددهم مخيف بالنسبة للإماراتيين فهذا أيضاً ينم عن خلل في التربية.

دور التربية في تحقيق الأمن المهني والوظيفي :

هل علمنا أبناءنا على الإتقان ؟ هل زرعنا فيهم حب الإتقان في المهنة ؟ أذكر قصة مواطن مسؤول يعمل في إحدى الدوائر الحكومية، أراد هذا المسؤول أن يؤطر مجموعة من المبرمجين المواطنين ممن تعلموا في الخارج، وعادوا حتى يكونوا بديلاً للأجانب في البرمجيات فكان رد هذا المواطن أن البرمجة «شغل هنود»، مع الأسف الشديد لم نعلم أبناءنا كيف يحترمون المهنة،وكيف يقدرونها ويتقنونها ، المخجل أننا نرى المواطن واجهة فقط نجده في المقدمة ونجد في الخلفية شخص آخر هو من يقوم بكل شيء .

لهذا و للأسف الشديد، أمن الوظيفة مفقود لدينا لاننا نترك أشغالنا وأعمالنا ليقوم بها غيرنا نيابة عنا، وهذا يحدث في مختلف المجالات مثل التجارة والبرمجة و غيرها التي تسند إلى أشخاص آخرين لأننا عودنا أبناءنا على عدم اكتساب خبرات مادام الآخرون يمتلكون هذه الخبرات وبالتالي مهما بذلنا من جهود لتوطين الوظائف لا بد من وجود الوافد.

دور التربية في تحقيق الأمن النفسي :

لم نُعّود ولم نربي أبناءنا على الإنتاج كفريق عمل،بدليل أنه إذا شُكلت لجنة ما لدراسة موضوع ما ظلوا يناقشون هذا الموضوع حتى يموت و تموت معه اللجنة. هذه ليست مشكلة إماراتية بحتة لكن حينما تكون التنشئة بعيدة عن قيم مثل حسن التعاون والتعامل سيكون من المستحيل أن تخرج مجموعات عمل أو لجان أو مجالس عمل بنتائج طيبة.

دور التربية في تحقيق الأمن السياسي:

أعتقد أن هذا النوع من الوعي مفقود في مدارسنا، ولا يعرفون عنه شيئاً. هل علمنا أبناءنا كيفية الحفاظ على كيان الدولة السياسي؟ فعلى سبيل المثال عندما ألتقي بخريجي الثانوية العامة خلال مقابلات وظيفية وأسألهم عن أسماء حكام الإمارات السبعة، معظمهم لا يعرفونهم رغم أن وسائل الإعلام المختلفة تعرض أنشطتهم بشكل يومي. فقط خمسة في المئة من هؤلاء الخريجين أبدوا القدرة في التعرف على الحكام و ذكر أسمائهم.

هل يفهم أبناؤنا مزايا نظامنا السياسي ومدى تميزه عن غيره من الأنظمة؟ لاأظن ذلك. لأنك لو سألت أحد الخريجين حول نظام الحكم في الإمارات سيقول لك أنه نظام فردي. ولكنه ليس نظاماً فردياً طالما يوجد مجلس أعلى ومجلس وزراء ولا تخرج قرارات للوجود إلا بعد مرورها عبر لجان ودراستها خلال اجتماعات وآراء مدروسة. لقد أصبح لدى كثير من أبنائنا فجوة معرفية في هذا الإطار،لأننا لم نطلعهم عن قرب عن هذا النظام ، و لم نعلمهم كيف يثقون فيه و يفتخرون و يعتزون به.

فحينما نتحدث عن الحكام فإننا نتحدث عنهم كرجال دولة و نشعر بالاعتزاز عند ذكرهم ، لكن إذا لم يتعلم أبناؤنا مثل هذه الصيغ، فلن يعرفوا ماذا صنع الآباء و ماذا صنع الاتحاد. إذن هذا الجانب من التربية مهم جداً و يجب علينا إعادة النظر فيه.

التساؤل الآخر يفرض نفسه في هذا الصدد هو: هل الرعاية الصحية في الدولة حق يتمتع به الجميع بنفس المستوى؟ لأن هذا الجانب أيضاً يقوي الشعور بالود و التقدير لنظام الحكم. و هل يشعر الإنسان في الإمارات أن التعليم كله على حد سواء، كما قال المغفور له الشيخ زايد بشأن وحدة المصير لجميع الإمارات؟ نلاحظ مع الأسف أن لكل إمارة مجلس تعليم خاص بها. و أنا من هذا المكان أقدم رؤية لرجل الأمن، و هي أنه إذا كان هناك


محاضرة بعنوان
دور التربية في تحقيق الأمن
يلقيها
سعادة الفريق ضاحي خلفان تميم
القائد العام لشرطة دبي



اختلاف في نوعية وجودة التعليم والرعاية الصحية بين كل إمارة و أخرى ووصول شعور لدى الناس بوجود طبقة أعلى وأخرى أقل ثراءً وإمارة أفضل وأخرى أقل مكانة في ظل الإتحاد فهذا الوضع يشعر الناس بشيء من التذمر، ونحن لا نتمنى إطلاقاً أن نصل إلى هذا الوضع، بل لابد أن يشعر الجميع بأن الوطن واحد في كل الخدمات التي يقدمها.

كذلك هل تربّت الأجيال على حب الإتحاد أم أنها تنزوي في إطار مصالحها الضيقة؟ هنا أرى أنه يجب تجريم مقولات وعبارات من قبيل «أنت من إمارة كذا» أو «أنا من إمارة كذا»، و لا يجوز أن تساق عبارات فيها الشعور بالدونية لدى البعض بناءً على الانتماء لإمارة دون غيرها، وبالمقابل علينا أن نعمل على تعميق وتعزيز الإتحاد وأن نجعل منه رأس الهرم الذي لا يعلو عليه شيء.

وفي هذا الصدد أريد أن أشير إلى أن النشيد الوطني حتى يومنا هذا لازال لم يقر رسمياً ولم يصدر مرسوم بشأنه منذ قيام الإتحاد، وذلك رغم ترديده من قبل الأولاد في المدارس، وبالرغم من وجود الروح ووجود شعراء كثيرين يستطيعون تقديم غيره من الأناشيد إذا اقتضى الحال. إذاً لا بد أن يكون لنا نشيدا وطنيا نتباهى به أمام الأمم والشعوب. لذا اتمنى من الدولة أن تعجل في إقرار السلام الوطني لأنه يخلق العزة في نفس الإنسان و يرفع المعنويات والمشاعر.

دور التربية في تحقيق الأمن الوطني:

هل تربيتنا جميعاً كأسر وغيرها مَكنتنا من حماية أمن الدولة الداخلي من التهديدات الخارجية، ورسخت وعمقت مشاعر الفخر والإعتزاز بأمن وهوية الوطن؟ أين الخدمة الإلزامية؟ أين خدمة العلم؟ لماذا لا يُقر أداء هذا الواجب الذي يعد أقدس الواجبات الوطنية، والذي للأسف لم يصبح واجباً؟ فدولة سويسرا على سبيل المثال ليس لديها جيش نظامي لكن لديها نظام الخدمة الإلزامية والتدريب العسكري الذي يخضع له المواطنون.

وأقترح أن تطبق الخدمة العسكرية على خريجي الجامعات على أن لا تتجاوز فترتها سنة دراسية واحدة «أي تسعة أشهر» وليس سنتين مثل باقي الدول. هكذا يمكننا أن نحصل على خريجين يعرفون كيف يستخدمون السلاح عندما تقتضي الضرورة لذلك.

في معظم الدول يتعين على المواطن فور تخرجه من الجامعة أن يلتحق بالخدمة

العسكرية،أما نحن فربينا أبناءنا في الغالب على أن يأخذوا من الدولة ومن مؤسساتها «كصندوق الزواج، والإسكان ، والتوظيف، والقروض الميسرة ، وغيرها» ولايعطوها شيئاً بالمقابل. ما يحدث في تربيتنا هذه يعد كارثة. إذن لا بد من إلزام الخدمة العسكرية قبل الحصول على الوظيفة. و بدلاً من إخضاع الخريجين للدورات التي تمنحها الحكومة للمواطنين لتيسير التحاقهم بسوق العمل أتمنى أن تلحقهم الدولة أولاً بالخدمة العسكرية وأنا على يقين بأنهم سيتخرجون منها و هم جاهزون للقيام بأية وظائف أخرى.

وللأسف مثل هذا المطلب لم يصدر من المواطنين ، إذ لم يسبق للمجلس الوطني الاتحادي الذي يمثل الشعب أن طلب من الحكومة فرض نظام الخدمة العسكرية على شبابنا حتى يردوا الجميل للدولة ولو بشيء يسير يتمثل في تمضية تسعة أشهر في خدمة الوطن.

فإذا أردنا أن نحافظ على أمننا الوطني، علينا أن نربي رجالاً في الميادين العسكرية. و يكفي أن نلقي نظرة على معظم الدول الغربية لنفهم مكانة الخدمة العسكرية لديها، فغالبية قادتها و صناع القرار لديها خضعوا في مرحلة ما لخدمة العلم. في الولايات المتحدة مثلاً معظم الرؤساء خدموا في الجيش، من بينهم على سبيل المثال جيمي كارتر «القوات البحرية»، و هاري ترومان «المدفعية»، و آيزنهاور، و نيكسون،و بوش. وغيرهم. والأمر نفسه ينطبق على أولاد الملوك في بريطانيا. ما الذي يمنعنا إذن من فرض الخدمة العسكرية على المواطنين؟.

دور التربية في تحقيق الأمن الأسري:

فيما يخص هذه النقطة، أبرز ما نلاحظه في مجتمعنا هو النسبة العالية لحالات الطلاق. معظم هذه الحالات تكون لأسباب واهية وبسيطة. وفي هذا الصدد أشارت دراسة أعدها مختصون بجامعة الإمارات بتاريخ 31/05/2010 إلى نسب مخيفة لأسباب الطلاق المختلفة لم نعهدها من قبل . فنحن نشهد مآسي في المحاكم وحالات تفكك أسري غير مسبوق مما يحدث صدمة في نفسية الأبناء ويجعلهم في حالة تردد في الإقبال على الزواج وبالتالي ترتفع حالات العنوسة، وتصبح الأسر في حالة من التفكك. علينا أن نغير هذه التربية ونعود بأولادنا إلى قيمنا الإماراتية الأصيلة التي أوجدت أسراً تعيش سنوات طويلة متعاضدة ومتلاحمة بشكل يحفظ لجميع أفرادها كرامتهم وتصون أعراضهم. علينا أن

نعلم أبناءنا تقديس الحياة الزوجية و أنه لا يجوز على الرجل من الناحية الأدبية والأخلاقية والإجتماعية و الإنسانية أن يطلق زوجته ما لم تكن هناك دواعي خطيرة مثل الخيانة الزوجية.

دور التربية في تحقيق الأمن النفسي:

التربية تسهم في خلق الإبداع لدى الشخص وتوسيع خياله.

على المسؤولين في المجال التربوي أن يختاروا بعناية كبيرة من يقومون بتربية وبتعليم أبنائنا مع وضع معايير يجب أن تتوفر في الأستاذ أو المدرس قبل تعيينه، و رفض سلوكيات مثل الواسطة والكفاءة المحدودة حتى يعود ذلك بالنفع والخير على أولادنا.

التربية الجمالية: بمعنى المحافظة على جمال الشكل والمظهر كجزء من تربيتنا تعكس جمال ثقافتنا واحترامنا للآخرين. فعلى سبيل المثال لازلنا نرى أناساً يصلون بالمساجد بملابس النوم وهذا سلوك لا يعبر عن احترام ديننا ولا عقيدتنا رغم أن الله عز وجل أمرنا بأن نأخذ زينتنا عند كل مسجد. لابد إذن من إعادة النظر في مثل هذه الأمور التي تسيء إلى مظهرنا. كما يتعين علينا أن نخلق لدى شبابنا روح التفاؤل ويكفي أن نلقي نظرة على الإقبال الكبير الذي تعرفه العيادات النفسية لنفهم حجم المشكل.

و هنا المسؤولية ليست ملقاة فقط على عاتق وزارة التربية والتعليم ولكن أيضاً على الآباء والأسر ووسائل الإعلام. فنحن بحاجة إلى من يزرع في نفوس أبنائنا التفاؤل الذوق الفني و الجمالي. إن تربية الذوق الفني عند الفرد تعني تعليمه بمساعدة الفن وعبر الفن وان يرى جمال الحياة بكل مظاهرها. والتربية الجمالية تضاهي أي نوع من أنواع التربية عقلية كانت أو خلقية أو بدنية ، حيث أن لها اثرا جميلا على الإنسان. فالحياة تصبح جافة وتبعث على الملل إذا ما خلت من الفنون الجميلة كالرسم والموسيقى وغيرها، إذ إن الفنون ترقي بالحياة وتهذبها.

دور التربية في تحقيق أمن الموارد البشرية والمالية:

التربية تكتسي أهمية كبرى في تحقيق أمن الموارد البشرية والمالية وتحقيق الذكاء. إذا نظرنا إلى ما يجري في العراق فإن هذه الدولة الشقيقة فقدت حتى الآن 530 عالماً وأكثر

من 200 أستاذ وشخصية أكاديمية. يقال إنهم تم استهدافهم من طرف الموساد. وفي بلدنا أين هم أذكياء و علماء الإمارات؟ أين أماكن وجودهم؟ ماذا نريد منهم؟ وماذا حققوا ومن يرعاهم؟ وما هي احتياجاتهم؟ لقد غيبهم عدم الالتفات إليهم .

إذا كنا نريد أن نؤمِّن هذه الثروة الوطنية من المبدعين والأذكياء الإماراتيين علينا أن ننشيء مركزاً لقياس القدرات و نحاول أن نستثمر عقولهم فيما ينفع الوطن. أنا شخصياً لا أدري ما الذي يمنع من أن نحفزهم و نحركهم حركة قيادية تمككنهم من التخرج كمتميزين في مجالات تخصصهم. وبذلك نحن في حاجة إلى تأمين مواردنا البشرية والسهر على تنفيذ وتحقيق هذا الأمن عبر برامج تربوية مدروسة وذات بعد نظر.

دور التربية في تحقيق الأمن الديموغرافي:

نحن لا نربي أولادنا تربية عملية وأهمية الاعتماد على النفس. أبنائنا في المدارس أصبحوا يعتمدون على الآخرين في كل متطلبات الحياة،حتى ولو كانت بسيطة. وهذه مشكلة كبيرة. هنا أعود إلى أهمية الخدمة العسكرية التي تنمي لدى الشخص حس الإعتماد على النفس و قيمة العمل من قبيل تنظيف أرضيات الثكنات والنوافذ والمصابيح وغير ذلك. وهنا أستحضر موقفاً عندما زرت رفقة وفد من مجلس دبي التعليمي المدرس اليابانية. فوجئنا بأن مدير المدرسة ومساعديه هم الذين يقدمون لنا الشاي والقهوة. وعندما سألناهم عن الفراشين قالوا ليس لديهم فراشون وأن كل أعمال التنظيف في المدرسة يقوم بها هم رفقة المدرّسين والطلبة.

كيف نعلم أبناءنا بأن العمل الشريف مهما كانت نوعيته يبقى شريفاً. فلو استوعبوا هذا المبدأ ما وجدت هذه الأعداد الكبيرة من العمال الأجانب في الدولة. لكننا لم نرسخ هذه التربية في عقول أبنائنا ، وكل جيل يأتي يصبح أقل اعتمادية من سابقه على النفس. فلو كان كل واحد فينا يعمل و يبذل جهداً في إنجاز عمله على الأقل في الأمور الخاصة التي يمكنه إتمامها بالاعتماد على النفس لما وصلنا إلى الحالة التي نعيشها اليوم.

دور التربية في تحقيق الأمن الإقتصادي:

هل علمنا أولادنا كيف يحافظون على الممتلكات وتقدير قيمتها المعنوية والمادية؟ كل طلباتهم تلبى دون تربيتهم على كيفية الحفاظ عليها والإستفادة

منها إلى أقصى الحدود. فعلى سبيل المثال سرعان ما يحصل الإبن على سيارة جديدة من والده يذهب «للعب» بها في الطرقات على نحو متهور مخالفاً القوانين المرورية ومهدداً لحياته وحياة الآخرين، وتهلك السيارة في ظرف وجيز بسبب الإستخدام المفرط لها. هذا مجرد مثال ، و الأمثلة عديدة. فلابد من تغيير ثقافة أبنائنا تجاه مقتنياتهم وتلقينهم تقدير النعمة والتحلي بروح المسؤولية في هذا الإطار.

دور التربية في تحقيق الأمن القومي:

ينبغي أن نغرس القومية العربية و حب الوطن العربي في عقول أبنائنا. ففيما مضى تربينا على شعار «وطننا من المحيط إلى الخليج» وأن أمتنا أمة عربية واحدة، لكن للأسف اليوم جميع الدول العربية ترفع شعار بلادي بلادي. نحن بحاجة ماسة لأن نربي أبناءنا تربية قومية لأنه من الخطأ أن لا نعتز بعروبتنا و بإسلامنا. فأمننا القومي على مستوى الأمة لن يتأتى ما لم تكن هناك تربية ترسخ معاني التلاحم القومي في السراء والضراء.

بشارة اليوم:

بأوامر من صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم رئيس مجلس الوزراء حاكم دبي ، سيتم إضافة وثيقة «رؤية الإمارات 2021» كوثيقة وطنية بما تحتويه من قيم ومفاهيم وطنية ، وثقافة إبداعية وسلوكيات إنسانية راقية ، إلى المناهج الوطنية على مستوى مدارس الدولة. وذلك ضمن مواد اللغة العربية والتربية الإسلامية، والتربية الوطنية، وتدريسها للطلبة في مختلف المراحل التعليمية.

جاءت هذه البشارة وأنا في الطريق إليكم. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ■

المحاضرة بتاريخ 14/ 6 / 2010

المحاضر :

أ. حميد القطامي

وزير التربية والتعليم

عنوان المحاضرة:

تنمية الموارد البشرية في دولة الإمارات تحديات و آفاق المستقبل

سيرة ذاتية

- عين وزيراً للتربية والتعليم في مايو 2009
- يحمل شهادة الماجستير في الإدارة من جامعة ويسترن ميشيغان بالولايات المتحدة الأمريكية عام 1985
- رئيس مجلس أمناء جائزة حمدان بن راشد آل مكتوم للأداء التعليمي المتميز
- رئيس مجلس إدارة مؤسسة الإمارات للمواصلات والخدمات
- كما كان عضواً اللجنة الوطنية للانتخابات في 2006 وعضو اللجنة العليا للتوطين في قطاع التأمين للفترة من 1997 ولغاية 2006 وعضو مجلس إدارة هيئة تنمية الموارد البشرية الوطنية للفترة من 2001 ولغاية 2005
- رئيس مجلس إدارة جمعية أصدقاء البيئة للفترة من 1990 ولغاية 1997، ومنصب رئيس مجلس إدارة جمعية متطوعي الإمارات للفترة من 1997 /2006
- مؤسس وعضو في العديد من الجمعيات ذات النفع العام للإمارات



تنمية الموارد البشرية في دولة الإمارات
تحديات و آفاق المستقبل

لقد حظيت الموارد البشرية باهتمام خاص من الدولة منذ النشأة، وطرأ عليها الكثير من التغيرات، سواء على العنصر البشري، أو على الهيكلية المؤسسية في الدولة مقارنة بالعقود الماضية، وقد استطاعت فلسفة انتشار التعليم،وتمكين المؤسسات التي تعهدت بها قيادتنا توافر بعض القيادات لإدارة أعقد المؤسسات بالدولة، وهذا نجاح يتأصل في دولتنا، ويترجم جهود مؤسس الدولة الشيخ زايد طيب الله ثراه فعندما وضع اللبنات الأولى للدولة كان العنصر البشري هو أساسها وجوهرها، من هنا توافرت للفرد بيئة صلبة وحقبة من التنظيم والتشريعات، وأيضاً قدرات بشرية استطاعت التعاطي معها.

لا أريد اليوم أن أتطرق إلى أرقام أو إحصائيات أو ان أتحدث عن مؤشرات،لأن الأعداد والأرقام خير دلالة، لأن المواطنين عددهم الآن عالٍ جداً، ونسبة وجود المرأة في سوق العمل أكثر من 65 % في بعض الوزارات، والجهات.

والوظائف القيادية اليوم أصبح يتقلدها مواطنون وأصبحوا موجودين في بعض التخصصات الدقيقة، في مجالات الطب والهندسة البترولية، وغيرها.

أما التحديات التي واجهت الموارد البشرية: أذكر بعضاً منها :

- تحديات في إطار مفهوم الموارد البشرية.
- وتحديات فرضتها طبيعة مجتمع الإمارات،وبرنامجها الاقتصادي والتنموي فرضها ومن ضمنها:
- التقدم التكنولوجي في العالم خاصة في العقدين الماضيين.

كل هذا انعكس على أنظمة الموارد البشرية،

أيضاً ظهور اتجاهات جديدة في مجال النظم والإدارة والتنظيم والتطوير

الإداري، ظهرت نظم كثيرة في العشرين عاماً الأخيرة، وكان دورنا دائماً محاولة جلب هذه النظم وبأقصى سرعة، فهذه أيضاً أثرت مع نظم الموارد البشرية في الإمارات.

- النمو السكاني أدى إلى تداخل الثقافات وتعدد الجنسيات،وهذا أثر على نظم المراد البشرية ودخل فيها كتحدياً.

- بيئة التنظيم الإداري يحدث فيها دائما تحولات،هذه التحولات أثرت في الموارد البشرية،مثل هيئة المواصلات كنموذج،مثلاً عندما تستحدث تقنية جديدة فلابد من تدريب الموظفين عليها،حتى يعرفوا التعامل مع هذا الشيء الجديد،ومع هذه التحولات التي تطرأ عليهم.

- كذلك الاعتماد على الوافدين،أو العمالة الخارجية،هذا أيضاً أثر على هيكل العمل.

- اتساع الفجوة بين سوق العمل ومخرجات التعليم،لأن منتج التعليم يأخذ وقتاً أطول، بينما ديناميكية سوق العمل سريعة.

- تغير سوق العمل وتنوع العمالة،يأتيك كتحدٍّ جديد فيصبح في منافسة،ودرجة المنافسة تتغير وذلك لتنوع الوظائف وتعديلها وتجددها، فمثلاً منذ خمس وعشرين عاماً لم تكن هناك التكنولوجيا الحيوية، ولا الطاقة المتجددة،ولا الطيران بالطرق الحديثة، هذه قطاعات جديدة تدخل علينا فهي تؤثر مباشرة على سوق العمل مثل غيرها لأنها تجددت ،فتضطر أن تجلب كوادر جديدة،

تشريعات الموارد البشرية في الحكومة الاتحادية، واعتماد اللائحة التنفيذية للموارد البشرية.

تشريعاتنا لا تتجدد بالطريقة المعروفة

أنظمة الموارد البشرية بعضها مازال لا يتغير بشكل سريع

وهناك عنصر آخر من عناصر الموارد البشرية

- إدارات الموارد البشرية في الحقيقة تعاني من قلة المواطنين،أو قلة المتخصصين ، ونجد فرصاً كثيرة في كل القطاعات عدا هذا المجال فا فرص العمل فيه نادرة.





- هياكل إدارات الموارد البشرية فيها تباين ففي بعض الأحياء هيكل الموارد البشرية يأخذ دوراً كبيراً وأحياناً أخرى يأخذ دورا هامشياً وبالتالي هذا التباين ينعكس على نظام إدارة الموارد البشرية.

ومن التحديات أيضا:

- تفاوت بناء الأجور والرواتب، لابد من بناء جديد وجيد للرواتب بحيث ان كل وظيفة تعطيها وزن من خلاله يقاس الوظيفة ويعطى لها الأجر المناسب.

التدريب:

بالرغم من الجهود التي بذلت في نواحي متعددة لكن ظل التدريب بين الطموح والواقع،تجده مفعلاً في إدارات عن أخرى،وبالتالي إذا عملنا حصراً لعدد ساعات التدريب في الحكومة فلا نستطيع، وإذا استطعنا فسوف يكون بصعوبة ،وإذا خرجنا بنتيجة سوف تكون متدنية مقارنة بالدول الأخرى.

- سيطرة الذكور أو الإناث على بعض القطاعات نجد قطاعاً بالكامل من الذكور وكذلك الإناث، وبعض الوظائف أيضاً نجدها حكراً على الذكور ومنها من هي حكراًعلى الإناث،

مثل قطاع التعليم فنسبة الإناث المواطنات فيه 75 %، ونجد بعض القطاعات بالدولة محصورة بالكامل للذكور،كما لو كانت محظورة على غيرهم، وهذه في الحقيقة حالة من العشوائية.

- التنافس بين القطاعات الحكومية والقطاع الخاص وبين القطاعات الاتحادية والمحلية،فهذه في الحقيقة لا يوجد بها إثراء للموارد البشرية حتى في قضية الاستقطاب أو قضية الانتقال من قطاع لآخر، فهذه التنافسية نريدها أن تعزز الموارد البشرية لا أن تكون عباًء عليها.

- تعددية التنظيم الإداري والمحلي،والاتحادي هناك نقطة في الموارد البشرية أشير لها ببعض الخصوصية، وقد أشار لها من قبل صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم، ودافع عنها في أكثر من مرة، ألا وهي:

ضعف الصف الثاني والثالث، والرابع أيضاً،

هذا يجرنا إلى قضية ما نسميها المسوغات الوظيفية،فلا توجد مسوغات وظيفية تقف ولا تنمو وأخرى تتحول . هذا ما جعل وجود ضعف في الصف الثالث وبالتالي يجب وضع برامج تدريب القيادات.

- **مراكز سوق العمل ومصادر سوق العمل:**

يوجد بعض المناطق بالدولة تتوفر فيها العمالة،وأخرى يتوفر فيها سوق العمل، وبالتالي هذا يؤثر على الإطار العام للموارد البشرية،وعلى خطط الموارد البشرية وعلى مسوغات التوطين «توطين الوظائف» وتقول لنا الإحصائيات اليوم أنه يوجد تراجع في مؤشرات التوطين،وبدأت ظاهرة البطالة تبرز في بعض المناطق،وبعض الشرائح، وبالتالي يجب علينا أن توليها اهتماماتنا.

ثقافة العمل:

سواء العمل المؤسسي لدى الموظف مثل اللغة، احترام الرئيس والمرؤوسين والإجراءات الإدارية مثل الإجازات، السلوكيات، الشكاوى،والتذمر هذا كله ثقافة عمل وقيمة العمل، وأيضاً نمط التفكير السلبي والإيجابي هذا أيضامن ثقافة العمل التي يجب أن نعززها.

- ومن التحديات الموجودة لدينا هناك التضخم والتكدس الوظيفي لبعض القطاعات والدرجات، هذا على مستوى الحكومة الاتحادية بحسب البيانات المتوفرة لدي، وهذا بالطبع يؤثر على الهرم الوظيفي.

- دور الاستشاري بين الفكر الاستشاري والدور التنفيذي هذا بدأ يسيطر على فلسفة الموارد البشرية، بالرغم من جودة الدور الاستشاري،

أوجد الذي الكثير من العقبات، وهذا بسبب عدم وضوح ما يقوم به الدور التنفيذي حيث وجود البرامج الجيدة التي يريد أن يطبقها على الموظف دون استشارة.

إذاً يجب أن يكون هذا الدور واضحاً في الموارد البشرية،ووضح نظام لهاوكذلك وضع نظام للأفراد.

التأهيل :

يجب أن يكون أكثر وضوحاً لأن التأهيل جزء من إدارة الموارد البشرية أو خصخصتة، هذا الفكر يعتمدونه في الخارج لرفع كفاءة المؤسسات وبالتالي يدخل في إطار نظام إدارة الموارد البشرية.

البيانات:

بيانات الموارد البشرية في الحقيقة ضعيفة جداً، لذا لابد من توافر بيئة صلة لإدارة الموارد البشرية.

هذه التحديات جعلتنا نفكر جدياً في أن نعمل ونعيد صياغة التشريعات،ونعيد فلسفة التدريب، ونعمل علىمراجعة لثقافة المؤسسة،لذا كان قانون الموارد البشرية الجديد بداية وانطلاقة من أجل زرع ثقافة جديدة لإدارة كل الأشياء، ونظام جيد لتقويم الأداء، وتراعي نظام جيد للتدريب ،ونظام لأخلاقيات المهنة إلى آخره من كل هذه الأشياء، وتراعي اللوائح التنفيذية، مع عمل تفصيلي لكل هذه العمليات،

الآفاق المستقبلية:

إن دولة الإمارات ورئيس الدولة صاحب السمو الشيخ خليفة بن زايد وقيادة الدولة مؤمنة بأن العنصر البشري هو رأس المال الحقيقي،وعلينا أن نضع كل الإمكانيات ويجب قراءة الواقع والتحديات بشكل سليم وإيجاد الحلول، ونعمل من أجل تفعيل هذه الحلول، والعمل على تطوير البرامج التدريبية، عمل قياس تدريب حقيقي للأفراد، وعمل المقارنات مع تفعيل النظم المعلوماتية، وعمل نظام معلوماتي دقيق، وسيعلن قريباً عن كل الإجراءات الخاصة بنظام الموارد البشرية بعد استكمالها مباشرة.

- تعزيز الاستفادة من الاتجاهات الجديدة في الموارد البشرية ،أي يجب أن لا يكون كل شيء متاحاً بل يجب علينا أن نسعى لاستكشاف كل ما هو جديد، وأن يكون هناك أنظمة توافقية مثل نظام قياسي الأداء وأنظمة التقييم، وبالتالي أنت مطالب بعمل حزمة من الإجراءات لمساعدة الموظف، ومما لا شك فيه أيضا

فالعمل من أجل تطوير البرامج مثل نظام الصلاحيات، ونظام اللامركزية الإدارية، تستطيع أيضاً،من يمكن المرأة لأن أعداد وجودها يجب أن توضع له كل الأساليب المتاحة،ويجب التعزيز من فكرة التفكير الإيجابي،لأن التفكير الإيجابي ثقافة يجب أن تزرع في الإنسان الذي يجب أن يكون دائماً طموحاً وقابلاً للتكيف مع متطلبات العمل وسوق العمل ومتغيراته.

- تعزيز نظم سلوكيات وأخلاق العمل والموظف

- يجب بذل كل ما في سعنا لتقريب الفجوات،وسد الفتحات بين متطلبات سوق العمل واحتياجات الدولة، وبين مخرجات التعليم وهذه بشكل عام تحديات ولكنها واقع، ويجب أن نضع خارطة طريق نسعى فيها ،ونثبت لقيادتنا وللشعوب بأننا شعب طموح، ويهرب دائماً إلى المواقع الأفضل، لدينا من الكفاءات والخبرات الوطنية والعربية والأجنبية أيضا المتوفرة في كثير من دول العالم، لذا نستطيع أن نوجد بيئة عمل حقيقية في الموارد البشرية ■

المحاضرة بتاريخ 21/ 6 / 2010

المحاضر:

السفير حمد الكعبي

المتحدث الرسمي في الشؤون المرتبطة بالطاقة النووية

عنوان المحاضرة:

نموذج دولة الإمارات العربية المتحدة لتطوير الطاقة النووية السلمية

سيرة ذاتية

- المتحدث الرئيسي في الشؤون المرتبطة بالطاقة النووية وحظر الانتشار بين حكومة الإمارات والمنظمات والحكومات الدولية، بما فيها الوكالة الدولية للطاقة الذرية، ومجلس التعاون الخليجي، وفرنسا واليابان وجمهورية كوريا، والمملكة المتحدة، والولايات المتحدة الأمريكية.

- يشغل حاليا منصب المندوب الدائم للإمارات العربية المتحدة لدى الوكالة الدولية للطاقة الذرية.

- ممثل خاص لوزارة الخارجية في شؤون التعاون النووي الدولي 2008.

- شارك في جميع المراحل الرئيسية للتقييم في مجال الطاقة النووية.

- حصل على تكوين علمي وعملي كمهندس نووي، حيث - حاز على شهادتي الإجازة والماجستير من جامعة بردو بولاية إنديانا الأمريكية، وركز بحثه الجامعي على السلامة النووية.



نموذج دولة الإمارات العربية المتحدة لتطوير الطاقة النووية السلمية

قبل البدء في الحديث عن نموذج دولة الإمارات العربية المتحدة لتطوير برنامج للطاقة النووية السلمية، أود أن أوضح أن الدافع الأساسي الذي يقف وراء اهتمام الدولة في تطوير الطاقة النووية للأغراض السلمية، يعود إلى أن الإمارات وغيرها من دول المنطقة سوف تواجه أحد أكبر التحديات في السنوات المقبلة ألا هو الحاجة إلى مصادر إضافية من الطاقة لتلبية الطلب المتزايد عليها في المستقبل بغرض دعم النمو الاجتماعي والاقتصادي المتوقع ولضمان استمرار التطور المتسارع لاقتصادها.

ففي بداية عام 2006 قامت الهيئات والجهات الحكومية المسؤولة عن قطاع الطاقة في دولة الإمارات بإجراء دراسات مفصلة ومعمقة لتحديد احتياجات الدولة الفعلية من الطاقة حتى عام 2020 آخذين بالاعتبار عامل النمو السكاني والصناعي.

توقعات الطلب على الكهرباء في المستقبل

ووفقا لنتائج الدراسة، فإنه من المتوقع أن يتضاعف الطلب على الكهرباء ثلاثة أضعاف تقريباً بحلول عام 2020 ليصل إلى نحو 41000 ميجاوات مقارنة بعام 2006. أي بمعدل نمو سنوي تراكمي نسبته 9 % تقريباً. وفي ظل هذا التحدي، قامت حكومة دولة الإمارات العربية المتحدة بتقييم كافة البدائل المتاحة لتوليد الطاقة آخذةً في الاعتبار العوامل الأربعة التالية: العوامل الاقتصادية، والبيئة، وأمن الإمداد، وإمكانية التنمية الاقتصادية على المدى البعيد. وتم تقييم مجموعة من الخيارات التكنولوجية التي يمكن تطويرها لسد هذا الطلب على الكهرباء في المستقبل، وشملت:

- محطات تعمل على النفط الخام.
- محطات الغاز الطبيعي المتنوعة.
- محطات الفحم.

- محطات تعمل على النفايات.
- محطات تعمل على الطاقة الشمسية.
- محطات تعمل على الرياح.

محطات الطاقة النووية.

دون الدخول في تفاصيل دقيقة، هذه بعض الاستنتاجات التي توصلت إليها الدراسات التفصيلية لسد الطلب على الكهرباء حيث خلصت إلى التالي:

- كمية الغاز الطبيعي المتاح لقطاع الطاقة، الذي يشكل حالياً الوقود الرئيسي لتوليد الكهرباء في دولة الإمارات، لن تكون كافية لتلبية الطلب على الكهرباء بشكل كامل في عام 2020.

- الخيار الثاني هو استخدام النفط الخام أو أنواع أخرى من الوقود الهيدروكربوني السائل مثل الديزل لتلبية الطلب المتوقع. ورغم أن هذا الخيار قابل للتطبيق عملياً لتعويض النقص في إمدادات الغاز، إلا أنه ذو تكلفة تجارية عالية جداً للدولة ويعتبر خياراً سيئاً من ناحية الأداء البيئي.

- وثمة خيار ثالث تم تقييمه وهو استخدام الفحم الطبيعي. وهذا الخيار ذو مواصفات منافسة تجارياً مقارنة بالخيارات الأخرى، وأيضاً قابل للتطبيق من الناحية التقنية، ولكن النتائج تظهر أن أداءه البيئي سيئ جداً، كما أن الاعتماد على الفحم يطرح أسئلة أخرى متعلقة بضمان أمن إمدادات الوقود على المدى الطويل، والقلق في تعطل وصول الشحنات.

- مصادر الطاقة البديلة والمتجددة مثل؛ الطاقة الشمسية، وطاقة الرياح وغيرها، تعتبر واعدة من الناحية التكنولوجية، حيث تتجه دولة الإمارات وبشكل مكثف إلى تطوير هذه التكنولوجيا لاستخدامها في سد الحاجة للطاقة. ومع ذلك، لا يمكن لهذه المصادر أن تلبي سوى جزء صغير فقط من الطلب على الكهرباء.

هذا التقييم قادنا بطبيعة الحال إلى الدور الذي يمكن أن تلعبه الطاقة النووية مستقبلاً في قطاع الطاقة في دولة الإمارات، حيث خلصت النتائج إلى أن تطوير برنامج سلمي للطاقة النووية المدنية يُعتبر حلاً ممكناً وقابلاً للتطبيق لسد احتياجات البلد من الطاقة. فعلى عكس العديد من المصادر الأخرى للطاقة، يمكن لمحطات الطاقة النووية توفير مصدر للكهرباء موثوق به من شأنه أن يوفر الكهرباء اللازمة لمناطق حضارية كبيرة، كما أنها مجربة على نطاق واسع خاصة

أن الموارد العالمية من اليورانيوم «الوقود النووي» مضمونة ويتوفر اليورانيوم بكميات تجارية في العالم إذ يصاحب التوسع في استخدام الطاقة النووية في العالم بذل جهود إضافية في عمليات التنقيب عن اليورانيوم وتجويد استخداماته مما يجعل سوقه تتسم بالثبات.

وتعتبر تكلفة الكهرباء المولدة من الطاقة النووية ذات ميزة تنافسية مقارنة بمصادر الكهرباء الأخرى سواء من الناحية التجارية أو البيئية، علاوة على أن العقدين الماضيين قد شهدا تحسناً كبيراً في موثوقية المحطات النووية وسجلها التشغيلي من ناحية السلامة والأمان، كما أنها سوف تسهم في إدخال المعرفة التقنية على قطاع الصناعة بشكل عام. لهذه الأسباب تقرر أن الطاقة النووية تمثل خياراً لدولة الإمارات لا يمكن تجاهله، في إطار جهودها المبذولة لتأمين قطاع الطاقة مستقبلا.

تحديد نهج السياسة

وإدراكاً من حكومة دولة الإمارات ووعيها للاعتبارات الخاصة التي تحيط بتطوير وبناء المفاعلات النووية السلمية، قامت بوضع نهج سياسي لتوضيح رؤيتها وتحديد الطريقة التي ستتبعها لتطوير برنامج نووي سلمي وطني. ويشرح هذا النهج المسؤوليات والاستراتيجيات، والمبادئ التي سيعتمد عليها في تطوير هذا البرنامج الوطني، كما يبيّن النوايا السلمية للبرنامج والدوافع من ورائه. ويحقق هذا النهج إضافة نوعية للدولة بأن تصبح نموذجاً لغيرها من الدول لتطوير برنامجها الخاص للطاقة النووية السلمية تحت دعم كامل من المجتمع الدولي وبطريقة تعزز الأمن والسلامة وحظر الانتشار، وبالتالي يتم وضع تجربة الدولة معياراً للدول الأخرى ودلالة على أهمية إشراك المجتمع الدولي في رسم نهج يعتمد على الشفافية والتعاون المشترك. وهذا هو النهج الذي أود أن أشرحه بإيجاز في هذا اللقاء، وهو سياسة الدولة بشأن تقييم وتطوير الطاقة النووية.

كما أسلفنا فقد أظهرت الدراسات من قبل الجهات الحكومية أن الطاقة النووية تمثل خياراً منافساً من الناحية التجارية والبيئية في توليد الكهرباء في دولة الإمارات، وبناء على ذلك وضعت الحكومة مجموعة من المبادئ التوجيهية التي من شأنها ضمان تنفيذ البرنامج على مستوى عالمي مصحوب بدعم واسع على المستويين الوطني والعالمي، وهذه المبادئ هي:

1 - الالتزام بالشفافية التشغيلية في البرنامج.


سمو الشيخ سلطان بن زايد آل نهيان



2 - الالتزام بأعلى معايير حظر الانتشار النووي.

3 - الالتزام بأعلى معايير السلامة والأمن.

4 - التعاون المباشر مع الوكالة الدولية للطاقة الذرية.

5 - تطوير البرنامج عبر شراكة مع الحكومات ذات الخبرة في قطاع الطاقة النووية.

6 - الالتزام بتنفيذ برنامج يضمن الاستدامة طويلة الأمد.

بعد وضع هذه المبادئ، بدأت حكومة دولة الإمارات جهودها على كافة الأصعدة لتحديد أفضل الممارسات الدولية في ميادين الخبرة التشغيلية والسلامة والأمن، وحظر الانتشار، وقامت بتوظيف العلاقات السياسية الدولية وغيرها للتواصل مع الدول التي لديها الخبرة الفنية ذات الصلة بما في ذلك الحكومات الأجنبية، والوكالة الدولية للطاقة الذرية وغيرها من خبراء الصناعة النووية من جميع أنحاء العالم لضمان الوصول الى أفضل الممارسات المتاحة والذهاب إلى أبعد مما هو مطلوب، وبما يتفق مع سياسة الدولة العامة في الحفاظ على مبادئ الحكومة التى حددتها. وفي مارس عام 2008 تمت صياغة ومراجعة وثيقة السياسة العامة التي أقرها مجلس الوزراء وصدرت بصورتها الحالية في أبريل 2008 وأصبحت متاحة للجميع للاطلاع عليها.

لقد جسدت وثيقة السياسة العامة هذه المبادئ، واحتوت على استراتيجيات محددة، وتعهدات قطعتها الحكومة على نفسها رسمياً في تحقيق أهداف هذه السياسة، لذلك تعتبر هذه الوثيقة الأساس والإطار العملي الذي سيتم من خلاله تنفيذ برنامج الدولة للطاقة النووية السلمية.

هناك عنصران رئيسيان لتعزيز ثقة الجمهور؛ الأول يتعلق بالانفتاح الذي ينطوي على فكرة الحصول على المعلومات، والآخر يتعلق بالشفافية التي تعنى بوضوح عملية صنع القرار وكيفية استخدام المعلومات التي لدينا. وكلاهما على درجة كبيرة من الأهمية بالنسبة للمتلقي لفهم الاستنتاجات واستيعاب قرارات الحكومة في هذا المجال، وللاطلاع على المعلومات.

لقد ترجمت الدولة التزامها بمبدأ الشفافية في كافة الخطوات التي قامت بها وأيضا سوف تستمر في الخطوات المستقبلية وفي مقدمتها تنفيذ البرنامج بشراكات دولية، وإنشاء اللجنة الاستشارية الدولية لبرنامج الإمارات. والهدف من اعتماد مبدأ الشفافية التشغيلية في برنامج الدولة هو تحقيق أهداف السياسة العامة في توضيح النوايا السلمية للبرنامج، وأيضا تحقيق أهداف البرنامج في تحقيق أعلى معايير السلامة النووية وحظر الانتشار، وفي الوقت ذاته تحقيق

مبدأ الثقة في البرنامج من جانب المجتمع المحلي والدولي. وبالتالي فإن إعداد ونشر وثيقة سياسة الحكومة يعد خطوة أولى لتحقيق هذا المبدأ.

وهناك جانب آخر من جوانب الشفافية وهو التصديق على جميع الصكوك الدولية المطلوبة في مجالات السلامة والأمن وعدم الانتشار والتقيد بالتزاماتها، وإدراج الالتزامات ضمن التشريعات الوطنية من خلال صياغة قانون وطني شامل يعالج الاستخدامات السلمية للطاقة النووية، وأيضاً إنشاء الهيئة الاتحادية للرقابة النووية؛ وهي مؤسسة بالغة الأهمية لحماية الشفافية والحفاظ عليها في قطاع الطاقة النووية، فقد أكدت سياسة دولة الإمارات أن إنشاء سلطة تنظيمية مستقلة هي حجر الزاوية لأي برنامج نووي يضمن الثقة والاستقرار والسلامة النووية.

هذا الالتزام يذهب إلى مرحلة أعمق من الالتزامات السياسية المنبثقة عن معاهدة عدم الانتشار واتفاق الضمانات الشاملة مع الوكالة، ويتجاوزه ليشمل الالتزام بالتخلي عن التخصيب وإعادة المعالجة، ودعم التكنولوجيات المقاومة للانتشار النووي في المحطات النووية في المستقبل باستخدام تكنولوجيا المفاعلات من الجيل الثالث التي تبرد بالماء الخفيف.

كما شمل الالتزام انضمام دولة الإمارات إلى صكوك دولية أخرى منها اتفاقية الوكالة بشأن الحماية المادية للمواد النووية، واتفاقية الأمم المتحدة الدولية لقمع أعمال الإرهاب النووي، بالإضافة إلى ذلك وقعت الإمارات على البروتوكول الإضافي لاتفاقية الضمانات مع الوكالة الدولية في عام 2009 الذي يعزز من القدرة التفتيشية للوكالة الدولية للتأكد من عدم تحويل أي مواد نووية لأغراض غير سلمية، كما قدمت رسمياً قبولها لتعديل اتفاقية الحماية المادية للمواد النووية.

وتمشياً مع هذا النهج، فإن دولة الإمارات تدعم أيضاً جهود الوكالة والجهود الدولية الأخرى لتطوير شبكة متعددة الأطراف لضمان توريد الوقود النووي، بما في ذلك إنشاء بنك للوقود النووي الدولي، والذي من شأنه أن يوفر التأمين ضد انقطاع إمدادات الوقود النووي للدول. وقد تعهدت حكومة دولة الإمارات بتقديم 10 ملايين دولار كدعم لهذا الالتزام ومساهمة منها لإنشاء هذا البنك تحت إطار إشراف الوكالة الدولية للطاقة الذرية. أما بالنسبة للتخلي عن تطوير قدرات للتخصيب، فدعوني أوضح ماذا يعني هذا الالتزام في إطار التعهد بأعلى معايير حظر الانتشار. لو نظرنا إلى دورة الوقود النووي، سوف نلاحظ أن الدورة تنقسم إلى عدة مراحل؛

تبدأ بالتنقيب، وتمر بعملية التخصيب إلى صنع الوقود النووي، وتحميله في المفاعل النووي، ومن ثم يتم التعامل مع الوقود المستهلك بأحد السيناريوهات الموضحة، بإعادة المعالجة أو التخزين.

دورة الوقود النووي

من منظور حظر الانتشار، هناك مرحلتان في هذه الدورة يمكن أن تعتبر تكنولوجيا حساسة لأنها توفر إمكانية لتحويل الوقود النووي إلى استخدامات غير سلمية. الأولى مرحلة التخصيب؛ حيث تستخدم المفاعلات النووية المدنية اليورانيوم منخفض التخصيب، وفي حالة ارتفع معدل التخصيب إلى معدلات عالية جداً يصبح من الممكن استخدام هذه المواد في صنع أسلحة نووية.

المرحلة الحسّاسة الأخرى هي إعادة معالجة الوقود المستهلك؛ حيث ينتج عن هذه العملية عنصر «البلوتونيوم»الذي يمكن استخدامه بعد معالجته عبر مراحل مختلفة في صنع أسلحة نووية. بالنظر إلى هذه المراحل الحساسة، كان قرار دولة الإمارات بالتخلي عن التخصيب وإعادة المعالجة، والاعتماد على السوق العالمية لتوريد الوقود النووي وفق نظام التعاقد، وهو أمر تقوم به مؤسسة الإمارات للطاقة النووية، مما يجعل من برنامج دولة الإمارات غير قابل للتحول إلى أغراض غير سلمية. بطبيعة الحال يتساوق هذا القرار مع مبادئ سياسة الدولة.

وعموماً، نجد أن نسبة تخصيب الوقود النووي الذي يستخدم بالمفاعلات النووية المدنية لإنتاج الطاقة ما بين 3 – 5 %، وبعض مفاعلات الأبحاث تستخدم حتى 20 %، ولكن هذه النسبة يمكن أن تشكل قلقاً للمجتمع الدولي. في السابق كان يصل تخصيب الوقود المستخدم بالمفاعلات البحثية إلى 90 %، أما في الوقت الحالي فقد ظهر توجه عالمي لتصميم مفاعلات تستخدم الوقود المنخفض التخصيب، وبالنسبة لدولة الإمارات فإنها سوف تستخدم نسبة التخصيب المتعارف عليها والتي لا تزيد عن 5 %.

كما هو الحال مع الالتزام بالشفافية وحظر الانتشار، تعتبر دولة الإمارات أن أي برنامج للطاقة النووية يجب أن يشمل وبنفس الدرجة على التعهد بمعايير السلامة النووية والأمن النووي. وتم ترجمة هذا الالتزام في إطار تطوير البنية المؤسسية والتشريعية ذات الصلة، حيث تم إصدار القانون الاتحادي للاستخدامات السلمية للطاقة النووية في عام 2009 والذي بدوره أنشأ هيئة اتحادية مستقلة للرقابة النووية تضمن أن تكون الاستفادة من الطاقة النووية في الإمارات بما يتفق وأعلى معايير السلامة النووية والأمن النووي، كما تنص عليه توجهات السياسة العامة للدولة.

من الناحية الفنية تؤمن دولة الإمارات أن اختيار مفاعلات متقدمة من الجيل الثالث من شأنه أن يعزز السلامة في برنامجها. حيث تمتاز المفاعلات من هذا النوع مقارنة بمفاعلات الجيل الثاني بالعمر التشغيلي الطويل الذي يمتد عادة إلى 60 عاماً. وأيضا الارتفاع في معدلات استغلال الوقود النووية مما يعزز من استخدامه ويقلل من حجم النفايات. والأهم من ذلك تم إدخال تحسينات كبيرة فيما يتعلق بالسلامة النووية، وتشمل هذه التحسينات إضافة نظم متقدمة لضمان تجنب وقوع الحوادث.

استقطاب وتطوير الموظفين ذوي الكفاءة العالية

من الأهمية الاستفادة من الخبرات العالمية في قطاع الطاقة النووية، وأيضاً العمل على استقطاب موظفين ذوي كفاءة عالية ووضع برامج تدريبية لتنمية الموارد البشرية وتطويرها إلى جانب وضع آليات التمويل المناسبة. ومنطلق هذه الجوانب هو ضمان أن تكون كافة الأنشطة النووية في الدولة وفي مختلف الأوقات تحت إدراة كوادر بشرية ماهرة ترفدها العمالة الوطنية المدربة وفقاً لرؤية مستدامة.

وتشير تجارب البلدان الأخرى التي تنفذ برامج الطاقة النووية إلى أن التعليم والتدريب المستمرين يشكلان حجر الزاوية في تعزيز البنية التحتية اللازمة لدعم أي برنامج للطاقة النووية. وإدراكاً لهذا الشرط، تحرص دولة الإمارات على تنمية مواردها البشرية سواء عبر إرسال البعثات الطلابية أو تدريب الموظفين من القطاعات الأخرى أو تدريب الموظفين في محطات الطاقة النووية خارج الدولة لاكتساب المهارات اللازمة لتنظيم وإدارة وتشغيل والمحافظة على سلامة المنشآت النووية، خصوصاً أنه تعهد دولة الإمارات لتطوير برنامج للطاقة النووية صاحبه وضع استراتيجية موازية لتعزيز الموارد البشرية لتلبية الاحتياجات من الموظفين في المستقبل.

التعامل مع النفايات النووية

أيضاً لاحظنا أن القوانين الوطنية كما في القانون النووي للدولة تنص على إنشاء آليات لتمويل وإدارة النفايات على المدى الطويل، وتمويل إخراج المنشأة النووية من الخدمة، وتقييم التكلفة. وتخضع هذه الآليات للرقابة ويلتزم بها أي مشغل لمنشأة نووية.

عموماً هناك عدة توجهات في العالم في مجال التعامل مع المخلفات النووية أو الوقود

المستهلك، فمثلاً في فرنسا تجري عملية إعادة معالجة للوقود بهدف استخلاص بعض المواد منها لإعادة استخدامها كوقود لمفاعل آخر، ويتم تخزين جزء منها لفترات تصل إلى مئات السنين. وفي الولايات المتحدة الأمريكية يتم تخزين الوقود المستهلك لفترة تصل إلى 60 عاماً في مسابح تبريد فوق الأرض، وفي مرحلة لاحقة يتم تخزينه حصرياً في مواقع معينة داخل باطن الأرض ولفترات طويلة . أما بخصوص دولة الإمارات، فإن استراتيجيتها في التعامل مع النفايات النووية لا تزال تحت الدراسة والتقييم، لتحديد أفضل الممارسات، وأجود الخيارات المحتملة مع الأخذ بالاعتبار؛ العامل التجاري، والموقع المناسب للتخزين، ومدى إمكانية إرسال الوقود المستهلك لدولة أخرى لمعالجته وتخزينه، وتوفر عامل الصحة والسلامة. يجب أن نلاحظ بأننا لن نحتاج إلى التكنولوجيا المتوفرة في أعمال التخزين ومعالجة الوقود قبل 40 – 50 عاماً، ورغم ذلك، فإنني أعتقد أنه من الضروري أن تكون دولة الإمارات منفتحة على مختلف الاستراتيجيات وتواكب التطور في التكنولوجيا النووية. وهذا أمر مهم لجهة الدولة أو لجهة شعب الإمارات، فقد أكدت الدولة أنها سوف تبذل أقصى جهودها للتأكد من تطبيق أفضل الممارسات وأفضل الحلول.

التعاون مع الوكالة الدولية والحكومات المسؤولة

تعاونت دولة الإمارات مع الوكالة منذ بداية التفكير بإنشاء البرنامج وحتى قبل الإعلان عن وثيقة السياسة العامة، فالإمارات عضو في الوكالة منذ عام 1976 . وشملت أوجه التعاون المشترك تقديم المساعدة التقنية في مجالات السلامة والأمن والتنظيم، وتحسين التنمية البشرية، فضلاً عن الدخول في أنشطة مستمرة. ويتفرع التعاون مع الوكالة إلى النقاط التالية:

– توافق المعايير المستخدمة في برنامج الدولة مع لوائح الوكالة الدولية لمعايير السلامة والإرشادات الأمنية.

– الاستفادة من خدمات المراجعة من خبراء الوكالة في تطوير البنية التحتية والتشريعية؛ فقد تم التعاون مع الوكالة خلال إعداد القانون النووي للاستخدامات السلمية بصورة مباشرة للتأكد من توافق نصوص القانون مع لوائحها.

– الاستفادة من الأدوات والمواد التدريبية المتقدمة التي تطورها الوكالة.

– تبادل المعلومات، وعقد ورش العمل والمؤتمرات من خلال برامج التعاون التقني.





- التفاعل مع الوكالة حول تنفيذ الصكوك الدولية والاتفاقيات المعقودة مع الوكالة.

إن العلاقة بين دولة الإمارات والوكالة الدولية للطاقة الذرية هي علاقة مستمرة تشمل مستويات معينة خاصة تلك التي تتصل بمرحلة إنشاء البرنامج ومتابعته والتفتيش عليه. فقد تم إعداد «خريطة الطريق إلى النجاح» لترجمة توصيات الوكالة - التي حددت متطلبات البنية التحتية في 19 مجالاً التي يجب توافرها لتطوير الطاقة النووية السلمية- إلى خطة تنفيذ عملية لتلبية احتياجات دولة الإمارات، وقد ضمت الخطة الأولية:

- تقييم للبنية التحتية والقدرات الحالية المتواجدة في دولة الإمارات.

- تقديم توصيات لتحسين وتطوير عناصر جديدة للبنية التحتية.

- تقييم الاستراتيجيات الصناعية والتجارية المختلفة مثل استراتيجيات التعاقد لبناء المفاعلات النووية واستراتيجيات التعاقد لبناء وتشغيل المفاعلات على الدولة.

- تحديد جدول زمني مفصّل لتنفيذ التعاقد وبناء محطات الطاقة النووية في الإمارات ويشمل المهام المتعلقة كتطوير البنية اللازمة للقطاع.

- تحديد المهام والإجراءات الضرورية التي يجب البدء بها بأسرع وقت للحفاظ على الجدول الزمني وضمان نجاح التنفيذ.

- تحديد المسؤوليات والأدوار بين قطاعات الحكومة والمؤسسات في تنفيذ مهام الخطة.

من الواضح أن تطوير برنامج الطاقة النووية السلمية يتطلب مجموعة من المهارات المؤسسية والتقنية ليست متاحة بسهولة في دولة الإمارات. ولذلك، فإن الدولة تعتمد بدرجة كبيرة على سجلّها الحافل في إقامة شراكات دولية واعدة ومهمة في مختلف القطاعات التنموية لإيجاد شراكات مع الدول الصديقة على المستوى الحكومي الثنائي في سياق تطوير البرنامج. وسيجري هذا التعاون بطريقة منظمة وعلى مستوى عال وهو من شأنه أن يوفر واجهة سياسية، فضلاً عن دعم الهياكل التنظيمية والتقنية ويتحقق ذلك من خلال اتفاقات ثنائية مع الحكومات الأخرى. وقد أبرمت الحكومة الإماراتية بالفعل اتفاقات ثنائية للتعاون النووي مع بعض الدول. ومن شأن هذه الاتفاقات توفير المساعدة التقنية وتبادل الخبراء، وتسهيل نقل المعدات والتقنيات اللازمة لتطوير برنامج محلي للطاقة النووية في دولة الإمارات. بالإضافة إلى ذلك، تعتمد سياسة الدولة على الاستفادة من الخبرات المناسبة في الهيئات غير الحكومية المتخصصة.

الاستدامة على المدى الطويل

وتلتزم الحكومة بتطوير البرنامج بشكل يضمن نجاحه واستدامته على المدى الطويل. وبالنظر إلى التحديات والموارد اللازمة لتنفيذ البرنامج، فقد أكدت سياسة الدولة على التزامها بتكريس الموارد الكافية وإعداد البنية التحتية اللازمة لضمان استمرارية التشغيل الآمن والمستمر للطاقة النووية في القطاع. والهدف من تنفيذ برنامج الدولة للطاقة النووية السلمية هو بناء وتشغيل محطات الطاقة النووية التجارية بأعلى معايير السلامة والأمن النووي وعدم الانتشار، وتحت دعم دولي ومحلي، وعلى مستوى تشغيلي عالمي منافس.

وفق هذا التصور، يمكن أن يسهم برنامج الطاقة النووية إسهاما كبيراً في النمو الاقتصادي لدولة الإمارات ولسد الاحتياجات الأساسية لعقود من الزمان، تتبع سياسة الدولة في إنشاء قطاع للطاقة النووية يحافظ على الدعم المستمر للشركاء ويغري من ناحية الاستثمار الدولي، وفي نفس الوقت نفسه يسفر عن عائدات كافية لدعم بنية تحتية ورقابية ذات مهنية عالية تضمن المستوى العالي من المهنية والسلامة وضمان التحسين المستمر لممارسات السلامة والأمن وفقاً لأفضل المعايير العالمية، كما انعكس هذا الالتزام في جميع خطوات البرنامج، كمثال على ذلك اختيار نوع محدد من المفاعلات يكون قياسياً لكل المفاعلات التى ستبنى في الدولة.

ومنذ إطلاق سياسة دولة الإمارات في عام 2008، حظي البرنامج بدعم دولي واسع لما يتسم به من معايير واستراتيجيات تضمن نجاح البرنامج في ظل دعم دولي ومحلي واسع، خصوصا باعتباره نموذجاً:

يتيح للدول غير النووية الاستفادة من الطاقة النووية في ظل دعم دولي وبشكل يسد الاحتياجات الوطنية دون إثارة قلق المجتمع الدولي.

يلغي المكوّنات الحسّاسة في البرنامج والتي يمكن بها تحويله إلى برنامج غير سلمي، وبالتالي يبدد المخاوف المتعلقة بانتشار الأسلحة النووية.

يعتمد على الاستفادة من الخبرات العالمية والشراكة الدولية في تطوير القدرات المحليّة مما يضمن نقل أفضل الممارسات والخبرات إلى القطاع المحلي.

يعتمد على بناء أفضل أنواع تكنولوجيا المفاعلات النووية المتقدمة في الأمان التشغيلية.

يعتمد على رؤية واضحة وشفافة واستراتيجية طويلة الأمد تضمن نجاحه وبدون تعريض نظام عدم الانتشار الى خطر.

وبمضي التقدم في البرنامج، فإن الالتزامات الواردة في ورقة السياسة العامة سوف تستمر في توفير الإطار الداعم، وبما يتماشى مع أفضل الممارسات الدولية، وهو برهان ساطع للدور الأساسي الذي تقوم به دولة الإمارات كعضو ملتزم ومسؤول في المجتمع الدولي تسعى لوضع معيار جديد في مجال تطوير برنامج الطاقة النووية السلمية. وقد تم تنفيذ العديد من الخطوات المتقدمة لتطوير برنامج الإمارات للطاقة النووية من أبرزها: قانون الاستخدامات السلمية للطاقة النووية 2009، وإنشاء الهيئة الاتحادية للرقابة النووية، وإنشاء مؤسسة الإمارات للطاقة النووية، وتصميم تنسيق استراتيجي قوي بين كافة الهيئات الحكومية في الدولة في كافة القطاعات المتعلقة سواء في قطاع التعليم، وقطاع الطاقة، والقطاع الصناعي، والتخطيط العمراني، وقطاع الأمن لتنفيذ المشروع، والتعاقد لبناء أول أربعة مفاعلات في أبوظبي في ديسمبر عام 2009 مع تحالف شركات، وأيضا عملية اختيار الموقع في مراحل متقدمة حيث تم إجراء دراسة مبدئية لتحديد المواقع الجغرافية المناسبة في الدولة لإنشاء محطات الطاقة النووية، وتم إجراء تحليل للسوق من أجل التوصل إلى نموذج تجاري مقبول لدى الشركات المشاركة في بناء محطات الطاقة النووية ضمن برنامج الطاقة النووية المحتمل.

وسوف يتم التشغيل التجاري لأول مفاعل في عام 2017 حسب الجدول الزمني المتوقع لإنتاج الكهرباء . هذه ستكون الدفعة أو المرحلة الأولى على طريق بناء وتشييد قطاع الطاقة النووية الذي سيتضمن في نهاية المطاف مجموعة من المفاعلات النووية التي تشكل قطاعاً قوياً يعتمد على خدمات وموارد بشرية عالية المهنية.

وخليجياً فقد أعلنت القمة الخليجية في ديسمبر 2006 التي عقدت في الرياض عن تبني برنامج مشترك لدول مجلس التعاون للاستخدامات السلمية للطاقة النووية. وقامت دول الخليج بإجراء دراسة الجدوى الأولية لاستخدامات الطاقة النووية لانتاج الكهرباء وتحلية المياه لمعرفة متطلبات البنية التحتية وآلية العمل، وهناك توجهات كثيرة في دول مجلس التعاون لتطوير برامج سلمية وتم إنشاء اللجان وورش العمل بالتعاون مع الوكالة الدولية للطاقة الذرية ■

المحاضرة بتاريخ 23/ 6 / 2010

المحاضر :

د. عبد الوهاب عبدول

رئيس المحكمة الاتحادية العليا بأبوظبي

عنوان المحاضرة:

الشريعة الإسلامية كنظام قانوني يتجاور مع غيره من الأنظمة القانونية الكبرى في العالم

سيرة ذاتية

- رئيس المحكمة الاتحادية العليا بأبوظبي 2005.
- دكتوراه في القانون العام من جامعة محمد الخامس بتقدير امتياز مع درجة الشرف والتبادل 2006.
- وكيل نيابة من الدرجة الثانية عام 1978، ثم رقي إلى منصب وكيل نيابة من الدرجة الأولى، ثم رئيس نيابة استئناف أبوظبي.
- عُين قاضياً بمحكمة أبوظبي الاتحادية الاستئنافية 1984.
- ترأس اللجنة الوطنية المكلفة بوضع قانون للجرائم الإرهابية.

من أهم مؤلفاته

- مدى مشروعية التغييرات الإقليمية الناتجة عن استخدام القوة.
- تاريخ المحكمة الاتحادية العليا.
- حقوق الإنسان.
- مدخل للجريمة الإرهابية.



الشريعة الإسلامية كنظام قانوني يتجاور مع غيره من الأنظمة القانونية الكبرى في العالم

يقول الله سبحانه وتعالى في محكم تنزيله: «ولو شاء ربك لجعل الناس أمةً واحدةً ولا يزالون مختلفين» «هود: 118». ويقول أحد كبار مفسري القرآن الكريم «ابن كثير» في تفسيره لهذه الآية «إن الناس مختلفون في أديانهم واعتقاداتهم ومللهم ونحلهم ومذاهبهم وآرائهم». ومؤدى هذا التفسير أن الاختلاف يؤدي إلى تعدد وتنوع الأنظمة القانونية التي تضبط السلوك الاجتماعي للفرد داخل وخارج مجتمعه ودولته، وأن هذا الاختلاف حتمية بشرية فرضه اختلافهم من حيث أديانهم واعتقادهم ومللهم ونحلهم، وتنوع مصالحهم السياسية والاقتصادية والتجارية.

وما لم ينظر إلى العلاقة بين الأنظمة القانونية المختلفة على أنها علاقة تجاور؛ مهما اختلفت في أسسها العامة أو خصائصها أو مصادرها أو وسائل تحقيق أهدافها، وأنها جميعاً تهدف إلى تحقيق العدالة، أيّاً كانت صورة هذه العدالة، ومن ثم فقد تتقارب أو تتجاوز أو تتقاطع مع بعضها في الصيّغ والأشكال التى تتبعها لتحقيق تلك العدالة. وما لم ينظر إلى أنه لا ينبغي أن يكون نظاماً قانونياً واحداً هو المعيار الأوحد الذي تقاس به باقي الأنظمة القانونية في العالم، فيحكم بصلاحها وسوئها، نجاحها وفشلها، عدالتها وظلمها، على ضوء فلسفة ومفاهيم وأفكار ذلك النظام. أقول ما لم يُنظر إلى كل ذلك، فإن التصادم القانوني بين الأنظمة القانونية سوف يبقى قائماً ومحتملاً.

وما ساقني إلى هذا القول، أنه قبل سنتين وتحديداً في يومي 23و24 من شهر مارس 2008، اجتمع في مدينة أبوظبي رؤساء اثنتين وثلاثين محكمة عليا يمثلون كافة الأنظمة القانونية الكبرى في العالم لمناقشة موضوعات مختلفة تناولت التحديات التي تواجهها العدالة في القرن الأول من الألفية الثالثة. وكان موضوع الشريعة الإسلامية كنظام

قانوني يتجاور مع غيره من الأنظمة القانونية الكبرى في العالم أحد تلك الموضوعات، حيث حظي بنقاشات حادة؛ خاصة عند صياغة مشروع الإعلان الختامي للمؤتمر، إذ أبرزت تبايناً في وجهات النظر حول هذا الموضوع الأمر الذي انعكس بوضوح في صياغة الإعلان الصادر عن المؤتمر. فالإعلان لم يقّر أن الشريعة الإسلامية نظام قانوني يتجاور مع غيره من الأنظمة، بل أقر بوجود أحكام في الشريعة الإسلامية تتناسق مع الأنظمة القانونية الأخرى.

إن هذا الموقف يطرح التساؤل، ليس عن السبب الذي يجعل بعض أكبر رجال القضاء في العالم يترددون في الإقرار صراحة بصلاحية الشريعة الإسلامية لأن تكون نظاماً قانونياً يتجاور مع غيره من الأنظمة القانونية الكبرى في العالم. بل وعن مدى قدرة قواعد وأحكام هذه الشريعة أن تقدم نظاماً قانونياً يتجاور مع غيره من الأنظمة القانونية الأخرى.

إن هذا التساؤل الأخير هو موضوع هذه المحاضرة، والذي يتعين في بدايتها تحديد معاني ثلاثة مصطلحات، هي: الشريعة الإسلامية، والتجاور، والنظام القانوني. توصلاً إلى بيان المجالات التي تتجاور فيها الشريعة مع غيرها من الأنظمة القانونية.

الشريعة الإسلامية:

يُستخدم مصطلح «الشريعة الإسلامية» للتعبير عن معان عدة. فقد يستخدم المصطلح للدلالة على الأحكام المنزّلة من عند الله عزّ وجلّ، أي ما شرعه الله لعباده من الأحكام الكلية والتفصيلية المختلفة سواء ما تعلق منها بالمعتقدات أو بتهذيب النفس أو بالأحوال الشخصية أو بالعقوبات أو بالمعاملات. وبهذا المعنى فالشريعة الإسلامية ترادف كلمة «الدين الإسلامي». وقد يستخدم المصطلح للتعبير عن القواعد العامة المجردّة الملزمة والمتصفة بالجزاء الدنيوي المادي أو الجزاء الأخروي الديني. وبهذا المعنى فالشريعة الإسلامية تعني «القانون الإسلامي». كما يستخدم المصطلح كذلك للتعبير عن ما يبديه المشتغلون «الفقهاء» في الدين الإسلامي من آراء وفتاو، وما يضعونه من شروحات وبيان للآيات والأحاديث النبوية ليُعرّفوا بها شروط ومجالات انطباقها، والعمل بها، والحالات التي لا تنطبق فيها، والأحكام الشرعية والعملية



التي يستنبطونها من آيات القرآن الكيرم والأحاديث النبوية الشريفة. وبهذا المعنى فالشريعة الإسلامية تعني «الفقه الإسلامي».

هذا التعدد في المعنى؛ أدى إلى بروز إشكاليتين كبيرتين، إحداهما تحديد ما يُعتبر من المصادر الأصلية للشريعة الإسلامية أي «القانون الإسلامي» وما يعتبر من مصادرها التبعية أو الثانوية. والأخرى تحديد ما إذا كانت الشريعة الإسلامية بمعنييها الأول والثالث – المذكور أعلاه- المصدر الرئيس والأول للتشريع في الدول الإسلامية، أم أنها إحدى مصادر التشريع. لقد انتقلت أصداء هذه الإشكالية إلى بعض أحكام القضاء الذي جاء متأثراً بهما. ودون الدخول في شرح وسرد هاتين الإشكاليتين، فإن مصطلح الشريعة الإسلامية في مقام هذه المحاضرة، يعني: «مجموعة المبادئ القانونية العامة المستمدة من الدين الإسلامي، والتي تضع أنساقاً محددة لتنظيم حياة الناس، وبدونها لا يستقيم حالهم ولا يقوم حق أو عدل، أو حضارة أو تقدم، أو سلم أو رخاء». وبهذا المعنى فالشريعة الإسلامية ترادف كلمة «نظام قانوني».

التجاور

يُقصد بتجاور النظم القانونية هو تماثلها وتساويها من حيث قدرتها على إشباع الحاجات القانونية للمخاطبين والخاضعين لأحكامها. ولا يشترط للقول بتوافر التجاور، أن تتماثل النظم القانونية جميعها تماثل إنطباق، أو أن تتساوى في أحكامها تساوي الميزان. بل يكفي أن يكون التماثل أو التساوي في الأسس الكلية دون التفصيلات الجزئية، وفي الأهداف دون الوسائل. فالوفاء بالعهد، وتنفيذ العقود بحسن نية، وأصلية براءة الإنسان، ومساواة البشر جميعاً... إلخ، هي من الأسس الكلية لأي نظام قانوني. وتحقيق العدل والمساواة، والأمن والسلامة، والتنمية والرفاه، أهداف رئيسة لأي نظام قانوني.

ويكون التجاور قائماً، حتى وإن اختلفت الأنظمة القانونية في أسسها العامة أو خصائصها أو مصادرها، إذا كان النظام قادراً على إنتاج قواعد عامة للسلوك تنظم حياة ومصالح جماعات تنتمي إلى حضارة واحدة، أو أمة واحدة، متى كانت تلك القواعد على وفاق مع الأنظمة القانونية الأخرى السائدة في المجتمعات أو الحضارات

الأخـرى، حتى وإن اختلفت تلك المجتمعات في دياناتها، ولغاتها، وقربها وبعدها الجغرافي، ورصيدها الحضاري.

ومن أمثلة التنافر أو التضاد مع الأنظمة القانونية الأخرى، أن تأتي شريعة ما لتُعطي لأتْباعها صفة الإنسان، وتُضّفي على من عداهم صفة الحيوان. أو تقضي شريعة أخرى بجواز أخذ مال الغير خلسة أو تدليساً أو غصباً ويعتبر هذا الأخذ مصدراً للملكية. أو عندما يقضي نظام قانوني ما بجواز قتل الأجنبي... إلخ. وبالمقابل، فإن الوفاق بين الأنظمة يكون قائماً إذا كان أحدها يَعتَبرُ البلوغ معياراً لِسن المسؤولية الجنائية الكاملة، بينما يعتبر الثاني بلوغ الإنسان سن معينة هو المعيار لبلوغ سن المسؤولية الجنائية «الرشد الجنائي». ويُعتبر الوفاق قائماً كذلك حينما تقرر شريعة ما أن المضرور يستحق تعويضاً عن الضرر، لكنها تقّدر هذا التعويض بمبلغ محدد، بينما تترك شريعة أخرى تقدير التعويض الجابر للقاضي، فالشريعتان تتفقان على أن المضرور يستحق التعويض.

وصفوة القول إنَ تجاور الأنظمة القانونية يعني تماثلها وتساويها من حيث قدرتها على إيجاد الأسس والمبادئ الكلية التي تحقق أمن ورفاهية واستقرار وسلامة الأفراد والمجتمعات والدول.

النظام القانوني

يعرف النظام القانوني بأنه مجموعة القواعد القانونية الموضوعية والإجرائية، التي تبين الحقوق والواجبات وتحصر المحظور والمباح من الأفعال والأقوال، وتحدد وسائل الإثبات، وتعّينْ المحاكم المختصة بنظر المنازعات، وترسم إجراءات رفع ونظر الدعاوى والمطالبات القضائية وإصدار الأحكام فيها وتنفيذها وطرق الطعن عليها، وهي تشكل ما يُعرف في علم القانون بـ «النظام».

ومن ثم فمتى أوردت أية ديانة أو شريعة مثل هذه القواعد فإنها تصلح لأن تكون نظاماً قانونياً قائماً بذاته. وبناء على المعنى السابق بيانه، فإن النظام القانوني يتعدد بتعدد الموضوعات التي يتناولها. فثمة نظام قانوني للحقوق والواجبات، ونظام قانوني للجرائم والعقوبات، ونظام قانوني للإثبات، ونظام قانوني للقضاء، ونظام قانوني





لإجراءات التقاضي، ونظام قانوني للأحوال الشخصية... إلخ.

ولا يشترط لاعتبار مجموعة القواعد القانونية تلك نظاماً قانونياً، أن تأتي على ذكر كل التفاصيل الجزئية للموضوع محل التنظيم، بل يكفي أن يورد النظام القواعد العامة والأصول الكلية للموضوع ويترك التفاصيل والجزئيات لقواعد قانونية أخرى مساوية لها أو أدنى منها في الدرجة والقوة.

ولا أهمية لمصدر القواعد المكونة للنظام، فسواء أكان مصدرها التشريع المكتوب أو العرف، أو المبادئ القانونية أو القواعد الدينية المتمتعة بالجزاء المادي الدنيوي أو أي مصدر آخر ملزم. كما لا أهمية لنوع تلك القواعد، فسواء أكانت من مرتبة النصوص الدستورية أو من نصوص القوانين العادية أو من نصوص اللوائح والأوامر التنفيذية... إلخ.

وأخيراً، فلا أهمية كذلك – للقول بوجود نظام قانوني – أن تكون قواعد النظام متفقة مع القواعد المماثلة لها في أنظمة قانونية أو شرائع أخرى. فلا يشترط مثلاً أن يكون نظام إجراءات التقاضي في القوانين اللاتينية متفقة في كل تفاصيلها مع مثيلتها في القوانين الأنجلو ساكسونية أو أن يكون نظام الإثبات الجنائي في الشريعة الإسلامية متفق مع تفاصيل قواعد ذات النظام في الشريعة اللاتينية وهكذا. وبهذا المعنى، فإن الشريعة الإسلامية تشكل نظاماً قانونياً قائماً بذاته.

ويمكن القول بأن التجاور يأتي في ثلاثة مجالات:

أولاً: التجاور في مجال الأسس.

أساس الشيء هو قاعدته التي يقام عليها، أو هو أصل كل شيء ومبدؤه. وأساس الشريعة الإسلامية هو الدين الإسلامي. فأحكام هذه الشريعة «النظام القانوني» منزّلة من السماء إما على شكل وحي متلوّ «قرآن»، أو على شكل سنة نبوية (قولية أو فعلية أو تقريرية». وحتى في الحالات التي شرعت فيها الأحكام أخذاً بالرأي البشري، فإنها تعد كذلك أحكاماً ذات صبغة دينية لأنها مستمدة ومستنتجة أساساً من القرآن أو السنة.

هذا الأساس الديني يعطي لهذه الشريعة خصوصيتها من حيث أنها نظام قانوني. فأتباع هذه الشريعة والمؤمنون بها، يرون أن تطبيقها والخضوع لأحكامها يقوم على

المعنيين الإيماني التعبدي، والمعنى القانوني العملي. وأن بعض أحكامها غير قابلة للتغيير أو التبديل لأنها مبنية على أدلة قطعية من القرآن والسنة، وأن الوقائع أثبتت أن هذه الشريعة قادرة بآلياتها الفقهية أن تنتج نظماً قانونية حياتياً للمجتمعات الإسلامية بمن فيها من مسلمين وغير مسلمين تسد حاجاتهم من القواعد القانونية المنظمة لشؤون حياتهم وأموالهم وعلاقاتهم في غير ما تضاد أو تصادم مع الأنظمة القانونية الأخرى في العالم.

ومن مجالات التجاور في الأسس كذلك، احتواء الشريعة الإسلامية على مبادئ وقواعد قانونية كلية تتفق قيُمها وأحكامها مع الأنظمة القانونية الأخرى كقاعدة «الوفاء بالعهد»، وقاعدة «تنفيذ العقود بحسن نية»، وقاعدة «أصلية براءة ذمة الإنسان»، ومبدأ «الأصل في الأشياء وأفعال الإباحة»، ومبدأ «الضرورات تبيح المحظورات»، ومبدأ «شخصية المسؤولية وشخصية العقوبة»، ومبدأ «لا جريمة ولا عقوبة إلا بنص»، ومبادئ أخرى. هذا الاتفاق في القواعد الكلية، يجعل من الشريعة الإسلامية نظاماً قانونياً يتناغم مع الأنظمة القانونية الأخرى السائدة في العالم.

ثانياً: التجاور في مجال الخصائص العامة.

تُقاس قوة وحيوية أي نظام قانوني بقدرة قواعده ومبادئه العامة على استيعاب حركة الحياة اليومية للمجتمع، وتقديم الحكم القانوني لمشاكل تلك الحركة. ولقد أثبتت الدراسات الجادة التي تناولت الشريعة الإسلامية باعتبارها النظام القانوني، أن هذه الشريعة تتميز بخاصيتين أساسيتين تجعلانها شريعة تتجاور مع غيرها من الشرائع القانونية؛ من حيث قدرتها وقابليتها لإشباع حاجات المخاطبين بها عبر تغيّر وتبدّل الزمان والمكان والحاجات، وهاتان الخاصيتان هما المرونة والشمول.

فالناظر في تاريخ الشريعة الإسلامية، يلحظ ودونما أي جَهْد، أن هذه الشريعة استطاعت أن تستوعب حركة الحياة اليومية في كل زمان ومكان طبقت فيه، فمثلما أعطت الحلول القانونية لمشاكل حركة الحياة اليومية داخل المجتمعات العربية الصحراوية والحضرية، أعطت وبنفس الكفاءة الحلول المناسبة لمشاكل حركة الحياة اليومية داخل المجتمعات الإسلامية غير العربية الحضرية منها والزراعية والرعوية وغيرها. وكما أوجدت الحلول للعربي البدوي في قلب الصحراء أو في أرض الحضارات

في بلاد الرافدين ومصر وغيرهما، فقد أعطت وبذات المقدار الحلول والقواعد القانونية للفارسي والهندي والأندونيسي وغيرهم. وكما أوجدت الحلول لمشاكل الحركة اليومية في عهد الدولة الإسلامية، أعطت كذلك الحلول في العهود اللاحقة بدءاً من عهد الممالك الإسلامية، مروراً بالعهد الاستعماري الأوروبي للدول الإسلامية، وانتهاءً بالعصر الحديث، وحتى وقتنا الحاضر.

إن هذه القدرة الفريدة على تقديم الحلول القانونية لمشاكل حركة الحياة اليومية، نتاج طبيعي للمرونة التي تتمتع بها الشريعة الإسلامية عبر اعتمادها لعدد من الأسس والقواعد والمبادئ القانونية الكلية.

فحينما تحظر الشريعة الإسلامية فعل السرقة تحت قاعدة كلية هي «عدم جواز أكل أموال الناس بالباطل»، وترتقي بهذا الفعل إلى مصاف الجريمة، فإنها لا تحدد شكلاً واحداً لهذا الفعل ولا وسيلة معينة تحدث بها السرقة، ولا مالاً معيناً تقع عليه السرقة دون مال. بل تترك كل ذلك لتغيّر الزمان والمكان والحال. فكما تقع السرقة بأخذ المال مباشرة فإنها تقع كذلك بأية وسيلة كالاستعانة بالحيوان أو بالوسائل الآلية، أو بالتقنيات الحديثة وغيرها. وهذا ما يعطي لهذه الشريعة المرونة والديناميكية للتعامل مع كل تطور وتجديد، أو تغيير وتبديل.

إلى جانب المرونة، فإن هذه الشريعة تتمتع كذلك بخاصية « الشمول ». ويقصد بالشمول: قدرة الشريعة على إيجاد القواعد القانونية التي تنظم كافة جوانب متطلبات الحياة اليومية للأفراد والمجتمعات. فثمة قواعد كلية تنظم المعاملات المدنية والتجارية، وقواعد تنظيم العلاقات الأسرية، وقواعد أخرى تنظّم شؤون القضاء والتقاضي والعدالة الجنائية، وقواعد تُعنى بالعلاقات الدولية.... وهكذا. وسوف يكون من الإطالة سرد وشرح كل تلك القواعد.

ثالثاً : التجاور في مجال المصادر.

يكون النظام القانوني فاعلاً، كلّما كانت مصادره قادرة على ترفيده بقواعد قانونية متجددة تلبي احتياجات ومتطلبات الخاضعين لأحكامه. هذه الفعالية هي التي تجعل من أي نظام قانوني سمة التجاور مع غيره من الأنظمة القانونية النظيرة له، ويقف معه على قدم المساواة. وقد سبق القول، أن الشريعة الإسلامية (كنظام قانوني)

تستقي مصادرها الأساسية من منبعين اثنين هما: القرآن والسنة النبوية.

أولاً: القرآن «التشريع القرآني»

يُعّرف فقهاء الإسلام، القرآن بتعريفات مختلفة. وهي وإن اختلفت في عباراتها وصياغاتها، إلا أنها تتفق جميعها على أن القرآن هو كلام الله المُنَزّل على رسوله محمد (ص) بلفظه ومعناه، والمكتوب في المصحف والمنقول إلينا عبر الرسول محمد (ص) نقلاً متواتراً بلا شبهة. وأحكام القرآن على ثلاثة أنواع:

- أحكام اعتقادية تتعلق بما يجب على المكلّف اعتقاده في الله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر.

- أحكام خُلقية تتعلق بما يجب على المكلّف أن يتحلى به من الفضائل، وما يجب أن يتخلى عنه من الرذائل.

- أحكام عملية تتعلق بما يصدر عن المكلّف من أقوال وأفعال (عدا النوعين السابقين). والأحكام العملية إما أن تكون «أحكام عبادات» من صلاة وزكاة وصوم وحج ونُذر ويمين... إلخ. أو «أحكام معاملات» من عقود وتصرفات وجنايات وغيرها، مما يقصد بها تنظيم علاقة المكلّفين بعضهم ببعض، سواء أكانوا أفراداً أم أمماً أم جماعات. وأحكام المعاملات في عصرنا الحاضر متعددة ولا تقع تحت حصر، وأهمّها أحكام الأحوال الشخصية، والأحكام المدنية، وأحكام المرافعات، والأحكام الدستورية، والأحكام الدولية، والأحكام الإقتصادية، والأحكام الجزائية.. إلخ.

وبيان القرآن للأحكام على ثلاثة أنواع:

بيان كلي؛ أي بذكر القواعد والمبادئ العامة التي تكون أساساً لتفريع الأحكام وابتنائها عليها كالأمر بالشورى «وشاورهم في الأمر». والأمر بالعدل في الحكم «إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل» وإباحة المحظور عند توافر حالة الضرورة «فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه».

بيان إجمالي، أي بذكر الأحكام بصورة مجملة، وترك تفصيلاتها للسنة النبوية، كقولة تعالى «وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة»، «ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا»، «وأحل الله البيع وحرّم الربا». فهذه الأحكام فصلتها وبينتها السنة النبوية القولية والتقريرية والعملية.

بيان تفصيلي؛ أي ذكر الأحكام بصورة تفصيلية لا إجمالي فيها. كبيان تفصيلات أنصبة الورثة، والمحرمات من النساء في النكاح، وبيان عقوبات بعض الجرائم الحدية كعقوبة السرقة والقذف والحرابة.

وتنقسم نصوص القرآن من جهة دلالتها على ما تضمنته من الأحكام، إلى نصوص قطعية الدلالة على حكمها، ونصوص ظنية الدلالة على حكمها. فالنص القطعي الدلالة، هو ما دّل لفظه على معنى معيّن ولا يحتمل غير هذا المعنى، ولا مجال لفهم معنى غيره.

أما النص الظني الدلالة، فهو ما دّل على معنى ولكن يحتمل أن يؤول إلى معنى آخر كلفظ «قروء» في قوله تعالى «والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قُرُوء» فلفظ «قروء» في اللغة العربية يطلق مرة على الحيض ومرة على الطُهر.

ولا يثور أي شك عند المسلمين في حجية نصوص القرآن وسموها على سائر النصوص الأخرى، سواء دلت – نصوص القرآن – على حكم قطعي الدلالة أو ظني الدلالة.

ثانياً: السنة النبوية «التشريع النبوي»

يُقصد بـ «السنة النبوية» في الاصطلاح الشرعي هو ما صدر عن نبي الإسلام من قول أو فعل أو تقرير و ما تحدث به النبي محمد (ص) في مختلف المناسبات مما يتعلق بتشريع الأحكام، كقوله «من شرب الخمر فاجلدوه». والفعل ما كان يفعله النبي محمد (ص) من أعمال العبادة مثل أداء الصلوات بهيئتها وأركانها، وأدائه مناسك الحج. والتقرير ما أقره النبي محمد (ص) مما صدر عن بعض الصحابة بسكوته مع ظهور علامات الرضا، أو بيان موافقته واستحسانه.

وتحتل السنة المكانة الثانية في تدرج مصادر التشريع الجنائي الإسلامي، وهي حجة على المسلمين. وهناك آيات كثيرة في القرآن الكريم تبين مكانة السنة وحجيتها كمصدر للتشريع. وأحكام السنة من الناحية التشريعية، لا تعدو أن تكون واحدةً من ثلاثة:

1 – سنةٌ مقررةٌ ومؤكدةٌ لتشريع جاء في القرآن؛ فيكون الحكم التشريعي له مصدران وعليه دليلان. دليل مثبت من آيات القرآن، ودليل مؤيد من سنة الرسول

محمد (ص). كتحريم السرقة والزنا والقتل، وكالأمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والحج وغيرها.

2 - سنة مفصلةٌ ومفسرةٌ لما جاء في القرآن مجْملاً، أو مقيدة ما جاء فيه مطلقاً، أو مخصصة ما جاء فيه عاماً. فيكون هذا التفسير أو التقيد أو التخصيص الذي وردت به السنة بياناً للمقصود في الحكم الذي جاء به القرآن. كبيان تفصيلات الصلاة.

3 - سنةٌ مثبتةٌ حكماً سكت عنه القرآن، فيكون هذا الحكم ثابتاً بالسنة ولا يدل عليه نص القرآن. مثل تحريم الجمع (الزواج) بين المرأة وعمتها أو خالتها.

وتنقسم السنة بحسب سندها (روايتها) إلى ثلاثة أنواع:

سنة متواترة، وهي ما رواها عن النبي محمد (ص) جمع لا يتصور العقل تواطأهم على الكذب لكثرتهم وأمانتهم. ثم رواة عن الجمع، جمع مثله، وعن هذا الجمع جمع آخر وهكذا. ومن هذا النوع السنن العملية في أداء الصلاة والصوم وغيرها من شعائر الدين. والسنة المتواترة قطعية الورود عن النبي محمد (ص)، لأن تواتر النقل يفيد الجزم والقطع بصحة الخبر.

ب- سنة مشهورة، وهي ما رواها عن النبي محمد (ص) صحابي أو أكثر، دون أن يبلغ الرواة حدّ التواتر. ثم رواها عن هذا الراوي أو الرواة جمع من جموع التواتر، ورواها عن هذا الجمع جمع مثله. والسنة المشهورة قطعية الورود عن الصحابي أو الصحابة الذين تلقوها عن النبي محمد (ص) لتواتر النقل عنهم، ولكنها ليست قطعية الورود عن النبي محمد (ص)، لأن أول من تلقى عنه ليس جمع التواتر.

ج- سنة الآحاد، وهي ما وراها عن النبي (ص) آحاد لم تبلغ جموع التواتر، بأن رواها عن النبي محمد (ص) واحد أو إثنان أو جمع لم يبلغ حدّ التواتر، ورواها عن هذا الراوي مثله، وهكذا حتى وصلت إلينا بسند طبقاته آحاد لا جموع التواتر، وسنة الآحاد ظنية الورود عن النبي محمد (ص)، لأن سندها لا يفيد القطع.

وكل سنة من أنواع السنن الثلاثة (المتواترة والمشهورة والآحاد) حجة واجب اتباعها والعمل بها. أما المتواترة فلأنها مقطوع بصدورها وورودها عن النبي محمد (ص). وأما المشهور أو سنة الآحاد، فلأنّها وإن كانت ظنية الورود، إلا أن هذا الظن يُرجّح بما توافر في الرواة من العدالة وتمام الضبط والإتقان.

هذان المصدران هما الرافدان اللّذان يرفدان الشريعة الإسلامية بالقواعد الكلية والمبادئ الأساسية لأي تنظيم حياتي عملي يحتاجه الإنسان. وهما مصدران ثابتان في أحكامهما الكلية لا يتغيران ولا يتبدلان بتغير أو تبديل الزمان والمكان، فلأحكامها من العمومية والتجريد والتقعيد ما يُتيح للمشرع البشري أن يستنبط منهما أحكاماً وقواعد قانونية فرعية وتفصيلية في كل منحى وشأن في الحياة؛ فضلاً عن أنهما «القرآن والسنة» يلعبان دور الدستور في الأنظمة والشرائع الأخرى، إذ يتعين أن تتوافق أحكام باقي المصادر معهما، فإن خالفهما القياس كان قياساً غير شرعي، وإن خالفهما العرف كان عرفاً فاسداً، وهكذا مع سائر المصادر الأخرى التبعية أو الثانوية.

الخاتمة :

إن الشريعة الإسلامية، بما تحتويه من أسس كلية ومبادئ قانونية عامة مستمدة من الدين الإسلامي، قادرة – مثلها مثل غيرها من الأنظمة القانونية – على إيجاد الحلول القانونية التفصيلية لكل متطلبات حركة الحياة اليومية، مما يجعلها – وبحق – نظاماً قانونياً متكاملاً قائماً بذاته، تتجاور مع غيرها من الأنظمة القانونية الكبرى في العالم. وهي تعتمد في ذلك على سعة أسسها العامة، وشمول خصائصها، وديناميكية مصادرها ■

المحاضرة بتاريخ 2010/06/28

المحاضر :

د. الدكتور مبروك عطية

أستاذ ورئيس قسم اللغويات بكلية الدراسات الإسلامية بجامعة الأزهر

عنوان المحاضرة:

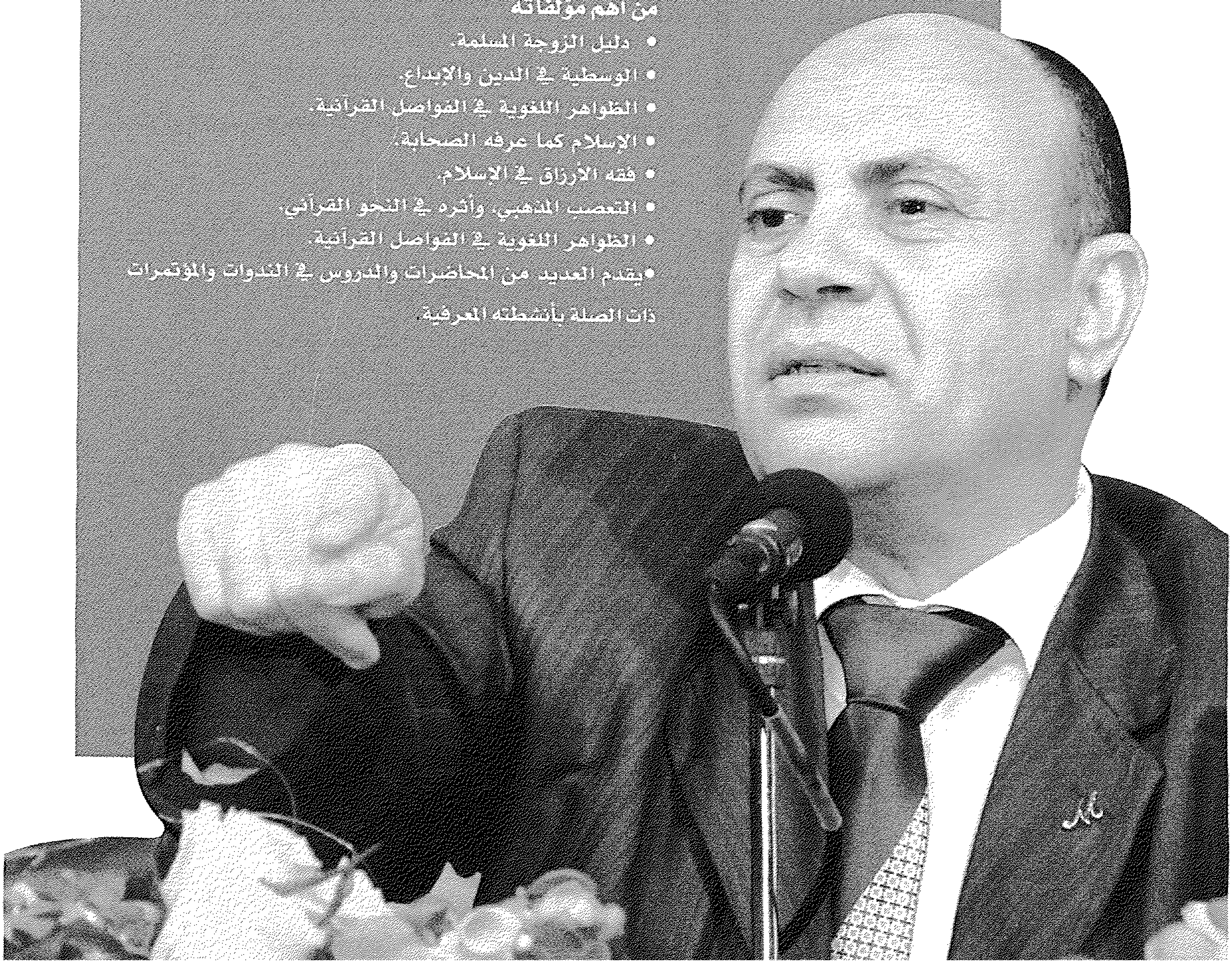
أثر التأسي بالرسول صلى الله عليه وسلم في مسيرة الحياة

سيرة ذاتية

- دكتوراه في اللغة العربية حول القضايا النحوية والصرفية في تفسير القاضي البيضاوي عام 1988.

من أهم مؤلفاته

- دليل الزوجة المسلمة.
- الوسطية في الدين والإبداع.
- الظواهر اللغوية في الفواصل القرآنية.
- الإسلام كما عرفه الصحابة.
- فقه الأرزاق في الإسلام.
- التعصب المذهبي، وأثره في النحو القرآني.
- الظواهر اللغوية في الفواصل القرآنية.
- يقدم العديد من المحاضرات والدروس في الندوات والمؤتمرات ذات الصلة بأنشطته المعرفية.



أثر التأسي بالرسول صلى الله عليه وسلم في مسيرة الحياة

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا رسول الله، خير من صلى وصام وعاش الحياة وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه، وبعد ..

أشكر هذه الدعوة الكريمة من المركز الثقافي بأبوظبي، متى دعا لبّيتُه والقلب كله شوق لأني واحد من جمهورية مصر العربية تعترف بلسان الحال قبل المقال بأنها امتداد للإمارات، وبأن المرء إذا ما وطئت قدمه أرض الإمارات فإنما يطأ الخيرات التي بذرها الشيخ زايد في مصر وفي العالم وفي الإنسانية كلها.

وبهذه المناسبة قبل الدخول في موضوع محاضرتي، لأول مرة أذيع بين يدي حضراتكم هذه الأبيات التي كتبتها، والله يعلم بأنني لم أقصد نشرها، وإنما طويتها بين الضلوع والأوراق وآن لها الليلة أن تقال، هي أبيات في رثاء شيخ الشيوخ زايد رحمة الله عليه:

الناس تنقص بالحياة
وأنت رغم الموت زايد
ما يستوي البحران
جار بالحياة وثم راكد
ما يستوي الرجلان
هذا قائم وأخوه قاعد
أو يستوي الركبان
ركب مودع أو ركب عائد
هل يستوي القلبان
قلب غافل أو ذاك ساجد

مــا يــســتـوي الـشــخـصــان
هــذا آكــل وأخـــوه صــائـد
فــلــطــالمـا كــنــت الــنــدى
وسـواك مـثـل الـصـخـر جـامـد
تـروي الجفاف على الضفاف
وأنـــت في الإرواء رائـــد
نطقت على أرض الإمــارات
الــنـخـيـل بـخـيــر شــاهــد
قــالــت فــسـيـلـي نـبـتـة مـن
غــرسـة لـلـشـيــخ زايـــد
وتـعـطّـرت أنـفـاس صـبـح
حـولــهـا والــلـيـل سـائـد
جـمـع الحـضــارة أصــلـهـا
وحـديـثـهـا فـالـشـيـخ صـامـد
فـــإذا الإمـــــارات الحــديـثـة
درّة بـــين الــقــلائـــد
ويــظــل ديــنــاً أن جـمـعـت
شـتـاتـهـا وأخـــوك راشـد
ويــظــل ديــنــاً أن خـلَـفـت
خـلـيـفـة بــالخـيـر واعــد
ذاك الـــذي زاد الــبــلاد
حـضــــارة فـــأبـــوه زايـــد
ولـــكـل نجـل مـــن بـنـيـك
عــزيمـــة تـعـلـي الـقـواعـد
عـمّـت أيـاديـك الـبـسـيـطـة
كـلـهـا يــا ابـــن الأمــاجـد
وأخـــص مـصـر حـبـيـبـتـي
أرض الـكـنـانـة والـسـواعـد

فلقد بنيت بأرضها
مُدناً تعد من الفرائد
ما كل من تحت الثرى
في ما أرى يدعى براقد
فالناس تنقص بالحياة
وأنت رغم الموت زايد

ولعل هذه المقدمة التي هي من باب الوفاء والحب الذي لا مبالغة فيه ولا مطمع وإنما هي كما قلت أبيات جادت بها مشاعر حب دون نية لنشرها لكن ما المانع.

موضوع المحاضرة تناولته في كتاب أعددته في حوالي أربع سنوات تحت عنوان «المعهود عن سيد الوجود محمد(ص). ما معنى التأسي برسول الله ؟ ما فكرة المحاضرة؟ وما جزئيتها ؟ المعهود يعني الذي ما كان ينقطع. «عُهد عنه» يعني منذ عرفه الناس إلى أن مات. فأي مسلم في أمته اليوم يعهد عنه شيئ لا يتخلف أبداً. مع مر السنين يتغير حالنا وسلوكنا بشكل لا يبقى لنا معهود في حياتنا. هل راح هذا المعنى من حياة خير من غدا وراح ؟ الإجابة هي لا . هذا هو «التأسي».

لكي نشرح أكثر: في يوم من الأيام رأت أم المؤمنين عائشة النبي(ص)يصلي بعد العصر. كان طبعاً معروفاً في الفقه الإسلامي أن لا صلاة بعد العصر. عائشة رضي الله عنها تراه صلى الله عليه وسلم يصلي ركعتين بعد العصر، فقالت أليست هناك صلاة بعد العصر؟ قال (ص) هاتان ركعتان نسيتهما قبل العصر، فهما قضاء. يعني أنه نسي أن يصلي ركعتين سنة قبل العصر، شغلته الشواغل فصلاهما. تقول المصادر، فما تركهما حتى مات. يعني أنه ظل طوال عمره من ذاك اليوم يصلي ركعتين بعد العصر.لأنه صلاهما وإن كانتا قضاء إلا أنها أصبحت عادة لديه لأنه صلى الله عليه وسلم ما ترك شيئاً حسناً فعله أبداً.

ثانياً، المعهود عليه صلى الله عليه وسلم أنه كان أول من يصافح، المعهود، يعني كل سنة وكل شهر وكل يوم وكل دقيقة. فهو مبرمج، معنى المعهود: مبرمج. نحن لسنا مبرمجين على أي شيئ أبداً لذلك تخلفنا وضعفنا. المعهود عنه صلى الله عليه وسلم

هو هذا فقط. إذا أردت أن تتعرف عليه، فهو هذا. كان صلى الله عليه وسلم أول واحد يمد يده وآخر من ينزعها عند السلام. أما نحن فهرجنا وضيعنا الدنيا كلها. لكن هو عليه الصلاة والسلام، أول من يمد يده وآخر من يسحب يده. هذا هو المعهود عنه (ص) مهما كانت الظروف ومهما كان مزاجه وحاله. كما أن المعهود عنه صلى الله عليه وسلم قضاء حاجات الناس، مقدمة على أي شيئ في الدنيا كلها. هناك معلومة في الفقه نادراً ما انتبه إليها الناس: في مرة من المرات أقيمت الصلاة والنبي عليه الصلاة والسلام كان على وشك إمامة المصلين. فإذا برجل يمسك به من يده لحاجة ما يريد من رسول الله أن يقضيها له، فذهب معه (ص)إلى آخر المسجد. بلال أقام الصلاة والنبي عليه الصلاة والسلام لا يزال مع الرجل حتى قضى حاجته ومن ثم ذهب لإمامة الناس.

لما بلغ رسول الله أن قوم بني الحارث بن عوف كانوا يتراشقون بالحجارة في ساحة قُباء، أسرع إليهم (ص) للإصلاح بينهم وقد جاء موعد الصلاة، فقال له بلال بن رباح: يا رسول الله إذا حضرت الصلاة هل أؤذّن؟ قال له الرسول: أذّن، فقال بلال وهل أقيم؟ فقال عليه السلام: أقم، ثم قال بلال: ومن يصلي بالناس، قال الرسول : أبوبكر. هذا الموقف يظهر الأهمية التي كانت يكتسيها مفهوم الإصلاح بين الناس و قضاء الحوائج عند رسول الله (ص)، وكان عليه الصلاة والسلام أول من يطبق مقولته « والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه».

ويسرد أنس رضي الله عنه في الحديث أن امرأة كان في عَقْلها شيء فقالت يا رسول الله؟ إن لي إليك حاجة فقال (يا أم فلان انظري أي السكك شئت حتى أقضي لك حاجتك) فخلا معها في بعض الطرق حتى فرغت من حاجتها. هذا هو المعهود عنه صلى الله عليه وسلم.

هناك أيضاً معلومة طريفة. تعلمون أن أول إمرأة خلعت نفسها في الإسلام هي جميلة، وهذه كانت امرأة، ثابت ابن قيس بن شماس رضي الله عنه، خطيب النبي (صلى الله عليه وسلم). هي خلعت نفسها منه لسبب واحد، لأنه كان شديداً على النساء.أتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله! ثابت بن قيس لا أعيب عليه في خلق ولا دين، ولكني أكره الكفر في الإسلام، فقال لها النبي صلى الله عليه


تحت رعاية سمو الشيخ
سلطان بن زايد آل نهيان
ممثل صاحب السمو رئيس الدولة
رئيس نادي تراث الإمارات
ينظم نادي تراث الإمارات والمركز الثقافي الإعلامي
المهرجان الرمضاني الخامس
إبتداء من ٢ إلى ٢٢ رمضان ١٤٣١
الموافق ١٢ / ٨ لغاية ١ /
CMC

وسلم: أتَرُدين عليه حديقته؟ وكان قد أصدقها حديقة، فقالت: نعم يا رسول الله! فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: اقبَل الحديقة وطلِّقها تطليقة.

هذه القصة مذكورة في حديث مشهور رواه البخاري وغيره. لاحظوا أن المرأة قصدت النبي (ص) قُبيل صلاة الفجر . النبي لم يقل لها ما هذا الوقت الذي تأتين فيه لطلب حاجتك؟ ولم يردها لتعود بعد الصلاة أو بعد طلوع الفجر، فهي جاءت تشكو هماً نفسياً. لو صرفها منه لانتحرت. لأن الإنسان قد يصبر على الجوع وقد يصبر على العطش، ولكن لن يصبر على ألم نفسي يعانيه. يريد من يُطمئنه ويبث فيه الأمن والجمال، وإلا ما قال الله تعالى ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله، إن الله يغفر الذنوب جميعها﴾، فأنزلها بشارة وكانت أرجى آية على ما أقر به عمر وابن مسعود و غيرهما من الأخيار الذين عرفوا القرآن وخبروه وعملوا قدر طاقتهم، وتوفاهم الله وهو راض عنهم وهم راضون عنه، كما مات الرسول (صلى الله عليه وسلم) وهو راض عنهم أجمعين.

القضية هنا هي قضاء الحاجة في حينها. ما مدى التأسي بالرسول (صلى الله عليه وسلم). نحن إذا قضى بعضنا حاجة بعض، قضيناها بحسب الظروف و«المزاج» بعيداً عن سنة الحبيب صلى الله عليه وسلم. ولنا فيه قدوة حسنة لا مجال لا للظروف ولا العواطف ولا الأحوال في قضاء الحاجة وأداء الفرائض. فمثلاً الصلاة فريضة تؤدى في وقتها عملاً بقوله تعالى ﴿إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً﴾، هل الرجل الذي يموت أعز أحبائه يعفى من الصلاة؟ طبعاً لا. رغم حزنه الشديد وألم الفراق لا يجوز له أن يؤخر الصلاة دقيقة واحدة إذا حان وقتها. بل حتى المريض لا تسقط عنه الصلاة بأي حال من الأحوال، يصلي حسب قدرته البدنية.

يقال أن رجلاً جاء إلى الرسول عليه الصلاة والسلام و قال له لا أحفظ الفاتحة اعفني من الصلاة يا رسول الله. فقال الرسول (ص) (لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب) حديث متفق عليه. فقال له رسول الله بعدما حاول تلقينه الفاتحة دون جدوى، قل «الله أكبر» سبع مرات، فقالها الرجل. فقال له رسول الله صلِّ بها. الفاتحة سبع آيات، تقابلها سبع تكبيرات.

كان صلى الله عليه وسلم خير الناس وخيرهم لأهله، حيث قال عليه الصلاة

والسلام: (خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي). ورَوت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أن النبي (ص) قال لها إني لأعلم إذا كنت عني راضية وإذا كنت علي غضبى، قالت فقلت من أين تعرف ذلك فقال أما إذا كنت عني راضية فإنك تقولين «لا ورب محمد»، وإذا كنت علي غضبى قلت «لا ورب إبراهيم» قالت قلت أجل والله يا رسول الله ما أهجر إلا اسمك.

للأزواج أن يقتبسوا من هذا الخُلق النبوي في محادثاتهم لزوجاتهم. هذا المعهود.

وكي نتأسى بالرسول كذلك يكفينا أن نتقفى أثر الصحابة الذين تربوا بمدرسة النبي محمد عليه الصلاة والسلام لتعلم فنون علاقاتهم الأسرية. في صحيح البخاري ومسلم كان لأبي طلحة غلاماً مريضاً. عندما عاد من عمل له سأل زوجته أم سليم عنه، وكان ابنه قد توفي وما أرادت زوجته أن تفاجئه بالوفاة، ولكنها أخفت عنه الأمر، وعرضت بما يدل على وجوده، وقالت: «استراح وسكنت نفسه». وكانت تعني أنه مات، وهو فهم أنه استراح من المرض. فقدمت له العشاء، وتهيأت وتجمّلت، وجامعها، وبعد ذلك أخبرته، فأنكر عليها، وقام ودفن ابنه بثبات، وبعد ذلك جاء إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وأخبره فقال: (هل عرستما؟ قال: نعم. فقال: بارك الله لكما في ليلتكما).

هذه المرأة لا تشعر صاحبها بأن همّاً ألمّ بها، فهو عائد أشد حاجة إليها وإلى دفئها وهو أبوه والسبب في وجوده .فما ينبغي أن يكون المسبب سبباً في إعدام السبب .من أوجد هذه العبقرية في نفس هذه المرأة ؟ هذه عبادة واتباع لمنهج محمد صلى الله عليه وسلم. من طينة المؤمنين الذين ﴿صدقوا ما عهدوا الله عليه، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا﴾. وكذلك هناك روايتان وردتا في طريقة العرض في هذه القصة. سأكتفي بذكر واحدة منهما، وهي: أن الزوجة قالت لأبي طلحة «أما دريت؟» .قال بأي شيئ دريت؟ قالت أما دريت أن بني فلان أُعطوا أمانة فلما جاء صاحبها ليستردها غضبوا؟ قال: بئس القوم هم . فقالت أبشر إن الله قد استردّ أمانته، لقد مات الولد. فدفنه وهو في ثبات .

في أثر الصحابة قصص وعبر للمرأة المسلمة كي تتأسى بها في معاملتها مع زوجها، فمثلاً في حديث زينب بنت أبي سلمة تقول: دخلت على أم حبيبة زوج النبي صلى الله عليه وسلم حين توفي أبوها أبو سفيان رضي الله عنه فدعت أم حبيبة بطيب فيه سفره خلوف

أو غيره فدهنت منه جارية ثم مست بعارضيها ثم قالت: والله ما لي في الطيب من حاجة غير أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاث ليال إلا على زوج أربعة أشهر وعشرا، فمست رضي الله عنها الطيب حتى لا تكون راغبة عن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

في صحيح البخاري أيضاً حديث (لا يحل لمؤمن أن يهجر أخاه فوق ثلاث) لكن نحن نهجر بعضنا ثلاثين سنة وأربعين سنة.

خذ العبرة من المعهود عنه عليه الصلاة والسلام في تعامله مع أهله وأزواجه، فقد كان من كريم أخلاقه صلى الله عليه وسلم إحسانه إليهن ورأفته بهن وتلطّفه إليهن وتودّده إليهن. فقد سئلت أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يصنع في بيته؟ قالت: كان يكون في مهنة أهله، فإذا حضرت الصلاة يتوضأ ويخرج إلى الصلاة.

و كلمة «في مهنة أهله »، في حديث البخاري تعني «في خدمة أهله» كذلك.

ماذا تعني «في خدمة أهله»؟ يعني أنه (ص) كان لا يعصي أمراً . لقد خربت بيوت المسلمين لّما تُرك هذا المعهود . من المفروض أن نربي الولد على أن يكون في خدمة أهله لأنه تابع لمن كان في خدمة أهله (صلى الله عليه وسام).

مثلا المعهود عنه كذلك (ص) أنه ما خُيّر بين أمرين إلا اختار أيسرهُما. صدقوني الأمة الإسلامية معظمها اليوم إذا خُير الفرد فيها أو أو جماعة بين أمرين إلا واختاروا أعسرهما، عكس النبي عليه الصلاة والسلام .

أهمية التأسي بالحبيب المصطفى تتجلى كذلك في حفظ أدعيته الشريفة التي عُهد على التضرع بها أمام يدي الله تعالى، و أكثر أدعيته عليه الصلاة والسلام هو (اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار). والقصد في «الدنيا حسنة» هو كل ما من شأنه أن يجعل الدنيا حسنة من زوجة صالحة ومأكل ومشرب وملبس ومركب ومنزل وغيرها. والملاحظ هنا أن الكثير من الناس يعتدي على الله بالدعاء في أسلوب سؤال حوائجه وفي مضونها، وهو ما ينبغي التنبه له. كذلك الذي ينبغي التأسي به في مسيرة حياتنا هو أنه عليه الصلاة والسلام كان يدعو، وهذا معهود عنه على الدوام، بدعاء (اللهم إني أعوذ بك من المَغرَم). فسأله الصحابة فقالوا ما أكثر ما

تستعيد بالله من المغرم. فقال: (إن الرجل إذا غَرِمَ حدّث فكذّب ووعد فأخلف).

سأعرض عليكم بعض المواقف النبوية التي يتجلّى فيها المعهود عنه صلى الله عليه وسلم في باب المزاح وقول الحق. لقد كان (ص) على سمو مكانته وانشغاله بمهام الرسالة وأعباء القيادة وهداية الناس يمزح ويداعب دون أن يخرج أبداً عن دائرة الحق، وهو في مزاحه ومداعبته يقدم معروفاً لأزواجه وأصحابه بما يدخل عليهم من الغبطة والسرور والفرح. يوماً ما جاءت امرأة تسأل عن زوجها فقال لها النّبيُّ صلى الله عليه وسلم: زوجك الذي في عينيه بياض؟ فبكت وظنت أن زوجها عمي، فأعلمت أن عين الإنسان لا تخلو أصلاً من بياض. وهناك مواقف أضحكت النبي عليه الصلاة والسلام وأدخلت على قلبه السرور. ففي حديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي (ص) كان يوما يُحدّث وفي مجلسه أعرابي، فقال (ص) «أن رجلا من أهل الجنة استأذن ربه في الزرع فقال له: ألست فيما شئت قال: بلى ولكني أحب أن أزرع قال: فابذر فبادر الطرف نباته واستواؤه واستحصاده فكان أمثال الجبال فيقول الله دونك يا بن آدم فإنه لا يشبعك شيء.» فقال الأعرابي: والله لا تجده إلا قرشياً أو أنصارياً فإنهم أصحاب زرع وأما نحن فلسنا بأصحاب زرع فضحك النبي عليه الصلاة والسلام.

ينبغي على المسلم إذن عقد العزم واستحضار النية على صدق التأسي بالنهج النبوي ومن ثم إفراغ ما ورثه من سوء العادات. وأن يجتهد بالاطلاع على مناقب خير الخلق. فمحبة الرسول عليه الصلاة والسلام عقيدة راسخة في قلوب المؤمنين ثمرتها الاقتداء به واتباعه وإحياء سنته في حياتنا اليومية. ديننا لا يقف على الأمور الشكلية والمظهرية، وإنما مقاصده تكمن في تجاوز المظاهر إلى المضمون باتباع نهج المصطفى ومكارم أخلاقه وقد تكررت الدعوة إلى ذلك في القرآن الكريم تلميحاً وتصريحاً لقوله سبحانه وتعالى ﴿لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة﴾.

المسلم قد ينحى عن الصراط المستقيم عن جهل وغفلة منه، وعليه تعهد القرآن والسنة ليبقى متمسكا بالعروة الوثقى ، فقد كلمنا الله عن رسولنا بقوله ﴿قم الليل إلا قليلا﴾ فتأسى به ولو بركعتين وقال تعالى ﴿ وثيابك فطهر﴾ فتأسى به بنظافة الثوب وتجميله ■

المحاضرة بتاريخ 19/ 8 / 2010

المحاضر:

الدكتورة عبلة الكحلاوي

عميد كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات في بورسعيد

أستاذة الشريعة الإسلامية في كلية الدراسات الإسلامية والعربية بجامعة الأزهر

عنوان المحاضرة:

قبس من نور الله ..
ومابكم من نعمة فمن الله

سيرة ذاتية

- تولت رئاسة قسم الشريعة في كلية التربية في مكة المكرمة عام 1979.
- ألقت دروساً في الحرم المكي الشريف من عام 1987 إلى عام 1989.
- أسست «جمعية الباقيات الصالحات» في المقطم لرعاية الأطفال الأيتام ومرضى السرطان وكبار السن من مرضى الزهايمر.



قبس من نور اللّه ..
ومابكم من نعمة فمن اللّه

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسول الله أشرف المرسلين حضرة الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم. يسرني أن أتقدم بالشكر الجزيل للأحبة الذين قاموا بتنظيم هذه المحاضرة شاكرة الحفاوة التي وجدتها منذ جئت إلى هذا البلد الطيب راجية أن يجعلنا الله من أتباع رسول الله وأن نرتوي من يده الشريفة، فلا نظمأ بعدها أبداً..

إننا في حاجة كبيرة لشكر الله، وكم نحن في حاجة لأن نردد كلمة الله، ربما أخذتنا الدنيا والحياة، والقصص والأوهام والأحاديث، ونسينا الحق والحقيقة ونسينا الله، نسينا أن نتعرف عليه حق المعرفة، فلا حول ولا قوة إلا بالله العظيم الذي سيبقى ولا شيء بعده وكلنا سنقف بين يديه بعد رحلة قصيرة عبّر عنها الحق بقوله ﴿ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين﴾، هذه الحينية التي قال عنها الإمام علي كرم الله وجهه: (ما ابن آدم إلا أياماً معدودة إذا مضى يوم مضى بعضهً). فيا أيها الإنسان ﴿ما غرك بربك الكريم الذي خلقك فسواك فعدلك في أي صورة ما شاء ركبك﴾. يا أيها الإنسان عليك أن تتعرف على خالقك، ثم على نفسك، ثم على هذه الحياة الدنيا، ثم على ما فيها من مُضيِّعات ومُرغِّبات، ثم على يوم الجزاء، اليوم الذي لا يوم بعده، ففيه تكف الأرحام أن تدفع وتكف الأرض أن تبلع.

إن الرحلة قصيرة، وكل منا منذ أن جاء وهو في طريقه نحو الأبدية، يمر بمعتركات كثيرة لكن في كل دقائق الحياة يكون الله معنا وبجانبنا . فهل نحن نراه حقا ؟ هل نحن نعايش الله وهل نحن نسبح حقاً وصدقاً؟ أم أنها مجرد أقوال وكلمات لا نستشعرها بقلوبنا. فلفظ الجلالة «الله» يحوي سائر أسمائه

وصفاته وأفعاله، وفي كل حرف من حروف الله إمداد نحو السماء. إن كلمة «الله» كلها ذكر، وإذا حذفت الألف الأولى فأنت لله، وإذا قلت لله فأنت من المبتدى إلى المنتهى مع الله، وإذا حُذفت اللام فأنت لَهُ فيبقى هو الله، تُقرأ من آخر الحلق إلى آخر الشفاه، داعين إليه عز وجل أن يرزقنا حبه.

أُثر أن أحد الصالحين كان عندما يقعد في خلوته يقول الله الله الله فجاءه رجل وقال له لم لا تقُل «لا إله إلا الله محمد رسول الله» مع أنها تحوي يوم الإنسان: اثني عَشر حرفاً «لا إله إلا الله» واثني عشر حرفاً «محمد رسول الله» فكأنك في يومك محاط بالله لا إله الا هو. فقال له «أخشى أن أقبض في القبض» فقال له «زدني» فقال له «قل الله»، فقال له «زدني» فقال له «قل الله»، فقال له «زدني» فقال له ﴿قل الله ثم ذَرهُم في خَوضِهم يلعَبون﴾ فصرخ الرجل من فوره فقال «الله» ثم وقع مغشياً عليه ثم توفاه الله. فقبض على الرجل فذهبوا به إلى القاضي، فقالوا له «أقتلته» فقال لهم : كيف، إنها روح حَنَت فدَنت فدُعيت فأجابت، فما ذنبي؟ عرف الله حقاً لهذا كان لا يستطيع أن يتمالك من قوله الله.

ومن عرف الله معرفة حقيقية ذاق حلاوة محبة الله سبحانه وتعالى. وقبل الحديث عن المحبة، نتحدث عن كيف نعرف الحق سبحانه وتعالى. قالوا عنه: العلة الأولى، وقالوا عنه: العقل الأول، والمدبر الأول. وعرفناه نحن من خلال كتاب الكون المقروء بعدما جمعت صفات الجمال والكمال «الله». وإن أردنا أن نتعرف على الحق سبحانه وتعالى، علينا أن ننصت إلى هـؤلاء الذين أحبوه صدقاً، وكانوا يخشونه حقاً، وعرفوه بقلوبهم. يقول الصديق رضي الله عنه عندما سُئل كيف عرفت الله، قال« عرفت ربي بربي ولولا ربي ماعرفت ربي ». ويقول الإمام علي كرم الله وجهه :« إن لم تره العيان فإن القلوب تراه بحقيقة الإيمان ». وفي الأثر قال الحقّ لداوود «يا داوود عرِّفني»، فصمت قليلاً ثم قال: «عرفتك ربي بالفرضانية والبقاء، وعرفت نفسي بالعجز والفناء»، قال «الآن عرفتني». وهناك من عرف الله عن طريق النعمة، وهناك من عرف الله عن طريق المُنعم، هم الذين لا يبتغون إلا هو «الله». وهذا ذوق لا يستشعره إلا من عرفه. فالمحبة والمعرفة في حياة القلب مع المُحيي. لهذا يقول الحق ﴿أوَمن كان


تحت رعاية سمو الشيخ
سلطان بن زايد آل نهيان
ممثل صاحب السمو رئيس الدولة
رئيس نادي تراث الإمارات
ينظم نادي تراث الإمارات والمركز الثقافي الإعلامي
المهرجان الرمضاني الخامس
إبتداء من ٢ إلى ٢٢ رمضان ١٤٣١
الموافق ١٢ / ٨ لغاية ١ / ٩ / ٢٠١٠
CMC

ميتاً فأحييناه﴾. إن المعرفة الحقة هي نور يقذفه الله في قلب من أحبه من عباده. وعندما يقول الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً». فالذوق القائم على الرضا هو حقيقة المعرفة بالله. هناك من عرفه عن طريق النعمة فشكروه وحمدوه وإذا شكروه وحمدوه فقد عبدوه وذكروه، وإذا عبدوه

وذكروه فقد أطاعوه وعبدوه حقاً وصدقاً، وإذا تم ذلك أتموا حقيقة هذه النفس التي أوجدها الله لكي تعبده، لقوله تعالى: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾. فلو علم الإنسان أن مفتاح السعادة يتجلى في هذه المعرفة وفي حقيقة العبودية لله، لَمَا استبدل هذا المقام.

ومما زادني شرفاً وتيهاً وكدت بأخمصي أطأ الثريا
دخولي تحت قولك ياعبادي وأن صيّرت أحمد لي نبيّا

ومن عرف الله عن طريق هذه النعمة سيشكره، وإن شكره نال أجره: ﴿وإن شكرتم لأزيدنكم﴾. ولكن هناك أيضاً معرفة للنعمة تصفو بثلاثة أشياء: أولاً أن يتعرف عليها العبد من خلال نور اليقين الإيماني، وهو نور يقدفه الله في قلب من أحب من عباده، فيشعر الإنسان بالنعمة تتلألأ في قلبه. فبقاء الوالدين على قيد الحياة مثلاً هي نعمة ومكرمة كبيرة من الله، على المرء أن يعتبرها عطية ربانية عظيمة، والذي معه والديه يعيش حلاوة النعمة ويتذوق جمالها من خلال الكلمة الحلوة التي يسمعها من والديه حين يدعوان له من القلب، فالنبي«صلى الله عليه وسلم» قال: «إذا ماتت أم العبد نادى مناد أن سدد وقارب فلقد ماتت التي كنا نرحمك من أجلها» فاعمل الشيء الذي يمكن أن يرحمك الله من أجله. ذلك أن وجود الأم في حياة الإنسان وجود ملائكي وهي عطاء بلا منّ، ودعوة مستجابة من عند الله. إن الذي ينظر إلى هذه النعمة من خلال نور اليقين الإيماني يقول الحمد لله.

والذي ينظر إلى المال فالمال نعمة، لكن هناك واجبات تترتب على هذا المال.

فبالمال تقوم الحياة، وفي نفس الوقت هو مادة الإلهاء. وإذا نظر إليه العبد من خلال نور اليقين الإيماني يخلص إلى أن المال نعمة تترتب عليه حقوق وواجبات، حيث تنفقه على نفسك وعلى أولادك، وتسعد به مَن من حولك وتؤدي به زكاتك وتتصدق به. ولا تنسى أنه زينة و فتنة، فالمال ميال والذهب ذهاب والفضة انفضاض ولا يبقى إلا وجه الله .

للمال إذن ضوابط إيمانية وأخلاقية، كأن تؤمن أن المال مال الله، وأن الرزاق هو الله، كما أن العمل واجب لتحصل على المال الحلال. ومن الضوابط الإيمانية أيضاً الجزاء، (لن تزول قدما عَبدٍ يوم القيامة حتى يسأل عن أربع :عن عمره فيما أفناه، وعن جسده فيما أبلاه وعن علمه ماذا عمل به وعن ماله مم اكتسبه وفيما أنفقه. والضوابط الأخلاقية تتجلى في الصدق والأمانة والوفاء والتعاون والقناعة. فالمال يجب أن نتعامل معاه على أنه صديق وقتي، وأنه سيأتي من يخلفك في هذا المال. واعلم أن ما أنت فيه الآن كان لغيرك من قبلك، وسيؤول إلى غيرك من بعدك وليس لك فيه إلا ما قدمت من عمل، فاسر نفسك على من تجمع له المال. فهناك مقولة لأبي الدرداء «لا تكسب إلا طيباً ولا تدخل بيتك إلا طيباً.» حتى ينتفع به أولادك من بعدك منفعة صالحة. وهناك أيضاً مقولة ليحيى بن معاذ دائماً ما كان يرددها: « مصيبتان تحدثان للعبد عند وفاته، يُؤخذ ماله كله ويُسأل عليه كله». فاحرص أيها الإنسان ألا يكون مدخرك مالاً وإنما يكون أعمالاً.

وهناك أيضاً مشكل مرتبط بالمال، نحن نسميه الإسراف، لكن في يومنا اتخذ وجهاً آخر يسمى الثقافة الاستهلاكية التي بدأت تنتشر وتدخل علينا من أوسع الأبواب ، وهي ثقافة منظمة تتألف من عدة مكونات أهمها «1» الاستمالة، «2» الاستدراج، «3» التعرف على نفسيات هذه الشعوب من خلال دراستها دراسة مستفيضة. وهذه الاستراتيجية أصبح لها إعلانات ووسائل جذب خطيرة يجب الانتباه إليها. فكم من إعلان سخيف نراه يرقص فيه الأطفال والنساء ويستغلونهم من أجل تسويق منتج معين لا علاقة له بالرقص. هذا هو المال المستهلك، لهذا فهي طريقة للاستمالة والاستدراج علينا أن نواجهها بثقافة الكف عنها، وهي

ثقافة مناعية تستند إلى محددات دينية وتربوية وإقناعية. إن ثقافة الكف تتمثل في الكف عن شراء ما يستهلك بلا داع. أما ثقافة القناعة فلابد أن نعلمها لأولادنا وشبابنا ونقول لهم بأننا سنحاسب على هذا المال، بالتالي يجب أن تكون لدينا البدائل لمواجهة مثل هذه الاستراتيجيات الاستهلاكية. إذن لابد من أن نتعرف على نعمة المال من خلال نور اليقين الإيماني.

ثانيا: التعرف على النعمة الحاضرة. لا بد من معرفة النعم التي سخرها الله لنا. لأن هناك أناساً كثراً في نعم لا يشعرون بها، كالنعمة التي تتمتع بها الزوجة التي تعيش في بيت زوجها وهو يحبها فهذه نعمة، وهذه الحياة وهذا الزوج هدية من الله لأن المرأة حين تقارن نفسها مع جارتها التي توفي زوجها ستعرف أنها تعيش في نعمة، وتشعر بالنعمة الكبيرة عندما تحس بمعاناة الأرملة. على كل واحد منا أن يُعد النعم التي يتمتع بها و يُقدّرها حق قدرها وحتما سيجدها كثيرة: ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾. فإذا نظر المرء إلى النعمة بنور اليقين الإيماني وحس بها وعرفها بأنها نعمة حاضرة سيشعر حينها بالسكينة والإطمئنان والرضا والنجاح والفلاح وأنه على الطريق الصحيح.

ثالثاً: النظر إلى الذين حُرموا من النعمة بينما أنت تتمتع بها، فتقول عندها اللهم لك الحمد. ولذلك يقول أحد السلف الصالحين « أكثروا من سؤال الله العافية فإن المبتلى وإن اشتد بلاؤه ليس بأحق بالدعاء من المعافى الذي لا يأمن البلاء، وما المبتلون اليوم إلا من أهل العافية بالأمس.» ويقول أحدهم النعم ثلاث: نعمة مرت ونعمة ينتظرها ونعمة هو فيها. السعيد هو الذي يتعرف على نعمته الحاضرة ويمنحه الله قيدا يقيدها به فإن النعم تدوم بالشكر وتزول بالمعاصي.

ذات يوم ذهبت في جولة مع أفراد الجمعية بحي في مصر اسمه «بطن البقر»، وهو حي عشوائي بني في السنوات الأخيرة، فنتيجة ما رأيت هناك عدت إلى بيتي وحمدت الله على وجود جدران تحميني وأرض أدوس عليها، فقمت بطي السجاد ببيتي لأنني وجدت هناك أناس لا يجدون أرضاً يدوسون عليها، وأنا أضع ببيتي سجاداً بأشكال وألوان مختلفة ساعتها تذوقت كل شيء وشعرت بالنعمة التي أسبغها الله علي.

هناك من الناس من عرف النعمة من المنعم، وعرفه من خلالها، فتذوقها من خلال الحق سبحانه وتعالى، تعرف على المنعم وعظمته وقدره، فالله يرانا، لذلك لا بد من التعرف على الحق، الله الرب الرحمن الرحيم الكريم العفو الغفار، نور السماوات والأرض. سألوا الحبيب المصطفى، سيدنا النبي صلى الله عليه وسلم، قالوا:« كيف وجدت الله»، قال «نور أنّى أراه». وفي الكتاب المسطور ﴿الله نور السماوات والأرض، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح، المصباح في زجاجة، الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية، يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار، نور على نور﴾.

فلو تأملت هذه الآية الكريمة، ونظرت إلى هذا السراج الذي أضاء في خاطري، فوجدت أنوار الفطرة، ﴿الله نور السماوات والأرض﴾، كل ما في هذا الكون من نور الله، كل خلية في جسمنا مبرمجة، وفحواها من نور الله سبحانه وتعالى، هناك مشكاة و زجاجة ومصباح، المشكاة كوة في الجدار، وهذا يعني جسم الإنسان، الزجاجة قلب الإنسان، المصباح نور الله في قلب الإنسان. فعندما يوقد المصباح وهو نور الله في قلبي، سيضيء الزجاجة وبانعكاس الضوء تصبح كأنها الكوكب الدري، وكلما زاد نور المصباح أضاءت الزجاجة حتى المشكاة. لهذا هناك أناس نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم بل ويفيض على من حولهم، لأن القرب في الأثر نور. يوقد من شجرة مباركة: استمرارية ضوء هذا المصباح وتوهجه من عدة بركات. الأولى نور الفطرة الموجودة بداخلنا جميعاً ،﴿ وإذا أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم، قالوا بلى شهدنا﴾. والبركة الثانية هي نور الشريعة، فكلما طبق المرء الشريعة كعبادة اللحظة وذكر القلب وذكر الروح وذكر اللسان، «عبادة اليوم هي الصلاة، وعبادة الأسبوع هي صلاة الجمعة، وعبادة الشهر صوم شهر رمضان، وعبادة السنة يوم عرفة»، تكون في حال دائم مع الله سبحانه و تعالى.

لهذا حينما نقول «الدين» فإن ذلك يعني نظام عبادي شامل لكل حركة في حيات الإنسان وليس مقصوراً على التكليفات التعبدية. إذ يشمل كذلك معاملتك للناس ولأولادك ولأهل بيتك، ولموظفيك، وغيرهم. ففي كل مرة يختبر الإنسان

نفسه، ويجرد روحه من هذا التوهج الدنيوي ويرجعها للصفر، لمرحلة الجوهر بإيمانه بالحق سبحانه وتعالى و ينكسر أمام الله عندما يصفو الجزء و يتواصل بالكل، وعندما يصفو الفرع ويتواصل بالأصل.

أما البركة الثالثة فهي المدد الرباني من الله سبحانه وتعالى لكل أهل الزيادة ﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾. وعندما نقول زيتونة فذلك يعني وسطية لا شرقية ولا غربية وهذا ما تتميز به الشريعة الإسلامية، لقوله تعالى ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾.

ثانيا: اعرف نفسك أيها الإنسان، وقدّرها بالشكل الصحيح، ولا تنس أنك ميت مهما عشت. فبين نفخ الروح وقبضها رحلة قصيرة. قال الرسول صلى الله عليه وسلم «من عرف نفسه عرف ربه». طيب كيف ذلك؟ نراقبها في رُقيها وانحدارها، النفس مادة وروح ، ويستطيع الإنسان أن يشرئب بروحه إلى السماء وهو واقف على قدميه على الأرض. كما يستطيع الإنسان أن يربي الروح. يقول الله عز وجل ﴿ونفخت فيه من روحي﴾، فكلما توهجت في الإنسان هذه الحقيقة الروحية، ارتقى حتى يصبح أعلى مقاماً من الملائكة. لماذ؟ لأن ربنا سبحانه وتعالى أعطانا هذه المساحة. أولاً كرّمه، ﴿لقد كرمنا بني آدم﴾، ثانياً أَسجَد له الملائكة، ثالثاً منحه حق أن يكون الخليفة، رابعاً أقامه في الجنة، خامساً سخر له الكون وما فيه. ويستطيع الإنسان بعقله أن يسخر الكون حوله أعلاه وأسفله. كما يستطيع تزكية روحه وتطهيرها وتنقيتها إلى أن تقوم الملائكة بخدمته. هناك من عرف هذه الحقيقة، وهم الذين يُطلق عليهم «أهل القرب» وأهل المحبة، سواء في الطاعة أو في العمل فالعمل هو بحدّ ذاته عبادة، ومن خلالها يصل إلى المكانة العليا. يعني لو أنت في مصنعك، أنت في محراب عبادة. ولو أنت دكتور في مستشفى يعني أنت في محراب عبادة. وهكذا. فقط حرر نيتك لله وقل أنا خارج من بيتي حسبة لك يا ربي، حتى لو حصل شيء لا قدر الله تحسب من الشهداء لأنك حررت نيتك لخدمة خلق الله، وطبعاً الشهادة مقامات ودرجات.

الإنسان يصل الى هذه المكانة ما سعى صائماً قائماً، وسعى في الخيرات وقضاء حوائج الناس، والقيام ليلاً والناس نيام. فهذا من الذين قال عنهم الله

تعالى ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون﴾. كما إن إنفاق من يكون من هذه الفئة من الناس ليس إنفاقاً عادياً، بل يكون بطريقة مختلفة. فهو ينفق من عافيته، ينفق من صحته. وفي زين العابدين -رضي الله عنه- أسوة حسنة، إذ لما مات وجدوا علامات كبيرة على ظهره فقالوا كان يحمل أكياس الدقيق ليلاً على ظهره ويعطيها للأرامل والأيتام في المدينة. الإنفاق إذن ليس مالاً ولكن صحة وعافية وكل ما أعطاك الله من نعم أخرى غير المال.

هذا الإنسان عندما ينام، فإن روحه ،خلال اللحظات التي ينامها، تجول في السماء وتأخذ قبساً من اللطائف الربانية وتتزود بلطائف المعرفة ثم تعود أكثر انكسارا لله، وأكثر قرباً لله، وأكثر توجهاً لله سبحانه وتعالى، هذا هو الإنسان في أسمى صوره. وكان صحابة الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم يعيشون بهذا الأسلوب. وسيدنا عمر بن الخطاب على سبيل المثال كانت حياته الروحية في أزهى تجليات السمو. وتتذكرون قصة «يا سارية الزم الجبل».

وعندما يقف الإنسان وقفة مع نفسه ويحلل موقفه مع الوهاب، يرى كيف ابتعد عن المنهج. لها سمي بالظلوم والجهول. فهو لا يساوي شيئاً، بل إن مادة تكوينه عبارة عن القليل من الماء والملح والكلس والمعادن، لو رُكّزت بالكاد تكفي لصناعة مسمار أو عود ثقاب. لكن سر الحكاية كلها في صنعة الرحمن الرحيم، لهذا السبب ربنا سبحانه وتعالى خلق الإنسان وعمل له قوانين صيانة وقوانين حماية وقوانين إعاشة. قوانين الصيانة أنك كل يوم تقف خمس مرات أمام ربنا، أمام الذي خلقك وأنت في قمة الطهارة الظاهرة والباطنة. يقول عز من قائل ﴿إلا من أتى الله بقلب سليم﴾. فعلى المرء الذي يقف بين يدي الله أن يتجرد قلبه من حقد وحسد وغيرة وأذى، و يتنزه عن الدنيا.

ما في الوجود سواك ربٌ يُعبد
كلا ولا مولى سواك فيُقصدُ
يا من له عنت الوجوه بأسرها
ذلاً وكل الكائنات توحّدُ

إذن قوانين الصيانة ضرورية حتى نصون صنعة الخالق، فإذا أخطأ فإن الصلاة تجبر خطأه وتنهاه عن الفحشاء. قوانين صيانة وقوانين حماية متوالية. وهي قوانين تنهانا عن المنكر وتأمرنا بالمعروف حماية لنا في الدنيا وفي الآخرة. ليس هذا فقط بل إن الباريء سخّر أموراً لا أحد يستطيع أن يتحكم فيها : الهواء والماء والنار والأرض والكثير الكثير من الخلائق.

أما قوانين الإعاشة فيكفي أن نقرأ سورة الأنعام لنفقه بعض جوانبها، وهي مذكورة في الفرقان وفي سائر الأديان. طيب وفلسفة الحلال والحرام يمكن أن نستخلصها من خلال قصة حواء. فربنا سبحانه وتعالى أراد حواء وآدم في الأرض لا في الجنة بل في الأرض، هذه القصة كلها يبيّن لنا فلسفة الحلال والحرام. وأول عقوبة للحرام هي عدم الستر. وبالمقابل أول جائزة للحلال الرضى والقناعة والاطمئنان والسكينة. أما الإنسان في عصرنا هذا، عصر المادة، ماذا فعل؟ الإنسان تغير في عصر الليزر ووسائل الاتصال والذرة والتحولات الكبرى وعصر العولمة المتوحشة بكل أشكالها حيث تدفق السلع ورأس المال والأفكار. الإنسان تغير وبدل قلبه حتى أصبح قطعة من الحديد الموجودة في الآلة. أخذ من وصف الآلة التي يشتغل عليها . لم تبق العين الرحيمة التي تبكي عندما يذكر الله سبحانه وتعالى من خشيته. وأصبحت عين جاحدة وعنيفة، الإنسان وصل إلى الفضاء و أعماق الأرض والبحار لكن مع ذلك نسي أن يقرب من أخيه الإنساه، فزادت الهوة بينه وبين أخيه .

وأصبح للرحمة معنى ثان، وأصبح للحب شكل ثان. الرحمة التي يهدونها، والتي افتقدناها نحن بمعناها الجميل- ﴿الراحمون يرحمهم الله﴾، «ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء» - أصبحت على طريقة «ماكيافيلي» وعلى طريقة «آدم سميث» وعلى طريقة «ستالين» و«لينين» و«هتلر»، رحمة لها أسنان ومخالب، رحمة توجع. أما الحب فأصبح مشبوهاً موبوءاً. وكما يقول جارودیه: العالم سيتحول قطعاً إلى مهلكة كبرى، ونحن نرى بصيصاً منها الآن في تدمير طبقة الأزون وتدمير الغابات وذوبان الجليد وقحط النفوس، وغير ذلك. وقال «برنارد شو» كلمة جميلة جداً قال: «عندما يقود المخبولون العميان العالم

سينزف نفسه حتى الفناء». لكن بالمقابل يقول آدم سميث: «كل إنسان عليه أن يحقق بقوة مصالحه الشخصية وفي هذا ازدهار للحياة». أي ازدهار هذا؟ يقول هوبز: الإنسان ذئب لأخيه، هذه المعاني التي أصبحت طاغية في أيامنا هذه. هذا هو القحط الحقيقي . لذلك ليس من الغريب أن نجد الأقوى يتسلط على مقدرات الشعوب. في وسط هذه الفوضى بتنا في حاجة إلى بطاقة حب نتعرف فيها على الحبيب الذي عرفنا طريق المحبة حضرة النبي صلى الله عليه وسلم. بطاقة حب نقرؤها في آيات القرآن الكريم: ﴿لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم﴾. ويقول الرسول الحبيب «لن تؤمنوا حتى تحابوا»، ويقول كذلك صلى الله عليه وسلم «أحب لأخيك ما تحب لنفسك»، أين هذا الحب، وأين هذا الذوق؟ يقول يحيى بن معاذ، «مثقال حبة من خردل في حب الله أفضل من عبادة سبعين سنة بلا حب». ويقول أيضاً أبو بكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه:«من ذاق من خالص محبة الله، أغناه ذلك عن جميع البشر وعن كل ما في الدنيا.» ويقول يحيى بن معاذ « عفوه يستغرق الذنوب فكيف رضوانه؟ ورضوانه يستغرق الآمال فكيف حبه؟ وحبه يدهش العقول فكيف وده؟ ووده ينسى ما دونه فكيف لطفه؟». إذاً حب الله مرحلة ترقي، والأجمل عندما يحبك الله. عندما يقول الله ﴿وألقيت عليك محبة مني﴾، ﴿ولتصنع على عيني﴾. تأملوا هذا المعنى الجميل . من نحن لكي يحبنا ربنا؟ ربنا إذا أحب عبده فتح له أبواب الهداية وقربه إليه، وأفاض عليه من إحسانه وكرمه، ومنحه من العطايا المعنوية والمادية من كل الأشكال. ولذلك كان يقول أحد الصالحين «لست أعجب من حبي لك، فأنا عبد فقير، وإنما أعجب من حبك لي وأنت ملك قدير». وسئل أحد الصالحين لكي يصف أهل المحبة، فقيل له ما بال العارفين أحسن وجوهاً وأكثر هيبة من غيرهم؟ فردّ قائلاً: «لأنهم خلوا بالله مستأنسين، وقربوا إلى الله متوجهين، وفزعوا إليه متولهين فكساهم الله بنور معرفته، فيه ينطقون، وله يعملون، ومنه يطلبون، وإليه يرغبون، أولئك خواصّ الله السابقون، سعيهم في طاعة الله من غير علاقة، وينصحون العامة من غير طمع، مشتاقون منيبون إلى الله تعالى، قلوبُهم له وجِلة، نفوسُهم وحشية وقلوبهم عَرّشية، وعقولهم مغشيّة، وأرواحهم ياسينية،

كلهم معصومٌ بلقبه عن فتنة الناس، وذِكرُ الله يحميه من شر الوسواس، صدره مشروح، وجسمه مطروح ..»

كلنا نقول أننا نحب الله سبحانه وتعالى، ونحاول جاهدين. لكن ما السبيل إلى محبته فعلاً؟ الجواب في كتابه العزيز: ﴿ إن كنتم تحبون الله فاتبعون يحببكم الله﴾. محبة سيدنا النبي صلى الله عليه وسلم هي المفتاح إذن لمحبة الله، إن كنتم تحبون الله حق المحبة اتبعوا سيدنا الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم. فسيدنا النبي عليه الصلاة والسلام، كان كالريشة في الهواء، وكالموجة في الماء، أذاب إرادته ومشيئته في مشيئة خالقه، فلا نعجب إن بلغ هذا المقام. وندرك هذا المقام في رحلته في الإسراء والمعراج، عندما كان صلى الله عليه وسلم يرى بواسطة جبريل، وعندما اجتباه ربه واصطفاه وصعد إلى سدرة المنتهى، عندها قال جبريل لو تقدمت أنا لاحترقت، ولو تقدمت أنت لاحترقت، تغيرت ذاتية حضرة النبي صلى الله عليه وسلم من بشرية وملائكية إلى ملكية، فكان ينظر بنور الله، هنا بلغ مقاماً لا يدركه أحد، ولا ندرك إلا القليل منه. عندما قال عز من قائل ﴿فأوحى إلى عبده ما أوحى﴾. كلنا يحب الحق ولكن في محبتنا لله شك.

إن كنا نحب الله حقاً علينا أن نتعامل من جديد مع القيم السماوية الرفيعة العالية، نتعامل بالمحبة ونستعيد دائماً الحب الحقيقي. الحب أجمل وألطف قيم الرحمة. الحب نور والكراهية دمار، الحب عمار والكراهية خراب، الحب يحرك الجبال. أناس ربنا سبحانه وتعالى قال فيهم ﴿إن الذين سبقت لهم منا الحسنى﴾ يعني المحبة الربانية. لكن علينا أن ننتبه لمسألة: حب البشر غير حب الله، فحب الله ليس كمثله شيء. حب الله يتعالى على كل شيء، حب البشر يتخلله الطبع والجنس والزمن والرحم والانتهاء والوجع والعذاب ومعاناة الفقدان، أما حب الله فلا ينتهي. لذلك قال ربنا سبحانه وتعالى﴿ عند مليك مقتدر﴾. يقال إنه عندما يخرج أهل المحبة من قبورهم، لا يقولون أين أهلي أو أين أحبابي؟ ولكن يقولون أين حبيبي، أين الله؟ اللهم ارزقنا حبك يا الله، اللهم إني أسألك برحمتك التي وسعت كل شيء، وبقوتك التي قهرت بها كل شيء، وبنورك الباقي بعد فناء كل شيء، يا نور، يا قدوس، يا أول الأولين، يا آخر الآخرين، اللهم اغفر

الذنوب التي تهتك العصم. اللهم اغفر الذنوب التي تنزل النقم، اللهم اغفر الذنوب التي تنزل البلاء، فإنك فعال لما تشاء، يا من اسمه دواء، وذكره شفاء، وطاعته غنى، ارحم من رأسماله الرجاء، يا نور المستوحشين في الظلَم، اللهم إني أعوذ بك من قلب لا يخشع، و نفس لا تشبع، وعين لا تدمع، اللهم إني أعوذ بك من دعوة لا يستجاب لها، اللهم ارحمنا إذا خذلنا الطبيب، اللهم ارحمنا إذا تربص بنا العدو، اللهم ارحمنا إذا بكانا الصاحب والحبيب، اللهم ارحمنا إذا فارقنا النعيم، اللهم ارحمنا إذا انقطع النسيم، اللهم ارحمنا إذا قيل ما غرك بربك الكريم، اللهم ارحمنا إذا حملنا على الأعناق، اللهم ارحمنا يوم تلتف الساق بالساق، اللهم ارحمنا إذا تركت الدور والقصور والأقلام والأوراق، اللهم ارحمنا إذا قيل إلى ربك يومئذ المساق، اللهم ارحمنا إذا وقفنا للسؤال، اللهم ارحمنا إذا خاننا المقال، اللهم ارحمنا إذا لم ينفع جاه ولا مال ولا عيال، اللهم ارحمنا يا من إذا وعد وفى، وإذا توعد عفا، ارحم من هفا وجفا وغفا، وشفع فينا المصطفى، واجعلنا ممن صفا ووفى وبالله اكتفى. اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدي وحبيبي محمد، اللهم اجزه عنا خير ما جزيت نبياً عن أمته، اللهم زد في شرفه وتعظيمه ورفعته، اللهم أحينا متمسكين بسنته، اللهم أمتنا على دينه وملته، اللهم اجعلنا بين أهله وخاصته، اللهم اسقنا من يده الشريفة شربة لا نظمأ بعدها أبداً، وصلى اللهم على سيدي وحبيبي محمد، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ■

المحاضرة بتاريخ 2010/08/26

المحاضر:

د. حسن حنفي

أحد العلامات الفكرية الكبرى في مصر والوطن العربي والعالم.

عنوان المحاضرة:

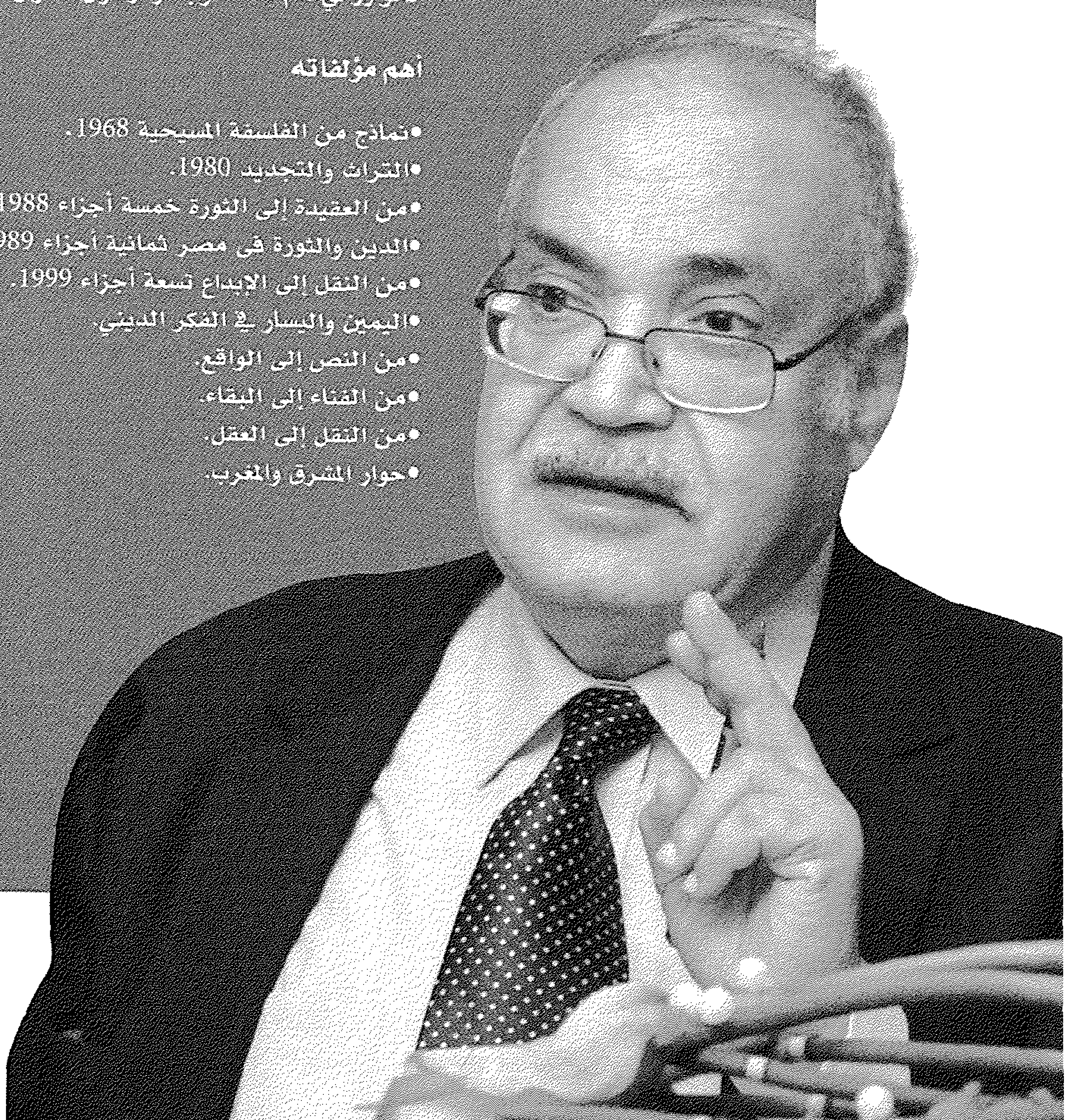
أزمة الثقافة العربية

سيرة ذاتية

- دكتوراه في الفلسفة من جامعة السربون بباريس عام 1966
- أستاذ متفرغ بقسم الفلسفة بكلية الآداب بجامعة القاهرة منذ العام 1995.
- حصل على الجائزة التقديرية الدولية عام 2008 وجائزة الخوارزمي عام 1999، وجائزة رسول الحوار عام 1995.

أهم مؤلفاته

- نماذج من الفلسفة المسيحية 1968.
- التراث والتجديد 1980.
- من العقيدة إلى الثورة خمسة أجزاء 1988.
- الدين والثورة في مصر ثمانية أجزاء 1989.
- من النقل إلى الإبداع تسعة أجزاء 1999.
- اليمين واليسار في الفكر الديني.
- من النص إلى الواقع.
- من الفناء إلى البقاء.
- من النقل إلى العقل.
- حوار المشرق والمغرب.



أزمة الثقافة العربية

أولاً: ماذا تعني أزمة الثقافة العربية؟

لا يعني لفظ «أزمـة»أي معنى سلبي. فالأزمة تعبير عن مجتمع في مرحلة انتقال وإعادة تشكيل، نهاية قديم وبداية جديد، مثل آلام الوضع. الأزمة دليل على الحياة والنمو والحركة. الجماد وحده هو الذى لا يتأزم. بل إن اللاهوت المسيحي جعل الوجود الإنساني كله يبدأ من أزمة Predicament. وأصبح لاهوت الأزمة أحد فروع اللاهوت المعاصر.

وليست الأزمة خاصة بالمجتمع العربي وحده. فلا يكاد يوجد مجتمع خالٍ من أزمة. هناك أزمة في المجتمع الغربى، وأزمة أخرى فى المجتمع الشرقي. توجد أزمة في الثقافة الفرنسية، وتوجد أزمة أخرى في الثقافة الأمريكية. إنما الرغبة في تعذيب الذات، وتضخيم العيوب، بل وتبرير العجز التي تدفعنا إلى إيهام أنفسنا وغيرنا بأن أزمتنا فريدة من نوعها، تستعصي على الحل، وتهدد الكيان، وتقضي على الوجود، وتحكم عليه بالانقراض.

إن الوعي بالأزمة أولى مراحل تجاوزها وبداية الإحساس بها وتشخيصها ومعرفة أسبابها ثم تحريكها من أجل استيعابها ونقلها من السلب إلى الإيجاب. ودون هذا الوعي تتخبط المحاولات، وترتجل الحلول، وتتعثر الخطى. إن خطوة إلى الوراء تسمح بالإدراك خير من خطوة إلى الأمام تؤدي إلى الهاوية. ويؤدي إلى الهلاك نطح صخرة أو حائط تسيل بعدها الدماء، ويسقط الشهداء والصخرة باقية، والحائط سد منيع لا يمكن اختراقه إلا بخلخلته من الأساس.

ولا يوجد وصف سحري لعلاج الأزمة، بل هناك مسار طبيعي لها وتفاعل الإرادات البشرية معها. الأزمـة مرتبطة بتكون المجتمعات بتحقق الإرادات الإنسانية الحرة المتصارعة، وبمدى القدرة والجهد والتخطيط لإدارة الأزمة. الأزمة والحل طرفان لعملية جدلية واحـدة، أزمة ثم حل ثم أزمة جديدة ثم حل جديد. كما لا توجد أزمة أخيرة،

مادامت المجتمعات حية تقوم وتسقط، تنهض وتأفل، كذلك لا يوجد حل نهائي وإلا كان الموت نهاية الحياة. لا يعني إذن حل الأزمة نهايتها وبالتالى استرخاء الجميع. فلا تكاد تنقضي أزمة حتى تظهر أخرى. تلك طبيعة الحياة. أزمة الجوع تتلوها مشاكل الشبع، وأزمة الفقر تتبعها الآثار السلبية للترف. وأزمة القحط تتلوها عيوب الوفرة. تلك سنة الحياة، التحدي والاستجابة التي تنقلب إلى تحد جديد تتطلب استجابة جديدة. وتنهار المجتمعات ويقضى على الأمم في الوقت الذى تنتهي فيه الاستجابات مع بقاء التحديات أو تنتهي التحديات مع بقاء الاستجابات.

تثير كلمة «أزمة» إلى الحالة الراهنة للثقافة العربية. ولما كان الحاضر تراكماً للماضي فإنه يصعب تحليل الأزمة الراهنة دون الرجوع إلى جذورها في الماضى خاصة وأن هذا الماضي ما زال حياً يؤثر في الحاضر قدر تأثير الحاضر المباشر نفسه. ولما كانت الأزمة الراهنة للثقافة العربية هى أيضا تشخيص لمستقبل الثقافة العربية. فالأزمة في التاريخ، الماضي حاضر، والحاضر مستقبل. فكيف يتم المسار حتى لا يكون الحاضر ماضيا ولا يكون المستقبل بعيد المنال؟ ومازلنا نرصد هذه الأزمة، ونحاول علاجها منذ فجر النهضة العربية الحديثة. منذ حوالي مائتي عام وحتى الآن نقوم بالتشخيص ثم نقدم الحلول. فلا يصدق التشخيص، وتتعثر الحلول. وما زال كل جيل يقدم محاولاته، جيلاً بعد جيل. وقد يظل الأمر كذلك لعدة أجيال قادمة. ولا يعني بقاء الأزمة واستمرار محاولات حلها أنها تستعصى على الحل أو أن محاولاتنا فاشلة، وأن هناك محاولات أخرى أفضل منها. فقد قدمت الكثير في تحقيق آمال الأمة من حيث الاستقلال الوطني والتنمية والتصنيع.

وتتلخص هذه الأزمة أو هذا التحدي فى بداية مرحلة جديدة في حياة جديدة للأمة أي المجتمع عبر التاريخ. فأزمات المجتمع إنما هي في الحقيقة أزمات انتقال من مرحلة تاريخية إلى مرحلة تاريخية أخرى. المجتمع كائن تاريخي، والعلوم الاجتماعية علوم تاريخية. من ثم كان التحليل التاريخي للظواهر الاجتماعية هو السبيل إلى معرفة الحالة الراهنة للظواهر الاجتماعية المتحركة بتحرك المجتمع في انتقاله من الماضي إلى المستقبل.

ولقد مر المجتمع العربي في قلب الأمة الإسلامية بمرحلتين سابقتين. الأولى من القرن الأول حتى القرن السابع الهجري، نشأت فيها العلوم القديمة، وتكونت واكتملت ثم توقفت وانهارت. وكانت ذروة هذه المرحلة في القرن الرابع الهجري عصر المتنبي والبيروني والتوحيدي وابن سينا، العصر الذهبي للحضارة الإسلامية. وهى المرحلة التى

ظهر ابن خلدون في نهايتها ليؤرخ لها واضعا سؤال: كيف قامت الحضارة العربية ولماذا انهارت؟ والمرحلة الثانية من القرن الثامن الهجري حتى النهضة العربية المعاصرة، سبعة قرون أخرى، مرحلة التدوين الثاني. حلت فيها الذاكرة محل العقل. فشرحت ولخصت وحصلت وجمعت في عصر الشروح والملخصات، ودونت الموسوعات الكبرى في العصر المملوكي والذي انتهى بسؤال شكيب أرسلان: لماذا تخلف المسلمون وتقدم غيرهم؟ أو بسؤال أبي الحسن الندوي: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟ قد نكون إذن على مشارف مرحلة ثالثة لمستقبل الثقافة العربية، عصر الإبداع الثاني للحضارة الإسلامية والذي بدأت إرهاصاته منذ فجر النهضة العربية الحديثة. فترات الانتقال من مرحلة إلى مرحلة لا تعد بالسنوات بل بالقرون حيث تنتهي مرحلة وتبدأ أخرى، قرن في نهاية مرحلة، وقرن في بداية أخرى.

وتتكون الثقافة العربية من مكونات رئيسية ثلاثة: الموروث القديم، والوافد الحديث، والواقع المعيش بصرف النظر عن نسب التكوين لكل منها. فما زال الموروث القديم يفكر فينا ولنا، ومازلنا نحن نفكر فيه وبه. فلا فرق بين التراث الحي والثقافة المعاصرة. ما زال التراث القديم مستمراً في الوعي الحاضر، ولم تحدث قطيعة معرفية بيننا وبينه كما حدث في الغرب إبان عصر النهضة. ما زال التواصل هو الغالب بين الماضي والحاضر وليس الانقطاع بالرغم من محاولات بعض النخبة لتأسيس مجتمع علمي علماني، «الدين لله، والوطن للجميع». ما زال تصورنا للعالم والذي تحدده ثقافتنا المعاصرة هو التصور الموروث له: الله موجود، والعالم مخلوق، والنفس خالدة تنال الثواب والعقاب جزاء على الأعمال ومادامت الإجابات جاهزة فلا سؤال. أما الثقافة الوافدة المعاصرة عن الغرب فهي عنصر مكون ضعيف، لا يتجاوز سطح الثقافة إلى الأعماق، ولا يظهر إلا عند النخبة، ولا يتعدى عمقه التاريخي أكثر من مائتي عام منذ بدايات ترجمة الطهطاوي عن الغرب في القرن الماضي. ومن ثم كانت ثقافتنا المعاصرة في عنصريها المكونين الرئيسين، الموروث والوافد، ثقافة عرجاء، ساق طويلة في الموروث، وساق قصيرة في الوافد، أو ثقافة عوراء عين ترى عن بعد في الموروث، وعين ترى عن قرب في الوافد. أما العنصر الثالث المكون للثقافة المعاصرة فهو في الواقع الذى تعيشه هذه الثقافة وتتأزم فيه، تلتحم به أو تنعزل عنه، تخرج منه أو تؤثر فيه، توجهه وتغيره أم يوجهها ويغيرها، تتحد به وتشكل خطابها


الشيخ سلطان بن زايد آل نهيان

فيه أو يفرض هو خطابه عليها. ومن ثم يتعدد الخطاب العربي المعاصر إلى ثلاثة أنواع: الخطاب الموروث للشيخ المعمم، والخطاب الوافد للأفندي المطربش، والخطاب الإنشائي للضابط المقبع الذى حل محل «الخواجة» الأوروبي وإن اختلفت شكل القبعة ولونها. يمثل الموروث الماضي بعمقه التاريخي وثقله الفعلي. ويمثل الوافد المستقبل البعيد المحاصر، ويمثل الواقع الموروث الغائب بالرغم من التأزم والمعاناة التي قد تصل إلى حد الكفر به، الخروج عليه أو الهرب منه. وبالتالي تكون العناصر الرئيسية الثلاثة المكونة للثقافة العربية المعاصرة هي أيضا عناصر تكوينية في الزمان التاريخي، الماضي والمستقبل والحاضر.

ثانياً: النقل من التراث القديم.

تتجلى أزمة الثقافة العربية أولا في نقل التراث القديم، المكون الرئيسي فيها، وتكراره وترديده بالرغم من تغير وتبدل المرحلة التاريخية كلها في الماضي إلى الحاضر. فالتراث ابن عصره، ينشأ في ظروف خاصة بمستوى ثقافي خاص باجتهاد رجال ذلك العصر. ويتغير بتغير الظروف وتبدل المستوى الثقافي وباجتهادات الأجيال. نشأ التراث القديم ولم يسبقه تراث آخر غير التراث السابق، ديانات شبه الجزيرة العربية وثقافاتها قبل الإسلام، الحنيفية دين إبراهيم، والمسيحية والوثنية، والشعر العربي، وبعض ما تخللها من ثقافات فارس والرومان فى جنوب العراق وفى شمال الشام. نشأت الثقافة الأولى في عصر الفتوحات والانتصارات على الشعوب المجاورة شرقاً وغرباً، في آسيا ضد سيطرة الشرق والغرب على المنطقة الوسطى من العالم. نشأت العلوم القديمة وبها صدى لهذا الانتصار. وتأسست العقيدة الدينية على محور رئيسي، الذات والصفات والأفعال، الله الواحد ليس كمثله شيء والذي يقدر على كل شيء. وتأسس علم أصول الفقه حتى يحتوى النص القديم، الكتاب والسنة، كل الوقائع الجديدة فتتم سيطرة النص على الواقع، والأصل على الفرع. ونشأت علوم التصوف حتى نصل إلى الغاية، وتملك العالم، ملتفة إليه من الخلف أو هبوطاً إليه من أعلى، خطوة إلى الوراء وخطوات إلى أعلى، البعد عن القليل ونيل الكثير، ترك كل شيء من أجل أخذ كل شيء، من الفناء إلى البقاء، نعيم الصوفية الذى لو علمه الملوك لقاتلوهم عليه بالسيوف. ثم تم استيعاب ثقافات الأمم المغلوبة في ثقافة المنتصر عن طريق الترجمة. ثم تأسست علوم الحكمة على هذا الانتصار

المنطق علم معياري يعصم الذهن من الخطأ، والطبيعيات تقود إلى الإلهيات، ويتربع على المدينة الفاضلة الله أو النبى أو الفيلسوف أو الإمام. فالكل يعني نفس الشيء. وتم تدوين النصوص، القرآن والحديث، حتى لا تضيع، وتبقى قوة الوحي في التاريخ معيار الصواب والخطأ، الشرعية واللا شرعية. ثم وضع التفسير السني ثانية والقدوة حتى لا ينحرف تفسير هنا أو سنة هناك. وأخيراً تمّ تقنين الفقه سلوكاً للناس جميعاً عبر كل العصور حتى يتم ضمان الأمن والنظام والسيطرة على سلوك الأفراد والجماعات. ونشأت العلوم العقلية الرياضية، والطبيعية التجريبية للسيطرة على العالم، العقل في مواجهة الطبيعة من أجل التوحيد بين حقائق الوحي والتجارب الطبيعية. ونشأت العلوم الإنسانية، اللغة والأدب والجغرافيا والتاريخ لتقنين قواعد الكلام، وتوحيد مقاييس الجمال، ومعرفة الأرض، ورصد قوانين التاريخ التي تثبت نهاية الوحي وتحقق الكمالات في آخر رسالات الأنبياء في يد خير أمم الأرض.

والآن تغيرت الظروف والأحوال كلية، وتبدلت المرحلة التاريخية بأكملها من القرون السبعة الهجرية الأولى إلى القرون السبعة الهجرية الثانية، من النصر إلى الهزيمة، ومن الفتح إلى الاستعمار، ومن الغالب إلى المغلوب، ومن الرائد إلى التابع. فهذا التغير يحتم إبداعاً ثقافياً جديداً من مبدعين جدد. فإذا كانت المرحلة الأولى قد أبدعت بلا نموذج حضاري سابق باستثناء ثقافات العرب ودياناتهم السابقة على الإسلام فإن الإبداع الآن ونحن على مشارف الفترة التالية لديه نموذج سابق وهو إبداع القدماء. وبالتالي يسهل الإبداع لأنه إبداع على إبداع، وتفكير على تفكير وقراءة على قراءة، وتأويل على تأويل. وقد يصعب الإبداع إذا ما تقيد بإبداع السابقين، واعتبر الإبداع ذا نمط واحد لكل العصور.

نشأت العلوم القديمة من المركز كعلوم دوائر، كلها تنبع من المركز وهو النص بالإضافة إلى الواقع الخارجي السياسي والاجتماعي الذى قرأ نفسه في النص. أما الآن فلا تنشأ علوم من نصوص. النص ذاته ظاهرة اجتماعية، سلطة معرفية، يكون هو ذاته موضوعاً لعلم تحليل النصوص. أما علم أصول الدين الجديد فليست غايته تأسيس نظرية الذات والصفات والأفعال وتأسيس الوجود على القمة بل إعادة فهم العقيدة كإيديولوجية سياسية حتى يعود إلى التوحيد فاعليته في المجتمع والتاريخ.

ولم تعد الحاجة كما كانت عند القدماء الدفاع عن الله ذاتاً وصفاتاً وأفعالاً، بل الحاجة

الآن إلى الدفاع عن الإنسان ذاتاً وصفاتاً وأفعالاً. لم تعد حقوق الله موضع السؤال بل حقوق الإنسان التي تنتهك كل يوم. وإذا كانت حاجة القدماء في الدفاع عن إرادة الله في التاريخ ووحي الله وصاية على قانون الطبيعة وعقل الإنسان فإننا في حاجة اليوم إلى الدفاع عن قوانين الطبيعة الثابتة وحرية الإنسان وعقله. وإذا كان القدماء فى حاجة إلى الدفاع عن النبوة ومسارها ومستقبل الروح فإننا اليوم في حاجة إلى إثبات اكتمال وعي الإنسان عقلاً وإرادة ومستقبل الإنسان عملاً واستحقاقاً. وبالتالي نكشف في ثقافتنا القديمة بعديّ الإنسان والتاريخ فيما سماه القدماء الإلهيات والسمعيات أو العقليات والنبوات وهما ما ينقصان في ثقافتنا المعاصرة. وإذا كان القدماء في حاجة إلى إعطاء الأولوية للنص على الواقع في مصادر التشريع الأربعة نظراً لقرب عهدهم بالنص وحرصهم عليه فإننا في حاجة في عصرنا إلى إعطاء الأولوية للواقع على النص، وللمتحول على الثابت بعد أن ضاعت المصالح العامة باسم النصوص كما يقول محمود درويش ما معناه:

واحتمى أبوك بالنصوص، فدخل اللصوص وإذا كان القدماء في حاجة إلى التصوف كنوع من المقاومة السلبية الفردية الباطنية للواقع فإننا في حاجة أيضاً إلى نوع جديد من المقاومة الإيجابية الجماعية الفعلية للواقع، فننتقل من الفناء إلى البقاء، ومن الخروج عن العالم إلى الدخول فيه، ومن القيم السلبية مثل الزهد والصبر والتوكل والرضا والقناعة إلى القيم الإيجابية مثل الثورة والتمرد والرفض والغضب والمقاومة. وبدلاً من أن يكون الطريق إلى أعلى طبقاً لحاجة القدماء يكون الطريق إلى الأمام طبقا لحاجة المعاصرين.

وإذا كان القدماء قد تركوا بعض العلوم نقلية خالصة مكتفين بالعلوم العقلية الخالصة والعلوم العقلية النقلية فإننا في حاجة إلى تحويل العلوم النقلية الخالصة إلى علوم عقلية أو عقلية خالصة. فيمكن قراءة علوم القرآن القديمة طبقا لحاجات العصر: المكي والمدني هما التصور والنظام، وأسباب النزول هي أولوية الواقع على الفكر، والناسخ والمنسوخ هما التطور والزمان. ويمكن أيضاً بدلاً من التفسير الطولى للقرآن، سورة سورة وآية آية، التفسير العرضى أو الموضوعى للقرآن بتجميع الآيات في موضع واحد حتى يمكن معرفة رؤية الإنسان للطبيعة والمجتمع والتاريخ. ويمكن إعادة نقد الحديث ليس ابتداء من السند كما فعل القدماء بل ابتداء من المتن وتحكيم الحس والعقل فى صحته. ويمكن إعادة كتابة السيرة لبيان الجانب الإنساني في حياة الرسول. ويمكن إعادة كتابة الفقه من جديد

وإعطاء الأولوية للمعاملات على العبادات من أجل تأسيس فقه للتطور والتنمية والزراعة والصناعة والإنتاج والعمل. ويمكن أخيراً إعادة اكتشاف العلوم العقلية والطبيعية من أجل معرفة كيف تحول الوحى إلى تصور عقلى طبيعي للعالم وكيفية تأسيس الوحدة بين الوحى والعقل والطبيعة. وكما تشكل التراث القديم طبقاً للصراع السياسي وأفرزت كل قوة سياسية تراثها، تراث الحاكم والغالب وتراث المحكوم المغلوب، كذلك يفرز عصرنا ثقافة جديدة تعكس الصراع السياسي بين الحاكم والمحكوم، وبين الغالب والمغلوب. إن الصراع الدائر الآن بين السلطة والمعارضة لم يتأصل بعد في تراثنا القديم المكون الرئيسي للثقافة العربية. فبينما تعتمد السلطة على فقهاء السلطان الذين يعتمدون بدورهم على تراث السلطة، تستعمل المعارضة التراث الغربى الليبرالي والماركسي والقومي المعاصر فتنعزل عن الجماهير، وتظل الجماهير تحت هيمنة تراث السلطة وفقهاء السلطان، وتعاني المعارضة من الحصار والتكفير.

كانت الثقافات المجاورة للشعوب المغلوبة في الفترة الأولى ثقافات اليونان والرومان غرباً وفارس والهند شرقاً. ونشأت العلوم القديمة في هذه البيئة الثقافية القديمة. وقد تغيرت الظروف الآن، وأصبحت ثقافات الغالبين الجدد، الاستعمار الحديث، هي الثقافات الغالبة على الشعوب المستعمرة. وهذا يحتم إعادة النظر في استخدام ثقافات القدماء التي لم يعد لها أي رصيد الآن واستبدال ثقافات الغرب الحديث بها. لم تعد للغة الثقافات القديمة ولا مصطلحاتها أي صدى في نفوس الناس، بينما تردد صدى وأي صدى للغة المحدثين مثل الحرية والديموقراطية والعدالة الإجتماعية والتقدم والتنمية المستقلة وحقوق الإنسان. لقد قبل القدماء تحدي الثقافات القديمة واستوعبوها تلخيصاً وشرحاً وتمثلاً في جيلين ثم تأليفاً وإبداعاً لعدة أجيال بينما استوعبتنا الثقافات الغربية الحديثة وظللنا ننقل منها ولم نتحول بعد من النقل إلى الإبداع بالرغم من مرور أربعة أجيال منذ القرن الماضي حتى الآن.

ثالثاً: النقل عن الغرب الحديث.

وتتجلى الأزمة الثانية في الثقافة العربية في النقل عن الغرب طول فترة النقل التي استمرت طوال النهضة العربية الحديثة على مدى مائتي عام. لقد تأخرنا في الإبداع حتى

الآن مع أن نقل القدماء استمر جيلين، حنين بن إسحق واسحق بن حنين، القرن الثاني الهجري. ثم الإبداع الفلسفي عند الكندي، فيلسوف العرب، في النصف الأول من القرن الثالث. وكلما قل النقل زاد الإبداع حتى انتهى النقل كلية فى القرن الخامس وعم الإبداع. ونحن ننقل منذ عصر الطهطاوي حتى الآن، وما زالت مشاريعنا القومية للثقافة أو النشر أو الترجمة، النقل عن القدماء أو النقل عن المحدثين. فعز التأليف وندر الإبداع الفكرى. مشروع الألف كتاب الأول نقل، ومشروع الألف كتاب الثاني نقل، «عالم المعرفة» نقل، و«الثقافة العالمية» نقل. والنقل خلط بين المعلومات والعلم. المعلومات تحصيل ما فات، والعلم قراءة جديدة لما بين السطور أو إبداع نص جديد.

وتتمثل مخاطر النقل عن الغرب في اعتبار الغرب مصدر العلم والمعرفة. هو ينتج ويبدع والحضارات الأخرى تنقل وتستهلك، فتصبح العلاقة بين الحضارات علاقة أحادية الطرف، من المركز إلى الأطراف، ومن المعلم إلى التلميذ مع أن الحضارات في التاريخ قد تبادلت الأدوار بين النقل والإبداع، بين الاستهلاك والإنتاج. وكانت الحضارات الأوروبية في العصر الوسيط الأوروبي تستهلك بينما كانت الحضارة الإسلامية في نفس الوقت تبدع. كان الغرب هو التلميذ وكنا نحن نقوم بدور المعلم.

ويؤدي النقل عن الغرب أيضاً إلى اعتبار الغرب نموذج الثقافة العالمية، بمقاييسها وعلومها وتصورها للعالم وقيمها، وعلى كل ثقافة تبنيها نظراً للتباين بين المستويين. الثقافات المحلية المتعددة مصيرها إلى الانقراض، وتستبدل بها الثقافة الأوروبية الواحدة. وهذه في الحقيقة أسطورة فلا توجد ثقافة عالمية واحدة إلا من أجل الهيمنة والسيطرة من خلال أجهزة الإعلام ودور النشر والأقمار الصناعية أو بالقوة على مقدرات الشعوب «استراليا، العالم الجديد، جنوب أفريقيا، جنوب شرقي آسيا». كل ثقافة لها ظرفها التاريخي الذي نشأت فيه بما في ذلك الثقافة الغربية ذاتها.

كما يؤدي النقل عن الغرب إلى انتشار الثقافة الأوروبية خارج حدودها الطبيعية وجعلها نقطة جذب لثقافات الأطراف التي تصبح مجرد مستقبل لهذا الإرسال المستمر الفياض. لذلك كانت حركة الترجمة استمراراً من اللغات الأوروبية إلى اللغات غير الأوروبية، في اتجاه واحد. عرفت ثقافات الأطراف كل شيء تقريباً عن المركز بينما لم تعرف ثقافة المركز عن ثقافة الأطراف إلا القليل. فالترجمات محدودة باستثناء أعمال

المبدعين المهاجرين من الأطراف إلى المركز المكتوبة بلغات المركز حتى يتم الاعتراف بهم كجزء من الثقافة العالمية. وتتم إعادة توزيعه ونشره وتقييمه ثم إذاعته إلى الأطراف وترجمته إلى لغاتها التي هي في الأصل لغة المبدعين الوطنية. وقد أدى هذا السيل الفياض من ثقافة المركز إلى ثقافات الأطراف إلى أن يلهث المثقفون وراء المركز للحاق به ومعرفة الجديد فيه. فانقضى الوقت في النقل، ولم يبق شيء للإبداع. وكيف يتم الإبداع والنقل لم يتم، والتحصيل لم يكتمل؟ ومهما ازدادت السرعة في اللحاق فإن المسافة تتسع، وسرعان ما تصاب الأطراف بالصدمة الحضارية وترضى بقدرها المحتوم في التاريخ أو على هوامش التاريخ، نقل الإبداع، واستهلاكه لا إنتاجه، وتبعية للآخر وليس تأكيداً للذات. ولا حل لهذه الأزمة ذاتها وهذا الوضع الشاذ إلا تحجيم ثقافة المركز، وردها إلى حدودها الطبيعية حتى يفسح المجال لإبداع ثقافات الأطراف داخل حدودها ثم الامتداد الطبيعي لها خارج حدودها حتى يأتي وقت تتعادل فيه الثقافتان من حيث النقل والإبداع في علاقة متكافئة، أخذ وعطاء من كل جانب. عندئذ تقوم ثقافة عالمية جديدة على تعددية الثقافات والاعتراف بالخصوصيات الثقافية.

وأخيراً يؤدى النقل عن الغرب إلى زيادة حدة التغريب في الثقافة العربية وخطورة الوقوع في الاغتراب الثقافي وطمس الهوية الثقافية مما يؤدى بالضرورة إلى الولاء للغرب. فالثقافة مقدمة سياسية وشرطها. فيؤدي ذلك بطبيعة الحال إلى رد فعل الحركات السلفية لترفض الغرب برمته وتتهم المثقفين بالتبعية للغرب وبالولاء له وتخوينهم ثقافياً وسياسياً. ولما كان الموروث أكثر عمقاً في الثقافة الشعبية من الوافد استطاعت الحركات السلفية ضم الجماهير إلى صفها وحصار المثقفين والانقلاب عليهم. فتشق وحدة المثقفين الوطنية وتنقسم الجماهير إلى قسمين متصارعين متضادين، لا بقاء لأحدهما إلا بفناء الآخر. وبدلا من أن يكون الداخل في مواجهة الخارج يصبح الداخل في مواجهة نفسه مما يزيد الخارج هيمنة وسيطرة، مرة يغذي هذا الفريق، ومرة يدعم الفريق الآخر، في سعادة تامة لهذا الاقتتال بين الأخوة الأعداء.

وقد قامت محاولات لرأب الصدع، ورتق الفتق بين العنصرين المكونين للثقافة العربية المعاصرة، الموروث والوافد، بالرغم من التباين في عمقيهما التاريخي، أربعة عشر قرناً في مقابل قرنين، واتساعهما الجماهيرى، الجماهيري مقابل النخبة. نشأت هذه المحاولات

على مدى عدة أجيال. ظهرت في جيل الرواد الأوائل تمت خلال تبني الليبرالية نمطاً للتحديث للمجتمعات العربية والإسلامية في التيارات الرئيسية الثلاثة في الفكر العربي الحديث: الإصلاح الدينى عند الأفغاني، والاتجاه العلمي العلماني عند شبلي شميل، والفكر الاجتماعي والسياسي عند الطهطاوي. وتمت قراءة الليبرالية ومثل التنوير: العقل والعلم والحرية والتقدم والمساواة، والتعددية الحزبية، والنظم البرلمانية، والدستور، في التراث القديم عند الرواد الثلاثة على درجات متفاوتة. فهي لا تعارض التراث القديم عند الأفغاني، وهي بلغة جديدة عند الطهطاوي، ويمكن تأسيسها فيه عند شبلي شميل. وفي الأجيال التالية انفكت عرى هذه الوحدة بين الموروث والوافد لصالح الموروث في الإصلاح الديني بعد هزيمة العرابيين في 1882 عند محمد عبده، وبعد الثورة الكمالية في تركيا في 1923 عند رشيد رضا، وبعد الثورة المصرية في 1952 عند سيد قطب. وانفكت لصالح الوافد في الفكر السياسي الليبرالي عند أحمد لطفي السيد بالعودة إلى اليونان، وعند طه حسين في «مستقبل الثقافة في مصر» في الارتباط بثقافة البحر الأبيض المتوسط خاصة فرنسا. وأيضا انفكت لصالح الوافد في الاتجاه العلمي العلماني عند فرح أنطون ويعقوب صروف وسلامة موسى كرد فعل على التيار الإصلاحي السلفي. كما ارتد بعض الليبراليين إلى السلفية مثل خالد محمد خالد، وبعض العلميين العلمانيين إلى الدين مثل إسماعيل مظهر. وآثر فريق آخر الإبقاء على ازدواجية العلم والدين عند زكي نجيب محمود عن أصالة وصدق وعند مصطفى محمود عن تجارة وإعلان.

ثم أتى جيلنا محاولاً إبداع فكر جديد يخرج من ازدواجية الموروث والوافد. يأخذ مذهباً من الغرب بناء على المزاج الشخصى أو التكوين الفلسفي في الخارج أو الحاجة الداخلية للثقافة العربية دون الاكتفاء بعرضه في أصوله الغربية بل بتأصيل لهذه الجذور في الثقافة العربية الإسلامية القديمة أو المعاصرة حتى يبدو المذهب خارجاً من الموروث وليس آتياً من الوافد. فهناك شخصانية إسلامية (الجباني)، ومثالية إسلامية أو «جوانية» (عثمان أمين)، وإنسانية ووجودية عربية (بدوي، زكريا إبراهيم)، وماركسية عربية (العروي) تحولت في الممارسة إلى اشتراكية عربية. كما تم تطبيق اللسانيات الحديثة في اللغة العربية (اللسانيون المغاربة) أو المنطق الحديث في علم الكلام (طه عبد الرحمن) أو التفكيكية فى الثقافة والفن العربى (الخطيبي).

وتبنت محاولات أخرى مناهج غربية في العلوم الإنسانية أيضاً إما بالمزاج الشخصي أو التكوين الفلسفي أو الاقتناع العلمي مثل المنهج المادي الجدلي (الطيب تيزيني، حسين مروة، صادق جلال العظم، غالب هلسا) أو المنهج الظاهراتي (أدونيس، حنفي فيما يقال) أو المنهج التحليلي (زكي نجيب محمود) أو المنهج البنيوي (الجابري). صحيح أنها تمثل مظاهر إبداع وقراءات لمذاهب، وتطبيقات لمناهج، ولكنها تظل محدودة الأثر، مقصورة على النخبة، ولا تكون ثقافة عامة. أصحابها نجوم للثقافة والمجتمع، ينالون شهادات التقدير والجوائز والمناصب الرفيعة في الداخل والخارج ومن كافة الأنظمة السياسية يميناً ويساراً. وهي محدودة علمياً لأنها تفصل المذهب أو المنهج عن بيئته الثقافية التي نشأ فيها وظروفه التي خرج منها ثم تطبيقه على تراث آخر له ظروف مغايرة وإشكالات مختلفة. تقع في فصل الجزء عن الكل مرتين، مرة في الثقافة الغربية، ومرة أخرى في الثقافة العربية كما تفعل الخاطبة بتزويج هذا الفتى الوافد مع هذه الفتاة الموروثة. ولا تتجلى هذه الأزمة باعتبار الغرب ليس فقط مصدراً للعلم بل أيضاً موضوعاً للعلم، ليس فقط دارساً بل أيضا مدروساً. ليس فقط ذاتاً بل موضوعاً، وتأسيس «علم الاستغراب» تصبح فيه الأنا ذاتاً والآخر موضوعاً. وعلى هذا النحو يمكن إثبات تاريخية الثقافة الغربية، نشأتها وتطورها، تكوينها وبنيتها، بدايتها ونهايتها، تمفصلاتها ومراحلها، ماضيها ومستقبلها في تقابل مع مسار الأنا في التاريخ.

رابعاً: الانعزال عن الواقع.

وتتجلى أزمة الثقافة العربية ثالثاً في انعزالها العضوي عن الواقع. فنص القدماء، وهو المكون الرئيسى فيها، نص جاهز تكون فى ظروف تاريخية ولا يعبر عن الواقع المعيش إلا بعد قراءة وتأويل وإسقاط وإعادة كتابة. ونص الغرب الحديث كذلك نص جاهز سلفاً تكون في ظروف الغرب الحديث، ولا يعبر عن الواقع المعيش إلا اجتزاءً وانتقاء كعملية زرع أعضاء غريبة في الجسم تحييه مؤقتاً ولكنها لا تعيش فيه لأنها لا تنبع منه، تنجح على الأمد القصير ولكنها تفشل على الأمد الطويل. لم تحول الثقافة العربية الواقع المباشر إلى نص محكم جديد، يعبر عنه ويوجهه ويؤثر فيه. تركت الواقع للخطابة الدينية والسياسية لتزييف الوعي لصالح الله مرة ولصالح السلطان مرة أخرى.

إن مهمة الخطاب الديني السياسي الانفعالي الإنشائي تزييف الواقع وبالتالي بقاؤه قابعاً تحت الهيمنة الكاملة للنص القديم الموروث أو الهيمنة الجزئية للنص الجديد الوافد. ولا يجد نصاً جديداً يعبر عنه تعبيراً محكماً مباشراً فيه أحكام الخطابين الموروث والوافد وفيه مباشرة الخطاب الدينى والسياسى. ولما كان الواقع هو ذاته نصاً مباشراً، مصدر كل نص ونشأته، ظل الواقع في الثقافة العربية بلا قراءة وبلا صياغة فتأزم واستعصى. كان الواقع قديماً يتحول إلى نص في «أسباب النزول» وتعاد صياغته طبقاً للتطور والزمان في «الناسخ والمنسوخ». وكان الواقع الغربي حديثاً يتحول إلى نص جديد بعد القطيعة مع أرسطو والكنيسة بعد اكتشاف الزمان والتاريخ. ولا يعني تحويل الواقع المباشر إلى نص ثالث جديد وإغفال النصين القديمين، الموروث والوافد، إذ يعمل النصان القديمان خاصة الموروث في اللاوعي النظري كعامل مساعد على التنظير، وكأداة للتعبير عن الفكر والإيصال للجماهير التى ما زالت ترتبط بالموروث في ثقافتها الوطنية كما ترتبط النخبة بالوافد في ثقافتها الجديدة. ويستمر ذلك لعدة أجيال حتى تتحول ثقافة النص إلى ثقافة العقل، ويقوم التنظير المباشر على البرهان الخالص.

يفرض الواقع العربي نفسه على الفكر العربي فى مجموعة من التحديات التى تدفع إلى الاستجابة. وأولها تحرير الأرض. فما زالت الأراضي العربية محتلة في فلسطين وسبته ومليليه في المغرب وغيرها. لقد قامت حركات التحرر الوطني ضد المحتل الأجنبي، ونشأت دولنا وما زالت الانتفاضة في الأراضي المحتلة والمقاومة في جنوب لبنان دون تأسيس في الثقافة العربية. لقد تم احتلال الأرض بلاهوت الأرض وجعل الله والشعب والأرض ثالوثاً جديداً لا تنفصم عراه في حين أنه في ثقافتنا الله ليس كمثله شيء، منزه متعال، لا يوجد في محل، وقائم بالنفس. ألا يمكن للثقافة العربية المعاصرة خلق لاهوت مضاد للأرض، وإيجاد صلة بين الله والأرض لا تنفصم عراها؟ فمن يحتل الأرض يحتل الله. ومادمنا نؤمن بالله فإننا نؤمن بالضرورة بالأرض. وهناك أيضاً بقايا النص القديم في اللاوعي النظري في (إله السموات والأرض)، (رب السموات والأرض)، (وهو الذى في السماء إله وفي الأرض إله) التى يمكن من خلالها تأسيس عقيدة الأرض في أصول الدين الجديد كما أسس القدماء عقيدة التوحيد أو نظرية الذات والصفات والأفعال طبقاً لحاجتهم للحوار مع ديانات الثنوية والتثليث في علم أصول الدين القديم. لا يكفي الجهاد، فالجهاد دعوة

عملية للمقاومة وليست تنظيراً مباشراً من الثقافة العربية ضد احتلال الأرض والمقاومة. بل أنه يمكن إعادة بناء الثقافة الموروثة كلها ابتداء من هذا التنظير الجديد. إذ تسبق الطبيعيات الإلهيات في علم أصول الدين وفي علوم الحكمة، والمصلحة أساس التشريع في عمل أصول الفقه، والحق والخلق شيء واحد في التصوف، وأولوية الواقع على الفكر في «أسباب النزول»، والمتحول على الثابت في «الناسخ والمنسوخ». لا يكفي أن يكون لدينا شعر الأرض، وفرقة الأرض، وغناء الأرض. فالأدب مادة أولية يحوله الفكر إلى تنظير. الأدب مباشرة والفكر توسط. أما ثقافة النخبة التي أصبح فيها الوافد مزاحماً للموروث طاغياً عليه أو بديلاً عنه فإنها أيضاً تستطيع تأصيل ثقافة الأرض. فهناك لاهوت الأرض في اليهودية أولا ثم في المسيحية ثانياً. وهناك فلسفة الأرض والعودة إلى الأرحام في الحركة الرومانسية. إن تأليه الأرض قد يفيد في تحريرها، وتقبيل الأرض، وحفنة رمل من الأرض المحتلة وشربة ماء من بئر في الأرض كمحراب جديد قد يساعد على إطلاق شاعرية الأرض عند الجماهير والنخبة حتى تتحد الثقافة العربية بواقعها، ويجد تحدي واقعها فيها واستجابة لها.

وبالإضافة إلى حرية الوطن المهددة من الخارج هناك أيضاً حرية المواطن المهددة من الداخل. فالحريات العامة هي التحدي الثاني للثقافة العربية. فبالرغم من أن الليبرالية كانت نمطاً للتحديث في فكرنا العربي المعاصر إلا أن أزمة الحريات العامة تفاقمت. فقد امتلأت السجون بالمعتقلين والخصوم السياسيين. وغابت حرية التعبير في الصحافة وسائر وسائل الإعلام. ومنعنا من حق تكوين الأحزاب والتعددية الحزبية. وعزت الانتخابات الحرة. وتم تزييفها أو إلغاء نتائجها، ومصادرة الحريات، والعمل بقوانين الطوارئ. لا فرق في ذلك بين قطر عربي وآخر إلا في الدرجة وليس في النوع. ولا يرجع الأمر إلى مجرد أنظمة الحكم وقوانينها الحالية المقيدة للحريات بل ربما يمتد الأمر إلى جذور تاريخية لأزمة الحرية والديموقراطية فى وجداننا المعاصر فى استنباط العقل الحقائق من مصادر معطاة سلفاً، ومن نصوص ثابتة على العقل إيجاد براهين على صحتها وصدقها. ومن ثم أصبح العقل تابعاً للسلطة. وقد يرجع الأمر إلى التصور الهرمي للعالم الذى يعطي القمة أكثر مما يعطي القاعدة، ويجعل علاقتها المثلى علاقة الإيجاب المطلق بالسلب المطلق، وإلى التصور الرأسي للعالم الذي يجعل العلاقة بين الطرفين





الأعلى والأدنى وليس التصور الأفقى للعالم الذي يجعل العلاقة بين الأمام والخلف فيصبح الأعلى هو الأمام والأدنى والخلف، وأن الحقيقة المطلقة تمتلكها فرقة واحدة ورأى واحد، فرقة ناجية وباقى الفرق هالكة، وبالتالي ضاع منا حق الاجتهاد والاختلاف. فى حين توجد تصورات أخرى موروثة لم تعش كثيراً تقوم على أن الإنسان حر عاقل، مختار مسؤول، وأن عقله قادر على التمييز بين الخير والشر، وأن صفات الأفعال في ذاتها، وأن قوانين الطبيعة ثابتة، وأن الساكت عن الحق شيطان أخرس، وأن الدين النصيحة، وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أصول الدين، وأن الشهادة ليست فقط باللسان بل على العصر، وأن فعل التوحيد فعلان: نفي في «لا إله» وإثبات في «إلا الله»، لا تسبق نعم، الرفض يأتي قبل القبول. وفى ثقافة النخبة، الوافد الغربي، ما أكثر ما قيل العقل وحرية الإرادة من ديكارت حتى هرسل، من بداية الوعي الأوروبي حتى نهايته.

والعدالة الاجتماعية هو التحدي الثالث. فنحن أمة يضرب بها المثل تضم أغنى أغنياء العالم. من بيننا من يموت بطنة وشبعاً. ومن بيننا من يموت جوعاً وقحطاً. ومازلنا نتخفى وراء الزكاة والتبرعات وأعمال الخير لإضفاء الشرعية على مظاهر الكسب غير المشروع أو نشوه المذاهب الاشتراكية بأنها مادية وإلحاد وضد الدين. قد تكون هناك تصورات موروثة تمنع من تحقيق العدالة الاجتماعية مثل خلق الناس درجات متفاوتة في الرزق وتقديره مسبقاً، فالسعيد من سعد من بطن أمه والشقي من شقي في بطن أمه، وأن كل ما يأتي للإنسان رزق، وكل رزق حلال، وأن الفقر والغنى من الله، وأن الأسعار والأرزاق من الله. مع أن هناك نظريات أخرى موروثة لا تظهر إلا كدعاية وخطابة وإعلان وتبرير للنظم السياسية التي تختار اشتراكية الدولة طريقا لها. مثل نظرية الاستخلاف، وأن الملكية وديعة، للمالك حق الانتفاع وحق الاستثمار وحق التصرف، وليس له حق الاكتناز وحق الاحتكار وحق الاستغلال، وأن العمل مصدر القيمة، وأن المجتمع الواحد الذي فيه إنسان واحد جائع تبرأ ذمة الله منه، وأن ليس منا من مات شبعان وجاره طاو، وأن الناس شركاء في ثلاث، الماء والكلأ (الزراعة) والنار (الصناعة)، ملكية عامة لوسائل الإنتاج. وما أكثر المذاهب الاشتراكية في الوافد، دينية وأخلاقية وعلمية وتطورية وديموقراطية..

والتجزئة هي التحدي الرابع لنا فى واقعنا العربى المعاصر. وتشمل القطرية

والحروب الأهلية ومعارك الحدود. قسمت الأمة إلى أقطار متخاصمة، والقطر إلى طوائف متناحرة، والطائفة إلى عشائر متنافسة، كل منها يستبعد الآخر ويستعديه مع أننا أمة واحدة في التصورات الموروثة المعيشة. وحدة الأمة انعكاس لوحدة العقيدة، تعبير في الواقع الإجتماعي عن عقيدة التوحيد. ولكن ضمور التوحيد وتحويله إلى رقم عددي للإله الواحد جعل القبلية والطائفية والعشائرية والقطرية هي السائدة في الواقع. وما أكثر صور التوحيد في الموروث الثقافي القديم، التوحيد بين قوى الإنسان القول والفعل، الفكر والوجدان، الأسرة الواحدة، الأمة الواحدة، الخلق الواحد، الهدف الواحد، الغاية الواحدة. وما أكثر فلسفات التوحيد في الوافد عند اسبينوزا وفشته وشلنج وهيجل.

والتبعية في الغذاء والكساح والسلاح والثقافة العلم هو التحدي الخامس في الواقع العربي. نستهلك أكثر مما ننتج، ونأكل أكثر مما نعمل، ونحارب بما لم تصنعه أيدينا. وتنميتنا لا تعتمد على الذات، غير مستقلة، تعتمد على المعونات من الغير لدرجة امتهان الإرادة الوطنية والتحالف مع الأجنبي ضد الوطني، وحاربنا مع العدو ضد الصديق، وعادينا القريب لصالح الغريب. وهناك تصورات موروثة تجعلنا أكثر اعتماداً على النفس واتجاهاً إلى الطبيعة من أجل استعمال قوانينها، والعمل والسعي والكدح في الأرض، وزراعة الصحراء. فاللون الأخضر، للعشب والزرع، أكثر قيمة من اللون الأصفر للهشيم والصحراء الجرداء. الماء ينزل، والأرض تنبت، والفلك يجري في البحر، والحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس. ومن الجبال بيوت، ومن الجلود سكن. وما أكثر الفلسفات الوافدة في السيطرة على الطبيعة وتسخيرها لصالح الإنسان والمجتمع واستثمار ثروات الأرض. هناك تصورات موروثة تجعلنا نتعاون فيما بيننا، ونشتد على الأجنبي (أشداء على الكفار، رحماء بينهم) والتآخي بين الأوس والخزرج، وعدم جواز خصام الأخ لأخيه أكثر من ثلاث ليال.

والتغريب والتبعية إحدى مآسينا والتحدي السادس. فقدنا الاستقلال الإرادي بعد أن حصلنا عليه، وضاعت الهوية، وعزت الأصالة، وأصبح كل من يستمد علمه وثقافته وهويته من الخارج، وربينا لدى أنفسنا مركّب نقص كما ربى الآخر في نفسه مركب عظمة. أساليب الحياة والعمارة والفنون تنوعت إلى حد التضارب وطمس الهوية. كان ذلك نتيجة للانبهار بالغرب واحتقار الذات، وتقليد الآخر وضياع الهوية. وفي تصوراتنا الموروثة ما

يساعد على تأكيد الهوية بالمفاصلة مع الآخر، والتمايز عنه. وما أكثر نقد التقليد والتبعية، أن إيمان المقلد لا يجوز، والتقليد ليس مصدرا من مصادر العلم. وما أكثر نقد سلطة القدماء على الوافد، والثورة على القديم، ورفض الموروث، والاعتماد على الذات من أجل الجدة والإبداع، «أنا أفكر فأنا إذن موجود».

وأخيراً، ما زالت سلبية الجماهير وحيادها ولا مبالاتها تمثل التحدي السابع الرئيسي للثقافة العربية. فبالرغم من سطوة الموروث لدى الجماهير، وحضور الوافد لدى النخبة إلا أن الجماهير تظل عازفة عن المشاكل فى أي حركة شعبية. فالموروث إن عبر عن ماضيها فإنه لا يحل مشاكل حاضرها. والوافد إن عبر عن مستقبلها فإن الهوة بينه وبينها ما زالت بعيدة. تنأى الجماهير عن السلطة. فهي قاهرة لا تعمل لصالح الناس. وتنأى عن المعارضة لأنها ضعيفة وهزيلة تتاجر بأقوات الناس، ولا تحل شيئاً لأن عينها على السلطة. ومهما وقعت من أحداث أمامها فإنها لا تتحرك. وإن تحركت فانتفاضة وقتية مثل انتفاضات الخبز والغلاء كبالون اختبار أو فقاقيع هواء سرعان ما تتكسر على شاطئ الفتور واللامبالاة. وفي التصور الموروث ما يساعد على حشد الناس، وتجنيد الجماهير، فالأمة خير أمة أخرجت للناس، تحمل الأمانة، وتبلغ الرسالة، وعليها مسؤوليات الدفاع عن الحق وتبليغه للناس، هى خليفة الله فى الأرض، تحقق وحيه كنظام مثالي للعالم. ويمتلئ الوافد أيضاً بفلسفات تحقيق المثل الأعلى، وتطبيق كلمة الله في الأرض وتجسيد الروح في التاريخ، كما أنه زاخر بفلسفات الالتزام والفعل والتقدم والمسؤولية وتحقيق رسالة الأمم الثقافية والفنية.

خامساً: ضعف المؤسسات الثقافية والوعي التاريخي بالثقافة.

وليست البنية الداخلية وحدها هي المسؤولة عن أزمة الثقافة العربية بل أيضا البنى الخارجية وفي مقدمتها ضعف مؤسساتها الثقافية لأنها جزء من الدولة التي لا تدين لها الجماهير بالولاء. الدولة قاهرة. ووظيفة مؤسساتها الثقافية تبريرها وإضفاء الشرعية عليها والدفاع عنها. ومن هنا يأتي الخلط بين الثقافة والإعلام، واعتبار الثقافة إعلام الدولة للناس، واعتبار الإعلام ثقافة الدولة للناس، فضاعت الثقافة، وعزف الناس عن الإعلام، وتحولوا إلى الإذاعات الأجنبية يستقون منها أخبارهم، ويتحسرون على انحسار

الذوق الرفيع والثقافة الجادة فى العصور الخوالي. وما أسهل في نظام حر منتخب وفي دولة شرعية تقوم على العقد الاجتماعي أن تستقل المؤسسات الثقافية عن النظام السياسي، وأن يتم التخطيط الثقافي على الأمد الطويل طبقاً لحاجات الجماهير ومستقبلها دون الارتباط بسياسة الدولة أو شخصية وزير الثقافة ونشاطه واهتماماته وتصوراته للثقافة والفن. وتقوم مؤسسات الدولة التابعة بالتأييد دون النقد، وتعمل بالأمر دون الرأي. تغرق الشعب في البرامج الدينية والترفيهية، كبت وإطلاق، حرمان وإشباع، ضبط اجتماعى وتسيب أخلاقى. تملأ أجهزة الأعلام المرئية والمسموعة بالمسلسلات والأفلام والمباريات الكروية لملء الفراغ الثقافي والسياسي عند الناس. لا حل لذلك إلا استقلال المؤسسات الثقافية عن النظم السياسية ومؤسسات الدولة الرسمية. الثقافة مثل الجامعة والقضاء والصحافة مؤسسات مستقلة حتى تستطيع أن تحاور وتبدع. حينئذ يتكون جيل من المثقفين المستقلين، كما يتكون جيل من الباحثين الباحثين والعلماء، وكما يحكم القضاء بالعدل بين الخصوم، وكما تستقل الصحافة حتى تواجه بالرأي، وتكشف تقصير المسؤولين الرسميين دفاعاً عن مصالح الناس.

ولا تنشط ثقافة إذا ما سيطر باستمرار على أمورها وتوجيهها ومراكز قراراتها الأجداد والآباء وكانت في يد الأجيال السابقة. فالثقافة حركة تواكب حركة المجتمع. تنعزل الأجيال الجديدة عن الثقافة لأنها لا تعبر عنها. فإذا ما كونت ثقافة مستقلة اعتبرت ثقافة مضادة هامشية تعبر عن الضياع والحزن، ثقافة الطريق خارج ثقافة المؤسسات. ووضعت العراقيل لتكوين اتحادات أو جمعيات ثقافية وأدبية مستقلة عن اتحادات الدولة وجمعياتها. وفى غياب أهداف ثقافية وطنية عامة تنشأ الشللية داخل مؤسسات الدولة وخارجها، ويندرج المثقفون في أحزاب ثقافية يعارض بعضها بعضاً للوصول إلى السلطة في الثقافة واليد الطولى والصوت الأعلى فيها. واستحال ذلك فالمجال مفتوح للنجومية الفردية دون تخطيط مشترك أو عمل جماعي. كما غلب على حديث المثقفين وكما هي العادة كثرة القول وقلة الفعل، قصور في الهواء بديلاً عن نجوع الواقع الأليم.

وكرد فعل على الثقافة الرسمية المضادة نشأت الثقافة السرية، وأصبحت أكثر تأثيراً في الناس، وأكثر التزاماً بقضاياهم. تعطيهم ما لم تعطه الدولة: الالتزام، الجدية، الرسالة، الوفاء، الصدق، الشجاعة، الشهادة، وتستطيع الثقافة أن تكون الموحد للثقافة الرسمية

والثقافة المضادة والثقافة السرية، وتملأ هذا الفراغ بين الثقافات الهامشية الثلاث وتذيبها فيه بالتفاعل مع ثقافة الناس، تفاعل مع الموروث والوافد والواقع المعيش. تعبر عن هذه الثقافة الأمثال العامية وسير الأبطال والأزجال والملاحم الشعبية التى خلدت حكمة الشعب التلقائية، الثقافة المجهولة السند الحاضرة المتن والتي بدأ القرآن والحديث منها وطورها باعتبارها ثقافة الأمة. ومن خلال الثقافة الوطنية يتم الحوار الوطني بين جميع التيارات الفكرية والسياسية والرسمية منها والشعبية حتى ينشأ الوفاق الوطني، وتقوم الوحدة الوطنية من خلال التعددية الثقافية، المشروع الوطني القومي الموحد مع اختلاف الأطر النظرية. وهو ميثاق ثقافي عربي جديد يقوم على حرية التعبير والحوار الوطني والأهداف القومية.

ويتم ذلك كله داخل الجامعات الوطنية والجمعيات العلمية والأحزاب السياسية وتشارك فيه مؤسسات الدولة المستقلة، الصحافة والإعلام والتعليم دون تدخل في مسار الحوار الوطني تدعيماً لرأي ضد رأي آخر أو نصرة لفريق ضد فريق آخر. فى الجامعة تتولد الثقافة العلمية،وفى الجمعيات الثقافية تتولد الثقافة الأدبية،وفي الأحزاب السياسية تتولد الثقافة الجماهيرية. مهمة الجامعات البحث العلمى وإمداد الثقافة بمنهج لا يمنح شهادات على التحصيل من أجل الوظيفة وبحثاً عن الرزق. ومهمة الجمعيات العلمية، وهي عماد المجتمع المدني، العمل على تكوين تيارات فكرية واتجاهات سياسية ومناهج أدبية وأساليب فنية لإفساح المجال لإبداع الجماهير. ومهمة الأحزاب إعادة بناء الثقافة والتحول من تراث السلطة إلى تراث المعارضة، ومن تراث الحاكم إلى تراث المحكوم، من تراث الله والسلطان إلى تراث الجماهير.

والمؤسسات الثقافية دون الوعي التاريخي بالثقافة تظل فارغة بلا مضمون، معلقة في الهواء بلا تاريخ ولا زمان. ولما كانت الثقافة تعبيراً عن الوعي الثقافي وكان الوعي الثقافي هو وعي تاريخي ارتبطت الثقافة بالمرحلة التاريخية التى تمر بها الأمة. فلا ثقافة بلا وعي تاريخي بالمرحلة التاريخية. وقد يكون أحد أسباب أزمتنا الثقافية والسياسية هو غياب هذا الوعي التاريخي بالثقافة والسياسة. وتتلخص هذه الأزمة في صعوبة الإجابة على سؤال: في أي مرحلة تاريخية نعيش؟

فبعد عصرنا الذهبي القديم، عصر الإبداع الأول في المرحلة التاريخية الأولى عبر

سبعة قرون، ظهر بعدها أن خلدون، وبعد عصرنا التدوينى الثانى، عصر الشروح والملخصات والموسوعات الكبرى، المرحلة التاريخية الثانية عبر سعة قرون تالية بدأ فجر النهضة العربية الحديثة منذ مائتى عام تقريباً وتعثرت نظراً لأنها كانت نخبوية لم تتحول إلى حركات جماهيرية أو ثورات وطنية ناجحة ومستمرة. وكانت تأخذ الغرب نمطاً للتحديث مما أثار حفيظة الحركة السلفية. وكانت نسبية تحاول التجديد. والإصلاح أما من الداخل مثل الإصلاح الديني أو من الخارج مثل التيار العلمي العلماني أو من تركيب الخارج على الداخل وقراءة مثل التنوير فيه مثل الفكر السياسى الليبرالى. وكانت الثقافة العربية فى جانب والواقع العربي فى جانب آخر. كانت هناك على الأقل عدم مطابقة أو تجانس بين الاستجابات الضعيفة للثقافة العربية وحجم التحديات في الواقع. كنا أشبه بمن يريد صيد أسد بحجارة أو تفريغ محيط بكوب أو هدم جبل بعصاة. وكلما وسعت الهوة بين الثقافة والواقع ظهر العجز، وانزوت الثقافة إلى روافدها، واشتد الواقع تعقيداً، وازداد تأزماً.

ويمكن البداية بترتيب البيت من الداخل، ورصد الاتجاهات العامة للثقافة الوطنية وتأكيد تعدديتها ووحدتها، وحق الاختلاف في الرأى دون تكفير أو تخوين، وضرورة الاتفاق على برنامج عمل وطني موحد يحدد الأهداف الوطنية التي تكوّن ملامح المشروع القومي وتتعدد الأطر النظرية لصياغته وربما أيضا لأدوات تحقيقه.

وهنا تبدو أهمية الفكر السالب الذى يبدو في النزعة النقدية. فالهدم يسبق البناء، والنفى يأتى قبل الإثبات؟ ولا يمكن تشييد جديد دون هدم القديم. لقد حاولنا البناء دون هدم. فسرعان ما تهدم البناء لأنه لم تتم قبله مرحلة نقدية للنظم القديمة. قضي على النظم الليبرالية لأن الجذور التاريخية للقمع والقهر والتسلط لم تنتزع، ومن منطق الفرقة الناجية يهيمن على الثقافة الوطنية. وانهارت النظم الاشتراكية لأننا لم نقض بعد على الجذور الثقافية للرأسمالية والطبقية وانحسر المد القومي لأننا لم نخلص ثقافتنا سلفاً من شوائب الطائفية والعشائرية والقطرية والتجزئة.

المرحلة التاريخية التى نمر بها تتميز بتحول جذري في نظام العالم وبانتقال الوعي في مسار التاريخ من مرحلة قديمة شارفت على الانتهاء إلى مرحلة جديدة بدت تباشيرها. وهنا يكون لفظ «الحضارة» أعم وأشمل من لفظ «الثقافة». فالحضارة الغربية بدأت في

العصور الحديثة في عنفوانها بمرحلة الأحياء، إحياء الآداب القديمة فى القرن الرابع عشر بحثاً عن الجذور اليونانية وتفضيل الوثنية الأولى على مسيحية العصور الوسيط، ثم عصر الإصلاح الديني في الخامس عشر من أجل تخليص الدين مما علق به من شوائب التاريخ والعودة إلى الكتاب وحده دون التراث الكنسي وتأكيد حرية التفسير دون احتكاره، وعلى أهمية الصلة المباشرة بين الإنسان والله دون توسط رجال الدين، وعلى أولوية التقوى الباطنية على الشعائر الخارجية، وعلى أولوية الوطن على الأممية الدينية. ثم جاء عصر النهضة في القرن السادس عشر من أجل التحول من القديم إلى الجديد، ومن السلطة إلى العقل، ومن النص إلى الواقع، ومن الله إلى الإنسان، ومن النفس إلى الجسد، ومن الخلف إلى الأمام. ثم تأكدت العقلانية في القرن السابع عشر، لا سلطان يعلو فوق سلطان العقل، ولا نظام يفوق نظام الطبيعة. ثم تحولت العقلانية العلمية الفردية إلى تنوير اجتماعي سياسي شامل من أجل إقامة المجتمع على مثل التنوير: العقل (العلوم الرياضية)، والعلم (العلوم الطبيعية)، والحرية (الإنسان)، والعدل والمساواة (المجتمع)، والتقدم (التاريخ). وقامت الثورة الفرنسية تحقيقاً لهذه المثل. ووصل الوعي الأوروبي الذروة في القرن التاسع عشر، المثالية والوحدة المطلقة، نهاية التاريخ، وتحقيق المثال في الواقع، وتجسيد الله في الدولة. خفقت الروح، وقلت قيمتها، وهدأت الاندفاعة الأولى. بدأ الوعي الأوروبي ينقد نفسه، ويهدم ما بناه، ويراجع إنتاجه، وكأنه يندم على ما فات. فينتقل من المعقول إلى اللا معقول، ومن القيمة إلى اللا قيمة، ومن المعنى إلى اللا معنى، ومن الاتساق إلى التناقض، ومن الأمل إلى اليأس، ومن الوضوح إلى الاشتباه، ومن التركيب إلى التفكيك، ومن الإنسان المثالي إلى العنصرية الحضارية حتى انتهى القرن العشرين إلى الشك والنسبية واللا أدرية والعدمية. وتحدث الفلاسفة المعاصرون عن مظاهر العدم في الوعي الأوروبي: انقلاب القيم، إفلاس الفلسفة، موت الإله، موت الإنسان، ضياع عالم الحياة، الموت في الروح، تفكيك كل الأبنية القديمة بما في ذلك العقل نفسه والكلمة ذاتها.

وفي نفس الوقت ينهض الشرق. قامت ثورة الصين وتحررت الهند، ونهضت اليابان، وتم تصنيع دول شرق آسيا، وقامت الثورة الإسلامية في إيران، واستقلت الجمهوريات الإسلامية في آسيا الوسطى، وانتصر المجاهدون الأفغان، وبدأت نظريات «ريح الشرق»

تصف مسار الحضارة الإنسانية عبر التاريخ. بدأت الحضارة في الشرق ثم انتقلت إلى الغرب، والآن تأفل في الغرب وتعود إلى الشرق من جديد. وتنضم مع الشرق أفريقيا وأمريكا اللاتينية فيما يسمى بالعالم الثالث. فقد استقلت الشعوب الأفريقية، والعنصرية على وشك الزوال فى جنوب أفريقيا، وتمثل منظمة الوحدة الأفريقية وعياً إنسانياً جديداً لأفريقيا والعالم. وكذلك البشرية في الأطراف خارج المركزية الأوروبية، ويتطلعون إلى مستقبل جديد للبشرية خال من الجوع والقحط والعنف والهيمنة والاستغلال والحروب. ويتوسط العالم العربي هذا العالم الجديد. ويستطيع بما له من رصيد تاريخي وإمكانيات مادية بشرية أن يبلور إنسانية جديدة وأن يظهر فيه المسار الجديد لمستقبل البشرية. وتستطيع مصر، قلب العالم العربي بجناحيها فى المشرق والمغرب أن تكون بؤرة هذا التحرك في مسار العالم الجديد. إن كبوة مصر النهضة عندنا، وعثرات حركات التحرر، بل والثورات المضادة ومظاهر التفسخ والتفتت والقطرية والتجزئة والطائفية والعشائرية والتبعية لهي مظاهر طارئة على السطح وليست فى أعماق الشعور التاريخى نتيجة لتأزم النظم السياسية وضياعها بين الجيش وقريش. ولما كانت أعمار التاريخ تتجاوز الأعوام والعقود فإن العثرات الوقتية لا تنال شيئًا من رؤية مستقبلية للتاريخ. فإذا كنا في الخمسينيات والستينيات قد ملأنا الدنيا بحركات التحرر الوطني، وإذا كنا تعثرنا في السبعينات والثمانينيات في ترتيب البيت من الداخل فإن التسعينيات وبداية العقد القادم قد تكون بداية المسار لعالم جديد. وإذا كان فجر النهضة العربية الحديثة قد بدأ في القرن الماضي وتعثر في هذا القرن فإن القرن القادم قد يكون بداية لصبح جديد للنهضة العربية. وإذا كنا قد أبدعنا عصرنا الذهبي في القرون السبعة الأولى، وتوقفنا في القرون السبعة التالية فإن القرون السبعة التالية قد تكون بداية لعصر ذهبي جديد ■

المحاضرة بتاريخ 2010/10/17

المحاضر:

جهاد الخازن

صحفي وكاتب

عنوان المحاضرة:

الصحافة وتحديات العصر

سيرة ذاتية

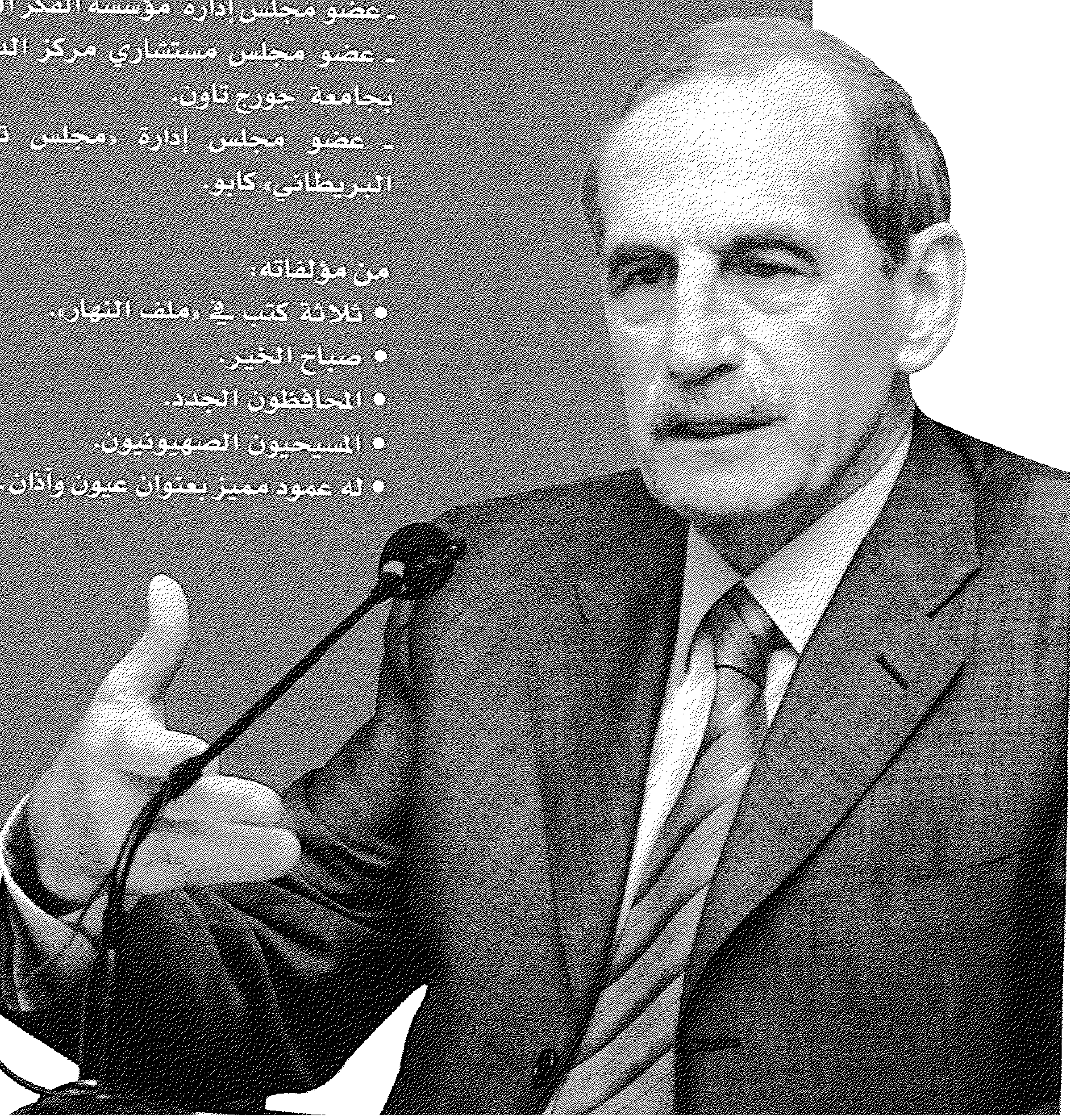
- من أبرز الصحفيين العرب المؤثرين في المشهد الإعلامي العربي.

عمل في مجالات إعلامية كثيرة منها: رئيس التحرير لصحيفة «الديلي ستار»بيروت، وصحيفة «عرب نيوز» جدة، وصحيفتي «جريدة الشرق الأوسط» والحياة لندن. ورئيس التحرير للشراكة بين صحيفة «الحياة» إل بي سي اللبناني.

- عضو مجلس إدارة مؤسسة الفكر العربي.
- عضو مجلس مستشاري مركز الدراسات العربية المعاصرة بجامعة جورج تاون.
- عضو مجلس إدارة «مجلس تحسين التفاهم العربي البريطاني» كابو.

من مؤلفاته:

- ثلاثة كتب في «ملف النهار».
- صباح الخير.
- المحافظون الجدد.
- المسيحيون الصهيونيون.
- له عمود مميز بعنوان عيون وآذان في جريدة الحياة اللندنية.



الصحافة وتحديات العصر

الصحافة يمكن أن تختصر في كلمتين أترجمهما عن الانكليزية محاولاً المحافظة على السجع فيهما، وهما news and view، أو أخبار وأفكار، وربما أنباء و آراء. الخبر يجب أن يكون صحيحاً بما يضم من معلومات، والرأي حق لصاحبه، ضمن نطاق القانون... يعني أن حق الكاتب ينتهي عندما يبدأ حق المستهدف بالكتابة.

سأحاول اليوم أن أتناول عناوين تهم القارئ من الصحافتين العربية والغربية، فهناك أشياء مشتركة بينهما وأشياء مختلفة وهي أكثر. صحافتنا وصحافتهم تعانيان من هجمة الصحافة الجديدة، أو التكنولوجيا التي جعلت المدونات تنافس الصحف التقليدية، ومن انخفاض المبيعات ومعها الإعلانات. إلا أن صحافتنا تعاني بعد ذلك من كل علة أخرى، بما في ذلك نقص الحريات في بعض البلدان العربية، وغيابها في بعض الآخر، وخطر الموت في مهنة كاسدة. فعبر هذا العقد يتصدر العراق ثم الجزائر قائمة القتلى من الصحافيين العاملين.

وأتوقف قبل أن أكمل لإيضاح نقطتين:

الأولى، أن حديثي عن نقص المداخيل قد يترك انطباعاً بأنني أتحدث عن مداخيل متقاربة، مع أن الواقع هو أن دخل جريدة غربية كبرى من نوع «نيويورك تايمز» قد يزيد على مداخيل وسائل الإعلام العربية كلها، صحافة وراديو وتلفزيون، أو ٢،٢ بليون دولار مقابل ١،٢ بليون دولار. أما «نيوزكورب غروب» التي يرأسها روبرت ميردوخ، وتضم مئات الجرائد وشبكات تلفزيون عالمية، فدخلها السنوي يتجاوز ٣٠ بليون دولار، وهو دخل دولة نفطية عربية من حجم متوسط.

النقطة الثانية هي أن هجمة التكنولوجيا ستصيب صحافتنا لاحقاً، فنحن متخلفون

عن العالم المتقدم عشر سنوات على الأقل، وما تعاني منه الصحافة الغربية اليوم سنعاني منه بعد سنوات، لذلك أنصح بمتابعة مشاكل ومشاغل الصحافة الغربية لنعرف كيف ستتبعها صحافتنا.

أخلص مما سبق إلى ما اخترت لكم من عناوين:

مبيعات الصحف

بصراحة لا أصدق أرقام بيع الصحف العربية، فلا يوجد مصدر مستقل لها، ولا رقابة. وأراها تنطوي على مبالغات كبيرة، فأنا أسمع أن هذه الجريدة أو تلك تبيع في مصر مليون نسخة، وتجربتي تقول إن الرقم مبالغ فيه جداً. أو أسمع أن هذه الجريدة العربية أو تلك تبيع ٢٠ ألف نسخة في أوروبا، وقد سمعت أن الرقم ٣٠ ألفاً، وهذا مستحيل. وقد قرأت أرقاماً لمؤسسة هاشيت الفرنسية التي توزع أكثر الصحف العربية، ووجدتها بالمئات والألوف لا عشرات الألوف.

وبالمقابل تتميز إحصاءات مبيعات الصحف الغربية، وتحديداً الأميركية والبريطانية التي أتابعها يومياً، بالدقة التامة، وقد تشمل الأعداد التي تباع بالسعر المعلن، والأعداد الأخرى التي تباع بسعر تشجيعي، أو توزع مجاناً في المطارات مثلاً لاجتذاب المعلنين.

في بريطانيا هناك مؤسسة ABC التي تمتلكها الصحف البريطانية ويتمثل عملها في الإشراف على أرقام توزيع هذه الصحف لنسخها المطبوعة. وبحسب أرقام توزيع الصحف البريطانية لشهري أغسطس وسبتمبر الماضيين مقارنة بأرقام التوزيع للشهرين نفسهما في السنة الماضية فإن مبيعات كل الصحف اليومية تراجعت بنسبة واحد في المئة، وأحياناً بواقع 11 في المئة، و17 في المئة. وإذا وُجدت زيادة نادرة فهي طفيفة. فمثلاً «الديلي ستار» زادت 0،9 في المئة الشهر الماضي على مبيعاتها قبل سنة، غير أن هذه الجريدة تراجعت 8،2 في المئة في أغسطس الماضي مقارنة بأغسطس 2009.

هذه الارقام تعني انخفاضاً موازياً في الإعلانات وفي القيمة الدفترية للصحف. وكنت في السنتين الماضيتين ركزت على الصحف الأميركية، وعلى رأسها «نيويورك تايمز» بعد أن استدانت من الثري المكسيكي اللبناني كارلوس سليم ٢٠٠مليون دولار،



ثم رهنت مبناها الشهير في مدينة نيويورك، وعادت وسمحت لسليم بالاستثمار فيها عن طريق ضخ مبالغ اضافية. وبالإجمال فقد هبطت أسهم «نيويورك تايمز» بحوالي ٦٠ في المئة منذ سنة 2004، وأصبح الناشر ارثر سولزبرغر لا يستبعد أن تتحول «أهم جريدة في العالم» من الورق إلى الإنترنت. وكانت شركة ماكلاتشي اشترت مجموعة نايت ريدر التي تصدر عنها مئات الجرائد المحلية في مزاد بمبلغ ستة بلايين دولار سنة 2005، وهبطت أسهم ماكلاتشي هي الأخرى بحوالي 80 في المئة خلال أربع سنوات. في حين أغلقت مئات الصحف الصغيرة في السنوات الاخيرة وتحولت بعض الصحف التاريخية الى الانترنت مثل «كريستيان ساينس مونيتور». إضافة إلى ذلك تعمل «بوسطن غلوب» المملوكة من «نيويورك تايمز» منذ سنوات تحت الفصل11، أو فصل إشهار الإفلاس. إذن المشكلة عامة، وكلنا سمع بمشاكل جريدة «لوموند» الفرنسية التي أسست بعد التحرير سنة 1944، وتراجعت إلى درجة إلغاء 130 وظيفة سنة 2008 ما أدى إلى إضراب، وأصبحت تخسر 25 مليون يورو في السنة، وكادت أن تفلس بعد أن أصبحت ترزح تحت دين بمئة مليون يورو لولا أن ثلاثة مستثمرين اشتروها وأنقذوها من الإفلاس، ولولا تدخل مستثمرين آخرين يدعمهم الرئيس نيكولا ساركوزي.

اليوم القارئ الغربي غيّر نمط متابعته للصحف، حيث بات يتابع المدونات الإلكترونية أو ما بات يعرف بصحف الانترنت التي أضحت تُحصى بالملايين. وبالفعل استطاعت بعض هذه الصحف أن تتكيف مع الأوضاع والمتطلبات الجديدة لدرجة أن عدد قرائها وصل إلى عدة ملايين، كما هو الشأن مثلاً بصحيفة «هفنغتون بوست» الإلكترونية التي وصل متابعوها إلى 11مليون قارئ، أي ما يزيد على جميع قراء الصحف الورقية الكبرى في نيويورك وواشنطن ولوس انجليس.

المعاناة العربية

وسائل الإعلام العربية تعاني هي الأخرى من تراجع المبيعات وهبوط الإعلانات، إلا أنها كما أشرنا تفتقر كذلك إلى الحريات التي تتمتع بها الصحافة الغربية، ناهيك عن تعرض الصحفيين بها إلى القتل أو السجن أو التعذيب.

وكان الشاعر القديم قد قال:

قالوا تركت الشعر قُلتُ ضرورة
باب الدوافع والدواعي مغلق
لم يبقَ في الدنيا كريم يرتجى
منه النوال ولا مليح يعشق
ومن البليّة أنه لا يشترى
ويخان فيه مع الكساد ويسرق

كانت هذه حال الشعر قديماً وهي حال الصحافة اليوم. وكلنا سمع أسماء أطوار بهجت، وسمير قصير، وجبران تويني، إلا أن هناك عشرات، بل مئات، من الصحافيين والعاملين في هذا القطاع الذين قضوا نحبهم، ولفّهم النسيان قبل أن يجف دمهم. وهكذا فنحن لا نجد حرية صحافية وخطر الموت يحدق بنا من كل جانب. وأريد أن أؤكد على أنني لا أقبل توصيفات جماعات في الخارج لنا لمجرد أنها تصدر عن مراكز بحث يديرها «خواجات».

فمثلا منظمة «دار الحرية» (Freedom House) تجعل إسرائيل وحدها حرة بين دول الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، رغم كونها دولة فاشستية ورغم معاملتها للفلسطينين أصحاب الارض من أهل 1947 كمواطنين من الدرجة الثانية هذا دون ذكر مساعي الحكومة الإسرائيليى الحالية للإعلان عن يهودية الدولة وفرض قسم الولاء، وكل ما من شأنه ان يقيد حرية 5،1 مليون إنسان بها. ويجب أن نشير إلى أن بعض أركان إدارة مؤسسة «دار الحرية» هذه إما ليكودي أو موظف لوبي مما يلغي مصداقيتها.

بالمقابل فإن «لجنة حماية الصحافيين» تعد مؤسسة أفضل. ففي تقريرها الأخير عن الدول التي تراجعت حرية الصحافة فيها نجد مصر في الدرجة السابعة والمغرب في التاسعة من أصل عشر درجات. وفي قائمة أعداء الإنترنت، ومن أصل سبع دول، تحتل مصر المرتبة الثالثة، وتتبعها إيران، والمملكة العربية السعودية، وسورية (الأولى بورما ثم الصين وتتذيل فيتنام التصنيف).


مو الشيخ سلطان بن زايد آل نهيان



الحملات على الإسلام

لا أريد أن أرد على الحملات التي يتعرض لها الإسلام والمسلمون في بعض منابر الصحافة الغربية خصوصاً الإلكترونية منها، بشن هجوم على الدين اليهودي، لذلك سأختصر.

كلنا نعرف الرسوم المسيئة إلى النبي محمد عليه الصلاة والسلام، وكذلك ما تضمنه فيلم «فتنة» للسياسي الهولندي «غيرت وايلدرز»، غير أنني أقرأ مواقع يهودية وليكودية كثيرة تنطلق من الولايات المتحدة، وأجدها تضم حملات يومية على الاسلام كدين، وعلى المسلمين وعلى ما تسميه اليوم الإرهاب.

أتوقف هنا لأقول إنني أتحدث عن موضوع أعرفه جيداً، فعندما كنت أدرس لماجستير في الأدب العربي في الجامعة الاميركية في بيروت سئلت ماذا أريد كتخصص مقابل (minor) واخترت الدراسات الإسلامية لتساعدني في اللغة لا الدين. ودرس ابني تاريخ الشرق الأوسط، ومنه الإسلام، في أوكسفورد، وأعدت دراسة الموضوع معه، كما أنني أعمل في حوار الإسلام والغرب منذ 30 سنة، بدءاً مع الأمير تشارلز والأمير الحسن ثم الأمير تركي الفيصل والأميرة لؤلؤة الفيصل وأسقف كانتربري في حينه اللورد كاري آلان.

أدين الحملات على الإسلام، ولكن لا أدافع عن المسلمين فهم فشلوا في القضاء على الإرهاب الذي طلع من بينهم، ثم فشلوا في الدفاع عن دينهم. ولا أفهم كيف لا تحاول المنظمات الإسلامية وهي قادرة أن ترد على الحملات بمثلها، فالهجوم أفضل وسائل الدفاع. وبدل أن يجلس المسلمون في قفص الاتهام ويفركون أيديهم يستطيعون أن يردوا التهمة إلى أعدائهم ليتركوا هؤلاء في موقع الدفاع عن النفس.

الحملات الأخرى

اسمحوا لي هنا بأن أبدأ بقصة، ففي سنة 2004 رفع السيد خالد بن محفوظ، وهو مدير تنفيذي سابق للبنك الأهلي الوطني السعودي، قضية في لندن على الأميركية راشيل إهرنفيلد بعد أن اتهمته في كتابها «تمويل الشر: كيف يُموّل الإرهاب وما السبيل لإيقافه» بأنه وضع عشرات ملايين الدولارات في حسابات إرهابية في لندن ونيويورك،

وحوّل 74 مليون دولار إلى جمعيات خيرية إسلامية يدير واحدة منها رجل تتهمه السلطات الأميركية بالإرهاب.

ثبوت التهمة كان يعني أن يواجه السيد بن محفوظ حكماً بالسجن مدى الحياة ومصادرة أمواله، غير أنه كسب القضية فكان أن قامت حملة في الولايات المتحدة بتحريض من عصابة إسرائيل في الكونغرس لتغيير القوانين بما يمنع محاكمة أميركيين أمام القضاء البريطاني الذي يميل إلى جانب المدعي.

الحملة كانت فاجرة بامتياز وجرت تحت غطاء التعديل الأول للدستور الأميركي وهو جزء من وثيقة حقوق الإنسان الأميركية ويحمي حرية الصحافة وحرية التعبير وحرية التجمع السلمي، ويتناول حرية ممارسة الدين، والحرية من فرض دين.

الحملة انتهت في مطلع الصيف الماضي بأن أقرّ مجلس النواب بالإجماع مشروع قانون يحمي الصحافيين من الملاحقة أمام محاكم أجنبية. ووجدت أن مشروع القانون الذي رعاه النائب «ستيفن كوهن»، واسمه يدل على أصله، ومثله كثيرون يمثلون إسرائيل في الكونغرس لا الولايات المتحدة، يتجاوز نقطة أساسية في كل قانون وضعي وسماوي هي أن «البينة على من ادعى». فالأميركية اهرنفيلد لم تقدم دليلاً قاطعاً على التهم الخطيرة التي وجهتها إلى السيد بن محفوظ، ومع ذلك اختار المشترعون الأميركيون حمايتها هي وأمثالها بَدل حماية ضحايا التهم الباطلة والزائفة. وكنا نطالب بحرية الصحافة وأصبحنا نطالب بالحرية من الصحافة.

حدث هذا مع أن المشترعين الأميركيين سعوا قبل ذلك بستة أشهر فقط إلى إقرار قانون يكمم الصحافة العربية، هو قانون مكافحة التحريض، ويرمي إلى التلفزيون الفلسطيني بعدم التحريض على اليهود، ومنع محطات تلفزيونية من نوع «المنار» من بث برامجها. ويطالب القانون الرئيس بتقديم تقرير دوري عن التحريض ضد الولايات المتحدة في الشرق الأوسط. وأرى أن السياسة الأمركية والتزامها الكامل تجاه إسرائيل وشن الحروب على العرب والمسلمين تكفي تحريضاً على استمرار العداء وتوفير مكتب تجنيد للإرهابيين. ولعل المشرعين الأميركيين رغم اسرائيليتهم كانوا أكثر رحمة من بوش الابن الذي اقترح على توني بلير في مناسبة سابقة قصف تلفزيون الجزيرة في غارة جوية.

ما سبق ذكرني بقول الكاتب المحافظ بات بوكانان إن «تلة الكابيتول» (أي الكونغرس الأمريكي) أرض تحتلها إسرائيل.

عناوين أخرى

- قتلت هجمات 11/9/2001 الإرهابية حوالي ثلاثة آلاف أميركي، وقتلت إدارة بوش الابن بعد ذلك في حروبها على العرب والمسلمين حوالي 1.5 مليون إنسان، ولايزال القتل مستمراً.
- ثُبت بوجه قاطع أن المعلومات التي قدمت لتبرير الحرب على العراق كانت مزورة عمداً.
- هناك أدلة قاطعة كافية لتحويل جورج بوش وديك تشيني ودونالد رمسفيلد وبول ولفوفيتز ودوغلاس فايث وغيرهم إلى محكمة جرائم الحرب الدولية في لاهاي.
- الصحافة الأميركية الليبرالية التي كشفت أوراق البنتاغون حول حرب فيتنام وفضيحة ووترغيت تواطأت مع الإدارة في خلق أجواء تبرر حرباً لأسباب نفطية وإسرائيلية.
- الدول العربية والإسلامية لم تحاول أن ترفع قضية أمام محكمة جرائم الحرب الدولية على عصابة الحرب الاميركية، في حين أن دماء الأبرياء تستصرخ الأرض والسماء طلباً للعدالة.
- لا يزال التواطؤ قائماً، وقد قرأت على مواقع إلكترونية شكاوى واحتجاجات على الصحافة التقليدية التي اكتفت بإشارات عابرة من دون تعليق، إلى تقرير مجلس حقوق الإنسان التابع للأمم المتحدة الذي دان بأقسى العبارات هجوم إسرائيل على أسطول السلام وقتل دعاة سلام أتراك، واعتبره قتلا متعمداً انتهاكاً للقانون ■

المحاضرة بتاريخ 2010/10/24

المحاضر:

الدكتور إبراهيم كلداري

بروفيسور طب التجميل وأستاذ الأمراض الجلدية في كلية الطب

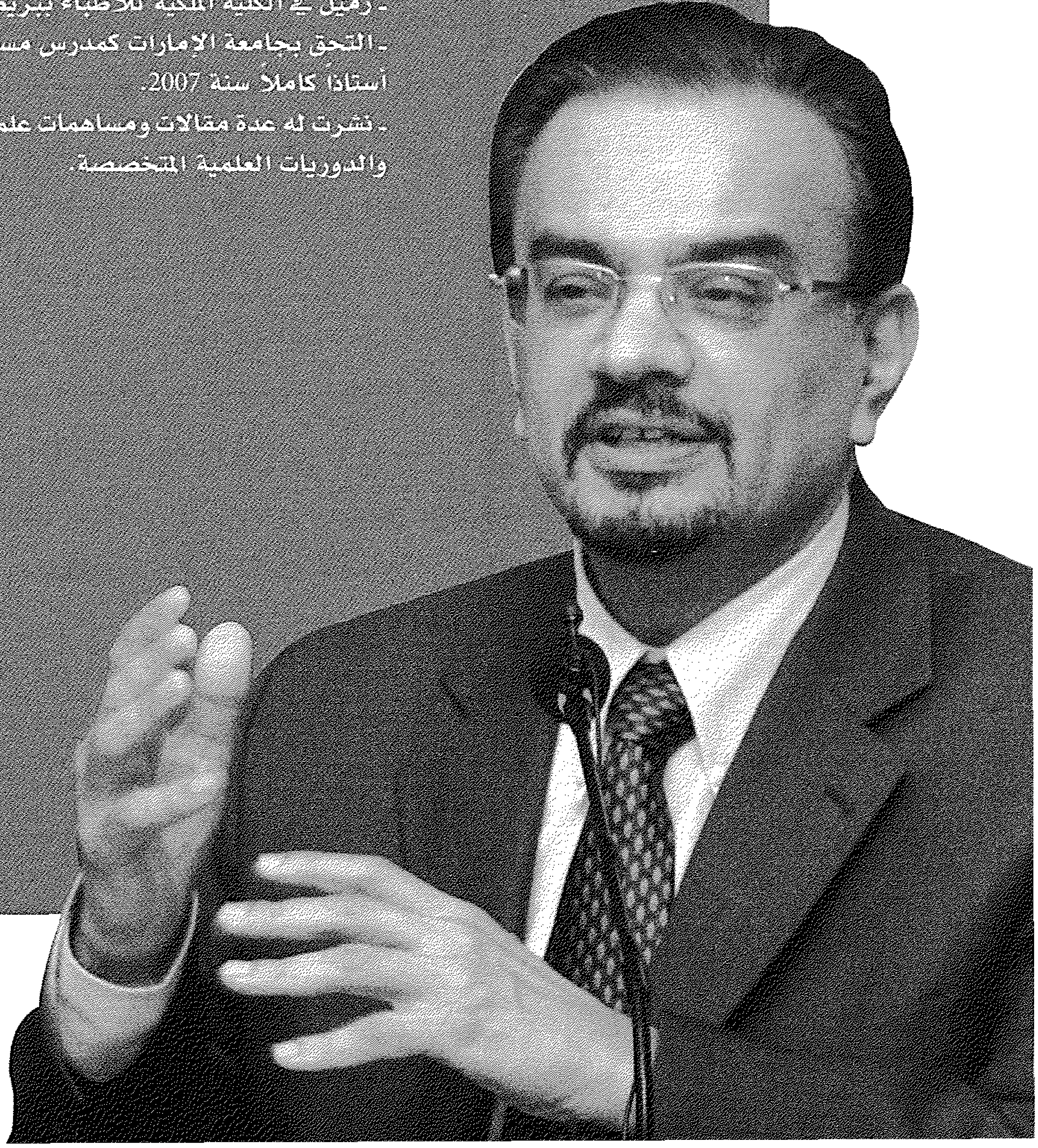
جامعة الإمارات بمدينة العين

عنوان المحاضرة:

الجراحة التجميلية..
ما هو الخطأ و ما هو الصواب؟

سيرة ذاتية

- حصل على درجة الدكتوراه في الطب سنة 1987.
- حاز درجة الماجستير في العلوم سنة 1983.
- عضو في المجلس العربي للطب والجراحة.
- زميل في الكلية الملكية للأطباء ببريطانيا.
- التحق بجامعة الإمارات كمدرس مساعد سنة 1980 وأصبح أستاذاً كاملاً سنة 2007.
- نشرت له عدة مقالات ومساهمات علمية في عدد من المجلات والدوريات العلمية المتخصصة.



الجراحة التجميلية..
ما هو الخطأ وما هو الصواب؟

في البداية قبل الحديث عن الجمال يجب أن نعرف أولا ما هو الجمال؟ وما هي أهمية الجمال والتجميل في حياتنا؟ هناك مقولة تقول «كن جميلاً ترى الوجود جميلاً».

لا شك أن الإنسان مفطور بطبيعته على حب الجمال، ومنذ القدم تحدث الفلاسفة عن الجمال واعتبروه واحداً من القيم السامية في الحياة، فأرسطو كان يرى أن الجمال هو التناسق الحاصل بين التنوع والاختلاف. أما أفلاطون فكان يرى أن الجمال هو الحياة. فلا بد للجميل أن يكون مفعماً بالحياة والنضارة وقد جعلها بعد الصحة وقبل الثروة، ولعل أهم مفهوم للجمال هو مفهوم التناسق الذي برز عند العرب والمسلمين، وهو التناسق بين الظاهر والباطن أي بين ما يدركه البصر وما تدركه البصيره، وهذا يعني أن الجمال ليس جمال الشكل والمظهر فقط بل هو جمال الروح وجاذبية الجوهر الضروريتان لتذوق الجمال الإنساني وللتناغم مع جمال الكون فمن الأفضل أن يكون الإنسان جميلاً على أن يكون غنياً. ومعنى ذلك أن صفاء الروح وجمال الجوهر ينعكس على وجه الإنسان فيزداد جاذبية وإشراقاً فيتعامل مع الآخرين بأسلوب راق وذوق عال وهذا هو الجمال الروحي. فالجمال ليس مجرد مقاييس ثابتة وحدود هندسية، ولكن جمال الروح والأخلاق وما يتمتع به الشخص من قبول وجاذبية لدى الآخرين، كلها عوامل مهمة تتداخل مع المفهوم الشامل للجمال.

وفقاً لآخر الإحصائيات مثلاً تنفق الأسر في الإمارات ما بين 20 و30 % من دخلها الشهري على مستحضرات التجميل، مع العلم أن الإحصاءات المتوافرة عن حجم هذا القطاع في الدولة غير دقيقة لعدم وجود جهاز إحصائي متخصص في الدولة، ولكن بلا شك يتم إنفاق مئات الملايين سنوياً في قطاع التجميل سواء تعلق الأمر بالمستحضرات أو بالعلميات الجراحية.


and aging



ومنذ فترة ليست ببعيدة كانت عمليات التجميل مقتصرة على فئة من ذوي الشهرة ونجوم السينما بحكم طبيعة عملهم، علماً أن معظم العمليات التجميلية آنذاك كانت جراحية فقط. أما اليوم فقد أصبحت عمليات التجميل أقل تعقيداً ومتاحة للجميع بدرجة أمان أكبر وبعيداً عن المشرط الجراحي نظرا للتطور الملحوظ الذي شهدته الجراحات بوجه عام والجراحة التجميلية بشكل خاص وبتكاليف أقل بكثير عن ذي قبل، مما أدى إلى انتشارها بين مختلف الأعمار إما لإصلاح ما أفسدته الشيخوخة (آثار الترهل) أو لحاجة الشخص فعلا لعملية تجميل بسبب عيب خلقي أو تشوهات جلدية (من قبيل الكلَف، آثار حب الشباب، البقع)، أو تشوهات ناجمة عن حوادث، أو سمنة مفرطة، وغير ذلك، وهي كلها حالات تتطلب إجراء عمليات تقويمية أو تجميلية حسب كل حالة على حدى.

وبموازاة ذلك هناك حالات لا تحتاج في الواقع إلى إجراء عمليات تجميلية، لكن البعض يلجؤون إليها بدافع «مواكبة الموضة»، وهنا تكمن المشكلة. حيث بات الأمر يشبه الهوس لديهم في رغبتهم إما في تقليد فنانين أو فنانات والحصول على ملامح مشابهة لهم قدر الإمكان أو الحصول على ملامح وفقاً لمعايير معينة في مخيلتهم (كدرجة بياض البشرة أو حجم الأنف، أو الشفتين، أو الوجه بشكل عام، إلخ). وفي غالب الأحيان ترتبط هذه الحالات بمرض نفسي معين يجب الانتباه إليه.

يجب أن نميز بين العمليات التجميلية الجراحية والعمليات غير الجراحية: ففيما يخص الفئة الثانية فتشمل كل أنواع التقشير والسنفرة للبشرة، إلى جانب أشعة الليزر، وحقن البوتوكس والفيلرز (المواد المالئة)، وما يعرف بالميزوثيرابي (حقن الطبقة الدهنية تحت الجلد بمادة مزيلة للدهون) والكربوكسيثيرابي (الحقن بثاني أكيد الكربون). أما العمليات الجراحية فتشمل تقويم أعضاء في جسم الإنسان مثل الأنف والأذن والعيون والذقن وغيرها، إضافة إلى عمليات شفط الدهون التي أصبحت شائعة. لنتحدث قليلاً عن بعض هذه العمليات:

التقشير:

كلمة تقشير تعني إزالة أو تخفيف الطبقة الخارجية من الجلد (البشرة)، وأحياناً

إزاله أو تخفيف جزء من الطبقة الوسطى (الأدمة)، وذلك لمعالجة بعض المشاكل أو العيوب التي تظهر على الجلد، نتيجة الإصابة بمرض معين، مثل حب الشباب والذي يترك أحياناً ندبات أو تصبغات، كذلك كلف الحمل أو النمش، وآثار تقدم السن كالتجاعيد وفقدان ليونة وحيوية الجلد، وتستخدم عدة طرق في تقشير البشرة منها التقشير الكيميائي والتقشير الميكانيكي (الصنفرة) والتقشير بالليزر. وأكثر هذه الطرق استخداماً هو التقشير الكيميائي.

وينقسم التقشير الكيميائي إلى عدة أنواع منها:

التقشير المنزلي: عن طريق استخدام بعض أنواع أحماض الفواكه مثل الجلايكوليك أسيد (بتركيز خفيف)، أو مشتقات فيتامين أ.

التقشير المتوسط: باستخدام أحماض الفواكه وبتركيزات عالية تتراوح بين 30 % – 70 %، أو مواد كيميائية مثل التراى كلور أسيتيك أسيد بتركيزات مختلفة تتراوح من 15 – 35 %.

التقشير العميق: تستخدم من خلاله مادة التراي كلور أسيتيك أسيد بتركيز قد يصل إلى 50 %، أو مادة الفينول وهى مادة كيميائية شديدة الخطورة، ولا تناسب البشرة الشرقية.

ويمكن أن يتم التقشير لأي بشرة تعاني من مشاكل تصبغات أو ندبات، ولكن لا بد من طبيب مختص ومتمرن جيداً على التقشير وماهر في اختيار البشرة المناسبة، ونوعية التقشير المناسب لكل حالة على حدة، كذلك لا بد من فحص المريض وأخذ التاريخ المرضي جيداً قبل إجراء عملية التقشير، حتى نتجنب حدوث أية مضاعفات، ولا يستحب إجراء التقشير العميق للبشرة الداكنة نظراً لزيادة قابليتها لحدوث تصبغات بعد التقشير.

إذن هناك عدة طرق يمكن استخدامها في إزالة عيوب البشرة، منها الليزر والصنفرة والتقشير الكيميائي، ومع أن الليزر قد أثبت فعالية كبيرة في إزالة عيوب البشرة وخاصة في مجال الوحمات الصبغية وإزالة الوشم، إلا أن التقشير الكيميائي مازال الوسيلة الأكثر أماناً والأقل خطورة.

الميزوثيرابي:

الميزوثيرابي (Mesotherapy): هي تقنية طبية قديمة تم اكتشافها في العام 1952، وهي عبارة عن حقن صغيرة ودقيقة جداً غير مؤلمة إلى حد ما، تحقن تحت سطح الجلد وتحتوي على مواد وتراكيب مختلفة قد تكون مستخلصات نباتية أو مكملات غذائية أو فيتامينات أو إنزيمات أو أحماض أمينية أو مواد مغذية أو مواد معدنية أو أدوية تعطى حسب الحالة المراد علاجها. وتقوم فكرة استخدامها في مجال الجراحة التجميلية على نظرية أن هذا المزيج من المواد أو الأدوية يؤدي إلى إذابة الشحم المتواجد تحت الجلد وانكماش الخلايا الدهنية.

وتعتبر الميزوثيرابي من أحدث الصيحات في عالم تجميل الجلد والجسم وذلك من أجل الحصول على النتائج العلاجية المرغوب فيها كتخفيف الوزن في أماكن معينة، وتجديد خلايا الجلد لاستعادة نضارته وشبابه، وعلاج السليوليت وتحسين المظهر الخارجي للجسم وعلاج مشاكل الشعر.

وقد تم استخدام هذه الطريقة في البداية لعلاج بعض الحالات الخاصة مثل أمراض الأوعية الدموية وإصابات الرياضة والأمراض المعدية وأمراض الروماتيزم وتحسين الدورة الدموية، وسرعان ما بدأ الأطباء بعد ذلك في استخدام الميزوثيرابي في النواحي التجميلية المختلفة، ومع ازدياد نشاط الشركات المنتجة للمواد المستخدمة في الميزوثيرابي وادعاءاتها المتكررة بفاعلية هذه التقنية، اتسعت قائمة الاستخدامات وتعددت دواعي استعمال الميزوثيرابي لتشمل الآتي:

التقليل من دهون الجسم بصفة عامة أو في أماكن محددة منه، وعلاج السليوليت، وعلاج سقوط الشعر والصلع، وعلاج الندبات، وتحسين مظهر ونوعية الجلد وتقليل التجاعيد وإعادة نضارة الوجه.

ورغم استخدام الميزوثيرابي لعدة سنوات في أوروبا فإنه لم يتم حتى الآن تقييمه بطريقة علمية معتمدة ومحايدة، فالدليل العلمي لدعم هذه التقنية يكاد يكون معدوماً أو في أفضل الأحوال ضئيلاً جداً.

ويمكن إجراء الميزوثيرابي بطريقتين، وهذا بالطبع يعتمد على الطبيب المعالج ومدى خبرته ومستوى تمكنه من أي من هاتين الطريقتين:


سمو الشيخ سلطان



الأولى: تتم بالحقن يدوياً بواسطة إبر دقيقة جداً، وعادة ما يتم إجراء حقن متعددة في المكان المحدد على عمق يصل إلى الطبقة المتوسطة من الجلد. وتتميز هذه الطريقة بإعطاء المعالج السيطرة الكاملة على توصيل المادة المحقونة، كما إنها لا تستدعي تكلفة مالية عالية لشراء أجهزة الحقن المختلفة.

الثانية: تتم بمساعدة أجهزة الحقن الخاصة، وهي أجهزة خاصة تشبه المسدس يتم تثبيت الإبرة الدقيقة عليها، ومن الممكن معايرة هذه الأجهزة لإعطاء الحقن في الجلد إما بصورة منفردة كطلقة واحدة أو بصورة طلقات متكررة وبسرعات عالية، وتتميز هذه التقنية بفوائد ملموسة في جعل العلاج أقل إيلاماً للمريض، وأكثر سهولة وسرعة للطبيب المعالج، مع إضافة عنصري الدقة والثبات في توصيل الحقن المتتالية.

الكربوكسيثيرابي:

تعتبر تقنية كاربوكسي ثيرابي تقنية شائعة لإزالة الهالات السوداء وتشققات الجلد وتتم المعالجة بحقن غاز ثاني أكسيد الكربون تحت الجلد ويتم هذا الإجراء بدون أي ألم أو أثار جانبية، حيث يعمل على زيادة تدفق الأكسجين في الأنسجة مما يحسن من الدورة الدمويه في هذه المنطقة و بالتالي يحسن من لون المنطقة وشكلها وحيويتها ومرونتها. وهو إجراء علاجي تجميلي غير جراحي يُستعمل لحقن غاز ثاني أكسيد الكربون إما داخل الجلد أو تحت الجلد بواسطة إبرة دقيقة للغاية. وتتميز تلك المعالجة بسرعة الأداء، والفاعلية.

الكاربوكسيثرابي ليست طريقة علاجية جديدة إذ استعملت لأكثر من 70 سنة في أوروبا لعلاج أمراض مثل قصور الساق الوعائية. أما الاستعمال الجمالي للكاربوكسيثرابي فيعتبر جديداً نسبياً حيث اكتشف سنة 1990 في إيطاليا. وغاز ثاني أكسيد الكربون غاز عديم اللون والرائحة وإذا ما حقن تحت الجلد فإنه ينتشر بسرعة حول الأوعية الدموية فيقوم بتوسعتها مما يؤدي إلى زيادة تدفق الدم إلى المنطقة المعالجة، بالإضافة إلى ذلك فإن له تأثيراً مباشراً بتكسير الخلايا الدهنية لذا يعتبر بديلاً جيداً لإزالة الشحوم الموضعية للشخص الذي ليست لديه رغبة للمرور بالتخدير والعمليات الجراحية كما أنه يعتبر إجراء مكمل لعمليات شفط الدهون، أما إذا حقن

داخل الجلد فإنه يقوم بتحسين مطاطية الجلد وزيادة نضارته وإزالة التجاعيد الدقيقة عن طريق زيادة تدفق الدم وتحفيز إنتاج الكولاجين والأيلاستين في منطقة الأدمة.

البوتوكس: من منطلق خبرتي في هذا المجال يمكنني أن أقول إن الشيء الوحيد الذي نلاحظه كأطباء في مجال التجميل هو النتائج الملموسة لحقن البوتوكس والمواد المالئة مقارنة مع التقنيات الأخرى المذكورة أعلاه التي تكون نتائجها محدودة.

البوتوكس بات المادة الأكثر شيوعاً على مستوى العالم في الاستخدامات التجميلية وغيرها وهو ما يدر على الشركة الأمريكية المنتجة لها «أليرغان» أرباحاً طائلة تقدر بالمليارات. وكلمة بوتوكس هي الاسم التجاري لعنصر «بوتولينيوم توكسين» السام وهي مادة بروتينية طبيعية – بدون أي تدخل كيميائي – مستخرجة من أحد انواع البكتريا. ويحتاج البوتوكس الى تقنيات عاليه جداً في التصنيع باستخدام تكونولوجيا متطورة جداً للحصول على المادة في صورة شديدة النقاء والتعقيم لضمان حصول المريض على مفعول سريع وبدون أية أعراض جانبيه. في خلال الخمس عشرة سنة الماضية استخدمت هذه المادة لعلاج العديد من الحالات المرضية، والتي تحدث بسبب انقباض العضلات. أول تصريح لاستخدام هذا الدواء في الطب هو لحالات الانقباضات المتكررة للجفون، ثم لاحظ أطباء الجلدية أن الأشخاص المعالجين بهذه المادة تختفي التجاعيد التعبيرية لديهم. منذ اكتشاف ذلك، أصبح البوتوكس هو العلاج الأكثر فعالية في علاج معظم التجاعيد التعبيرية في الوجه. ويعمل البوتوكس على إرخاء العضلات المسببة للتجاعيد، وبالتالي تعيد للجلد نعومته وتختفي بذلك التجاعيد التي كانت عليه بسبب انقباض تلك العضلات.

أما فيما يخص كيفية العلاج بالبوتوكس فتتم عن طريق حقن هذه المادة في صورة سائل بكميات صغيره تحت الجلد في مناطق التجاعيد باستعمال إبر خاصه رفيعه جداً وبطريقة خاصة من قبل الطبيب المختص في مدة لا تتجاوز 15 دقيقة.

الفيليرز (المادة المالئة):

هي عبارة عن مواد شبه سائلة أو جلاتينية أو شحمية تحقن في الجلد أو تحته بواسطة إبر خاصة لإزالة او لتقليل خطوط التجاعيد في الوجه.

وتنقسم إلى قسمين: صناعية أو مواد طبيعية (كالشحوم). ومن بين هذه المواد المستخدمة في المجال التجميلي نذكر:

1 - الكولاجين: وهو بروتين طبيعي موجود في الجلد يمكن أن يؤخذ من جلد الإنسان والحيوان. طبعا الكولاجين يحتاج لإجراء فحص جلدي قبل الاستخدام وخاصة الحيواني، لفحص مقدار تحسس الشخص من هذه المادة.

2 - حمض الهاليرونك: وهي مادة طبيعية موجودة في الجسم البشري، يتم تصنيعها لتؤدي غرض توسيع أو نفخ المنطقة المستهدفة.

3 - الريستالين: وهو حمض هيلوروني مصنع بحيث يشابه المادة الأصلية التي ينتجها الجسم وتقوم بدور الاحتفاظ بالماء داخل أنسجة الجلد.. تحضر هذه المادة على شكل جل، وتحقن في داخل الأنسجة فتشد الجلد وتقلل من التجاعيد في الوقت الذي تقوي فيه الخطوط الطبيعية للوجه، وقد شاع استعمال هذه الحقن لما حققته من نتائج ناجحة أكدت ثباتها في داخل الأنسجة لعدة أشهر. ويجهز جل الريستايلين على درجتين مختلفتين من السماكة، الدرجة الأولى تصلح لمناطق الوجه وتستخدم في معالجة التجاعيد وملئها أو إعادة تشكيل الشفاه لتضخيمها، الدرجة الثانية تستخدم في تصحيح الخطوط الرفيعة التي تظهر عادة حول العينين والفم وعلى صفحة الجبهة.

4 - حقن البرلين: تشابه هذه المادة مادة الريستالين من حيث كونها حمضاً هيلورونيا مركباً، لكن لها استخدامات أخرى، فهي تصلح في إعادة تشكيل الخطوط العامة للوجه، خاصة في الخدود وعند الذقن كما تصلح أيضاً في معالجة التجاعيد العميقة، كما يمكن استخدامها في زيادة حجم الشفتين.

5 - هايدروكسي ابيتايت: هذه المادة موجودة كذلك في العظام بصورة طبيعية، وهي مادة ثقيلة تستخدم في نفخ المناطق العميقة من الجلد.

6 - الشحوم: تؤخذ من الشخص نفسه ومن المناطق المتشحمة كالبطن والأرداف وغيرها، ثم تغسل وتصفى وتحقن مرة أخرى في المناطق التي تحتاج إلى نفخ أو تكبير.

7 - الحقن بحامض البوليلاكتيك: هذه عملية حقن بجل مستخرج من حمض البوليلاكتيك وهو مركب مشابه لحمض اللاكتيك الذي ينتجه الجسم وهو فعال في تصحيح الانتفاخات التي تظهر تحت العيون، وفي التجاعيد المحيطة بالذقن، كما أن

فوائده أيضاً مؤكدة في إزالة التجاعيد في اليدين والركبتين والكاحلين، هذا إلى جانب استخدامه في تنعيم التجاعيد المحيطة بالعينين والشفتين والخطوط الممتدة بين الأنف والفم وعند الخدين، كما أنه يسهم في شد جلد الرقبة والمنطقة القريبة من الكتفين.

الليزر: يعتبر ثورة في عالم الجمال، حيث انتشر بشكل سريع في جميع أنحاء العالم حتى قبل أن تثبت فعاليته، وهو عبارة عن حزم ضوئية مكثفة ذات قوة عالية جداً تنبعث من بؤرة صغيرة جداً، وهذه الحزم تختلف من جهاز إلى آخر. ويستخدم الليزر لعلاج حالات مرضية مختلفة ولا يوجد جهاز ليزر واحد لعلاج جميع الحالات. يستخدم الليزر في إزالة بعض الوحمات، والنمش، والوشم وبعض الندبات وكذلك الشعر غير المرغوب فيه بتسليط ضوء الليزر على المنطقة التي يراد إزالة الشعر منها. ونجاح الإزالة للشعر مثلاً يعتمد على عدة عوامل منها سماكة الشعرة، ومرحلة نموها، ولونها، ومكان نموها، ونوع جهاز الليزر وقوة طاقته.

لكن ما أريد التركيز عليه هو أن طريقة استخدام هذه المواد والتقنيات تكون حاسمة في الحصول على النتائج المرجوة إذا صنعت هذه المواد بطريقة صحيحة وسليمة وحظيت بموافقة السلطات المختصة وأُعطيت بكميات مناسبة وفي ظروف مواتية. وأنه وفي حال حدوث أي خطأ فذلك يعود لمستخدم المادة/التقنية ومدى خبرته في استخدامها على المريض.

وهنا يجب أن نؤكد أن علىالشخص الراغب في إجراء عملية تجميل أن يستشير أكثر من مختص قبل اتخاذ قرار نهائي بشأن إجراء العملية من عدمها، أو الخضوع للعملية وفقاً لتقنية ما دون غيرها، وهذا الأمر ضروري للغاية في ظل تكاثر المراكز التي تدعي الاختصاص في مجال العمليات التجميلية.

المهم هو أن الطب التجميلي بات ممارسة شائعة جداً تعرف إقبالاً كبيراً بين كل الفئات العمرية. وترجع هذه الطفرة في الاهتمام بالشكل لأسباب كثيرة منها اكتساب الثقة في النفس والإحساس الإيجابي الذي يتوخاه الأشخاص بعد هذه العمليات والدافع الداخلي القوي لدى هؤلاء الأشخاص لإيجاد تغيير إيجابي في حياتهم.

لهذا يجب على المجتمعات العربية تنشيط وتشديد الرقابة على مراكز التجميل والعيادات الصحية التي تُجري عمليات التجميل بأنواعها المختلفة، بعد أن شهد هذا

المجال وجود الكثير من الدخلاء عليه، وأصبح متاحاً لكل من هبّ ودبّ، كما يجب تشديد الرقابة على الإعلانات والموضوعات التي تنشر في وسائل الإعلام المختلفة، وتروّج لأشخاص ومراكز تفتقد للخبرة والشهادات الأكاديمية التي تتيح لهم العمل في مجال التجميل. فالكثير من الصور التي تنشر في هذه الإعلانات وتوضح الحالة قبل عملية التجميل وبعدها، خادعة ويتم تنفيذها بفضل برامج كمبيوتر معينة.

وأود أن أشير إلى نقطة هامة أيضاً ألا وهي أن الأشخاص الذين يقومون بإجراء عمليات تجميل بهدف الحصول على ملامح تشبه فنانين وذوي شهرة؛ يعتبرون مرضى نفسياً. وفي مثل هذه الحالات يتعين على طبيب التجميل الامتناع عن إجراء العملية بهدف الربح المادي، وبدل ذلك توجيه المريض إلى الحصول على علاج نفسي لتقبل مظهره.

وفي حديثنا عن عمليات التجميل يجدر بنا الإشارة إلى أن أغلب مستحضرات وكريمات التجميل التي تباع في الأسواق وتدعي أنها مستحضرات علاجية يجب أن تخضع لرقابة الأجهزة الحكومية المختصة، علماً أن نسبة كبيرة من تلك المستحضرات تحتوي على مواد ضارة للإنسان مثل الرصاص والزئبق والسيلكون، حيث أنها تتسرب عن طريق الجلد إلى الكبد والكلى وتتسبب في أعراض خطيرة قد تؤدي الى الفشل الكلوي في حال استخدامها لتفترات طويلة. كما يجب أن نعلم أن الكثير من المستحضرات التجميلية تسبب مضاعفات خطيرة لاحتوائها على مواد تترك آثاراً على الجلد وتتسبب في نهاية المطاف في أمراض مثل الحساسية، وبالتالي على السيدات تجنب الاستخدام العشوائي لمستحضرات التجميل المجهولة المصدر والتي تأتي من بلدان دول شرق آسيا، ولا تخضع لرقابة الجهات الصحية ■

المحاضرة بتاريخ 2010/11/7

المحاضر:

الدكتور سعيد السريحي

ناقد سعودي مساعد رئيس تحرير صحيفة عكاظ

عنوان المحاضرة

الرواية ومأزق الهوية
قراءة للتجربة الروائية في الخليج

سيرة ذاتية

- عمل محاضراً بجامعة أم القرى.
- عضو تحكيم جائزة بلند الحيدري في مهرجان أصيلة للمبدعين العرب.
- عضو في مجلس إدارة النادي الأدبي الثقافي بجدة.
- عضو في الهيئة الاستشارية بجمعية الثقافة والفنون.

من مؤلفاته:

- شعر أبي تمام بين النقد القديم.
- رؤية النقد الجديد.
- الكتابة خارج الأقواس.
- حركة اللغة الشعرية.
- أركيولوجيا الكرم.
- حجاب العادة.



الرواية ومأزق الهوية
قراءة للتجربة الروائية في الخليج

لا تدعي هذه الورقة لنفسها العناية بالمنتج الروائي بمنطقة الخليج كما أن كاتبها لا يدعي لنفسه تتبع تطور هذا المنتج أو الوقوف على قيمه الجمالية والفنية والتمثل بهمومه وهواجسه لأن لمثل ذلك تعقد الندوات وتؤلف الكتب وأنّى لمحاضرة أن تلمّ بذلك إلا إذا أراد صاحبها أن يمضي بكم ركضاً بين العناوين وقفزاً بين الأسماء، ولست أحسن شيئاً من ذلك وربما لا يحسن بي أن أحسن شيئاً من ذلك. هذه المسامرة التي أردت أن أصارحكم بها تتصل بموضوع محدد يتمثل في العلاقة المتداخلة بين الهوية والرواية. وهو موضوع بات مؤرقاً لي ولعل شيئاً من النية غير الحسنة قد أغراني بأن أنقل إليكم شيئاً من هذا الأرق. هذه الورقة التي أقدمها بين أيديكم عن فن الرواية لا تتخذ من الرواية منطلقاً لها بقدر ما تتخذ من تلقي الرواية هذا المنطلق وذلك على اعتبار أن التلقي هو الذي يقودنا إلى تبيّن خارطة الطريق المفضي إلى ملامح الإشكالية القائمة بين الرواية والهوية. وإذا كان ذلك كذلك، فإني آمل منكم أن تنظروا إلى ما يرد فيها من عناوين لروايات أو أسماء لروائيين على أنه من باب التمثيل الذي أردت من خلاله إيضاح ما أنا بصدده. وهو تمثيل لكم أن تنزلوا مثيله منزلته إذا ما كان قادراً على أن يفضي إلى نقص الغرض من الإيضاح.

الرواية ومأزق الهوية

حين فاز الروائي عبده خال بجائزة «البوكر» أحدث فوزه صدى تقاسمه أولئك الذين طاروا فرحاً بفوزه وأولئك الذين ملأ صدورهم فوزه غضباً وغيظاً. ولم يكن ذلك الفرح وهذا الغيظ يبرأ من الاتصال بما الروائي عبده خال متصلاً به من حيث كونه كاتباً سعودياً ينتمي لواحدة من دول الخليج العربي.

شكل فوز عبده خال بالجائزة العالمية برهاناً على أن الخليج العربي الحديث قادر على المشاركة في صياغة الخطاب الإبداعي العربي وتجاوز مرحلة التبعية والتلمذة على يد عواصم ومراكز عربية عريقة سبقته بعقود طويلة إلى هذا المضمار. وكوّنت تلك المراكز العريقة الواجهة الثقافية العربية التي تتقدم في المحافل العالمية باعتبارها ممثلة للأدب العربي الحديث. ويأخذ هذا الفوز بعداً خاصاً حين يكون فوزاً في مجال الرواية التي تعد فناً طارئاً حديث النشأة في منطقة الخليج. ولم تكن بدايات هذا الفن المتواضعة تشكل مؤشراً على ما تحقق له من تسارع تم تتويجه بجائزة البوكر. كما أن للفوز في مجال الرواية دلالته الخاصة من حيث كونه علامة على تبلور الطبقة الوسطى على نحو يجعلها قادرة على ترجمة آلامها وآمالها عبر فن قائم على تعدد الأصوات والاعتداد بالحراك الاجتماعي والسياسي والثقافي كمنتج للفن من ناحية ومستهلك له من ناحية أخرى.

ولم يكن إنكار من أنكروا هذا الفوز أو استكثروه عليه يخلو من أحد أمرين يعود أولهما إلى ما يمكن إرجاعه إلى غيرة المراكز حين تستشعر منافسة الأطراف لها وظفرها بما ظل عقوداً طويلة مقصوراً عليها. وأما الأمر الآخر فيتصل بما نحن بصدده من حديث عن العلاقة المتشابكة بين الرواية والهوية وذلك ما يتبدى في حديث من لم يروا في رواية «ترمي بشرر» غير حديث عن الجنس ولم يجدوا في مقاصد صاحبها غير الرغبة في تشويه صورة المجتمع وبث الرذيلة والفساد بين فئاته وهي التهمة التي ظلت تطارد عبده خال منذ أن كان كاتباً للقصة القصيرة. وأوشكت هذه التهمة أن توقف تركي الحمد أمام القضاء ومسّت بطيف منها «بنات الرياض» حين دوّنت سيرتهن رجاء الصانع. وغلبت هذه التهمة على الأصوات التي تتحدث عن الطوفان الأخير للرواية في منطقة الخليج وعلى نحو خاص في المملكة العربية السعودية. وقد غلبت هذه التهمة على مسألة أخرى تتصل بضعف تلك الروايات التي ظهرت بشكل طوفان بلغ ستين أو سبعين رواية في العام غلبت هذه على الحديث عن تلك الروايات وهشاشتها، ومن هنا لم يكن رفض تلك الروايات لهشاشتها بقدر ما كان رفضاً لما نظر إليه على أنه فضح لمجتمع يتوهم أنه مجبول على الفضيلة، فإذا ما انحرف عنها شملته قاعدة إن الله يحب الستر. ولذلك رأى القيّمون على هيئة تشخيص أخلاق المجتمع ضرورة مواجهة تلك الروايات

التي اعتبرتها تكريساً لما يعانيه المجتمع من تقهقر للقيم وتفسّخ للأخلاق وانحراف عن جادة الخير التي هو متسّم بها أو ينبغي أن يكون متسماً بها على أضعف الإيمان. إذا ما توافقنا على أن الرواية من حيث مضامينها وعوالمها سجل اجتماعي يرصد حركة التغيير التي تطرأ على المجتمع وتؤثر في سلوكه فإن بإمكاننا أن ندخل منه إلى جدل العلاقة بين الرواية والهوية. إن اعتماد الرواية على تسجيل الواقع الاجتماعي ورصد تغيراته يجعلها تتسم بالصدمة لمفهوم الهوية من حيث بعدها المعياري المحافظ الذي ينظر إلى هذه التغييرات التي تطرأ على المجتمع على أنها مجرد انحرافات عما ينبغي أن يكون عليه وهي انحرافات طارئة لا يلبث أن يبرأ منها المجتمع.

وإذا كانت الرواية تمثل أو تعبر عن صعود الطبقة الوسطى واقتحامها مجال تحديد الهوية فإن الرواية عندئذ تشكّل بما تتسم به من تعدد في الأصوات تحدياً لمفهوم الهوية الذي ظل تاريخياً نتاج صوت أحادي يمتلك وحده حق تحديد المعالم ورسم الخصائص والسمات. إذاً تاريخياً مفهوم الهوية حينما نتحدث عن هوية المجتمع -مجتمع عربي مجتمع مسلم مجتمع خليجي- فإن هناك قائمة من الخصائص والسمات المحددة سلفاً تشكل مفهوم الهوية لهذا المجتمع. تأتي الرواية عندئذ بما هي قائمة عليه من تعدد في الأصوات وتمثيل لكافة الأطياف والشرائح لكي تصطدم بالمفهوم القار وهذا هو الأمر الذي يجعل الكثيرين ممن يرفضون الرواية يرفضونها باعتبارها مخالفة للمجتمع بينما هي مخالفة لتصوّر هوية المجتمع. الرواية بما يتم تدوينه فيها من متغيرات وما تقوم به من رصد للتحولات تشكّل عندئذ اعترافاً بما لا يراد الاعتراف به أو على نحو أدق تشكل الرواية اعترافاً بما لا ينبغي الاعتراف به. الرواية حين تقوم بتحويل الراهن الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والثقافي إلى مدوّنة يمكن تداولها وحفظها والعودة إليها. حينما تحوّل الرواية هذا الواقع إلى مدوّنة فإنها عندئذ تنهض بصياغة مدوّنة موازية للمدونة الأساس المستمدة من التاريخ وسلطة الماضي وهي المدوّنة الأساس صاحبة الحق في تحديد مفهوم الهوية. ولذلك، فإن الرواية بما تقوم به من تحويل الراهن الاجتماعي إلى مدونة تشكل خلخلة للمدونة المتصوّرة للهوية وتقوم باستلاب تفردها وانفرادها بتحديد معالم هذه الهوية التي ينبغي أن يكون المجتمع عليها. ظلت الهوية، في بعدها التاريخي، إجابة على سؤال يمكن صياغته على نحو «كيف ينبغي لنا أن نكون؟». جاءت



الرواية لتعيد صياغة السؤال على نحو يصبح معه «كيف نحن الآن كائنين؟». تنتهي الصياغة الأولى «كيف ينبغي لنا أن نكون؟» وهي الصياغة المستمدة من البعد التاريخي القار للهوية إلى الوصاية على المجتمع بينما الصياغة الثانية «هكذا نحن» التي تطرحها الرواية إلى الاعتراف بحرية المجتمع. وكأنما الصراع بين الرواية والهوية كما تصاغ تاريخياً هو صراع بين الكينونة الماثلة في الوجود والكينونة القائمة في التصوّر.

القلق من الرواية يبدأ عندما تصبح مدونة ولذلك لم يكن النص مقلقاً أو مزعجاً على ما قد يكون فيه من خروج. غير أن المشكلة الآن هي أن الرواية تتحول إلى مدونة والتدوين خطوة نحو الاعتراف، وكل ما هو مكتوب من شأنه أن يكتسب وجوداً شرعياً ولذلك فإن التخوف من الرواية إنما يعود إلى ما تقوم به من تدوين للراهن وهو تدوين ينتهي إلى شرعنته والاعتراف به.

والنظرة إلى الرواية من هذه الزاوية نظرة لا تخلو من أحد أمرين فهي إما أن تقوم بتقديم واقع اجتماعي سياسي اقتصادي ثقافي يشكل مدونة لهوية المجتمع من حيث أن الهوية هي نتاج للوجود وتعبير عنه، أو إن الرواية تقدم مجتمعاً موازياً مغايراً في قيمه وأنماط سلوكه على نحو ترى المدونة الأساسية للهوية في هذه الرواية إغراء للمجتمع للانزلاق مما هو عليه إلى عوالم أخرى في الرواية. ومن هنا يأتي التخوّف من الرواية. ولذلك، كنت أشرت في تقديمي إلى أنني أتناول الرواية من حيث تلقيها. والصدى الذي تحدثت عنه في رواية عبده خال كنموذج يبرره فوزها بالبوكر يمكن لنا أن نحل محلها أي رواية أخرى إذا ما انتهينا إلى هذا الوعي بما تشكله الرواية من تحد لمفهوم الهوية أمكن لنا أن نتفهم ذلك التوجس من الرواية وتلك النظرة المرتابة فيها والتي تبدأ من التقليل من شأنها كجنس أدبي وتنتهي إلى تحريمها باعتبارها ضرباً من الكذب. وبالسبعينات كانت هناك فتوى في المملكة بأن كتابة الرواية والقصة حرام لأنها كذب. سأحاول أن أرعى هذه المسألة النظرية على قاعدة من التاريخ. سأعود إلى أوّل كتاب صدر في السعودية وأعتقد أنه أوّل كتاب صدر في منطقة الخليج يتناول قضايا الثقافة وهو كتاب «المعرض» الصادر في مكة المكرمة سنة 1925. قال كاتبه إنه قد فرغ منه قبل سنتين أو ثلاثة وأخّر صدور الكتاب الحرب التي كانت قائمة بين الملك عبد العزيز والشريف حسين. وصدر بعد سنة من دخول الملك عبد العزيز الحجاز وهو عبارة عن

إجابة على سؤال وجهه أحد هؤلاء الأدباء محمد سرور صبان لثلة من الأدباء يسألهم فيها عن تركيبة الهوية بين الإسلام والعروبة. وقد أجابوا على هذا السؤال. وأثيرت قضية الرواية في ذلك الكتاب. وقد تضمن حملة عنيفة على الروايات التي كانت قد بدأت تأخذ طريقها إلى القراء منافسة بذلك الشعر والخطابة والمقالة وهي الأجناس التي كانت تشكل الفنون الرفيعة القادرة على ترسيخ مكونات الهوية في بعديها العربي والإسلامي. وهما البعدان اللذان عني بهما الكتاب ولم يخلُ، رغم اهتمامه بالقضايا الكبرى، من هذه الهجمة الشرسة على الرواية.

في كتاب «المعرض»، وقد صدر في طبعة وحيدة ولم يطبع بعد ذلك (عام 1926)، شن الشاعر أحمد إبراهيم الغزاوي (وكان شاعر الشريف حسين ثم أصبح شاعر الملك عبد العزيز وتوفي منذ ما يقارب الثلاثين عاماً) هجوماً شرساً على ما أسماه «الروايات والترهات». كتب محذراً منها لأن فيها «كل ما ينافي أخلاقنا وآدابنا وتقاليدنا التاريخية». ونادى الغزاوي، في مقالته تلك، بضرورة العودة إلى التاريخ الذي كان يرى أننا لم نلم به فضلاً عن أن نحيط بحوادثه الكبرى وما فيها من العظة والتفكه ونظام الملك وتدبير الأحكام وتطوّر الشعوب مما ليس وراءه غاية لمستزيد. وبذلك نتوقف ونتحاشى المزالق الخفية المبثوثة في أحشاء كثير من المبتكرات الحديثة. وإنما يعني بالمبتكرات الحديثة فن الرواية. واعتمدت التمثيل بهذا الكتاب لأنه كتاب تأسيسي جاء ما بعده مبنياً على تلك النظرة التي كانت تلقائية ومباشرة وواضحة.

تبدو لنا الرواية موازية للتاريخ. ونهى عن الرواية وطلب أن نلم بالتاريخ وقال ليس بعده زيادة لمستزيد. الرواية تبدو لنا موازية للتاريخ، ومناقضة للتاريخ، ومستلبة لدور التاريخ لأنهم كانوا يرون أن التاريخ هو مصدر العظة ونظام الحكم وتدبير الأمور. وإذا ما وقفنا عند هذا المفهوم للتاريخ فإننا نكتشف أنه مصدر للهوية كذلك. وعندها تصبح الرواية هي التهديد للهوية. إذا كان لنا أن نطمئن إلى ما ذهبنا إليه من أن الخلاف إنما يؤول إلى خلاف حول مفهوم الهوية وهل هي مستمدة من التاريخ أو منبثقة من السياق الاجتماعي والثقافي الراهن. هل الهوية قارة مستقرة ثابتة أو متغيّرة متحوّلة؟ هل التحوّلات التي يشهدها المجتمع جزء من محددات هويته أو مجرد انحرافات عابرة لا تمس جوهر الهوية ولا ينبغي أن تدوّن فتصبح كأنها مدوّنة تاريخية.

في أول رواية صدرت في منطقة الخليج كذلك هي رواية عبد القدوس الأنصاري «التوأمان» وقد صدرت سنة 1929 م/ 1348 هجرية. ولم يفت الأنصاري أن يقدم لها بما يشبه الاعتذار عن كتابتها فحرص في مقدمة الرواية أن يشن هجوماً شرساً على فن الرواية مشيراً إلى أن الروايات، كما يقول، «ألبست أكسية جذابة من الإغراء الشائن بالفظائع والانسلاخ من قويم الآداب وشريف الأخلاق». ثم وصف الرواية بأنها «شر مستطير» وقال إن على رجال التربية والأخلاق أن ينهضوا بدورهم من أجل إنقاذ الناشئة الذين أصبحوا «ضحايا مطالعتهم لهذه الروايات». إذاً ما الذي حمل الأنصاري على أن يكتب رواية؟ يقول: «وإنما كتبت هذه الرواية لأقابل الشوكة بسن الشوكة.»

ليس بإمكاننا أن ننتزع من رواية «التوأمان» حق السبق باعتبارها أول رواية صدرت في الخليج العربي غير أن لنا أن نتحفظ على قيمتها الفنية المتواضعة التي توشك أن تجعل من إلحاقها بفن الرواية عملاً متصلاً بنية كاتبها، مثلها في ذلك مثل الروايات الأولى في بقية دول الخليج منها على سبيل المثال رواية «آلام صديق» لفرحان راشد الفرحان التي صدرت بعدها بما يقارب العشرين عاماً 1948 وتعتبر الرواية الأولى في الكويت ورواية «شهندة» لراشد عبد الله النعيمي التي صدرت في الإمارات في بداية السبعينيات الميلادية.

كان الأنصاري واضحاً في مقصده كاشفاً عن نواياه حين صرّح بأن روايته «التوأمان» محاولة لمقابلة الشوكة بسن الشوكة كأنها الرواية التي ضد الرواية. كثير من الروايات التي ظهرت بعد ذلك لم تكن تخرج في مقصدها عن هذه الغاية. غلب عليها الطابع التعليمي الوعظي الذي يحاول تكريس قيم الخير والفضيلة لمواجهة ما يتعرض له المجتمع من متغيرات تمس هذه القيم وتزعزع تركيبتها التاريخية. الاعتذار بما يمكن أن يعصف البدايات من قصور وضعف لا يشفع لما اتسمت به الروايات من هشاشة ما دامت قد جاءت بعد عقود طويلة من تبلور مفهوم الرواية في الأفق العالمي وظهور نماذج متميزة للعمل الروائي في الأفق العربي. ليس بإمكاننا أن نعتذر بحداثة نشأة الرواية لدينا، نعتذر بذلك عن حداثتها ذلك أنها كتبت في زمن نضج فيه السرد وأصبحت هناك نماذج عربية تقدم الأنموذج للعمل السردي. ولذلك فإني أعتقد أن تلك الهشاشة لا تعود إلى البدايات بقدر ما تعود إلى هيمنة النزعة المحافظة والرغبة العارمة في





تكريس القيم المشكلة لهوية المجتمع مما أفضى إلى ما يمكن أن يعتبر عجزاً عن تمثّل المنجز الروائي في أفقيه العالمي والعربي، فكيف يمكن التأتي إلى تمثّل هذا المنجز إذا ما كان الذين كتبوا الروايات الأولى ينظرون إليه باعتباره شراً مستطيراً أو يقابلونه مقابلة سن الشوكة بالشوكة. كأنما هاجسهم ليس أن يكتبوا رواية تتسم بفن السرد بقدر ما أن يكتبوا رواية ينقذون بها مجتمعهم من تلك الروايات التي تأتيهم عربياً أو عبر الترجمة.

ولم تكد تنجو المراحل التي أعقبت تلك البدايات مما اعتور تلك البدايات. ظهرت روايات فرّت بأحداثها إلى التاريخ تستلهم أحداثه وتعيد صياغتها على نحو يضمن له الحضور وبإمكاننا أن نتفهم الآن تلك الروح التي تدفع إلى استلهام التاريخ انطلاقاً من تلك التوصية القديمة. وأنا لا أتحدث عن استلهام التوصية وإنما أتحدث عن استلهام الروح التي كانت خلف تلك التوصية حينما كان التاريخ يوضع مقابل الرواية والتوصية تقول «اقرؤوا التاريخ لا تقرؤوا الرواية». تلك هي الروح التي ظهرت والتي أفضت إلى الروايات التي فرت إلى التاريخ وارتكزت إلى مرحلة توشك أن تكون سابقة على مرحلة ظهور الرواية العربية على يد محمد حسين هيكل في رواية «زينب» واستعادت على نحو موارب ما قام به جرجي زيدان من كتابة الرواية التاريخية والتي لا يعتد بها المؤرخون لفن الرواية حين يخلصون في الاعتداد بالقيم الفنية التي تكتب بها الرواية. الفرار إلى التاريخ والاستنجاد به لم يكن أكثر مجازفة بتقنيات الرواية وقيمها الفنية من تلك الروايات التي تتذرع بالخيال العلمي وتنتهي إلى ما لا يمكن حتى للمتسامح أن يعتد بها ويصنّفها في ما يصنّفه من روايات.

ويمكننا أن نضيف إلى هذين الصنفين، الفرار إلى التاريخ والفرار إلى التاريخ العلمي، صنفاً ثالثاً تدخل فيه تلك الروايات التي اختلقت أو استلهمت أحداثاً معزولة من حيث بنية المكان الذي تدور فيه أو ظرفية الأحداث التي تدوّنها وكأنما هي بذلك تتلمس لنفسها العذر بعزلها أحداثها عن سياق الحياة العامة للمجتمع فلا تتقاطع معه فضلاً عن أن تستلهم منه ما يمكن أن يشكل حراكاً لما يفضي إلى المس بهويته المكرسة تاريخياً.

بين الرواية التي حققت للخليجي حضوراً في المشهد الإبداعي العربي حين اقتنصت واحدة من الجوائز العالمية البارزة، وأقصدها كنموذج للرواية الجيدة والروايات

التي تتوالد وتتكاثر دون أن تشكل إضافة لرصيد الإبداع الخليجي مسافة يمكن لنا أن نختصرها في المسافة بين الرواية حين تكتب لتكون مدونة تستلهم حراك الحياة في المجتمع والرواية حين تكتب بمعزل عن هذا الحراك دون أن يعني هذا أن على الرواية أن تكون مجرد تسجيل أو أرشفة للواقع الاجتماعي. الروائي الحقيقي هو المبدع الذي يستطيع أن يجمع في شخصه بين عالم الاجتماع القادر على استيعاب ما يحدث في مجتمعه والفيلسوف القادر على تأويل ما يراه ويسمعه والناقد الذي يمتلك من البصيرة ما يمكنه من التمييز بين ما هو دال وجوهري وما هو عارض وطارئ وتلك هي الخصائص التي خرج من جعبتها الروائيون الكبار المتدون من تاريخ الإبداع العالمي إلى راهن الإبداع العربي.

وإذا كانت الرواية كذلك باعتبارها مدونة جاز لها أن تكون ديوان العرب وهي ديوان العرب الحديث في مقابل ما كان يعرف به الشعر قديماً من أنه ديوان العرب. غير أن علينا أن ندرك أن ليس المقصود بالديوان في هذا المجال ما نعنيه حين نتحدث عن ديوان أحد الشعراء ونعني به مجموع القصائد المنشورة في كتاب. الديوان الذي تحيل إليه مقولة «الديوان رواية العرب» هو نفس الديوان الذي كانت تحيل إليه مقولة «الشعر ديوان العرب». وهو معنى يتصل بالدلالة على الجهة التي تملك حق اتخاذ القرار حق التصنيف تماماً كما نتحدث عن ديوان الجند وديوان الخراج وديوان الإمارة وديوان الخاتم. حينما تقول الروايات إن عمر بن الخطاب هو صاحب مقولة «الشعر ديوان العرب» فإن بإمكاننا عندئذ أن نذهب إلى أن عمر هو الذي أسس للدواوين هو الذي أسس ديوان الجند وديوان العسس وديوان الخراج وكأنما كان عمر يتساءل عما يمكن أن يؤسس للأخلاقيات العربية أن يكون مرجعاً لها ولم يكن بإمكانه أن يهيئ سلطة لإدارة الأخلاقيات فأحالها إلى الشعر وقال إذا كان للخراج ديوان وللجند ديوان فالشعر هو ديوان العرب بمعنى سلطة القيم العربية. على هذا النحو يمكن لنا أن نفهم الرواية على اعتبار أنها ديوان العرب الحديث بمعنى حاملة السلطة الحديثة المنافسة لسلطة الشعر.

وإذا كان ذلك كذلك، يتضح لنا أن ما نشهده من خلاف بين الذاهبين إلى أن الرواية قد أصبحت ديوان العرب والمتمسكين بأهلية وأحقية الشعر بالتسمية ليس مجرد خلاف

بين المنتصرين لفنّين أدبيين بقدر ما هو خلاف حول سلطتين ثقافيتين تتنازعان الحق في تحديد مفهوم الهوية وما يمكن أن يؤثر فيها والقادر على صياغتها وإذا مثّل الشعر عبر امتداده التاريخي صوت الماضي وهيمنته فإن الرواية تمثل صوت الحاضر وأحقيته في إعادة صياغة الهوية.

الخلاف حول الشعر والرواية حين يتعلق الأمر بالهوية خلاف في تصوّر الهوية نفسها من حيث ماهيتها وطبيعة مكوناتها واتسامها بالثبات أو بالتحوّل، خلاف بين تصوّرها أي تصوّر الهوية في بعدها الثقافي النظري الذي يحرص على أن يضع تعريفاً محدداً للمجتمع ترتكز عليه قيمه وبواسطته تتحدد أنماط السلوك وبمسطرته يتم قياس مدى استقامة المجتمع أو انحرافه عما ينبغي أن يكون عليه. وتصوّر الهوية في بعدها الواقعي الذي يعتد بالراهن الماثل للعيان والمترجم في القيم المتجددة والسلوك اليومي المعاش. وما يمكن أن يفضي إليه ذلك الاختلاف في مفهوم الهوية من اختلاف حول هل الهوية استحضار لمفهوم تاريخي قار وثابت يمكن اتخاذه معياراً لمدى انسجام الأمم مع تاريخها أو أن الهوية استنباط لمفهوم له طابع الصيرورة والتحوّل يمكن تحديده من خلال ما تحياه الأمة في راهنها. بلغة أخرى، يمكن لنا أن نقول إن احتدام الاختلاف حول الهوية يعود إلى أن لها مفهومين مفهوم محافظ مغلق له طابع معياري أيديولجي تصبح معه الهوية حضوراً للتاريخ وفرضاً لسلطة الماضي على الحاضر ومفهوم متجدد منفتح استقرائي يقتنص الهوية في لحظة الصيرورة بعد أن يخلع عن كاهلها عباءة التاريخ وعبئه وهذا هو الحقل الذي تتحرك فيه الرواية.

وحينما نكون في الخليج منشطرين بين هويتين هوية ما زالت تتوهم نفسها في بعدها التاريخي وهوية تحيا الواقع اليومي كما يحياه بقية الناس فإنني أعتقد أن الروائي الذي يستطيع أن يقتنص الهوية في لحظة الصيرورة هذه كاشفاً عن مدى التشظي الذي نحياه، مدى المسافة بين نظرتنا للهوية وواقعنا الذي نحياه، عندئذ بإمكانه أن يقدم عملاً يقتنص إيماننا بمفهوم الرواية قبل أن يقتنص البوكر أو أي جائزة أخرى ■

المحاضرة بتاريخ 2010/11/14

المحاضر:

د. نايف علي عبيد

باحث في شؤون الخليج

عنوان المحاضرة:

من أبوظبي 1981 إلى أبوظبي 2010.. مجلس التعاون لدول الخليج العربية.. إلى أين؟

سيرة ذاتية

- باحث أول في ديوان صاحب السمو رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة، من عام 1976 إلى 1995.
- خبير في الشؤون السياسية في ديوان سمو ولي العهد في أبوظبي خلال الفترة 1995-2006.
- مستشار غير متفرغ في الأمانة العامة لمجلس التعاون الخليجي، منذ 2006
- عضو اتحاد الكتاب العرب، قسم البحوث والدراسات، بدمشق.

صدر له عدد من الكتب والدراسات منها:

- مجلس التعاون لدول الخليج العربية - من التعاون إلى التكامل بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1996-2002.
- العرب - الواقع والطموح أبوظبي: مركز الكتاب العربي، 2003.
- السياسة الخارجية لدولة الإمارات العربية المتحدة بين النظرية والتطبيق بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر 2004.
- دول مجلس التعاون في عالم متغير: دراسة في التطورات الداخلية والعلاقات الخارجية 2005-1990 دبي، مركز الخليج للأبحاث، 2007.



من أبوظبي 1981 إلى أبوظبي 2010 مجلس التعاون لدول الخليج العربية.. إلى أين

جاء قيام مجلس التعاون لدول الخليج العربية في 25 مايو 1981، الذي يضم كلاً من دولة الإمارات العربية المتحدة، ومملكة البحرين، والمملكة العربية السعودية، وسلطنة عُمان، ودولة قطر، ودولة الكويت، امتداداً لترابط قديم بين هذه الدول دفعته إلى حيز الوجود تطورات الظروف المحلية والإقليمية والدولية التي تفاقمت في أواخر السبعينات. وفي الوقت ذاته شكل قيام المجلس جزءاً من ظاهرة قيام المنظمات الإقليمية التي انتشرت بعد الحرب العالمية الثانية فكان شاهداً جديداً على بروز هذه المنظمات الإقليمية وضرورتها.

تشير المادة الرابعة من النظام الأساسي لمجلس التعاون إلى أهداف المجلس. الهدف الأول هو:

1 - تحقيق التنسيق والتكامل والترابط بين الدول الأعضاء في جميع الميادين وصولاً إلى وحدتها.

تستهدف المحاضرة الإجابة عن سؤالين متكاملين: أولهما، بعد قرابة ثلاثين عاماً على قيام المجلس، هل أن دوله في طريقها لتحقيق الأهداف التي نص عليها ميثاق المجلس.. أم أنها تسير باتجاه الانفكاك والعودة إلى أوضاعها السابقة؟ ما العوامل الدافعة وتلك المعيقة لتحقيق تلك الأهداف؟ والثاني ما الشروط لتعزيز مسيرة المجلس لبلوغ أهدافه؟

المحاور التي سوف تتناولها هذه الدراسة:

أولاً: العوامل التي أدت إلى قيام مجلس التعاون لدول الخليج العربية

1 - العوامل المحلية 2 - العوامل الإقليمية والدولية

ثانياً: مراحل تشكيل مجلس التعاون
ثالثاً: ردود الفعل الإقليمية والدولية على قيام المجلس
رابعاً: النظام الأساسي والهيكل التنظيمي لمجلس التعاون
خامساً: الإنجازات في المجالات الاقتصادية والسياسية والأمنية
سادساً: السيناريوهات المحتملة
سابعاً: التحديات التي تواجه دول المجلس
1 - التحديات الدولية 2 - التحديات الإقليمية 3 - التحديات الداخلية
ثامناً: السبل الممكنة لمواجهة هذه التحديات

أولاً: العوامل التي أدت إلى قيام مجلس التعاون لدول الخليج العربية

إن قيام مجلس التعاون لدول الخليج العربية، الذي يضم دولة الإمارات العربية المتحدة، ومملكة البحرين، المملكة العربية السعودية، وسلطنة عُمان، ودولة قطر، ودولة الكويت، والذي تم التوقيع على نظامه الأساسي في 25/ مايو 1981. لم يأت وليد اللحظة، بل جاء امتداداً لترابط وتعاون قديم بين هذه الدول، دفعته إلى حيز الوجود الظروف الإقليمية والدولية التي تفاقمت أحداثها في أواخر السبعينات، أي نتيجة تفاعل عوامل داخلية وخارجية، عميقة وطارئة، أثرت في قيامه، وما زال يؤثر بعضها فيه، وكذلك نتيجة ما استجد من أحداث في مسيرته:

- العوامل المحلية:

- الاعتبارات الجغرافية والاستراتيجية والاقتصادية لمنطقة الخليج العربي
- الترابط العشائري
- المشاركة في القيم لدى النخبة، والتشابه في الأنظمة السياسية، وترابط المصالح اقتصادياً وسياسياً وأمنياً
- الاتفاقيات التعاونية والمؤسسات المشتركة قبل قيام مجلس التعاون

إن مشاكل التنمية وتماثل الاقتصاد والتركيب السياسي والاجتماعي وضرورة تنويع مصادر الدخل، وتجنب ازدواجية المشاريع الصناعية، وضرورة إيجاد قاعدة صناعية وزراعية تؤمن حاجة هذه الدول الاستهلاكية والغذائية كل ذلك يفرض المواجهة الجماعية لهذه المشاكل.

وجود الأسواق اللازمة لاستيعاب المنتجات، والثاني هو التنسيق لمنع تكرار إنتاج سلعة معينة في أكثر من دولة من دول المجلس.

التنسيق والتعاون في مجال الطاقة

-الإمكانيات المادية الكبيرة وقلة عدد السكان

- التأثير القومي

-المشاكل الأمنية الداخلية

- العوامل الدولية

- دور القوى الاستعمارية طمعاً في موقع دول المجلس الاستراتيجي وفي أهميتها النفطية

-الثورة الإيرانية

-الغزو السوفياتي لأفغانستان

-الحرب العراقية___الإيرانية

-الانقسامات العربية وسقوط وحدة الأمن العربي

-التغييرات الجذرية في العلاقات الاقتصادية الدولية

ثانياً: مراحل تشكيل مجلس التعاون لدول الخليج العربية:

ترجع خطوات إنشاء مجلس التعاون إلى عام 1975.

16مايو 1975 ؛ المحادثات التي جرت بين المرحوم الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة والمرحوم الشيخ جابر الأحمد الصباح أمير دولة الكويت، صدر بيان مشترك دعا إلى تشكيل لجنة وزارية مشتركة يرأسها وزيرا خارجية البلدين، ويجتمع مرتين كل سنة على الأقل.

مايو 1976؛ دعا الشيخ جابر الأحمد إلى «إنشاء وحدة خليجية بهدف تحقيق التعاون في جميع المجالات السياسية والاقتصادية والتربوية والإعلامية، وإيجاد نوع من الوحدة القائمة على أسس سليمة ومتينة لمصلحة شعوب هذه المنطقة واستقرارها».

ديسمبر 1978 ؛ صدور بيانات مشتركة عن الدول الست تدعو إلى «تحرك سريع تتضافر فيه جهود دول المنطقة للوصول إلى وحدة دولهم العربية التي تحتمها الروابط

الدينية والقومية وأماني شعوبها في تحقيق المزيد من التقدم» والوقوف في وجه الدول الكبرى التي تتصارع على بسط نفوذها على منطقة الخليج العربي.

نوفمبر 1980 ؛ تكثفت الجهود لإنشاء مجلس التعاون مع مؤتمر القمة العربي الحادي عشر الذي عقد في العاصمة الأردنية (عمان) في نوفمبر 1980، حيث أطلع الشيخ جابر الأحمد الصباح أمير دولة الكويت الزعماء الخليجيين على التصور الكويتي لاستراتيجية خليجية مشتركة للتعاون في جميع المجالات.

يناير 1981؛ أثناء انعقاد مؤتمر القمة الإسلامي في الطائف في المملكة العربية السعودية – خلال المدة 25 28-يناير 1981، انعقدت قمة لدول الخليج العربية على هامش هذا المؤتمر ولدت فكرة إنشاء مجلس التعاون، وكانت أمام زعماء الخليج ثلاثة مقترحات:

أ- المشروع العماني: ركز على عنصري الأمن والتعاون العسكري بوصفها نقطة انطلاق مجلس التعاون الخليجي الجديد، ودعا إلى إنشاء قوة بحرية مشتركة لحماية مضيق هرمز والدفاع عنه بوصفه شريان الحياة والحضارة.

ب- المشروع الكويتي: اتخذ أساساً لإقامة مجلس التعاون الخليجي، فقد تجنب الحديث عن الجوانب العسكرية والأمنية، وطالب بإقامة أوسع دائرة للتعاون المشترك في المجالات الاقتصادية والنفطية والصناعية والثقافية، بما يؤدي في النهاية إلى إقامة اتحاد إقليمي بين دول الخليج.

ج - المشروع السعودي: يقضي بإنشاء منظمة خليجية، تدعو إلى توحيد مصادر السلاح لدول الخليج، حتى يصبح التدريب والاستيعاب سهلاً، كما طالب المشروع السعودي بإقامة تعاون واسع النطاق بين قوات الأمن الداخلي في الدول المعنية بدلاً من إنشاء حلف عسكري.

فبراير 1981، مؤتمر وزراء خارجية الدول الست في الرياض؛ وافق المؤتمر على إنشاء مجلس للتعاون يضم هذه الدول الست لبلورة وتطوير التعاون والتنسيق فيما بينها في مختلف الميادين والمجالات.

مارس 1981؛ أصدر وزراء الخارجية خلال اجتماع لهم في العاصمة العمانية بياناً، تلاه وزير الخارجية السعودية وفي ما يلي نصه:


سمو الشيخ سلطان بن زايد آل نهيان



«إدراكاً من كل من دولة الإمارات العربية المتحدة، دولة البحرين، المملكة العربية السعودية، سلطنة عُمان، دولة قطر، ودولة الكويت، لما يربط بينها من علاقات خاصة وسمات مشتركة وأنظمة متشابهة، ولما تشعر به من أهمية قيام تنسيق وثيق بينها في مختلف المجالات، وخاصة المجالات الاقتصادية والاجتماعية، ولإيمانها بالمصير المشترك ووحدة الهدف، ولرغبتها في تحقيق التنسيق والتكامل والترابط بينها في جميع الميادين، رأت أن تقيم تنظيماً يهدف إلى تعميق وتوثيق الروابط والصلات والتعاون بين أعضائها في مختلف المجالات، يطلق عليه مجلس التعاون لدول الخليج العربية، مقره الرياض، بالمملكة العربية السعودية، ويكون هذا المجلس الوسيلة لتحقيق أكبر قدر من التنسيق والتكامل والترابط في جميع الميادين، وتعميق وتوثيق الروابط والصلات بين أعضائه في مختلف المجالات، وكذلك وضع نظم متماثلة في المجالات الاقتصادية، والمالية والتعليمية والثقافية والاجتماعية والصحية والمواصلات بأنواعها المختلفة، والإعلامية والجوازات والجنسية وحركة السفر والتنقل والشؤون التجارية والجمارك ونقل البضائع والشؤون القانونية والتشريعية».

25مايو 1981، انعقاد أول قمة لدول مجلس التعاون في أبوظبي، حيث أعلن في الجلسة الافتتاحية التوقيع على النظام الأساسي لمجلس التعاون لدول الخليج العربية.

وقد تم في هذا المؤتمر الموافقة على الأمور التالية:

- التصديق النهائي على النظام الأساسي لمجلس التعاون؛ الأمر الذي يشكل بداية قانونية للمجلس.
- الموافقة على تشكيل هيئة تسوية المنازعات والنظام الداخلي لكل من المجلس الأعلى والمجلس الوزاري.
- التصديق على اختيار السيد عبد الله يعقوب بشارة أول أمين عام للمجلس.

تكليف المجلس الوزاري بالاجتماع في وقت لاحق لتبادل وجهات النظر حول الوضع السياسي والأمني في منطقة الخليج وتقديم تقرير بذلك إلى مؤتمر القمة الثاني لدول المجلس.

- الموافقة على تشكيل خمس لجان من الوزراء المختصين لتنسيق أوجه التعاون بين الدول الأعضاء، وهذه اللجان ذات مهمة مؤقتة، وهي: لجنة التخطيط

الاقتصادي والاجتماعي، لجنة التعاون المالي والاقتصادي والتجاري، لجنة التعاون الصناعي، لجنة النفط وأخيراً لجنة الخدمات الاجتماعية والثقافية.

وفي البيان الختامي، ركز البيان على بعض الجوانب السياسية منها أن:

- أمن المنطقة واستقرارها هو مسؤولية شعوبها ودولها وأن مجلس التعاون يعبر عن مسؤولية الدول الأعضاء وحقها في الدفاع عن أمنها وصيانة استقلالها.

- رفض أي تدخل أجنبي في المنطقة مهما كان مصدره، وضرورة إبعاد المنطقة بأكملها عن الصراعات الدولية.

- ضمان الاستقرار في الخليج مرتبط بتحقيق السلام في الشرق الأوسط، الأمر الذي يؤكد ضرورة حل القضية الفلسطينية حلاً عادلاً يؤمن الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني.

- تأييد الجهود المبذولة لوقف الحرب العراقية – الإيرانية.

ثالثاً: ردود الفعل الإقليمية والدولية على قيام المجلس

على الصعيدين الخليجي والعربي:

رحبت به صحف تونس والسودان والمغرب والصومال ومصر

تحفظت صحف العراق والجزائر وسوريا وليبيا والأردن.

أثار مجلس التعاون ردود فعل تراوحت بين الغضب والتحفظ من قبل بعض الدول العربية مثل اليمن التي اعتبرت عدم دعوتها للمشاركة في المجلس هو اتجاه نحو خلق كيانات ومحاور إقليمية تهدد التضامن العربي.

بالنسبة للعراق، أبدى تحفظاً نسبياً إزاء المجلس انعكس في تصريحات وزير خارجيته سعدون حمادي الذي قال «إن العراق مقتنع بإطار الجامعة العربية، وأن مثل هذا التحالف ينبغي تنفيذه ضمن هذا الإطار» وأضاف «إننا سوف لا نقف على أي حال ضد هذا المشروع».

على الصعيد الدولي:

- رحبت الولايات المتحدة وبريطانيا بقيام مجلس التعاون، كما هنأ الرئيس الفرنسي زعماء الخليج بقيام المجلس.

رحب وزراء خارجية بلجيكا والنمسا وهولندا بقيام المجلس، كما رحبت به باكستان وتركيا والهند والأمم المتحدة.

كما أيدت بكين قيام المجلس الذي يستهدف تطوير الاقتصاد الوطني .

رابعاً - النظام الأساسي والهيكل التنظيمي لمجلس التعاون:

التعريف بالمجلس

ديباجة النظام الأساسي

أهداف المجلس

أجهزة وآليات المجلس:

المجلس الأعلى وتتبعه هيئة تسوية المنازعات، والهيئة الاستشارية

المجلس الوزاري

الأمانة العامة

1 -التعريف بالمجلس: تنظيم دولي إقليمي محدود العضوية ذو طابع قومي، حيث يربط الدول الأعضاء علاقات خاصة وسمات مشتركة متشابهة، كما أنه يعتبر تنظيماً حكومياً ذا اختصاص عام، لأعضائه صفة الدولية ونشاطه شامل لمختلف المجالات.

2 -أهداف المجلس:

تحقيق التنسيق والتكامل والترابط بين الدول الأعضاء في جميع الميادين وصولاً إلى وحدتها.

• تعميق وتوثيق الروابط والصلات وأوجه التعاون القائمة بين شعوبها في مختلف المجالات.

• وضع أنظمة متماثلة في مختلف الميادين بما في ذلك الشؤون التالية:

• الشؤون الاقتصادية والمالية ب - الشؤون التجارية والجمارك والمواصلات الشؤون التعليمية والثقافية د - الشؤون الاجتماعية والصحية هـ - الشؤون الإعلامية والسياحية و - الشؤون التشريعية والإدارية.

• دفع عجلة التقدم العلمي والتقني في مجالات الصناعة والتعدين والزراعة والثروات المائية والحيوانية وإنشاء مراكز بحوث علمية وإقامة مشاريع مشتركة

وتشجيع القطاع الخاص بما يعود بالخير على شعوبها.

(يمكن الرجوع إلى النظام الأساسي لمجلس التعاون)

3 - أجهزة وآليات المجلس:

تحدد المادة السادسة من النظام الأساسي أجهزة مجلس التعاون الرئيسية وهي: المجلس الأعلى وتتبعه هيئة تسوية المنازعات، والهيئة الاستشارية.

- المجلس الوزاري.
- الأمانة العامة.

ولكل هذه الأجهزة ما تقتضيه الحاجة من أجهزة فرعية (من الممكن الإطلاع على النظام الأساسي وملحقاته).

أ - **المجلس الأعلى**: هو السلطة العليا للمجلس، تختص مهمتة بأمر وضع السياسة العليا لمجلس التعاون والخطوط الأساسية التي يسير عليها. ويتكون من رؤساء الدول الأعضاء وتكون رئاسته دورية حسب الترتيب الهجائي لأسماء الدول ويجتمع في دورة عادية واحدة كل سنة ويجوز عقد دورات استثنائية، وعقد المجلس حتى ديسمبر 2009، (30 دورة عادية).

كما أن المجلس الأعلى اتخذ قراراً في دورته التاسعة عشرة، ديسمبر 1998، بعقد لقاء قمة تشاوري أواخر شهر أبريل أو بداية شهر مايو من كل عام وعقد حتى نهاية عام 2009م (11) لقاءً تشاورياً.

ويجري التصويت في المجلس الأعلى بحيث يكون لكل عضو من أعضاء المجلس الأعلى صوت واحد.

تصدر قرارات المجلس الأعلى في المسائل الموضوعية بإجماع الدول الأعضاء الحاضرة المشتركة في التصويت وتصدر قراراته في المسائل الإجرائية بالأغلبية.

- هيئة تسوية المنازعات، وتتبع المجلس الأعلى.

يتولى المجلس الأعلى تشكيل الهيئة في كل حالة على حدة حسب طبيعة الخلاف.

إذا نشأ خلاف حول تفسير أو تطبيق النظام الأساسي ولم تتم تسويته في إطار المجلس الوزاري أو المجلس الأعلى، فللمجلس الأعلى إحالته إلى هيئة تسوية المنازعات.

- الهيئة الاستشارية، وتتبع المجلس الأعلى

كذلك قرر قادة دول المجلس في اجتماعهم الذي عقد في الكويت خلال الفترة 20 - 22 ديسمبر 1997 إنشاء هيئة استشارية تابعة للمجلس الأعلى وتشكل الهيئة من (30) عضواً من مواطني دول المجلس تعين كل دولة خمسة من مواطنيها أعضاء فيها من ذوي الخبرة والكفاءة لمدة ثلاث سنوات. كما قرر المجلس الأعلى قبول عضوية اليمن في مجلس وزراء الصحة لدول مجلس التعاون، والعمل والشؤون الاجتماعية، ومكتب التربية العربي لدول مجلس التعاون، وفي دورة كأس الخليج العربي لكرة القدم.

كما قرر المجلس الأعلى في قمة مسقط لعام 2008 انضمام اليمن إلى المؤسسات التالية:

- منظمة الخليج للاستشارات الصناعية
- هيئة التقييس لدول مجلس التعاون
- هيئة المحاسبة والمراجعة لدول مجلس التعاون
- جهاز تلفزيون الخليج

في الدورة الثلاثين (قمة الكويت، ديسمبر 2009) صدر قرار المجلس الأعلى بانضمام اليمن إلى:

- لجنة رؤساء البريد في مجلس التعاون

ب - **المجلس الوزاري:**

يتكون من وزراء خارجية الدول الأعضاء أو من ينوب عنهم من الوزراء، وتكون رئاسته للدولة التي تولت رئاسة الدورة العادية الأخيرة للمجلس الأعلى، وعند الاقتضاء للدولة التالية في رئاسة المجلس الأعلى يعقد المجلس الوزاري اجتماعاته مرة كل ثلاثة أشهر ويجوز له عقد دورات استثنائية بناء على دعوة أي من الأعضاء وتأييد عضو آخر.ويعتبر انعقاده صحيحاً إذا حضر ثلثا الدول الأعضاء. وتشمل اختصاصات المجلس الوزاري من بين أمور أخرى، اقتراح السياسات ووضع التوصيات الهادفة لتطوير التعاون بين الدول الأعضاء، والعمل على تشجيع وتنسيق الأنشطة القائمة بين الدول الأعضاء في مختلف المجالات، وتحال القرارات المتخذة في هذا الشأن إلى المجلس الوزاري بمهمة التهيئة لاجتماعات المجلس الأعلى واعداد جدول أعماله. وتماثل اجراءات التصويت في المجلس الوزاري نظيرتها في المجلس الأعلى النظام الأساسي.

عقد المجلس الوزاري منذ قيام المجلس حتى شهر سبتمبر 2009 (112) دورة عادية.

ج – الأمانة العامة:

تتكون من أمين عام يعاونه المجلس الأعلى لمدة ثلاث سنوات قابلة للتجديد مرة واحدة. يعاونه خمسة أمناء مساعدين للشؤون السياسية والاقتصادية والعسكرية والأمنية والإنسان والبيئة، ورئيس بعثة مجلس التعاون لدول الخليج العربية في بروكسل، ويعينهم المجلس الوزاري بترشيح من الأمين العام لمدة ثلاث سنوات قابلة للتجديد. يقع مقر الأمانة العامة الرسمي في مدينة الرياض. وتتكون من القطاعات التالية، وهي الشؤون: السياسية ـ الأمنية ـ العسكرية ـ الاقتصادية ـ الإنسان والبيئة ـ القانونية ـ المالية والإدارية ـ مركز المعلومات ـ مكتب الأمين العام ـ المكتب الفني للاتصالات ومقره البحرين وبعثة مجلس التعاون لدول الخليج العربية في بروكسل، ومكتب الهيئة الاستشارية بسلطنة عُمان.

وتتلخص اختصاصات الأمانة العامة في إعداد الدراسة الخاصة بالتعاون والتنسيق والخطط والبرامج المتكاملة للعمل المشترك، وإعداد تقارير دورية عن أعمال المجلس، ومتابعة تنفيذ القرارات، وإعداد التقارير والدراسات التي يطلبها المجلس الأعلى أو المجلس الوزاري، والتحضير للاجتماعات وإعداد جدول أعمال المجلس الوزاري ومشروعات القرارات، وغير ذلك من المهام في النظام الأساسي.

خامساً: الإنجازات

أولاً: التعاون الاقتصادي بين دول المجلس:

يلعب العامل الاقتصادي في عالم اليوم العامل الاستراتيجي الأهم في تحديد مراكز القوى، وانطلاقاً من هذه الحقيقة يشكل التنسيق والتكامل والترابط الاقتصادي بين الدول الأعضاء في مجلس التعاون لدول الخليج العربية محوراً أساسياً من محاور العمل المشترك في إطار مجلس التعاون، بهدف تحقيق التكامل بين دوله. فقد حددت المادة الرابعة من «النظام الأساسي» أهداف مجلس التعاون ومن ضمنها، تحقيق التنسيق والتكامل والترابط بين الدول الأعضاء في جميع الميادين وصولاً إلى وحدتها، وضع أنظمة متماثلة في مختلف الميادين، بما في ذلك الشؤون الاقتصادية والمالية والتجارية

والجمارك والمواصلات والتعليمية والثقافية والاجتماعية والصحية والإعلامية والسياحية والتشريعية والإدارية، كما تنص هذه المادة على دفع عملية التقدم العلمي والتقني في مجالات الصناعة والتعدين والزراعة والثروات المائية والحيوانية وإنشاء مراكز بحوث علمية وإقامة مشاريع مشتركة وتشجيع تعاون القطاع الخاص بما يعود بالخير على شعوبها. مما يعكس أهمية الأهداف الاقتصادية للمجلس وشموليتها والتي منهجتها الاتفاقية الاقتصادية الموحدة التي تم التوقيع عليها في 11/ نوفمبر 1981. فخلال حوالي ثلاثين عاماً من قيام المجلس استطاع المجلس تحقيق إنجازات عديدة في المجال الاقتصادي نذكر بعضاً منها على سبيل المثال:

توقيع الاتفاقية الاقتصادية الموحدة بين دول المجلس بتاريخ 15محرم 1402هـ الموافق 11 تشرين الثاني/ نوفمبر 1981 في مدينة الرياض والتي وضعت أسس السوق الخليجية المشتركة حيث نصت المادة الثالثة من الاتفاقية على تحقيق المساواة في المعاملة بين مواطني دول المجلس في كافة المجالات الاقتصادية.

- الاتفاقية الاقتصادية الموحدة لعام 1981

لتحقيق أهداف العمل المشترك في المجال الاقتصادي، أقرّ المجلس الأعلى في دورته الثانية (نوفمبر 1981) الاتفاقية الاقتصادية الموحدة لترسم خطة العمل الاقتصادي المشترك ومراحل التكامل والتعاون الاقتصادي بين دول المجلس، ولتشكل نواة البرامج التكاملية التي تم وضعها بشكل مفصل على مدى السنوات العشرين الأولى من قيام المجلس، وتشمل على وجه الخصوص:

1. تحقيق المواطنة الاقتصادية لمواطني دول المجلس.

2. تحقيق التكامل الاقتصادي بين دول المجلس، وفق خطوات متدرجة، بدءاً بإقامة منطقة التجارة الحرة، ثم الاتحاد الجمركي، ثم استكمال السوق الخليجية المشتركة، وانتهاءً بالاتحاد النقدي والاقتصادي. وإقامة المؤسسات المشتركة اللازمة لذلك.

3. تقريب وتوحيد الأنظمة والسياسات والاستراتيجيات في المجالات الاقتصادية والمالية والتجارية.

4. ربط البنى الأساسية بدول المجلس، لاسيما في مجالات المواصلات والكهرباء والغاز، وتشجيع إقامة المشاريع المشتركة.

- الاتفاقية الاقتصادية لعام 2001

وتمشياً مع تطورات العمل المشترك خلال العقدين الأولين من عمر المجلس، والمستجدات والتحديات الدولية في المجال الاقتصادي، أقر المجلس الأعلى في دورته الثانية والعشرين (ديسمبر 2001) الاتفاقية الاقتصادية بين دول المجلس، وقد نقلت الاتفاقية الجديدة أسلوب العمل المشترك من طور التنسيق إلى طور التكامل وفق آليات وبرامج محددة، كما أنها أكثر شمولية بمعالجتها للموضوعات التالية:

1. الاتحاد الجمركي لدول المجلس.
2. العلاقات الاقتصادية الدولية لدول المجلس مع الدول والمجموعات الاقتصادية الأخرى والمنظمات الدولية والإقليمية، وتقديم المعونات الدولية والإقليمية.
3. السوق الخليجية المشتركة حيث تشمل تحديد مجالات المواطنة الاقتصادية.
4. الاتحاد النقدي الاقتصادي.
5. تحسين البيئة الاستثمارية في دول المجلس.
6. التكامل الإنمائي بين دول المجلس، بما في ذلك التنمية الصناعية، وتنمية النفط والغاز والموارد الطبيعية، والتنمية الزراعية، وحماية البيئة، والمشروعات المشتركة.
7. تنمية الموارد البشرية، بما في ذلك التعليم، ومحو الأمية وإلزامية التعليم الأساسي، وتفعيل الاستراتيجية السكانية، وتوطين القوى العاملة وتدريبها وزيادة مساهمتها في سوق العمل.
8. البحث العلمي والتقني وتطوير القاعدة العلمية والتقنية والمعلوماتية، وحماية الملكية الفكرية.
9. التكامل في مجالات البنية الأساسية، بما في ذلك النقل والاتصالات والتجارة الإلكترونية.

وبالإضافة إلى ذلك تضمنت الاتفاقية الاقتصادية في فصلها الثامن آليات للتنفيذ والمتابعة وتسوية الخلافات، حيث نصت على تشكيل هيئة قضائية للنظر في الدعاوى المتعلقة بتنفيذ أحكام الاتفاقية والقرارات الصادرة تطبيقاً لأحكامها.

- الإنجازات الرئيسة

على الرغم من أن الانجازات التي حققها مجلس التعاون لدول الخليج العربية

حتى اليوم، مازالت دون طموح المواطن الخليجي، فإن من الغبن أيضاً تجاهل ما حققه من إنجازات ومنها:

1. اعتمد المجلس في دورته التاسعة والعشرين (مسقط، ديسمبر 2008) اتفاقية الاتحاد النقدي، والنظام الأساسي لإقامة الاتحاد النقدي، وتم التوقيع عليها من الدول الأعضاء الأطراف بالاتفاقية في 7 يونيو 2009 م.

2. تم في ديسمبر 2007 إعلان قيام السوق الخليجية المشتركة بعد استكمال متطلباتها الرئيسية، وذلك اعتباراً من الأول من يناير 2008.

3. تشجيع التبادل التجاري ضمن مرحلتين:

(أ) إقامة منطقة تجارة حرة بين دول المجلس اعتبارا من مارس 1983م، الأمر الذي أدى إلى حرية انتقال السلع الوطنية بين دول المجلس دون رسوم جمركية ومعاملتها معاملة السلع الوطنية، ضمن ضوابط معينة.

(ب) إقامة الاتحاد الجمركي لدول المجلس اعتباراً من الأول من يناير2003م، والذي يقضي بتوحيد التعرفة الجمركية وحرية انتقال السلع بين دول المجلس دون قيود جمركية أو غير جمركية.

4. إبرام الاتفاقية الاقتصادية بين دول المجلس لعام 2001 والتي صادقت عليها جميع دول المجلس.

5. تبني استراتيجيات وسياسات عامة لتكون منطلقا للسياسات الوطنية في الدول الأعضاء، ومن ذلك الوثائق الصادرة عن المجلس الأعلى في مجالات التخطيط والتنمية والسكان والصناعة والبترول والزراعة.

6. توحيد القوانين والأنظمة والإجراءات في المجالات الاقتصادية، حيث أقرّ المجلس الأعلى نحو أربعين قانوناً موحداً، بعضها ملزم ومعظمها استرشادي.

7. بناء المؤسسات الخليجية المشتركة بغية تأكيد التعاون الفني والاقتصادي بين دول المجلس وخفض النفقات، ومن هذه المؤسسات:

- مؤسسة الخليج للاستثمار.
- هيئة التقييس لدول مجلس التعاون.
- مركز التحكيم التجاري.

- مكتب براءات الاختراع.
- المكتب الفني للاتصالات.
- الشبكة الخليجية للربط بين شبكات الصرف الآلي بدول المجلس.
- هيئة الربط الكهربائي كشركة مساهمة، وقد تم تنفيذ المرحلتين الأولى والثانية من مشروع الربط الكهربائي بين دول المجلس.
- دراسة إنشاء هيئة خليجية لسكة حديد دول مجلس التعاون للإشراف على تنفيذ المشروع بكامله.
- مكتب الأمانة الفنية لمكافحة الإغراق.

8. تنسيق المواقف على الساحة الاقتصادية الدولية، والتفاوض الجماعي والحوار الاقتصادي مع الدول والمجموعات الاقتصادية كالاتحاد الأوربي والولايات المتحدة واليابان والصين.

9. التعاون والتنسيق في مجال الهياكل الأساسية من طرق ومواصلات واتصالات، وفي مجال المشاريع المشتركة، كما تم تدشين مشروع الربط الكهربائي في شهر ديسمبر 2009.

10. التعاون على مختلف المستويات وفي شتى الميادين الاقتصادية من تقنية بنكية ومواضيع نقدية ومالية ومسوح إحصائية ومؤتمرات للصناعيين ورجال الأعمال إلى ندوات ودراسات في مجالات النفط والغاز والبتروكيماويات والصناعة، على سبيل المثال.

دول التعاون واليمن: يولي المجلس الأعلى أهمية خاصة إلى اليمن لاعتبارات عديدة فهو العمق الجغرافي والاستراتيجي لدول المجلس كما أنه يشترك مع مجلس التعاون بعدد من النشاطات المشتركة، وثالثاً لما يشكله اليمن من سوق اقتصادية في المستقبل، فقد أصدر المجلس الأعلى توجيهاته بدعم تمويل المشاريع التنموية في اليمن والتوجه لعقد مؤتمر لاستكشاف الاستثمار. كما أطلع على سير التعاون بين دول المجلس واليمن.

التعاون الاقتصادي بين دول مجلس التعاون والاتحاد الأوروبي: نظراً لما تحققه التجارة الحرة بين الدول من تسهيل لعمليات التبادل التجاري، عبر المجلس الأعلى عن تطلعه إلى التوقيع على اتفاقية التجارة الحرة بين دول المجلس والاتحاد الأوروبي

في القريب العاجل، ورحب بالنتائج الإيجابية التي تم تحقيقها في الجولات الأخيرة من المفاوضات بين الجانبين. فقد تم عقد عدة اجتماعات وجولات سابقة من المفاوضات اتسمت المناقشات في هذه الاجتماعات والجولات بتقارب وجهات النظر بشكل كبير حيال كثير من القضايا.

التعاون الاقتصادي بين دول مجلس التعاون وآسيا: تولي دول مجلس التعاون أهمية متزايدة للصين الشعبية نظراً لما تمثله من قوة اقتصادية عالمية، وكذلك العلاقات الودية التي تربط دول المجلس بتركيا، اطلع المجلس على سير المفاوضات بين دول المجلس وهاتين الدولتين وعبر عن ارتياحه للتقدم في المفاوضات لإقامة منطقتي تجارة حرة بين دول المجلس وكل من جمهورية الصين الشعبية وجمهورية تركيا. فقد تم التوقيع على الاتفاقية الإطارية للتعاون الاقتصادي والتجاري والاستثماري والفني بين دول المجلس وجمهورية الصين الشعبية والبدء في المفاوضات للتوصل لاتفاقية منطقة تجارة حرة بينهما، وقد تم عقد جولتين من المفاوضات، وثلاث اجتماعات للمختصين من الجانبين، تم فيها مناقشة عدد من المواضيع المتعلقة باتفاقية منطقة التجارة الحرة. كما تم التوقيع على الاتفاقية الإطارية للتعاون الاقتصادي بين دول المجلس وجمهورية تركيا، والبدء في المفاوضات للتوصل لاتفاقية لإقامة منطقة تجارة حرة بينهما.

كما تم الاتفاق على بناء شراكة خليجية مع دول آسيا وتعزيز الحوار الاستراتيجي مع دول رابطة الآسيان بتفعيل خطة العمل التي أقرت مؤخراً في الاجتماع الوزاري الثاني للمجموعتين في سنغافورة هذا العام. وأكدت التوصيات على استكمال المفاوضات بشأن اتفاقيات التجارة الحرة مع الصين واليابان وكوريا الجنوبية والهند وباكستان.

ثانياً: شؤون الإنسان والبيئة:

الإنسان ركيزة أساسية في نهضة الأمم وتقدمها والبيئة الطبيعية حاضنة لصحة الإنسان وسلامته.

انطلاقاً من هذه المقولة، شملت مسيرة العمل المشترك في قطاع شؤون الإنسان والبيئة، مجالات البيئة، والتعليم، والثقافة، والإعلام، والصحة، والشباب والرياضة،

والشؤون الاجتماعية، والموارد البشرية. حيث خطت دول مجلس التعاون خطوات جادة ومدروسة في جميع هذه المجالات.

ثالثاً: في مجال الشؤون القانونية:

توحيد التشريعات في كافة المجالات خطوة أساسية في عملية التكامل:

لما كان التشابه والتماثل بين الأنظمة والقوانين أحد الركائز الأساسية في عمليات التكامل بين مجموعة من الدول الراغبة في ذلك، ولما كانت دول مجلس التعاون ترغب في تعزيز التعاون فيما بينها وصولاً إلى وحدتها . كما جاء في الفقرة الأولى من المادة الرابعة في «النظام الأساسي» للمجلس، فقد نصت الفقرة الثالثة من المادة الرابعة نفسها، على وضع أنظمة متماثلة في مختلف الميادين والتي تشمل؛ الشؤون الاقتصادية والمالية، والشؤون التجارية والجمارك والمواصلات، والشؤون التعليمية والثقافية، والشؤون الاجتماعية والصحية، والشؤون الإعلامية والسياحية، والشؤون التشريعية والإدارية.

ولتحقيق هذه الغاية أصدر المجلس الأعلى عدداً كبيراً من القوانين الاسترشادية شملت مختلف مجالات التعاون العدلي والقانوني. إن مثل هذه الاتفاقية والأنظمة (القوانين) تساهم ،بلا شك، في مأسسة العمل المشترك، وبالتالي تعزز من عملية التكامل بين دول مجلس التعاون لدول الخليج العربية.

رابعاً: الشؤون الدفاعية:

خلال السنوات الماضية منذ قيام المجلس حقق المجلس العديد من الإنجازات في مجال التعاون الدفاعي حيث تمت الموافقة على إنشاء قوة درع الجزيرة في 19 نوفمبر1982، وقد بدأت الدراسات الخاصة بتطوير قوة درع الجزيرة في عام 1990، وعلى ضوء ذلك تم تطوير القوة إلى فرقة مشاة آلية بكامل إسنادها. وفي مؤتمر القمة (أبوظبي، ديسمبر 2005) بارك المجلس الأعلى مقترح خادم الحرمين الشريفين لتطوير قوة درع الجزيرة إلى قوات درع الجزيرة المشتركة، لرفع عددها ليصل إلى 22 ألف مقاتل. كما تم تنفيذ العديد من المناورات المشتركة، البرية والجوية والبحرية. كما

تم التوقيع على اتفاقية الدفاع المشترك لمجلس التعاون في قمة المنامة، ديسمبر 2000.

وكذلك ربط مراكز عمليات القوات الجوية والدفاع الجوي في دول المجلس بشبكة من التغطية الرادارية والإنذار المبكر وذلك عبر مشروع حزام التعاون وبدأ تشغيل المرحلة الأولى منه منذ عام 2001. وفي قمة الكويت، ديسمبر 2009، أقر المجلس الأعلى «الاستراتيجية الدفاعية لمجلس التعاون لدول الخليج العربية»، حيث تمثل هذه الاستراتيجية المنهج والمسار والدليل الذي يسير عليه العمل الجماعي لتحقيق الرؤية المنشودة، والأهداف المحددة وذلك من خلال الطرق والوسائل الكفيلة بتحقيقها.

خامساً: الشؤون الأمنية:

لا تنمية بدون أمن واستقرار، ولا أمن واستقرار بدون تنمية.

هذه العلاقة الترابطية أدركتها دول مجلس التعاون لدول الخليج العربية وتعمل بجد على تحقيقها. وانطلاقاً من قناعة دول المجلس بأن أمنها كل لا يتجزأ، أولت التعاون الأمني فيما بينها أهمية كبيرة، فاستطاعت أن تحقق العديد من الإنجازات في هذا المجال من بينها التوقيع على الاتفاقية الأمنية لدول المجلس، كذلك أقرت الاستراتيجية الأمنية الشاملة التي تعتبر إطاراً عاماً للتعاون الأمني بين الدول الأعضاء لحماية مجتمعات دول المجلس من انتشار الجريمة والظواهر الخطيرة.

كما تم التوصل إلى استراتيجية أمنية لمكافحة التطرف المصحوب بالإرهاب، وإعلان مسقط بشأن مكافحة الإرهاب. كما استطاعت دول المجلس أن تحقق إنجازاً أمنياً هاماً في مايو 2004 بتوقيع الاتفاقية الأمنية لمكافحة الإرهاب لدول مجلس التعاون الخليجية العربية». كما دعت دول المجلس إلى نبذ الإرهاب ومكافحته بمختلف أشكاله وصوره، مع تأكيد أهمية التمييز بين الإرهاب والحق المشروع للشعوب في مكافحة الاحتلال، كما قامت دول المجلس بالتوقيع والانضمام إلى جميع الاتفاقيات الدولية والإقليمية ذات الصلة بمكافحة الإرهاب.

كما تم التوصل إلى العديد من القرارات التي تساعد في تسهيل تنقل المواطنين وانسياب السلع، والأنظمة الاسترشادية في مجال الدفاع المدني ومشروع التشريع النموذجي لمكافحة المخدرات، والأسلحة والمتفجرات والمؤثرات العقلية، ومشروع

النظام الموحد الاسترشادي لمنع الجرائم ومراقبة المشبوهين في دول المجلس. والقانون (النظام) المروري الموحد لدول المجلس.

سادساً: الإرهاب:

تأكيد مواقف وثوابت دول مجلس التعاون في محاربة الإرهاب بكافة أشكاله.

الإرهـاب، هذه الآفة التي لا تعرف ديناً ولا جنسية ولا حدوداً، ليست بالجديدة على العالم، ولكن تعاظم انتشارها منذ مطلع الإلفية الجديدة بصورة مهددة ليس لسلامة واستقرار الدول فحسب، ولكن ولسلامة وأمن كل فرد فيها أيضاً، مما يستلزم جهوداً دولية ووعياً وجهوداً داخلية مكثفة أيضاً، لمحاربتها والقضاء عليها. فقد أكد مجلس التعاون في جميع بياناته منذ مطلع الثمانينات من القرن العشرين نبذه لكافة مظاهر التطرف والعنف والإرهاب بكافة أشكاله وصوره، وأيّاً كان مصدره أو دوافعه ومنطلقاته، باعتباره آفة دولية تهدد أمن العالم واستقراره.

ففي بياناته الختامية، في دورته الخامسة عشرة 19 - 21 ديسمبر 1994 وقمة مسقط 4 - 6 ديسمبر 1995، على سبيل المثال، بحث المجلس ظاهرة التطرف والعنف والإرهاب التي أصبحت تشكل هاجساً عالمياً، حيث أدان المجلس أعمال الإرهاب بكافة أنواعها وأشكالها الرامية إلى إشاعة الفوضى والخوف والتوتر وإزهاق أرواح الأبرياء، معبراً عن رفضه الشديد لهذه الظاهرة، واعتبرها مخالفة للدين الإسلامي الحنيف، وقام بالتوقيع على الاتفاقية العربية لمكافحة الإرهاب: أبريل 1998.

ولمواجهة هذه الآفة ومكافحتها أقر المجلس الأعلى أيضاً الاستراتيجية الأمنية لمكافحة التطرف المصحوب بالإرهاب في مسقط 2002م، وإعلان مسقط بشأن مكافحة الإرهاب الصادر عن الاجتماع الحادي والعشرين لوزراء الداخلية 2002م، وكذلك توقيع وزراء الداخلية لمكافحة الإرهاب في لقائهم التشاوري الخامس في دورته الـ (91) بعض الخطوات والآليات الهادفة لمكافحة الإرهاب. ولقد توصلت دول المجلس في العام 2004 إلى توقيع اتفاقية دول مجلس التعاون لمكافحة الإرهاب، كما تم في عام 2006 تشكيل لجنة أمنية دائمة مختصة بمكافحة الإرهاب تعقد اجتماعاتها بشكل دوري (سنوي)، كأحدى اللجان الأمنية المتخصصة

كما تعتبر دول المجلس من أوائل الدول في العالم التي استجابت للعمل بقرار مجلس الأمن رقم (1373) لعام 2001م بشأن مكافحة الإرهاب.

سابعاً: الهيئة الاستشارية:

«وشاورهم في الأمر» صدق الله العظيم (الآية 22)

انطلاقاً من حرص المجلس الأعلى على تعزيز دور المواطن في تفعيل مسيرة المجلس، أقر المجلس الأعلى إنشاء هيئة استشارية من مواطني دول مجلس التعاون من ذوي الخبرة والكفاءة، تتولى إبداء الرأي فيما يحيله المجلس الأعلى إليها من أمور، وذلك في دورته الثامنة عشرة التي عقدت بدولة الكويت 20 - 22 ديسمبر 1997.

منذ إنشائها قامت «الهيئة الاستشارية» بدراسة عدد من الموضوعات الحيوية ذات الطبيعة الاستراتيجية من بينها توظيف الأيدي العاملة المواطنة وتسهيل تنقلها فيما بين الدول الأعضاء، وموضوع التعليم وتطوير المنظومة التعليمية، وتقويم مسيرة التعاون الاقتصادي، وتقديم مقترحات لتفعيل تنفيذ استراتيجية التنمية بعيدة المدى 2000 - 2025، والطاقة والبيئة، واستراتيجيات المياه، والبحث العلمي والتقني، وقضايا الإعلام، ودور القطاع الخاص في تعزيز التواصل بين أبناء دول المجلس، والتعامل مع التكتلات الاقتصادية والإقليمية، وموضوع المرأة ودورها الاقتصادي والاجتماعي والأسري، والمعالجة الشاملة لقضايا السكان، وإصلاح الاختلال في التركيبة السكانية، ومعوقات التبادل التجاري. كما قامت الهيئة بتقديم رؤيتها حول مسيرة المجلس مرتين، الأولى سنة 2000، وتتعلق بتقييم الجانب الاقتصادي فقط في المسيرة، والثانية في عام 2005م وتشمل جميع مسارات العمل المشترك لمجلس التعاون. في عام 2006، قامت الهيئة بتقديم رؤيتها في تعزيز بيئة العمل الملائمة للقطاع الخاص وبما يضمن معاملة الشركات والاستثمارات في دول المجلس معاملة الشركات والاستثمارات الوطنية. وفي عام 2007، أنجزت دراسة عن ظاهرة التضخم وارتفاع الأسعار وآثارها الاجتماعية على المواطنين وعلى اقتصاديات دول المجلس، ومشكلة الباحثين عن العمل، أسبابها وآثارها وعلاجها، ودراسة موضوع الأزمة المالية العالمية وتأثيرها على دول مجلس التعاون في عام 2008، ودراسة الأمن الغذائي والمائي لمجلس التعاون...

ثامناً: المجال السياسي:

جاء إنشاء مجلس التعاون لدول الخليج العربية في الخامس والعشرين من شهر مايو عام 1981م تجسيداً لما بين الدول الأعضاء من علاقات خاصة وسمات مشتركة وأنظمة متشابهة، أساسها وحدة التراث والانتماء والعقيدة والمصالح المشتركة، واقتناعاً بأن التنسيق والتعاون والتكامل فيما بينها يخدم الأهداف السامية للأمة العربية. ومن هذا المنطلق فإن تنسيق المواقف بين الدول الأعضاء تجاه مختلف القضايا يشكل ركناً هاماً من أركان التعاون بين دول المجلس لتحقيق هذه الأهداف.

وقد ساهم التجانس بين دول المجلس في تمكين مجلس التعاون من تبني مواقف موحدة تجاه القضايا السياسية، وسياسات ترتكز على مبادئ حسن الجوار، وعدم التدخل في الشئون الداخلية، واحترام سيادة كل دولة على أراضيها ومواردها، واعتماد مبدأ الحوار السلمي وسيلة لفض المنازعات، الأمر الذي أعطى مجلس التعاون قدراً كبيراً من المصداقية، كمنظمة دولية فاعلة في هذه المنطقة الحيوية للعالم بأسره.

أهم الأهداف السياسية والاستراتيجية

يهدف التنسيق والتعاون في مجال السياسة الخارجية إلى صياغة مواقف مشتركة موحدة تجاه القضايا السياسية، التي تهم دول مجلس التعاون في الأطر الإقليمية والعربية والدولية، والتعامل كتجمع مع العالم، في إطار الأسس والمرتكزات القائمة على الاحترام المتبادل، وعدم التدخل في الشؤون الداخلية ومراعاة المصالح المشتركة، وبما يصون مصالح دول المجلس ويعزز أمنها واستقرارها ورضا شعوبها. ويمكن تلخيص أهم الأهداف السياسية للمجلس فيما يلي:

- خلال عقد الثمانينيات تلخصت أهم أهداف مجلس التعاون السياسية والإستراتيجية في الحفاظ على أمن دول المجلس واستقرارها من خلال التصدي لُمسببات عدم الاستقرار ومصادر الخطر التي تمثلت بشكل أساسي ومُباشر في الحرب العراقية الإيرانية، الأمر الذي تطلب تحركاً جماعياً لدول مجلس التعاون، للحيلولة دون انتشار رقعة تلك الحرب.
- في التسعينيات، مثّل عدوان النظام العراقي السابق على دولة الكويت

واحتلالها، التحدي الأمني الأكثر خطورة منذ قيام المجلس، حيث حظي تحرير دولة الكويت بأولوية مطلقة.

• بعد التحرير، تطلب الموقف عملاً دبلوماسياً مشتركاً مكثفاً، لمساندة الشرعية الدولية في سعيها لإلزام العراق بتنفيذ قرارات مجلس الأمن ذات الصلة بعدوانه على دولة الكويت.

• مساندة ودعم دولة الإمارات العربية المتحدة في حقها باستخدام كافة الوسائل السلمية لاستعادة سيادتها على جزرها الثلاث، طنب الكبرى، وطنب الصغرى، وأبو موسى، التي تحتلها إيران منذ عهد الشاه عام 1971م وحتى الوقت الحاضر.

• السعي إلى تحسين العلاقات مع إيران، وهو ما شرعت فيه دول المجلس منذ أواخر الثمانينات بوضع إطار جماعي للعلاقات معها، مما أسفر عن توقيع العديد من الاتفاقات والبروتوكولات ذات الطابع الاقتصادي والأمني مع الجمهورية الإسلامية الإيرانية، مما يُمهد لحل القضايا العالقة بين إيران ودول المجلس، ومن أهمها قضية الجزر الإماراتية الثلاث.

• وفي الإطار العربي، العمل بشكل جماعي لدعم القضايا العربية، وعلى رأسها القضية الفلسطينية، ودعم مسيرة السلام في الشرق الأوسط، مع التمسك بالحقوق العربية.

• دعم ومناصرة القضايا الإسلامية.

أبرز الإنجازات في مجال السياسة الخارجية:

• المساهمة في تطويق وإنهاء الحرب العراقية الإيرانية

كانت الحرب العراقية الإيرانية في عامها الأول عند تأسيس مجلس التعاون، وحظيت باهتمام دورات المجلس الأعلى منذ قمة أبوظبي الأولى، ولقد وظفت دول المجلس إمكاناتها السياسية والمعنوية لإيجاد مخرج من تلك الحرب الدموية التي سببت خسائر بشرية ومادية للطرفين وزعزعة الأمن الإقليمي.

في الإطار العربي، كان التحرك الخليجي من خلال اللجنة السباعية التي شكلت بغرض الوصول إلى وقف إطلاق النار. أما على المستوى الدولي، فلقد ساهمت



الجهود السياسية لدول المجلس في تسليط الضوء على الحرب والاهتمام بإيجاد حل لها. وأثمرت تلك الجهود في صدور قرار مجلس الأمن رقم 540، في أكتوبر 1983، الذي دعا إلى وقف العمليات العسكرية في الخليج وعدم التعرض للسفن والمنشآت الاقتصادية والموانئ. ثم صدر قرار مجلس الأمن رقم 552، في يونية 1984، استجابة لشكوى قدمتها دول المجلس ضد الاعتداءات على السفن التجارية من وإلى موانئ المملكة العربية السعودية ودولة الكويت. وأكد القرار على حق حرية الملاحة في المياه الدولية والطرق البحرية التي تمر بموانئ ومنشآت الدول الساحلية التي ليست طرفاً في الأعمال الحربية.

وأخيراً، كان لدول المجلس مساهمتها الفاعل في استصدار قرار مجلس الأمن رقم 598 في يوليو 1987، ذلك القرار التاريخي الذي أدى قبوله لاحقاً من الطرفين إلى وضع نهاية لتلك الحرب المدمرة.

- تحرير دولة الكويت

عندما أقدم النظام العراقي في الثاني من أغسطس 1990 على ارتكاب جريمة غزو دولة الكويت واحتلالها، سارعت دول مجلس التعاون ومنذ الساعات الأولى إلى التحرك من منطلق أن أي اعتداء على دولة عضو هو اعتداء على جميع دول مجلس التعاون. ومثلت دول المجلس نواة التحرك السياسي والدبلوماسي الرافض للعدوان ونتائجه والمطالب بالانسحاب بلا شروط، حيث عقد وزراء خارجية دول المجلس اجتماعاً طارئاً بالقاهرة يوم 3 أغسطس 1990 على هامش اجتماعات مجلس الجامعة العربية. كما نجحت جهود دول المجلس في عقد القمة العربية الطارئة في القاهرة يوم 10 أغسطس 1990، وقد سبقها اجتماعان لوزراء الخارجية العرب ووزراء خارجية منظمة المؤتمر الإسلامي يومي 3 و 4 أغسطس 1990 على التوالي. كما كان لدول المجلس مساهمتها الفاعلة في استصدار سلسلة من قرارات مجلس الأمن لتأمين انسحاب قوات النظام العراقي وعودة الشرعية دونما قيد أو شرط، بدءا من القرار 660 الصادر في 3 أغسطس 1990 الذي أدان الغزو وطالب بانسحاب فوري وغير مشروط، مروراً بالقرار 678 في 29 نوفمبر 1990 الذي أجاز استخدام الوسائل اللازمة لدعم وتنفيذ قرارات مجلس الأمن ذات الصلة وإعادة الأمن والسلم الدوليين إلى المنطقة، وصولاً إلى

قرارات أخرى ضدرت لإزالة آثار العدوان.

وتوّجت الجهود والمواقف الخليجية بقرارات اتخذتها القمة الحادية عشرة لمجلس التعاون التي عقدت في الدوحة خلال ديسمبر 1990. حيث أكدت القمة وقوف دول المجلس في وجه العدوان وتصميمها على مقاومته وإزالة آثاره ونتائجه، من منطلق أن أي اعتداء على دولة عضو هو اعتداء على جميع الدول الأعضاء وأن أمن دول المجلس كل لا يتجزأ. واضطلعت دول المجلس بدور أساسي في عملية تحرير دولة الكويت وذلك بتوظيف رصيدها السياسي والدبلوماسي، وتسخير قدراتها العسكرية والمادية من أجل التحرير الذي تحقق في فبراير 1991، كما عملت بعد ذلك على المطالبة بتنفيذ قرارات مجلس الأمن ذات الصلة وإزالة آثار الغزو والاحتلال.

- دعم وحدة واستقرار وسيادة العراق

بعد سقوط النظام العراقي السابق، أبدت دول مجلس التعاون، في أكثر من مناسبة، حرصها الأكيد على الوقوف مع الشعب العراقي الشقيق في محنته السياسية التي وجد نفسه فيها، من خلال دعم الدور المحوري للأمم المتحدة في العملية السياسية في العراق، كما هو موضح في قرار مجلس الأمن الدولي رقم 1546 الصادر بتاريخ 8 يونيو 2004م. كما ساندت الانتخابات التشريعية، وإقرار الدستور، والإجراءات اللاّحقة لاستكمال البناء السياسي للدولة العراقية، مع دعوة كافة القوى العراقية إلى تشكيل حكومة وحدة وطنية، تمثل كافة أطياف العراق الأثنية، والدينية، دون تمييز، وتعبّر عن تطلعات مواطنيه ومحيطه العربي في إرساء دعائم عراق آمن، ومستقر، وموحد، قادر على إدارة شؤونه بنفسه، وعلى معاودة دوره كعضو فعّال في محيطه العربي والدولي. كما سعت دول مجلس التعاون، من خلال المشاركة في مؤتمرات الدول المانحة، ونادي باريس، واجتماعات دول الجوار، والاتصالات الثنائية، لتسريع عملية إعادة البناء الاقتصادي في العراق. وقد ساندت دول المجلس وثيقة العهد الدولي مع العراق التي صدرت عن المؤتمر الذي عقد في شرم الشيخ بتاريخ 4 و 5 مايو 2007، والتي تضمنت خطة خمسية تقدم دعماً مالياً وسياسياً وفنياً للعراق مقابل أن تطبق الحكومة العراقية إصلاحات سياسية وأمنية واقتصادية.

وقد عبّر مجلس التعاون عن القلق البالغ من أعمال العنف والجرائم الإرهابية،

بما في ذلك الاعتداء على الأماكن المقدسة ودور العبادة، وأهاب بجميع القوى الوطنية في العراق، بكل انتماءاتها، الوقوف قلباً ويداً واحدة أمام محاولات التفريق والفتنة الطائفية. وأكد المجلس على احترام وحدة وسيادة واستقلال العراق ورفض دعاوي التجزئة والتقسيم، وعدم التدخل في شؤون العراق الداخلية، واعتبار التوافق الوطني مفتاحاً للحل في العراق.

- مساندة قضية الجزر الثلاث المحتلة التابعة لدولة الإمارات

منذ عام 1992 أصبح موضوع الجزر الثلاث، طنب الكبرى وطنب الصغرى وأبو موسى، التابعة لدولة الإمارات العربية المتحدة، بنداً ثابتاً على جدول أعمال المجلس الأعلى والمجلس الوزاري، ولقد ساندت دول المجلس موقف دولة الإمارات العربية المتحدة من قضية الجزر، وطالبت إيران بإنهاء احتلالها للجزر الإماراتية، والدخول في مفاوضات مباشرة مع دولة الإمارات حول قضية الجزر الثلاث المحتلة، أو إحالة القضية إلى محكمة العدل الدولية.

ومن الخطوات الهامة في هذا الإطار، قرار المجلس الوزاري في دورته الحادية والسبعين التي عقدت في مدينة جده بتاريخ 3 يوليو 1999م، الخاص بإنشاء لجنة وزارية من المملكة العربية السعودية، وسلطنة عمان، ودولة قطر، ومعالي الأمين العام للمجلس، بهدف وضع آلية لبدء المفاوضات المُباشرة لحل قضية احتلال إيران للجزر الثلاث. وكانت دول المجلس تتطلع إلى أن يكون استقبال إيران لهذه اللجنة والتعامل معها مدخلاً هاماً يُمهِّد لحل قضية الجزر الثلاث. ولكن إيران رفضت استقبال هذه اللجنة.

وفي تحرك دولي موسع، ناشدت دول مجلس التعاون الدول والمجموعات الإقليمية والدولية، بالعمل على إقناع إيران وحثها على قبول جهود السلمية لدولة الإمارات العربية المتحدة لحل قضية الجزر الثلاث.

- العلاقات مع إيران

شكل الاحتلال الإيراني للجزر الإماراتية الثلاث منذ نوفمبر 1971، عامل قلق عميق أعاق إلى حد كبير إمكانية توسيع العلاقات بين دول المجلس وإيران وعملت دول المجلس على وضع إطار جماعي للعلاقات، حيث تبنى مجلس التعاون أسساً ثابتة

ومشتركة للتعامل مع إيران، ترتكز على مبادئ حسن الجوار، وعدم التدخل في الشئون الداخلية، وحل النزاعات بالوسائل السلمية، ورفض سياسة فرض الأمر الواقع بالقوة. كما حث المجلس على تفعيل الحوار الودي والاتصالات الثنائية والزيارات المتبادلة مع إيران، على مختلف المستويات، مما أسفر عن توقيع العديد من الاتفاقات الثنائية ومذكرات وبروتوكولات التفاهم التي شملت الجوانب الاقتصادية والأمنية. وناشدت دول المجلس إيران، عبر البيانات الختامية والصحفية المتعاقبة الصادرة عن المجلس الأعلى والمجلس الوزاري، الاستجابة لمبادرة دول مجلس التعاون ودولة الإمارات العربية المتحدة لحل قضية احتلال إيران للجزر الثلاث بالوسائل السلمية.

- أزمة الملف النووي الإيراني

التزاماً بمبادئ مجلس التعاون الثابتة باحترام الشرعية الدولية وحل النزاعات بالطرق السلمية، أكد المجلس أهمية التوصل إلى حل سلمي لهذه الأزمة، وحث إيران على مواصلة الحوار الدولي والتعاون الكامل مع الوكالة الدولية للطاقة الذرية، والالتزام بالمعايير الدولية للطاقة الذرية. وطالب مجلس التعاون إسرائيل بالانضمام إلى معاهدة عدم انتشار الأسلحة النووية وإخضاع كافة منشآتها النووية لنظام التفتيش التابع للوكالة الدولية للطاقة الذرية، ودعا المجتمع الدولي إلى الضغط على إسرائيل لحملها على الاستجابة لمطالب الأسرة الدولية في هذا الشأن. كما طالب مجلس التعاون بجعل منطقة الشرق الأوسط خالية من أسلحة الدمار الشامل بما فيها منطقة الخليج، مع الإقرار بحق دول المنطقة في امتلاك الخبرة في مجال الطاقة النووية للأغراض السلمية. وفي هذا السياق، تم الإعلان عن اعتزام مجلس التعاون إجراء دراسة لإيجاد برنامج مشترك في مجال التقنية النووية للأغراض السلمية طبقاً للمعايير والأنظمة الدولية.

- دعم القضية الفلسطينية وعملية السلام

منذ تأسيس مجلس التعاون في 25 مايو 1981م ومواقفه تجاه القضية الفلسطينية وعملية السلام واضحة في دعمها حقوق الشعب الفلسطيني، ورفض واستنكار السياسات والإجراءات العدائية ضده، وبذل المساعي والجهود لإيجاد حل عادل وشامل ودائم للصراع العربي الإسرائيلي. ويعكس بيان الدورة الأولى للمجلس الأعلى الصادر

في مايو 1981 عمق التزام دول مجلس التعاون بدعم عملية السلام في الشرق الأوسط، حين أعلنت دول المجلس «بأن ضمان الاستقرار في الخليج مرتبط بتحقيق السلام في الشرق الأوسط، الأمر الذي يؤكد ضرورة حل قضية فلسطين حلاً عادلاً يؤمن الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني، بما فيه حقه في العودة إلى وطنه وإقامة دولته المستقلة ويؤمن الانسحاب الإسرائيلي من جميع الأراضي العربية المحتلة وفي طليعتها القدس الشريف».

وانطلاقاً من تأييدها للسلام في الشرق الأوسط، كخيار استراتيجي عربي، أيدت دول المجلس المبادرات الرامية إلى إيجاد حل عادل وشامل للصراع العربي الإسرائيلي، بل إن إحدى دول مجلس التعاون وهي المملكة العربية السعودية، تقدمت بمبادرتين لإيجاد حل لهذا النزاع في العام 1981 ولاحقاً في العام 2002. كما شاركت دول المجلس، ممثلة بمعالي الأمين العام، في مؤتمر مدريد للسلام عام 1991م.

وتتمسك دول مجلس التعاون بمبادرة السلام العربية التي أقرها مؤتمر القمة العربية في بيروت عام 2002. وأكدت قمة الرياض، التي عقدت في مارس 2007، على تمسك جميع الدول بالمبادرة وتفعيلها كأساس لأي تحرك يهدف إلى تحقيق السلام العادل والشامل في إطار الشرعية الدولية، انطلاقا من اقتناعها بأن السلام خيار استراتيجي للأمة العربية. كما رحبت دول المجلس بخطة «خارطة الطريق»، التي تنص على إنهاء الاحتلال الإسرائيلي، والتوصل إلى إقامة دولة فلسطينية، وتنفيذ الالتزامات التي بنيت على أساس مؤتمر مدريد، ومبدأ الأرض مقابل السلام، وقرارات الشرعية الدولية. كما ساندت دول مجلس التعاون جهود اللجنة الرباعية الدولية، راعية عملية السلام، والمجتمع الدولي لتنفيذ خطة خارطة الطريق، بالتوافق مع أسس مبادرة السلام العربية.

وضمن السياق ذاته، رحبت دول المجلس بتبني مجلس الأمن، بالإجماع، في شهر نوفمبر 2003، القرار رقم 1515، القاضي بدعم «خارطة الطريق» الهادفة إلى التوصل إلى حل النزاع الإسرائيلي الفلسطيني، بإقامة دولتين تعيشان جنباً إلى جنب بأمن وسلام، وتأكيد ضرورة تحقيق سلام شامل ودائم لكافة الأطراف، بما في ذلك سوريا ولبنان.

ودعا المجلس الفصائل الفلسطينية إلى وقف الاقتتال فيما بينها واللجوء إلى الحوار بدلا من الاقتتال، والجلوس على طاولة المفاوضات من أجل تعزيز الوفاق الوطني الفلسطيني، وذلك للاحتفاظ بالمكاسب التي حققها الشعب الفلسطيني طيلة سنوات نضاله المشروع.

كما أعرب المجلس عن سروره وترحيبه بتوصل الفلسطينيين إلى توقيع «اتفاق مكة» لإنهاء الاقتتال الداخلي، وتشكيل حكومة الوحدة الوطنية، الذي تم بالجهود الكبيرة التي قام بها خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز آل سعود، ملك المملكة العربية السعودية، في جمع الفُرقاء الفلسطينيين للتوصل إلى هذا الاتفاق التاريخي الهام في مسيرة القضية الفلسطينية.

وأبدى المجلس استياءه من أعمال الهدم والحفريات التي تقوم بها سلطات الاحتلال الإسرائيلي في محيط المسجد الأقصى الشريف. ودعا المجتمع الدولي، ومنظمة اليونسكو، للتدخل الحازم لمنع مثل هذه الممارسات التي تستهدف الأماكن المقدسة مما يشكل استفزازا واستهتارا بمشاعر المسلمين.

كما أكد المجلس، أن السلام العادل والشامل في الشرق الأوسط لن يتحقق إلا بقيام الدولة الفلسطينية المستقلة القابلة للبقاء، وعاصمتها القدس الشريف، والانسحاب الإسرائيلي من الجولان العربي السوري المحتل إلى خط الرابع من يونيو (حزيران) من عام 1967، ومن مزارع شبعا في جنوب لبنان.

وخلص المجلس إلى أن غياب الحل العادل للقضية الفلسطينية، واستمرار المعاناة الهائلة التي يتحملها الشعب الفلسطيني الشقيق التي فاقت كل حدود التصور، هي السبب الحقيقي في تفاقم النزاعات في الشرق الأوسط وتعدد صورها. وطالب المجلس المجتمع الدولي بأن يعطي أولوية قصوى للتوصل إلى حل عادل لتلك القضية وفق قواعد الشرعية الدولية، إذ لم تعد الحلول المؤقتة أو التسويات الجزئية كافية أو مقبولة إذا أريد لهذه المنطقة أن تنعم بالأمن والاستقرار

وفي إطار دعم دول مجلس التعاون لجهود إعادة إعمار قطاع غزة بعد العدوان الإسرائيلي، فقد أنشأت دول مجلس التعاون في فبراير 2009 «برنامجاً لإعادة إعمار غزة» كما شاركت في المؤتمر الدولي للمانحين لإعادة إعمار غزة بمدينة شرم الشيخ

المصرية في مارس 2009، وتبرعت بمبلغ 1،65 مليار دولار أمريكي.

- مساندة الجمهورية العربية السورية

أكد المجلس منذ تأسيسه عام 1981 دعمه وتأييده لمطالب الجمهورية العربية السورية في استرداد حقوقها المشروعة وإنهاء الاحتلال الإسرائيلي للأراضي الفلسطينية والعربية التي احتلتها عام 1967 بما فيها الجولان المحتل حتى خط الرابع من حزيران 1967م، وفق مرجعية مدريد ومبدأ الأرض مقابل السلام وتطبيق قراري مجلس الأمن 242 و 338، وتحميل إسرائيل مسئولية تعثر هذا المسار.

كذلك أكد المجلس الوقوف إلى جانب سورية ضد الضغوط الأمريكية التي تمارسها واشنطن، والمتمثلة في قرارها فرض عقوبات على سوريه، وأشاد المجلس بالموقف السوري المتجاوب الداعي إلى تغليب لغة الحوار والدبلوماسية كأسلوب للتفاهم بين الدول وحل الخلافات بينها.

وفي ظل التطورات الأخيرة أشاد المجلس بقرار الحكومة السورية بالانسحاب من لبنان في شهر مارس 2005، وفي الوقت نفسه أبدى المجلس قلقه من أزمة العلاقات السورية اللبنانية، ودعا الجانبين إلى الحوار الجاد، بما يحفظ الأمن والاستقرار لأراضي البلدين.

ومؤخراً، أشادت دول المجلس بتحسن العلاقات السورية – اللبنانية، وتبادل التمثيل الدبلوماسي بين الجانبين.

- دعم لبنان

حظي لبنان باهتمام خاص من مجلس التعاون منذ الاجتماع الأول لقادته في عام 1981، حيث عكس بيان الدورة الأولى للمجلس حرص دول مجلس التعاون على سلامة وسيادة واستقلال لبنان. ونص البيان الختامي الأول في هذا الخصوص على أن قادة دول مجلس التعاون «ناقشوا بروح من المسؤولية القومية تمادي إسرائيل في انتهاك سيادة واستقلال لبنان الشقيق والقصف الوحشي للمدن والقرى اللبنانية والمخيمات الفسلطينية..» كما ناشد البيان «جميع الأطراف في لبنان بضرورة نبذ الخلافات وإيقاف الدم المتدفق على الأرض اللبنانية، وبدء مفاوضات الوفاق في إطار الشرعية اللبنانية».

لقد كان موقف مجلس التعاون ثابتاً وواضحاً في دعمه للشعب اللبناني في المصالح

الوطنية على أي اعتبارات أخرى، ودعا المجتمع الدولي إلى المساهمة في توفير المساعدات الإنسانية الضرورية التي يحتاجها شعب لبنان. كما أكد المجلس دعم لبنان والدفاع عن حقوقه واستقلاله ووحدة أراضيه ضد الغزو الإسرائيلي لجنوب لبنان، وعبر المجلس عن استنكاره وشجبه لذلك الغزو الهمجي.

واستمر المجلس على مدى الخمسة والعشرين سنة الماضية في دعمه الاستقرار السياسي والاقتصادي والأمني في لبنان، وإدانة الاعتداءات الإسرائيلية على سيادته واستقلاله، ودعوة الشعب اللبناني الشقيق إلى التلاحم ووحدة الصف.

وفي ضوء الأحداث التي شهدها لبنان منذ عام 2005، استنكر المجلس التفجيرات التي حدثت في لبنان والتي راح ضحيتها قادة سياسيون وإعلاميون وأفراد من الشعب اللبناني، مؤكداً رفضه لمثل تلك الأعمال الإرهابية. ودعا الإخوة اللبنانيين إلى تجاوز الأزمة، والمحافظة على وحدة واستقرار لبنان، وتغليب الحوار بين مختلف القوى السياسية، والابتعاد عن كل ما يسبب الفرقة والانقسام، والتحقيق بكل سرعة وشفافية في قضية اغتيال الرئيس رفيق الحريري. كما أعرب المجلس عن أمله أن يتم التوصل إلى الحقيقة وكشف من قاموا بهذه الأعمال الإرهابية، وتقديمهم للعدالة، ودعا المجلس كافة الأطراف إلى التعاون في هذا الشأن.

كما أكد المجلس ضرورة أن يعمل اللبنانيون جميعاً على وحدة الصف اللبناني وتعزيز الأمن والاستقرار، والالتزام بالمؤسسات الدستورية الشرعية وتغليب التوافق في الحكمة ولغة الحوار لتجاوز الظروف الحالية التي من شأن استمرارها المساس باستقرار لبنان ووحدته الوطنية واستقلال قراره السياسي.

وعبر المجلس عن قلقه البالغ إزاء العدوان الإسرائيلي السافر الذي وقع على لبنان في يوليو 2006م، وأكد وقوفه مع الشعب اللبناني في مواجهة كل ما يتعرض له لبنان من اعتداء وتدمير. ورحب المجلس في هذا السياق بقرار مجلس الأمن رقم 1701، الداعي لوقف العمليات العسكرية في لبنان. وعبر عن تأييده ودعمه للبنان في بسط كامل سلطته ونفوذه على كافة ترابه الوطني وفي أي مسعى دولي لاسترداد حقوقه كاملة، بما في ذلك تعويضه عما لحق به من خسائر بشرية ومادية جراء العدوان الإسرائيلي.

واستمراراً في مؤازرة لبنان سياسياً واقتصادياً، بما في ذلك إعادة الإعمار، عبر

المجلس عن ترحيبه للنتائج الإيجابية التي توصل إليها مؤتمر باريس 3 لدعم لبنان. كذلك أكد المجلس تأييد دعوة لبنان مطالبة إسرائيل بالإنسحاب الكامل من الأراضي اللبنانية التي لا تزال محتلة إلى الحدود المعترف بها دولياً، بما فيها مزارع شبعا، تنفيذاً لقراري مجلس الأمن 425 و 426.

كما حث دول المجلس سوريا ولبنان، البلدين الشقيقين الجارين، على تجاوز الأزمات والعمل معاً لما فيه مصلحة البلدين.

الشأن الصومالي

أولى مجلس التعاون اهتماماً كبيراً بالوضع في الصومال حيث عبر عن أسفه لاستمرار الصراع ومسلسل الأزمات والعنف الدائر. ودعا الأطراف الصومالية المتصارعة إلى تحكيم العقل واللجوء إلى المفاوضات والحوار للتوصل إلى حل توافقي ينهي معاناة الشعب الصومالي، ويجنبه المزيد من الانقسام والتدخلات الخارجية. وحث المجلس الاتحاد الأفريقي والمجتمع الدولي والاتحاد الأوروبي والأمم المتحدة على تكثيف الجهود لإنهاء الصراع والنزيف الدائر في الصومال. وعبر المجلس عن تطلعه إلى أن يتوصل مؤتمر المصالحة الوطنية، المزمع عقده في الصومال، إلى النتائج الإيجابية المرجوة. وأكدت دول المجلس دعمها لأي جهود إقليمية أو دولية من شأنها إعادة الأمن والاستقرار إلى الصومال.

الوضع في السودان

تحظى التطورات في السودان باهتمام مجلس التعاون الذي رحب بتوقيع الحكومة السودانية والحركة الشعبية لتحرير السودان اتفاق السلام الشامل في جنوب السودان في يناير 2005، باعتبار ذلك حدثاً تاريخياً هاماً من شأنه إنهاء فترة عصيبة من تاريخ السودان، وأملاً في أن يكون مساهمة في التوصل إلى اتفاق سلام مماثل بشأن إقليم دار فور، وبما يعود على السودان الشقيق بالأمن والاستقرار والرخاء.

ويتابع المجلس بقلق تطورات الوضع في إقليم دارفور، حيث عبر عن أسفه لاستمرار تردي الأوضاع، وما يترتب على ذلك من معاناة إنسانية. وقد أكد المجلس في هذا

الخصوص أهمية اتفاقية السلام التي تم التوقيع عليها برعاية الاتحاد الأفريقي بتاريخ 5 مايو 2006م في «أبوجا» بين الحكومة السودانية وإحدى فصائل المعارضة، داعياً الحكومة السودانية والفصائل السودانية إلى اللجوء إلى الحوار ووضع المصالح العليا للشعب السوداني فوق كل اعتبار. كما دعا المجلس المجتمع الدولي إلى بذل المزيد من الجهود لمساعدة السودان، وتقديم العون الكافي لتمكينه من التوصل إلى حل سلمي للازمة القائمة في إقليم دارفور، خاصة أن الحكومة السودانية قد اتخذت خطوات إيجابية لحل الأزمة والتعاون مع الأمم المتحدة في هذا الشأن. وثمن المجلس الجهود التي تبذلها الجامعة العربية والاتحاد الأفريقي والأمم المتحدة للخروج بحل عاجل للأزمة ووقف القتال في الإقليم.

ورحب المجلس بالاتفاق الذي وقعته الحكومة السودانية مع كل من الأمم المتحدة والاتحاد الأفريقي والذي تم بموجبه تحديد واجبات ودور القوات الأفريقية وقوات الأمم المتحدة في إقليم دارفور، مشيداً بالدور الكبير والجهد البناء الذي بذله خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز، ملك المملكة العربية السعودية، للوصول إلى هذا الاتفاق. ويأمل المجلس أن تتمكن الحكومة السودانية من التوصل إلى اتفاق مع الأمم المتحدة يلبي مطالبها ويحقق اهتمامات المجتمع الدولي بشأن نشر قوات للأمم المتحدة في إقليم دارفور، مؤكداً أهمية احترام سيادة السودان ووحدة أراضيه واستقلاله.

وفي إطار المساعي المبذولة لتحقيق السلام في إقليم دارفور، قرر مجلس الجامعة العربية في سبتمبر 2008 تشكيل لجنة وزارية عربية برئاسة دولة قطر، رئيس الدورة الحالية للمجلس الأعلى لمجلس التعاون، للترتيب والإعداد لرعاية مباحثات سلام حول إقليم دارفور بين الحكومة السودانية والأطراف المعنية لحل هذه الأزمة، مما يعتبر دليلاً آخر على نجاح دبلوماسية دول مجلس التعاون في تحقيق المصالحات التي تهم العالمين العربي والإسلامي.

كما رحب المجلس بالاتفاق الثنائي بين جمهورية السودان وجمهورية تشاد لتطوير وتعزيز العلاقات بينهما، والذي وقع في الرياض برعاية خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز آل سعود، ملك المملكة العربية السعودية. وأعرب المجلس

عن أمله في أن يؤدي الاتفاق إلى دعم العلاقات الأخوية بين البلدين بما يخدم مصالح الشعبين الجارين ويدعم الأمن والسلام والاستقرار في المنطقة.

علاقات اليمن بمجلس التعاون

تقديراً من المجلس للدور الهام الذي تضطلع به الجمهورية اليمنية والمسئوليات التي تتعامل معها في إطار أمن واستقرار ونمو الجزيرة العربية، أعرب المجلس عن مشاركة الجمهورية اليمنية في توثيق عرى التعاون والتنسيق الأخوي في إطار العمل الجماعي لمجلس التعاون، حيث أقرت قمة مسقط لعام 2001 قبول اليمن في عضوية أربع مؤسسات، وهي:

(1) مجلس وزراء الصحة لدول مجلس التعاون لدول الخليج العربية.

(2) مكتب التربية العربي لدول الخليج العربية.

(3) مجلس وزراء العمل والشئون الاجتماعية بدول مجلس التعاون لدول الخليج العربية.

(4) دورة كأس الخليج العربي لكرة القدم.

كما صدر قرار المجلس الأعلى في الدورة التاسعة والعشرين (مسقط، ديسمبر 2008) بانضمام اليمن إلى المؤسسات التالية:

- منظمة الخليج للاستشارات الصناعية.
- هيئة التقييس لدول مجلس التعاون.
- هيئة المحاسبة والمراجعة لدول المجلس.
- جهاز تلفزيون الخليج.

واعتبر المجلس أن هذه الخطوة سوف تتبعها خطوات مع الجمهورية اليمنية بالمشاركة في المجالات الاقتصادية، وغيرها من مجالات التعاون. وعبر عن تطلعه إلى أن يساهم ذلك في تعزيز تطور التنمية والرخاء الاجتماعي، ويعزز الترابط بين الشعوب في دول الجزيرة العربية. ولقد واصل المجلس متابعة الخطوات التي أنجزت في مجال تنفيذ القرار المتضمن توثيق عرى التعاون والتنسيق الأخوي في إطار العمل الجماعي لمجلس التعاون وتعزيز العلاقات مع الجمهورية اليمنية.

وقد جاءت الاتفاقية الموقعة بين مجلس التعاون والجمهورية اليمنية، في أكتوبر 2002، والتي بموجبها انضم اليمن إلى المؤسسات المشار إليها، لترسي عرى التعاون بين الجانبين، من خلال تشكيل مجموعة عمل تتولى اقتراح الخطوات الملائمة لانضمام اليمن إلى مؤسسات المجلس ومنظماته المتخصصة، حيث يجري الآن استكمال إجراءات انضمام اليمن إلى منظمة الخليج للاستشارات الصناعية، وهيئة التقييس لدول المجلس.

وقد تكثفت الاتصالات مؤخراً بين الجانبين لتعزيز فرص التعاون ضمن برامج عملية محددة، وترجمة ما تم الاتفاق عليه إلى واقع ملموس عن طريق مؤتمر المانحين الذي عقد في لندن في شهر نوفمبر 2006، ومؤتمر استكشاف فرص الاستثمار في اليمن الذي عقد يومي 22 و 23 إبريل 2007 في صنعاء، ودعم صناديق التنمية في دول المجلس لمشاريع البنية التحتية في الجمهورية اليمنية. وقد بلغت تعهدات دول المجلس المباشرة وغير المباشرة، من خلال البنك الإسلامي والصندوق العربي للإنماء الاقتصادي والاجتماعي وصندوق أوبك، لتمويل البرنامج الاستثماري لليمن للفترة 2007/2010، أكثر من 3،7 مليار دولار، أي حوالي 74 % من إجمالي التعهدات التي قدمتها الدول المشاركة في مؤتمر المانحين، حيث شاركت في هذا المؤتمر 25 دولة و15 منظمة قدمت تعهدات بلغت حوالي 4،7 مليار دولار لتميل البرنامج المذكور آنفاً.

ويأتي ذلك في إطار تعزيز العلاقات المتميزة التي تربط بين دول مجلس التعاون والجمهورية اليمنية، ودفعها إلى مجالات أرحب وأكثر تقدماً، مع إعطاء الأولوية للمجالات الاقتصادية.

التطوير والتحديث في الوطن العربي

أكد المجلس حرصه على الإسراع في خطى التطوير والتحديث في العالم العربي، والجامعة العربية، وأشاد بالنتائج الإيجابية لقمة تونس 2004، التي أسفرت عن إقرار وثيقة العهد والوفاق والتضامن، وتبني وثيقة التطوير والتحديث، مؤكداً على ضرورة أن يكون التطوير والتحديث نابعاً من دول المنطقة، وأن تراعى فيه خصوصيات وظروف كل دولة، من النواحي السياسية والاقتصادية والثقافية والدينية، وأن التدرج في جني

ثمار هذا التطوير والتحديث من شأنه تحسين فرص الاستقرار والأمن والرخاء في المنطقة.

وقد أكد هذا التوجه إعلان المنامة، الصادر عن الدورة الخامسة والعشرين للمجلس الأعلى، التي عقدت في المنامة (ديسمبر 2004)، والذي أشار إلى أن دول المجلس تعمل على مواصلة التحديث الشامل لمواكبة العصر ومتطلباته الحضارية في إطار استراتيجية منسجمة مع البرامج الطموحة بما يحقق آمال وتطلعات دول المجلس وشعوبها. وجدد الإعلان تأكيد اليقين الراسخ بأن الجوهر الحقيقي والأصيل للديمقراطية لا يستورد، بل ينبع من الذات الوطنية العميقة.

الحوار مع الدول الصديقة والمجموعات الدولية

يلاحظ المتتبع لمسيرة الحوار الذي يُجريه مجلس التعاون مع الدول والمجموعات الدولية، أن هذا الحوار قد قطع شوطاً لا بأس به، لا سيما الحوار الذي يُجريه مع الاتحاد الأوروبي، وكذلك الحوار الذي يجري على مستوى وزراء الخارجية مع الدول والمجموعات الأخرى على هامش اجتماعات الجمعية العامة للأمم المتحدة في نيويورك في شهر سبتمبر من كل عام.

ومما لا شك فيه أن لهذه اللقاءات المشتركة أهمية قصوى في تعميق علاقات دول مجلس التعاون مع هذه الدول والتجمعات، وتأكيد حضورها في الساحة الدولية. إذ إن هذا الحوار المنتظم يُعمِّق التفاهم المشترك حول القضايا التي تناقش في هيئة الأمم المتحدة ومؤسساتها المختلفة، حيث يتم اتخاذ وتبني أهم القرارات الدولية، التي تؤثر في مسيرة الشعوب والأمم.

ويعتبر هذا الحوار مدخلاً ورافداً لا غنى عنه لدعم سياسة دول مجلس التعاون الرامية لنصرة ومساندة القضايا العربية والإسلامية في المحافل الدولية. إن تعميق الحوار والتفاهم مع هذه الدول والتجمعات، في مختلف المجالات، السياسية والاقتصادية والأمنية، يهدف إلى خدمة قضايا دول المجلس، والعالم العربي والإسلامي، والاستفادة من خبرات الدول المتقدمة والأخرى وتعاونها في هذا المجال. ولا شك أن الحوار السياسي مع الاتحاد الأوروبي، يُمثِّل حضوراً فاعلاً في دعم تلك القضايا والأهداف، ويؤكد في الوقت ذاته اهتمام دول المجلس بهموم العالم، وأنها تُشاطر العالم الحر

الكثير من المفاهيم والقيم الحضارية، وأن هناك الكثير من المصالح المشتركة التي يجب المحافظة عليها وأخذها بعين الاعتبار.

ومن خلال الحوار السياسي مع تلك الدول والتجمعات، حاولت دول مجلس التعاون تحقيق الإنجازات التالية:

- الدفاع عن القضايا العربية والإسلامية على الساحة الدولية، مما كان له الأثر الإيجابي في تصحيح العديد من المفاهيم والصور السلبية السائدة عن العالم العربي والقضايا الإسلامية، الأمر الذي أدى إلى تعاطف المجتمع الدولي مع هذه القضايا. ومن ذلك، تأكيد دول المجلس رفض الإساءة إلى الأديان ورموزها كافة.
- وفي مجال مكافحة الإرهاب، حاولت دول المجلس التصدي للهجمة الجائرة التي حاولت الربط بين الإسلام والإرهاب، حيث أكدت أن الإسلام دين يُعارض الإرهاب بكافة صوره وأشكاله.
- فيما يخص القضية الفلسطينية والسلام في الشرق الأوسط، أكدت دول المجلس أهمية إحلال السلام العادل في الشرق الأوسط، استناداً إلى قرارات الشرعية الدولية، لا سيما القرارين 242 و 338 ومبدأ الأرض مقابل السلام، وألقت الضوء على المُمارسات الإسرائيلية العنصرية اللاإنسانية في الأراضي العربية المحتلة، التي تتنافى مع أبسط مبادئ الشرعية الدولية وحقوق الإنسان، كما أكدت حق الشعب الفلسطيني في كفاحه المشروع ضد الاحتلال، ودعت إلى عدم الخلط بين الكفاح المشروع من أجل تقرير المصير والإرهاب.

كما نبهت دول المجلس في حوارها إلى أنه يجب عدم إغفال إرهاب الدولة الذي تمارسه إسرائيل ضد الفلسطينيين، من قتل وتدمير للمنازل، يستهدف المدنيين والرموز الوطنية، وتدمير البنية التحتية للشعب الفلسطيني.

أما بالنسبة لأسلحة الدمار الشامل، فقد أكدت دول المجلس على أهمية جعل منطقة الشرق الأوسط، بما فيها منطقة الخليج العربي، خالية من أسلحة الدمار الشامل، ودعت كافة الدول إلى توقيع وتصديق الاتفاقيات والمعاهدات الدولية، المتعلقة بمنع انتشار أسلحة الدمار الشامل، وإخضاع منشآتها النووية للإشراف الدولي، بما في ذلك إسرائيل، التي تملك أكبر مخزون نووي تدميري في المنطقة.

العلاقات الاقتصادية مع الدول والمجموعات

بهدف إيجاد شروط أفضل وظروف متكافئة في التعامل الاقتصادي الدولي، فلقد نصت الاتفاقية الاقتصادية لعام 2001، على أن تقوم الدول الأعضاء برسم سياساتها وعلاقاتها الاقتصادية بصفة جماعية تجاه الدول والتكتلات والتجمعات الإقليمية الأخرى والهيئات والمنظمات الإقليمية والدولية.

وللوصول إلى هذا الهدف، حددت الاتفاقية عدداً من الوسائل من بينها عقد الاتفاقيات الاقتصادية الجماعية في الحالات التي تتحقق منها منافع مشتركة للدول الأعضاء، والعمل على خلق قوة تفاوضية جماعية لدعم مركز دول المجلس التفاوضي مع الأطراف الأجنبية في مجال استيراد وتصدير منتجاتها الرئيسية.

ومن بين الاتفاقيات التي توصلت إليها دول مجلس التعاون في علاقاتها الاقتصادية مع الدول والمجموعات ما يلي:

- إقامة منطقة تجارة حرة مع لبنان ودول أفتا وسنغافورة.
- التوقيع بالأحرف الأولى على اتفاقية تجارة حرة مع سوريا ونيوزلندا.
- اتفاقيات إطارية للتعاون الاقتصادي مع الاتحاد الأوروبي والصين وباكستان والهند وتركيا والميركسور.
- حوار استراتيجي مع الآسيان وتركيا.

مما تقدم يمكن القول أن قدرة مجلس التعاون في التعامل مع القضايا الإقليمية والدولية، بحكمة وعقلانية، وقدرته على احتواء الأزمات التي مرت بها المنطقة، أكسب مجلس التعاون، كمنظمة دولية فاعلة، مصداقية يمكن الاستناد إليها، مما أدى إلى توسيع مجالات التعاون مع الدول والمنظمات الدولية، وكسب تأييدها للقضايا العربية والإسلامية، وتشجيعها على الدخول في اتفاقات تعاون مشترك يغطي الجوانب الأمنية والسياسية والاقتصادية لما فيه خير شعوب ودول المنطقة.

ويبقى السؤال: مجلس التعاون لدول الخليج العربية إلى أين؟

سادساً: السيناريوهات المحتملة

في محاضرة ألقاها الشيخ فاهم القاسمي الأمين العام لمجلس التعاون لدول

الخليج العربية سابقاً، بمركز الخليج للدراسات بدار «الخليج»، في 7 11- 2010- بعنوان «مجلس التعاون إلى أين؟ طرح سؤالاً فحواه: إلى أين يتجه مجلس التعاون؟ هل يستمر في نفس الاتجاه، وهل سيزيد من تسريع خطوات التكامل أم سيتباطأ؟ وللإجابة على هذا السؤال، ذكّر الشيخ فاهم بالمنتدى الاقتصادي العالمي الذي عقد قبل عامين بالتعاون مع خبراء ومختصين من دول مجلس التعاون ومن الخارج، بعنوان «رؤية لمجلس التعاون حتى عام 2025»، وتمخضت عن هذه الرؤية ثلاثة سيناريوهات، سموها بالواحة، والعاصفة الرملية، والخليج الخصيب، ويصف سيناريو الواحة بأن عدم الاستقرار في المنطقة سيكون هو الهاجس لدول مجلس التعاون، لكن رغم ذلك فإن هذه الدول سوف تستمر في خطوات النمو لديها، وسوف تتكامل ويكون بينها سوق كبير وهو السوق الخليجي المشترك، لكن اندماجها في التجارة العالمية سوف يتباطأ بحكم تعقيدات التجارة والاستثمار الموجودة في قوانينها، ورغم ذلك فإن دول مجلس التعاون ستكون واحة للرخاء في منطقة غير مستقرة.

السيناريو الثاني، العاصفة الرملية: يصف هذا السيناريو أن عامل عدم الاستقرار في المنطقة هو العامل المسيطر، وهذا يشغل دول مجلس التعاون عن الاهتمام في قضايا مصيرية، مثل الإصلاح، البناء الاقتصادي، الخطط التنموية لديها، وسوف يتم التركيز فقط على الاستقرار قصير المدى، بدلاً من التفكير في حلول طويلة المدى. ويصل هذا السيناريو إلى أن تحرك دول المجلس في هذا الإطار، يكون مثلما يتحرك الإنسان، وسط عاصفة رملية، متمنياً بألا يتحقق هذا السيناريو.

السيناريو الثالث، الخليج الخصيب: إذ يرى «المنتدى الاقتصادي العالمي» أن دول مجلس التعاون ستبرز كقاعدة للإبداع والابتكار، وتكون بيئة مستقرة، ويلعب فيها القطاع الخاص والتعليم دوراً كبيراً، ويكون هناك نمو ملحوظ في التجارة البينية، وتكون هناك بيئة متعطشة للطاقة، ويرون أن الاستقرار الإقليمي في المنطقة، سوف يتيح لدول المجلس أن تركز على تطوير الموارد البشرية لديها، وسيكون هناك إصلاحي سياسي واجتماعي... إلخ.

ويرى الشيخ فاهم القاسمي أن هناك «خطوات إيجابية ملموسة على صعيد التعاون والتكامل المشترك، لكن التباطؤ يعود للبيروقراطية المتبعة داخل كل دولة.

الواقع، من الصعب ترجيح أي السيناريوهات الثلاث، وأن الإشكالية الوحيدة هي في البيروقراطية المتبعة داخل كل دولة، فهذا ربما تكون واحدة من الأسباب، حيث تلعب التطورات الداخلية والخارجية دوراً مهماً في تحديد مسار المجلس. ولنا، على سبيل المثال، تجربة في مسار المجلس. فقد فرضت الظروف الإقليمية (الحرب العراقية – الإيرانية 1980 1988-، وغزو الكويت 1990 1991- أن يولي المجلس اهتماماً أكبر للنواحي الأمنية على حساب النواحي الاقتصادية والاجتماعية، بالرغم من أن النظام الأساسي للمجلس ركّز على النواحي الاقتصادية بصورة أساسية. ولكن مما لا شك فيه أن هناك رغبة لدى قادة مجلس التعاون ولدى مواطني دول المجلس بتعزيز مسيرة المجلس، ولكن على دول المجلس تجاوز التحديات التي تواجههم.

سابعاً: التحديات التي تواجه دول المجلس

على الرغم من محاولة مجلس التعاون تحقيق بعض الانجازات، فإن العديد من العقبات والتحديات مازالت تواجه مسيرته. و هي:

1 – التحديات الداخلية 2 – التحديات الإقليمية 3 – التحديات الدولية 4 – تحديات التحولات الاقتصادية الدولية

باختصار، يمكن حصر أهم التحديات التي تواجه دول مجلس التعاون الخليجي بـ:

أولاً: التحديات الداخلية، وتتمثل في:

1 – التمسك بالسيادة القطرية، إن من أكبر العقبات التي تحد من عملية التكامل هي التمسك بالسيادة القطرية التي تعيق تنفيذ القرارات الصادرة عن المجلس وتطبيقها.

2 – الهيكلة والقوانين، إن الاختلاف في التشريعات والقوانين بين دول المجلس تعيق من تنفيذ القرارات الصادرة عن المجلس.

3 – الخلل السكاني، حيث تبلغ نسبة الوافدين في دول المجلس بين حوالي 40 % و80 %.

4 – البطالة وإحلال العمالة المواطنة، تقدر نسبة البطالة في دول المجلس خلال عام 2010 حوالي 10،5 %

5 – ظاهرة الإرهاب.

6 - التحدي الاقتصادي، الاعتماد المفرط على قطاع النفط، الازدواجية في المشاريع الصناعية.

7 - التباين في الثروة بين دول المجلس.

8 - النزاعات الحدودية. ، ولعل من أهم القضايا نزاعات الحدود التي برزت مؤخراً وخاصة بين الإمارات والسعودية. وقضايا النزاع الحدودية ليست محتكرة في هذه المنطقة فقط فهناك الحدود البحرية بين الكويت والسعودية وما تبقى من ملف المنطقة المحايدة البرية وأيضاً اتفاقية الحدود بين سلطنة عمان والمملكة والشريط البري المتصل ببحر العرب وما قيل إنه ضمّن في الاتفاقية للمملكة مقابل التنازل عن مساحة من الربع الخالي لسلطنة عمان ولكن لم تتوضح الأمور بجلاء حتى الآن.

9 - المجتمع المدني والديمقراطية والمشاركة.

10 - دور المرأة.

ثانياً: التحديات الإقليمية: 1 - الوضع في العراق 2 - العلاقة مع إيران ومسألة الأمن الإقليمي والملف النووي الإيراني 3 - العلاقة مع اليمن 4 - عملية السلام العربية - الإسرائيلية. 5 - الوضع في لبنان بعد الحرب الإسرائيلية عليه صيف 2006م 6 - الوضع في السودان والصومال.

ثالثاً: التحديات على الصعيد الدولي، 1 - التطورات في النظام الدولي وتباين الرؤى حول أهميتها 2 - أحداث 11سبتمبر 2001م، وانعكاساتها على دول مجلس التعاون الخليجي 3 - الإرهاب 4 - العولمة.

رابعاً: تحديات التحولات الاقتصادية الدولية، مدى قدرة القوانين والإجراءات الاقتصادية المعمول بها في دول المجلس على التكيف مع التحولات الاقتصادية الدولية. الأزمة المالية العالمية.

ثامناً: السبل الممكنة لمواجهة التحديات

رؤية شخصية لتطوير مجلس التعاون لدول الخليج العربية.

المشكلة كما نراها في تحقيق المجلس لأهدافه بصورته الحالية، تتمثل في هيكلية المجلس وصلاحياته، فأهدافه وآماله أكبر من قدراته وصلاحياته ومؤسساته. لذلك

لا بد من تفعيل آلياته وتطوير مؤسساته وضرورة تحويله أولاً من منظمة تعكس سياسة قطرية، إلى منظمة تعكس سياسات فوق قطرية، حتى تتمكن دول المجلس من تنسيق مواقفها ورسم سياساتها وتنفيذها أيضاً. ولا نحتاج بين الفينة والأخرى إلى جولات مساع حميدة - مع التقدير الكبير لمثل هذه المساعي والجولات. أو إلى إحالة النزاعات الحدودية إلى المحاكم الدولية. كذلك تخفف مثل هذه الخطوات الاتحادية من قلق تلك الدول على أمنها الخارجي بسبب محدودية قدراتها كدول منفردة.

ولتدعيم بعض الأساسيات في هيكلة وصلاحيات المجلس نقترح ما يلي:

أولاً: تحويل المجلس من منظمة تعكس سياسات قطرية متنافرة في بعض الأحيان، إلى منظمة تعكس سياسات ما فوق قطرية، وخاصة في عصر يشهد فيه العالم تكتلات دولية كبيرة. ويتطلب ذلك ما يأتي:

1 - إعطاء الأمانة العامة للمجلس صلاحيات أوسع (مزيداً من الأسنان). فقد ظلت صلاحيات الأمانة العامة محدودة للغاية وهي أشبه بسكرتيرية روتينية تنفيذية بحتة. لذلك نرى أنه يفضل إعادة النظر في الفقرة (3) من المادة الخامسة عشرة من النظام الأساسي للمجلس التي تشير إلى أن أهم اختصاصات الأمانة العامة هي: «متابعة تنفيذ قرارات وتوصيات المجلس الأعلى والمجلس الوزاري من قبل الدول الأعضاء». كذلك الفقرة الرابعة من المادة نفسها والتي تشير إلى أن من اختصاصات الأمانة العامة «إعداد التقارير والدراسات التي يطلبها المجلس الأعلى أو المجلس الوزاري».

2 - التصويت بالأغلبية وليس بالإجماع. ولذلك نرى أن من الأفضل إعادة النظر في المادة التاسعة من النظام الأساسي للمجلس «التصويت في المجلس الأعلى»، حيث إن عملية الإجماع تعرقل وتؤخر إقرار وتنفيذ كثير من المسائل المهمة والملحة. ولذلك نقترح أن يكون التصويت في المسائل الموضوعية بأغلبية خمسة أصوات، وفي المسائل الإجرائية بموافقة أربعة.

3 - كما نرى من الأفضل أن تتحول هيئة تسوية المنازعات الحالية إلى هيئة قضائية على غرار السوق الأوروبية لمعالجة القضايا الحدودية مع اعتقادنا، كما أشرنا آنفاً،إلى أن النزاعات الحدودية لا يحلها حلاً دائماً إلاّ نظام اتحادي أو وحدوي، وكذلك

التعاملات التجارية، والمراسيم القانونية أيضاً. وهنا نود التوقف قليلاً لتوضيح مسألة مهمة برأينا ـ وهي أنه قبل إصدار أي قانون أو مرسوم أو تشريع أو قرار من المجلس، يجب أن يعرض أولاً على كل دولة من دول المجلس مسبقاً وإبداء الملاحظات وما يتناسب وقدرتها على التنفيذ، ثم إعادته إلى المجلس لإقراره أو تعديله، بعدها يتم اعتماده من المجلس والالتزام بتنفيذه، وأن ينطبق عليه ما ينطبق على القوانين الداخلية في هذه الدول.

4 - إنشاء لجنة للتخطيط والمشاريع المشتركة لتفادي الازدواجية وكذلك لدراسة مدى جدوى مثل تلك المشاريع.

5 - إنشاء صندوق تمويل مشترك، لتمويل المشاريع المشتركة، ولمساعدة الدول الأقل ثراء في المجلس، وحبذا لو أن قسماً من مدخرات مثل هذا الصندوق ـ فيما لو تم ذلك، خاصة في ظل ارتفاع أسعار النفط ـ تبقى كادخار للظروف الطارئة. (ويبقى النظام الاتحادي الحل الأمثل لهذه المشكلة أيضاً). إن مثل تلك المشاريع، بالإضافة إلى ما تحققه من فوائد تنموية لدول المجلس، قد تساعد في استيعاب نسبة من حجم البطالة التي بدأت تشكل مشكلة خطيرة في بعض دول المجلس والتي وصفها أحد المسؤولين بأنها «قنبلة موقوتة لا يعرف متى تنفجر (حيث بلغت نسبة البطالة في دول المجلس عام 2009 حوالي 8.8 % وارتفعت خلال عام 2010 إلى نسبة 10.5 % بين المواطنين)

6 - تحويل الهيئة الاستشارية الحالية إلى مجلس تمثيلي حقيقي يمارس دوره التشريعي والرقابي على أعمال الأجهزة القيادية والتنفيذية في المجلس. والواقع أن ذلك يرتبط ارتباطاً وثيقاً بمدى تطور المجالس الاستشارية بدول المجلس. وكنا قد اقترحنا في دراسة نشرها عام 1998 مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية. بأبوظبي، ضمن دراسات أخرى، في كتاب بعنوان «قمة أبوظبي: مجلس التعاون لدول الخليج العربية على مشارف القرن الحادي والعشرين» (ص79 - 127)، اقتراحاً لتطوير هذه الهيئة الاستشارية على مراحل ثلاث تبدأ من عام 2001.

7 - تشكيل لجنة مشتركة من الدول الست للتأليف ولتطوير المناهج التعليمية وبخاصة، لتوحيد مادتي التاريخ والتربية الوطنية في المرحلتين الإعدادية والثانوية، نظراً لما تمثله هاتان المادتان من أهمية في التأثير على توجهات الشباب وغرس

القيم الوطنية المشتركة، وتفعيل اللجان التربوية والتعليمية المشتركة لمراجعة المناهج التعليمية والتربوية، دون إغفال أهمية المنظومة القيميّة والخصوصية الثقافية لدول مجلس التعاون الخليجي، وتكثيف الدورات التدريبية؛ الإدارية والتقنية، والبحث بصورة أعمق عن أسباب العنف المسلح وظاهرة الإرهاب وطرق المعالجة الناجعة.

8 - تشكيل مجلس أو لجنة عليا للأمن القومي، مقره في المجلس على مستوى كبار المسؤولين، على مستوى وزراء دفاع وخارجية مثلاً، محاطين بكبار المستشارين، واعتماد بعض مراكز البحوث والدراسات البارزة في دول المجلس كمراكز استشارية، أي أن تكون بمثابة أوردة تغذي اللجنة بالمعلومات والاستشارات أيضاً، على غرار الدول المتقدمة. وتكون بمثابة جهاز إنذار حتى لا تأتي القرارات متأخرة أو بعد فوات الأوان.

إن مثل هذه اللجنة تستطيع تقييم المصالح الحيوية لكل دولة، ويمكنها تفادي التناقضات في المواقف والآراء تجاه القضايا الإقليمية والدولية والداخلية أيضاً. ولتفصيل كل بند من البنود المقترحة الآنفة الذكر، يُفضل إحالته إلى المتخصصين كل في مجاله.

9 - تفعيل المجتمع المدني بصورة أكبر، وذلك بإعطاء مساحة أكبر للحريات العامة، ومؤسسات المجتمع المدني، والفصل بين السلطات الثلاث التشريعية والتنفيذية والقضائية، وإعطاء صلاحيات أكبر للمجالس التشريعية (الشورى، الوطني، الأمة) وأن تكون هذه المجالس منتخبة من قبل الشعب.

10 - تنسيق أكبر في السياسات الخارجية والدفاعية والاقتصادية، وهنا ندعو إلى دراسة جدية لإقامة اتحاد كونفدرالي بين دول المجلس. باعتقادنا أنه لو تحقق ذلك، لكان دور دول المجلس في المسائل الإقليمية والدولية أكثر تفاعلاً وتأثيراً مما هو عليه الآن. ونضرب مثلاً بالنزاع الإماراتي - الإيراني حول الجزر الإماراتية الثلاث طنب الكبرى وطنب الصغرى وأبو موسى فلو كان هذا الحوار بين ممثلين عن اتحاد كونفدرالي وممثلين عن إيران، لربما كان تجاوب إيران أكثر جديّة وربما إيجابياً. فأحد العناصر الأساسية للتفاوض هي توازن القوة. كذلك الأمر ينطبق على المفاوضات التجارية، سواء كان ذلك مع الاتحاد الأوروبي أو مع الولايات المتحدة، أو أي منظمة اقتصادية دولية أو إقليمية أخرى.

كما أنه لا بد من تفعيل مشروع «قوة تدخل سريع» مشتركة مهمتها ردع العدوان على أي دولة من دول المجلس. ولتحقيق ذلك، يجب الارتقاء من «المشاريع الرمزية، كقوة درع الجزيرة» إلى مشاريع قادرة فعلياً على مواجهة التحديات وردع العدوان. ويتطلب ذلك مزيداً من التنسيق والتكامل بين فروع القوات المسلحة لدول مجلس التعاون ووضع الخطط المشتركة، وتحديد المخاطر والتهديدات المحتملة وسبل مواجهتها. وفي هذا السياق، يمكن الاستفادة من التجربة الأوروبية في تشكيل حلف الناتو.

11 - توظيف الثروة النفطية والدخل القومي الهائل وصناديق الثروة السيادية التي تملكها دول الخليج، كقوة «ناعمة» تستطيع أن تعوض إلى حدٍ ما عن النقص الموجود في القوة الصلبة. وهنا نود التأكيد أن النقص في القوة «الصلبة» (القوة العسكرية والتقنية + القوة البشرية) لدول مجلس التعاون مرده إلى أن هذه القوة ما زالت بحاجة إلى تنسيق وتعاون أكبر بكثير مما هي عليه الآن. نعود ونكرر أن اتحاداً فيدرالياً أو كونفدرالياً، يمكن أن يعزّز القوة «الصلبة» لدول المجلس.

ثانياً - على المستوى الإقليمي الخليجي والشرق أوسطي. لا بد من توحيد الرؤى والسياسات ومواقف دول مجلس التعاون الخليجي تجاه محيطها الإقليمي. وفي مسألة أمن الخليج، يفضل العمل على بناء إجراءات ثقة، والعمل على جعل منطقة الخليج والشرق الأوسط خالية من أسلحة الدمار الشامل. والواقع أن مثل هذه الإجراءات تتوقف على سياسات وتوجهات دول الجوار أيضاً. كما يجب العمل على تعزيز وحدة العراق واستقراره وإقامة علاقات حسن جوار معه. وفي مسألة الصراع العربي - الإسرائيلي، توحيد الرؤى والمواقف بين دول المجلس في المحافل الإقليمية والدولية والتنسيق مع الدول العربية والدول الصديقة، في سبيل إيجاد حلٍّ عادل يحفظ للفلسطينين حقهم المشروع في إقامة دولتهم المستقلة وعاصمتها القدس، ويعيد لسوريا ولبنان أراضيهم التي احتلتها إسرائيل عام 1967. ونعود ونكرر مرة أخرى أن اتحاداً فيدرالياً أو حتى كونفدرالياً يعطي دول المجلس قدرة أكبر في أي ترتيبات إقليمية وغير إقليمية أيضاً.

ثالثاً - على المستوى الدولي، إتباع سياسة متوازنة مع كافة القوى الدولية وعدم الاعتماد المفرط على قوة واحدة، مهما كانت عناصر القوة التي تتميز بها، فدروس

التاريخ تفيدنا بأن موازين القوى الدولية قابلة للتغيير بين فترة وفترة من الزمن كما ليس للدول أيضاً صداقات دائمة أو عداوات دائمة، بل مصالح دائمة.

كما ينبغي على دول مجلس التعاون أن توظّف قدراتها الاقتصادية مجتمعة في سبيل تحقيق أهدافها السياسية، واتخاذ مواقف موحدة في حواراتها واتفاقياتها مع التكتلات الاقتصادية الدولية.

وختاماً، يبقى السؤال: مجلس التعاون إلى أين؟ هل يستطيع مجلس التعاون تجاوز هذه التحديات التي ذكرناها من أجل تحقيق ما يصبو إليه قادة ومواطنو دول المجلس لتحقيق الأهداف التي نص عليها نظامه الأساسي؟ تجارب التكتلات الإقليمية والدولية تشير إلى أن البطئ في تطبيق الأهداف يؤدي إلى الاحباط وبالتالي إلى التفكك. والإسراع يؤدي بالمقابل يؤدي إلى الإجهاض لذلك يتوجب السير بخطى ثابتة ومدروسة. فعلى الرغم من قدرة تكيف دول مجلس التعاون الخليجي إلى حد ما مع المتغيرات الدولية والإقليمية والداخلية بأشكال متباينة بين دولة وأخرى من دول المجلس، إلا أن دول المجلس ما زالت تواجه تحديات حقيقية، تتمثل في ضغوط خارجية قوية، ومطالب داخلية متزايدة، تتطلب المزيد من الجهد والتعاون والتنسيق في علاقاتها ومواقفها الخارجية ؛ الدولية والإقليمية، ولتعزيز ذلك – برأينا – أن تسعى دول المجلس جدياً لتحقيق نوع من النظام الفيدرالي، أو الكونفدرالي، ولتطوير سياسي واقتصادي واجتماعي، لمواكبة المتغيرات الدولية والإقليمية والداخلية أيضاً، في زمن يتسم بالسرعة وبتواتر الأحداث، ليكون لدول المجلس دور فاعل في النظام الدولي، ولتحقيق ما يصبو إليه أبناء دول المجلس من استقرار وتقدم ورخاء ■

«مجلس التعاون في أرقام» 2008

المساحة.. 2.7 مليون كيلو متر مربع
عدد السكان.................................... 37.5 مليون نسمة
الكثافة السكانية............................ 14 نسمة لكل كيلو متر مربع
إجمالي الناتج المحلي...................... 1060 مليار دولار
دخل الفرد.. 28281 دولار
إجمالي التجارة الخارجية................... 1034 مليار دولار
الصادرات... 675 مليار دولار
الواردات.. 359 مليار دولار
الاحتياطي النفطي............................ 484 مليار برميل
احتياطي الغاز................................... 40264 مليار متر مكعب

(المرجع: الأمانة العامة لمجلس التعاون لدول الخليج العربية، مركز المعلومات، 2009)

المحاضرة بتاريخ 2010/11/21

المحاضر:

الدكتور عبد الحميد المعيني

أستاذ اللغة العربية في جامعة العلوم الإسلامية العالمية بالأردن

عنوان المحاضرة:

اللوحات الإبداعية في الشعر الجاهلي الرؤية والمنهج

سيرة ذاتية

- عضو هيئة التدريس في العديد من الجامعات من أهمها:
- جامعة العلوم الإسلامية العالمية - جامعة اليرموك - جامعة البلقاء بعمان - جامعة البتراء - جامعة آل البيت
- كلية المعلمين العالية الجامعية - جامعة حاجة تبه بتركيا
- جامعة الملك سعود بأبها وغيرها..
- شارك في العديد من المؤتمرات وأصدر العديد من البحوث والدراسات العلمية.

له العديد من الإصدارات منها:

- شعر بني تميم في العصر الجاهلي
- التميميون، أخبارهم وأشعارهم
- الخليفة عمر بن عبد العزيز والشعر
- شعراء عبد القيس في العصر الجاهلي



اللوحات الإبداعية في الشعر الجاهلي
الرؤية والمنهج

الشعر العربي في العصر الجاهلي شعر جميل أصيل، جاء في تجربة ممتعة، وصنعة فنية جاذبة، وعزف موسيقي جماعي عجيب. وامتاز بحسن نظمه ونظامه، وبجماليات صوره وتصويره، وبعمق فكره وتفكيره.

وسكن هذا الشعر بيئة عربية متشابكة العلاقات والسياقات والدلالات، وتجول على طول امتداد هذه البيئة داخل الجزيرة العربية وخارجها قبل أن تشرق هذه الجزيرة بنور ربها، وتدخل الإسلام تحت قيادة رسولنا محمد بن عبد الله الهاشمي القرشي العربي العظيم.

وندرك أن الشعر الجاهلي ضرورة تاريخية وفنية وحضارية، وهو تراث معرفي متجدد، وكيان معلوماتي متمدد، خاطب العقل والفكر والشعور بلسان عربي مبين، وقدم رؤيته للعالم آنذاك وسجل تاريخ العرب وحضارتهم ومواقفهم وهمومهم واهتماماتهم في موسوعة كبيرة حملت اسم «ديوان الشعر العربي».

والقصيدة العربية صورة متميزة، ورسم بارع ولوحة إبداعية في تقنية عالية الجودة، تشكلت من: المفردة والتركيب والإيقاع والبيان والرؤية، وعناصر أخرى في التفكير والإفهام، وأواصر متعاونة في الصوت واللون والظلال والسرد، وحملت القصيدة كل مستويات التبليغ والخطاب، ومسؤوليات الثقافة والعلم والفن، وكانت الذاكرة الواعية والأجندة الشفافة في تأصيل قيم سيد الحياة الرجل، وفي توثيق الدلالات الجمالية لسيدة الحياة المرأة، وبما يحيط بهما من روائع الطبيعة، وجاذبية المكان، ومنافع الحيوان الأليف كالجمل والحصان أجمل وأطوع حيوانين عند العربي قديماً وحديثاً.

وأنجب هذا العصر عدداً يستعصي على الإحصاء من الشعراء المعروفين والمغمورين، وفي مقدمتهم الشعراء الفحول أصحاب القامات الطويلة في صناعة المعلقات والجمهرات والحماسات والاختيارات والدواوين، وغيرها من المصادر والمظان الشعرية.

وعلينا أن نقرأ هذا الشعرالأثيل، بمشاهده الفنية وبلوحاته الإبداعية قراءة جديدة، توضح الغائب والعميق والداخل وأموراً أخرى في ضوء معطيات جديدة من التلقي والتأويل والدلالات والجماليات والترميز، ومن التحليل والتعليل والتفسير للوصول إلى الأحكام الصائبة والتقديرات الصحيحة، والتأثيرات المرغوب فيها.

إزاء ذلك كله تأتي هذه المحاضرة لتقدم رؤية متعاونة، وتلقي نظرة متطورة تنسجم مع القراءات المعاصرة والتلقي الجديد، تجمع بين التاريخ والفن والجمال وأمور أخرى في ملف واحد، وتشكل من كلها منهجا آخر ينضاف إلى مناهج أخرى تناولت شعر هذا العصر، ويختصر الكثير من المسافات والأبعاد والظواهر المرتبطة بهذا الشعر.

اللوحات الشعرية الإبداعية بهذا المفهوم تحدثت عن وجدان الشاعر والأمة والوطن، وعن عقل الشاعر والأمة والوطن، وعنهما معاً في المجتمع العربي لذاك العصر. فالشاعر كان مفكراً وحكيماً وفناناً ومغنياً وموسيقياً وفارساً وسيداً وغير ذلك، والشعر كان«وما زال» فكراً وفناً وإبداعاً وإحساساً وإطراباً، وغير ذلك، وأكثر من ذلك.

واللوحة الإبداعية مصطلح فني جديد، بدأ عمليات حفره عميقاً ودقيقاً في المنجز البحثي الشعري، وأضحى له فيه وعليه تأثير فاعل وأثر مفعل. فالقصيدة لوحة، والشاعر رسام لوحات، وهو صاحب صنعة، يقدم لمجتمعه فناً بديعاً، في مسؤولية فنية ووسيلة إبداعية تتعامل مع الفضاء الشعري والشاعرية بكفاءة عالية، وبمواصفات تقوم على رؤى ثاقبة في الفهم والإفهام. واللوحة بهذه التسمية مشروع كتاب سيظهر في الأسواق قريباً إن شاء الله، وحديثنا الآن اختزال شديد لفكرة هذا الكتاب، ويقدم لأول مرة.

واللوحة نص شعري فاخر، ومنهج مميز، يقارب مشهد الحياة الجمالي، ويماثل الصورة الفنية البيانية، ويتعاون متقاطعاً مع الرسم والموسيقى وسائر الفنون الأخرى، ويتفاعل متوازياً مع شبكة المعلومات والقدرات والمواقف في حمل الدلالات، وتوصيل الرسائل، والتماس القيم، وطرح الحلول.

وهذا المنهج نظام دقيق، وأسلوب محدد، ونمط يتكرر في التعامل مع موضوعات النص ورؤاه، دون أن يغفل جوانب مهمة في القراءات والتلقي، وبذلك تشكل اللوحة الإبداعية حياة تقدم الحياة في مشاهدها وفناً يشرح ألوان طيفها وجمالياتها، وخطاباً يتناول أعماق النص الشعري.

وطبقاً لهذه الرؤية وهذا التصور فإن اللوحة الشعرية تكون: منهجاً إبداعياً، وصبغاً بلاغياً، ومشهداً جمالياً، واتجاهاً فكرياً، وأسلوباً شعرياً، ونصاً فنياً، وبنية لغوية، وتجربة شعورية، وتقانة عصرية، ونضارة مستمرة، وحياة معشوقة ملونة، تحمل القضايا والرؤى، وتنقل الخطاب والرسائل. وهي من ثَّم ملف كبير من كل ما ذكرنا، يختزن الموضوع والفن في تعامله مع القصيدة، ويتوزع جميع أقسامها وأجزائها، وأحيانا تأتي اللوحة قصيدة كاملة تحدث عن القيم والمهن والهموم والاهتمامات والجماليات وغير ذلك.

وتنهض اللوحة الإبداعية على مقومات وتقنيات أساسية في مقدمتها:

(1) التشبيه التمثيلي الممتد وهو صبغ بلاغي متسع ومركب وخلاق، فيه صنعة الفن، وإصابة الفكر، ودقة البناء. وله أشكال وأدوات متعددة ومنوعة تعتمدها اللوحات في تشكيلاتها وأبنيتها، وهذا التشبيه أهم معالم اللوحة الابداعية.

(2) وإلى جانب هذا التشبيه هناك مقومات أخرى أهمها: العناية بالتفاصيل والجزئيات، ومتابعة عناصر اللون والحركة والصوت، ولمسات مرغوب فيها ومطلوبة في الأضواء والظلال والزوايا، والحرص على المكان والزمان.

(3) ويفرغ الشاعر للوحته يصنعها بمهارة فائقة، ويطيل الوقوف معها بالمراجعة والمعاودة، وبالتهذيب والتثقيف، ويقيمها على القص والسرد

والحكاية، ويوفر لها أمورا أخرى في البنى اللغوية، والموسيقية، والجمالية. ولهذا غدت اللوحة بيانية وممتدة ومركبة ومتخصصة ومتميزة، وكل هذه المقومات والخصوصيات هي التي أكسبت اللوحة الابداعية ألقها وحضورها وتوهجها.

وتعاور على تناول الشعر الجاهلي تحليلاً وتعليلاً وتاريخاً وسياقاً وشؤوناً أخرى مئات الباحثين والدارسين والمؤرخين والنقاد، وقامت دراسات مستفيضة، وبحوث كثيرة، وصدرت أوعية معلومات جمة بمناهج متعددة وبرؤى متباينة في دراسة هذا الشعر. وجرت محاولات في تقسيم الشعر وتصنيفه وتوزيعه من حيث الموضوعات والظواهر والاتجاهات والشعراء.

فقد صنفه بعضهم على أساس الموضوعات والأغراض، وأهمها: المدح والهجاء والرثاء والفخر والغزل والوصف، وهذا التصنيف موجود في كتب كثيرة منها: حماسة أبي تمام الطائي، ونقد الشعر لقدامة بن جعفر البغدادي، والعمدة لابن رشيق القيرواني، والعصر الجاهلي لشوقي ضيف وغيرها.

وقسمه المحدثون تقسيماً زمنياً: الزمن الأول يبدأ بحرب البسوس، والزمن الثاني مع حرب داحس والغبراء، والزمن الثالث أوائل حرب ذي قار، ومقدار كل حرب يزيد على أكثر من أربعين عاماً، وهو ما يمثل قرابة المئة والخمسين عاماً، وهذا المقدار يتفق وتحديد الجاحظ في أن عمر الشعر الجاهلي قبل الإسلام إنما يكون مئة وخمسين ويصل إلى مئتي عام، مع أنه في الواقع أسبق من ذلك بكثير. وجاء هذا التقسيم عند آخرين في مراحل زمنية أخرى:

مرحلة الطبع التلقائية، ومرحلة الصنعة والاحتراف، ومرحلة الجمود والتقليد، وهذه المراحل ليست دقيقة في توزيعها، ويجانبها الصواب غالب الأحيان.

وأخضعه بعضهم للاهتمامات القبلية، ودراسة دواوين القبائل وبيئاتها، وتوزيع الشعراء في مجموعات، والعناية بالمختارات الشعرية. وروي أن أبا عمرو الشيباني جمع ما يزيد على (80) ثمانين ديواناً للقبائل، وذكر الآمدي أكثرمن (60) ستين ديواناً للقبائل العدنانية والقحطانية، وصنف السكري


سلطان بن زايد آل نهيان



(30) ثلاثين ديواناً لتلك القبائل، وقد تمكن الدارسون المحدثون من جمع وتحقيق أكثرهذه الدواوين بعدما ضلت طريقها ولم تصل إلينا.

ودرسه آخرون في مدارس فنية، ومناهج حداثية، ودراسات نصية، وقضايا أدبية ونقدية، وغير ذلك، وكل هذه الدراسات قدمت شيئاً، وغابت عنها أشياء. وغفلت هذه التصنيفات عن شؤون ملحة مهمة منها: المال والوطن والمهن والثقافة والاقتصاد والفن والأمن وغيرها.

ولما كان الأمر كذلك وهو كذلك، فقد رأيت أن أختصر المسافات وأحاول ضم المتباعدات والمتقاربات في رؤية تكون أكثر وضوحاً، وأقرب رحماً للمتلقي، وفي منهج يكون أبين سبيلاً، وأعم فائدة في تناول النص الشعري وقراءته. ورأيت أن أنسق معالم الشعر الجاهلي، وأضعه في محاور ثلاثة:

- محور الرجل
- محور المرأة
- محور الحيوان

محور الرجل

الرجل رقم أول صعب في أرقام الحياة الانسانية، والثقافة العربية للعصرالجاهلي، فهو سيد الحاضرة والبادية، وشيخ القبيلة وزعيمها، وقائد فرسانها، يحمي حقيقتها، ويبني أمجادها. وهو كذلك شاعرها ومنتج خطابها الشعري، ولوحاتها الابداعية بمواصفات عالية الأداء والتميز.

وجاءت لوحات الرجل في موضوعين كبيرين:

الأول – لوحات منظومة القيم والفضائل

الثاني – لوحات ألوان المشاعر والوجدان

في الموضوع الأول أصّل الشعراء لوحات القيم والشمائل للرجل، وذلك بتوظيفهم حيوان الطبيعة وبحارها وأنهارها، حيث كان الرجل هو المشبه والحيوان وغيره هو المشبه به:

فالرجل أسد في قوته وشجاعته وبأسه

وذئب في صبره وتحمله الجوع
ووعل في أمنه وحمايته
وحوت في مهارته وفنه
ونعام في سرعة حركته
وعقاب في شدة انطلاقه
وحمار وحشي في سرعة فراره
وثعبان في خوفه وحذره وتوتره
ونهر في الجود والسخاء والعطاء

فالقوة والشجاعة والبأس والصبر والمهارة والسرعة والحذر والجود والعطاء وغيرها من القيم والفضائل في الرجولة الحقة.

وفي الموضوع الثاني عبر الشعراء عن ألوان مشاعرهم ووجداناتهم، فدموع الرجل الغزيرة تشبه مياه السانية (وهي الدلو الضخمة والناقة التي تخرج هذا الدلو من الآبار لري بساتين النخيل وحدائق الأشجار)

ويأتي الحديث عن هذه الدموع أثناء الرحيل وفراق الأحبة.

وكان الرجل في حزنه وتفجعه على فقيد عزيز عليه يماثل حزن الأم الثكلى ذات المشاعر الدفاقة والجيشان العاطفي عندما تفقد أعزاءها، والغالين عليها .

وإذا كانت لوحة السانية تمثل رمزية الشوق والحنين إلى الأحبة الأحياء، فإن لوحة الأم الثكلى تعبر عن رمزية الحزن والتفجع لفقد الأحبة الأموات. فالدموع والأحزان والآلام تعبر عن المشاعر والأحاسيس عند الرجل في التعامل مع مجتمعه وحياته.

وتأتي لوحات الرجل بديلاً عن الدراسات التي تناولت موضوعات الشعر وأغراضه مثل: المدح والفخر والهجاء والرثاء وغيرها.

محور المرأة

ذهبت لوحات المرأة الإبداعية إلى الحديث عن هندسة الجسد وجمالياته،

وهو موضوع يعالج شؤون المرأة سيدة الحياة الجاهلية، ويتابع فيها اللحظات الجمالية من حيث: رشاقة قوامها، وسحر عيونها، وشهد ثغرها، وشد الانتباه إلى زينتها، وتموجات حركتها وسيرها، ومشاهد أسفارها ورحلاتها.

فالمرأة بقوامـها درة في بهجـــتها وبريقها وألقها

وثغرها عسل في حلاوتــه وعذوبته ومذاقه

وعيونها عيـون الظبيـــة في احورارها وجاذبيتها

وجيدها جيد الظبي في انتصابه وطـــوله

ولونهـــا لون بيضـــة النعـام في شـدة بياضها

وعطرها عطر الرياض الغناء في طيوبها وشذاها الفواح

ورحيلها وأسفارها يماثل رحيل السفن وامتدادها

وهذه اللوحات كانت تندرج في موضوعات الغزل والرحلة والزينة، لكنها الآن تفتح أفق الفضاء النصي، وتكشف عن الغياب والحضور، وأبعاد الحياة والحركة، وميادين المهن الإنسانية، فلوحة العسل مثلاً تحدث عن ثلاثة أمور مهمة هي: النحل والعسل والمشتار«العسال»، وتفصح عن مهنة مرغوب فيها، وسعي مكدود، وعن أفضل الأغذية وأطيبها، وهكذا سائر اللوحات الأخرى.

محور الحيوان

ومضت لوحات الحيوان ممثلة بالإبل «الجمل والناقة» وبالحصان والفرس، وكانت الناقة والحصان أهم حيوانين أليفين عني بهما الإنسان في قلب الصحراء والرمضاء كما ذكرنا.

لقد أبرز الشعراء دور الصراع والصدام والمواجهة من أجل البقاء في شؤون الحياة ومشاهدها عبر البادية وقفارها. وكانت الناقة تثير هذا الصراع في رحلاتها وتجوالها وحركاتها وسرعتها بتوظيف حيوان آخر معها يماثلها في وعي الحركة ووعي الذات، وكانت المواجهة سبيلاً لانتصار الذات على العطش والبطش والجوع والفقر والقبح والإساءة فالناقة رمز الذات، والذات تصبح ذواتاً أخرى من الحيوان والطير في تقنيات الترميز والتأويل.

وتكون الناقة حماراً وحشياً، وأتاناً وحشية في السرعة والفرار، وفي انقاذ الأسرة والمحافظة عليها. فالحمار(ومعه الأتان وصغار الحمر والأتن) يتحدى الجفاف، ويرد الينابيع، ويبدع الإفلات من الصيادين وسهامهم، ويحمي نفسه ومن معه، وكأنما نحن أمام أسرة عربية تواجه الأخطار، وتعاني من قسوة الطبيعة وحيوانها، ومع ذلك تمارس حياتها بكثير من النشاط والحيوية.

وتصبح الناقة ثوراً وحشياً، وبقرة وحشية في الدفاع والمواجهة والثبات والتحدي، فالثور يصاول عن نفسه، ويحمي ذاته، وينتصر على الصيادين، ويصرع كلابهم الضارية في معارك ليست سهلة، تتصبب فيها الدماء، ويفر المهزوم ذليلاً، ويظل المنتصر عزيزاً. والبقرة الوحشية تدافع عن نفسها وعن صغارها، وترد عادية الأخطار عنها وعنهم. الثور يمارس حياته وحيداً ليلاً ونهاراً، وهو بهذا يختلف عن الحمار الذي يعيش حياته مع أتانه وصغاره.

وتمسي الناقة نعاماً في السرعة والعدو والحذر والترقب، فالنعام الظليم يعود إلى أدحيه بشد سريع، وحذر شديد، ويأخذ دوره في المحافظة على البيض وعلى الصغار وصناعة الأجيال القادمة. الظليم الذكر والنعامة الأنثى والصغار يمثلون أسرة سعيدة استقر شأنها بعد زوال الأخطار وانتهاء المتاعب.

وتشكل الناقة سفينة الصحراء في النجاة والوصول إلى بر الأمان، فإذا كانت السفينة تمخر عباب الماء حاملة ما عليها، وتصل إلى محطتها في أمن وسلام، فإن الناقة تقطع رمال الصحراء بما عليها، وتنجو من مخاطر الطريق وتصل إلى مقرها ومستودعها سالمة نشيطة.

وأما الحصان فقد كان:

قطاة في السرعة والنجاة

وعقاباً في مهارة الانطلاق

وذئباً في الصلابة والتحمل

وتمثل لوحة القطا رمزية السرعة اللاهبة، واستخدامها أقصى طاقاتها في الطيران، وورودها على الماء، وتبرز هذه اللوحة صورة الصقر الخطر الداهم للقطا. وفي اللوحات نوعان من القطا: الكدري الأغبر اللون، والجوني

الأسود اللون وهو أكبر من الكدري وأشد سرعة وطيراناً منه، القطاة تنجو من أخطارها بمهارة طيرانها، وكذلك هي الفرس تصل نشيطة قوية بشدة سرعتها.

وتأتي لوحة العقاب كذلك في رمزية السرعة الهائلة مقارنة مع الفرس التي تصب الجري صباً، وتبدو مع العقاب صورة الثعلب أو الذئب، وكلاهما يدخل في مواجهات قاسية مع العقاب.

وتكون لوحة الذئب رمز الصلابة والقوة والتحمل والاحتمال مقارنة مع الحصان، وكلاهما قوي صلب نشيط، يتحمل الجوع ويصبر عليه، ويواصل حياته في مهارة وقوة احتمال.

والشاعر في لوحات الناقة والحصان «الحيوان الأليف»، يوظف «الحيوان الوحشي»، وذلك ليرسم مشاعره وفكره في كل همومه واهتماماته في لوحات محملة بكثير من الدلالات والسياقات، وبغزير من الرموز والتأويلات، وتقدم مادة معلوماتية شيقة، ولا غرو فهذه اللوحات عجيبة مذهلة خارقة لها أسرارها المعلنة والخفية. وجاءت تعليلات قديمة وحديثة في شأن وجود الحيوان بكثافة عالية في القصيدة الجاهلية ومنها:

التفاؤل والأمل، والتفسير الأسطوري، والتفسير الرمزي في الخير والشر، وامتلاك القدرة الهائلة في أنشطة الحيوان، والتعبير عن الذات وانتصاراتها في المواجهات والمصاولات.

وتأتي لوحات الحيوان بديلاً عن موضوعات في وصف الطبيعة، ومظاهرها، وما في الصحراء من أمطار ورياح، وما فيها من شمس حارقة وحياة قاسية، ومشاهد أخرى.

وتظل هذه المحاضرة رؤية ومنهجية قائمة في حد ذاتها على تناول اللوحات الإبداعية ومعالجتها في إطار المحاور الثلاثة، وقد آزرها وعاونها المنهج الاحصائي، وواكبها وتفاعل معها المنهج التكاملي الشمولي بالتحليل والتعليل والتفسير. وهي رؤية حديثة تمتح من جلال التراث والأصالة، ومن إبداع المعاصرة والحداثة.، ولا أعلم أحدا قام بها من قبل، وقدمها في مثل هذا

الجهد من الاستقراء والإحصاء والدراسة.

وقدمنا وطلابنا أبحاثاً ودراسات في مشروع هذه الرؤية، منها على سبيل المثال: النعام والحياة، والقصيدة الفائية للشاعر أوس بن حجر التميمي، ورؤية في قصيدة الشاعر المسيب بن علس، وتشكيل الصورة الشعرية في شعر الأعشى، ولوحات العسل والنحل في الشعر الجاهلي، وغيرها من الأبحاث.

شعراء اللوحات وحجمها وأماكن توهجها

بلغ عدد الشعراء الذين تفرغوا لصناعة هذه اللوحات أكثر من (80) ثمانين شاعرا وشاعرة في مقدمتهم الشعراء الفحول والمشهورين والمحترفين.

وكان عدد اللوحات التي قمنا بجمعها ما يزيد على (250) لوحة ابداعية، وعدد الأبيات الشعرية ما يقرب من (3000) ثلاثة آلاف بيت، وفي قصائد ومطولات زادت على (300)، وبعضها كان يضم أكثر من لوحة شعرية.

ومن حيث حجم اللوحات قبلنا أن تأتي اللوحة في ثلاثة أبيات وما يزيد عليها، بمعنى أننا تركنا اللوحات الجزئية التي تتألف من بيت أو بيتين لأنها لا تفي بمتطلبات ومقومات اللوحة الكثيرة الأبيات في حمولتها الفكرية، وتقنياتها الإبداعية.

وجاء توزيع اللوحات في محاورها على النحو التالي:

بلغت لوحات الرجل (50) خمسين لوحة إبداعية

ولوحات المرأة (80) ثمانين. وما يعادل ثلثي لوحات الرجل.

ولوحات الحيوان (130) مئة وثلاثين، وهو ما يعادل ضعفي عدد لوحات الرجل والمرأة معا.

وأما مكان وجود اللوحات وتوهجها في القصيدة فجاءت كما يلي:

لوحات الرجل في موضوع القصيدة.

لوحات المرأة في مقدمة القصيدة.

لوحات الحيوان في مقدمة القصيدة وبعد لوحات المرأة.

وهناك لوحات كثيرة تكون قصيدة كاملة مثل:

قصيدة الأعشى في الدرة

وقصيدة عامربن سعد الأزدي في العسل

وقصيدة ابن مقبل العجلاني في المهاة

وقصيدة عبيد ابن الأبرص في الحوت

وقصيدة امرىءالقيس السكوني في الأتان الوحشية

وقصيدة قيس الفزاري في الذئب

وقصيدة حميد بن ثور الهلالي في القطا

وقصائد: أوس بن حجر التميمي، والمخبل السعدي التميمي، والشماخ الذبياني، وكعب بن زهير المزني في الحمار الوحشي.

وقصائد: ضابىءبن الحارث البرجمي، وبيهس الغطفاني، والأسود النهشلي، وبشر الأسدي في الثور الوحشي.

ونتناول الآن بالدراسة والتحليل نصاً شعرياً تطبيقاً على تقنيات اللوحة الإبداعية ومقوماتها الفنية، والنص للشاعر المسيب بن علس من شعراء الخليج العربي في الجاهلية.

نظرت إليك بعين جازئة — في ظلّ باردة من السّدر
(3)

كجمانة البحريّ جاء بها — غوّاصها من لجّة البحر
(4)

صلب الفؤاد رئيس أربعة — متخالفي الألوان والنجر
(5)

فتنازعوا حتى إذا اجتمعوا — ألقوا إليه مقالد الأمر
(6)

وغلت بهم سجحاء جارية — تهوي بهم في لجّة البحر
(7)

حتى إذا ما ساء ظنّهم — ومضى بهم شهر إلى شهر
(8)

ألقى مراسيه بتهلكة — ثبتت مراسيها فما تجري
(9)

فانصـــبّ أسقــف رأســه لبد   نزعـت رباعيتـاه للصبــــر
(10)
أشفـى يمـجّ الزيــت ملتمـس   ظمآن ملـتهـب من الفــقر
(11)
قتــلت أباه فقـــال أتبـعه   أو أسـتفيـد رغيبة الدهــر
(12)
نصـف النهار المـــاء غامـره   ورفيقـه بالغـــيب لا يـدري
(13)
فأصــاب مـنيته فجـاء بهــا   صدفيّة كمـضيئـة الجمــر
(14)
يعطـى بهـا ثمـــناً ويـمنعهـا   ويقول صــاحبه ألا تشــري
(15)
وترى الصّراري يسجدون لها   ويضـــمّها بيــديه للنّحــــر
(16)
فتـــــلك شبـه المــالكيّة إذ   طلعت ببهجتها من الخـدر
(17)

رسم المسيب بن علس شاعر قبيلة ربيعة الكبير في العصر الجاهلي لوحة إبداعية، وفر لها مقومات أساسية، وتقنيات فنية، وصنعة شعرية، وانتظم الحديث في هذه اللوحة عن الدرة في (15) خمسة عشر بيتاً.

لقد استحضر الشاعر مباهج حياتية في النضارة والملاحة والبهجة للمرأة بالمقارنة مع الجمانة البحرية – الدرة المتوهجة – وبدأ لوحته بالتشبيه التمثيلي الممتد في البيت الأول «كجمانة البحري جاء بها غواصها»، وعالج التفاصيل والجزئيات في قص ممتع مثير تناول موضوعات وأموراً أهمها ثلاثة:

الشخصية / الغواص

مسرح الأحداث / البحر

المستملح الحياتي / الدرة




فالغواص يقابل المخاطر والمتاعب قبل الرحلة وأثناءها، وفوق البحر وفي أعماقه، ويجد نفسه أمام الخطر الأول الماثل في: قيادة فريق الغوص، وحل الخلاف الذي استيقظ بينهم، وهذا الخطر يتطلب مؤهلات في القوة والمسؤولية والإدارة، فكان الغواص صلباً في رئاسته وقيادته، وحازماً في ادارته، ولذا أمسك بزمام الأمور، وقاد العمل على مسرح الأحداث بكفاءة وقوة، مما جعل فريق الغوص المتجمع من أصول شتى يسلم له القيادة، وينصاع لأوامره وتعليماته، كما في البيتين: الخامس – صلب الفؤاد –والسادس – فتنازعوا –

وتبدأ رحلة الغوص على ظهر سفينة سجحاء طويلة بسرعتها المذهلة (تغلي) في بحر صاخب الأمواج، سحيق الأعماق، وبعد تطواف طويل اهتدى الغواص بحسه وخبرته إلى المغاصة، فأصدر أوامره بالتوقف وإلقاء المراسي، لقد واجه الغواص بكفاءة عالية الخطر الثاني الماثل في: البحر العاصف القاصف، والأمواج الغاضبة الثائرة، والمغاصة المهلكة المنهكة، وذلك كما جاء في الأبيات الثلاثة: السابع – غلت بهم –والثامن – حتى إذا - والتاسع – ألقى مراسيه.

ثم تأتي مرحلة الغوص، فيقذف الغواص بنفسه في سرعة مذهلة، وينصب انصبابا إلى قاع البحر حاملاً معه أدوات الغياصة، ومخزوناً نفسياً مؤلماً يتمثل في أسرته المقهورة التي أحرقها الفقر، وجسده المهزول الذي أنحله الجوع، وصور من البؤس والشقاء والمعاناة.

ويواجه الغواص الخطر الثالث الماثل في وجوده تحت الماء نصف نهار وانقطاعه عن العالم، بقدرته التحملية وشجاعته الذاتية. وذلك في الأبيات الثلاثة:العاشر – فانصب أسقف -، والحادي عشر – أشفى يمج الزيت -، والثالث عشر – نصف النهار.

لقداحترف الغواص مهنة أبيه في الغوص، وسار على منهجه وخطواته في الإصرار على الإبحار، والحصول على رغيبة الدهر - العطاء الكثير والثروة المطلوبة - وهي الدرة، كما يشير البيت الثاني عشر – قتلت أباه -، وفي لحظة التنوير وبؤرة التوقع، وبارقة الأمل، أصاب الغواص منيته وحصل على الدرة،

وجاء بها كمضيئة الجمر، وتحقق له الفوز والنجاح في الوصول اليها، وتبدو هذه اللحظة بارزة في البيت الرابع عشر - فأصاب منيته -.

وفرح الغواص فرحاً عارماً بامتلاكها، في حين أخفق والده، فها هوالابن يأخذها بين يديه في تنازع عاطفي مثير، ويضمها الى صدره محتفظاً بها، يتحسسها ويتفحصها، وهو في أسمى حالات الابتهاج، فلا أحد أقوى على الزهو منه في هذا الموقف، والبحارة من الصراري والملاحين يشاطرونه الفرحة والبهجة، وهم وهو مبهورون بتلك الجمانة في حسنها ونفاستها وتألقها، وقد عبر الشاعر عن هذا الانبهار: عندهم بمفردة يسجدون، وعنده بمفردة ويضمها، وكان لهم وله منها نظرة العاشق المتيم في جو انفعالي توهجت فيه المشاعر والأحاسيس والبيت السادس عشر - وترى الصراري - ينقل هذا التوهج.

وتصبح الجمانة المال والثروة والقيمة في عالم التجارة، والسوق وصفقات البيع والشراء، وبالرغم من إلحاح التجار وإغراءاتهم في أقوالهم: ألا تشري بمعنى ألا تبيع؟، ومبالغات أرباب المال في دفع الثمن، وعروض السوق المغرية، فإن الغواص قرر عدم بيع درته والتخلي عنها، وصمم على الاحتفاظ بها، فقد أصبحت بعض ذاته ونفسه بل كل نفسه وذاته، فإذا باعها فإنما يبيع نفسه، وإذا فرط فيها فهو يفرط بفنه وثروته، ولذا لم ينكسر أمام الإغراءات والمحاولات، وبقي صلباً في حرصه عليها، قوياً في احتفاظه بها، وصار غنى النفس عنده أقوى من غنى المادة. وهذا ما أشار إليه البيت الخامس عشر — يعطى بها ثمناً.

لقد أعطى الشاعر هذه اللوحة من طاقته الفنية، وخبرته الحياتية، وتجربته الشعرية، ما جعلها لوحة نابضة بالحياة، زاخرة بالمشاعر الانسانية الدافئة، ويبدو أنه مفتون بالبحر وعالمه، وبدرره وجمانه وبغواصيه، وقد كانت هذه اللوحة من أقدم اللوحات التي وصفت عالم الغوص واللؤلؤ والبحر، واعتبرت بحق وثيقة شعرية لتاريخ الغوص في الخليج العربي.

واستطاعت لوحة المسيب أن تجعل من المرأة درة الحياة وجمالها وألقها،

فالمرأة مذهلة وخارقة بما تملكه من قوامها الباهر الثر.

وكانت اللوحة من النماذج الفنية المبكرة في الإبداع والتميز، ولعل الشاعر كذلك من أوائل الذين أبدعوا القول في هذا الباب من الشعر.

والقصيدة التي حملت هذه اللوحة الابداعية هي أيضاً درة من دررالشعر الجاهلي، فقد كان الشاعر في قصيدته بحاراً جسوراً في بحر الحياة، وبحاراً ماهراً في بحر اللغة، وبحور الفن العصية، وقدم لنا هذه الرائعة الجمالية ■

المحاضرة بتاريخ 2010/12/5

المحاضر :

د. دينيس جونسون ديفيز

أديب و مترجم بريطاني

عنوان المحاضرة:

كيف درست اللغة العربية؟

سيرة ذاتية

- مترجم بريطاني ولد بكندا سنة 1922 وعاش فترة من طفولته في مصر والسودان. وهو أديب ومترجم من الطراز الموسوعي الرفيع.
- فاز بجائزة الشيخ زايد للكتاب « فرع الشخصية الثقافية» لعام 2007 لمساهمته المتواصلة في إثراء الثقافة العربية.
- اهتم بترجمة أعمال نجيب محفوظ، بداية من العام 1945. كما - ترجم للكاتب السوداني الطيب صالح «موسم الهجرة للشمال» ومجموعة «دُومة وَدْ حامد».
- ترجم ونشر مجلدات لصنع الله إبراهيم، ويحيى الطاهر عبد الله، ومحمد البساطي، وسعيد الكفراوي، ومحمد المخزنجي، ومحمد المر، وبثينة الناصري، ومحمد خضير.
- ترجم أعمال الكاتب الفلسطيني «غسان كنفاني» وترجم مختارات من شعر محمود درويش.
- عمل مع العالم الراحل الدكتور عزالدين إبراهيم، وقاما بترجمة «الأربعين النووية» والأحاديث القدسية وكتاب «الكلم الطيب» لابن تيمية، كما ترجم أجزاءً من «إحياء علوم الدين».
- أهم ما قدمه دنيس لدولة الإمارات إنشاؤه الإذاعة عام 1969، ثم مشاركته في إنشاء تليفزيون دبي في عهد الشيخ راشد بن سعيد حاكم دبي.



كيف درست اللغة العربية؟

كثيراً ما طرح علي السؤال: «ما الذي جعلك تدرس اللغة العربية؟»

مثل معظم القرارات التي نتخذها في حياتنا كان ذلك بمحض الصدفة. بذهابي إلى إنجلترا، بالصدفة أيضاً، وسفري عائداً بمفردي في سن الثانية عشرة من كمبالا (حيث كان أبي يعمل كمحام في أوغندا) بالقطار إلى نيروبي، ثم تغيير القطار إلى قطار آخر والذهاب إلى مدينة ممباسا الساحلية ثم أخذت المركب إلى إنجلترا.

بعد عدة شهور انضم إليّ والداي في إنجلترا وبعدها بقليل كنت أجلس لامتحان القبول «للمدارس العامة الداخلية للصغار». دعوني أتوقف هنا قليلاً وأصف لكم الأمر، بالنسبة لنا نحن المترجمين، هذه الكلمات الأربع «المدارس العامة الداخلية للصغار» تمثل صعوبة كبيرة.

وجدت جو المدرسة مملاً، فالمدرسون كأنهم يتلذذون باستعمالهم العصا كلما استطاعوا، ففي إحدى المرات أمروني بالخروج من الحمام وضُربت بالعصا لأني صببت الكثير من الماء.

وبالنسبة لي كان هناك أمران بشأن المدرسة جعلا حياتي محتملة نوعاً ما وهما قدرتي على لعب لعبتين بمنتهى الرشاقة: إحداهما لعبة كانت تسمى fives (الخمسات)، وأعتقد أنها لعبة مألوفة في أوساط تلاميذ المدارس البريطانية فقط وتلعب حول أربع جدران وتتمثل في ضرب كرة صلبة صغيرة بقفازات اليد، وقد مكنتني موهبتي في هذه اللعبة من تمثيل مدرستنا في منافسات البنين تحت سن السادسة عشرة، مما أتاح لنا الفرصة بين فترة وأخرى للخروج من المدرسة للعب ضد إحدى المدارس.

وأذكر جيداً أنني كنت أمثل المدرسة في هذه اللعبة في صنف الزوجي (الثنائي).

و كان شريكي في (الثنائي) هو بطل المدرسة – وأذكر أن اسمه كان روبر، وكان يبلغ الثامنة عشرة، بينما كنت أنا في الرابعة عشرة.

كان تسليم جوائز الفائزين عند نهاية الفصل الدراسي وقد شعرت بالإحراج عندما نودي علينا نحن الإثنين لتسلم الجائزة من المدير، حيث عندما صعدت رفقة روبر للمنصة عمت المدرسة موجة من الضحك وذلك للاختلاف الكبير بين حجمينا.

أما اللعبة الثانية التي كنت أجيدها فكانت رياضة الاسكواش التي كانت أمي قد عهدت بي إلى مدرب متخصص لتعلمها.

والمشكلة هنا أنه وبخلاف لعبة (الخمسات) لم تكن الاسكواش معترف بها ولم تكن قد نظمت لها منافسات بين المدارس.

وكانت المشكلة هي أنه لم يكن هناك إلا ميدانَين فقط للاسكواش بالمدرسة وكان الطلاب الكبار كثيراً ما يتذمرون من عدم وجود ميدان خالٍ.

وهكذا كانت النتيجة الحتمية أنه تم فرض قانون يمنع أي طالب دون السادسة عشرة من اللعب.

و كان هذا بمثابة كارثة حقيقية لي. وعندما أبلغت أسرتي بالأمر قام أبي – وربما بإيعاز من أمي – بمقابلة مدير المدرسة وقال له إنه ليس من العدل منع ابنه من لعب الاسكواش في الوقت الذي يكون فيه هو من أفضل لاعبي المدرسة.

وقال المدير أن القانون هو القانون وأنه باستطاعتي لعب الاسكواش عندما أبلغ السادسة عشرة.

ويبدو أن والدي أخبر المدير باحتمال نقلي من المدرسة إذا لم يتم عمل استثناء لحالتي.وقد فوجئ المدير بهذا التحدي وقال لوالدي ماذا ستفعل له إذا نقلته لمدرسة أخرى. ورد والدي أن هذا شأن يخصه هو.

وبالطبع لم أصدق أذني عندما علمت بأني سأغادر المدرسة، حيث كان هذا بمثابة المعجزة بالنسبة لي.

دعوني ألفت انتباهكم هنا لشيء من حكمة القرآن التي كثيراً ما وجدتها







صحيحة للغاية قوله تعالى:

﴿وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم﴾.

فقد منعوني من الشيء الوحيد الذي أستمتع به في المدرسة وهو لعب الاسكواش ثم أدى ذلك فجأةً إلى حدوث معجزة: سأتحرر وأنا في الرابعة عشر من الشقاء اليومي بالمدرسة الداخلية.

وهكذا سألني أبي عما أحب أن أقوم به، فوجدتني أجيب «أريد أن أدرس اللغة العربية».

وربما يكون السبب أني قمت بهذا الاختيار بسبب معرفتي السابقة بهذه اللغة.

وفي الحقيقة فإني عندما كنت في الخامسة كنت أعرف العربية أفضل من معرفتي للإنجليزية (فقد أمضيت طفولتي في السودان)، ولكني عندما بلغت الرابعة عشرة كنت قد نسيت كل الكلمات.

لم أكن أعرف إلا القليل عندما اخترت العربية وذلك أنها، شأنها شأن اللاتينية والإغريقية اللتين كنت قد فشلت في دراستهما في المدرسة، لغة كلاسيكية تتميز بكون كلمة «اسم» (Noun) فيها لديها صيغة جمع خاصة بها، كما أن نحوها و قواعدها تتسم بالتعقيد.

ورغم ذلك تخطيت اختبار الدخول للقبول بجامعة كامبردج في سن الخامسة عشر. غير أن والدي أُخبر بأني لن أستطيع الولوج إلى الجامعة وقتها بسبب سني وأن ترتيباً خاصاً سيُعمل لي لألتحق بها في سن السادسة عشر.

وهكذا قضيت عاماً كاملاً معتمداً على نفسي في لندن لحضور دروس بمدرسة الدراسات الشرقية، حيث درست شيئاً من العربية وأيضاً بعض الفارسية.

وفي السنة التالية بدأت الدراسة بكامبردج حيث كان علي أن آخذ العبرية كلغة ثانية إذ أخبروني أنه ما من أحد يستطيع إجادة العربية دون دراسة العبرية.

وبالكاد أكملتُ سنة واحدة وفصلين دراسيين بكامبردج حتى اندلعت الحرب «لتنقذني».

وعثرت مؤخراً على إحدى مذكراتي من أيام كامبردج كنت قد دونت فيها أن الأستاذ العظيم نيكلسون — الذي كنت أتلقى على يده بعض الدروس - قد أوصاني

بعدم الاستمرار في دراسة العربية وأني قررت التحول لقسم الأنثروبولوجيا، رغم أن الله وحده يعلم أي نوع من الوظائف كنت سأشغلها بذلك التخصص! وبعد رسوبي في العبرية بعد السنة الأولى كنت قد أصررت على التحول إلى قسم اللغة الفارسية. وكنت محظوظاً إذ كان لدي صديقان من الهند كانا يجيدان الفارسية وساعداني في دراسة كتب المقرر.

وإضافةً إلى ذلك فإن الفارسية تعتبر أمراً أيسر مقارنةً بالعربية وقد استمتعت كثيراً بأشعارها.وقد سعدت عندما عرفت أني قد اجتزت الجزء الأول من المقرر بدرجة الشرف الثانية بحصولي على المرتبة الأولى في الفارسية والثالثة في العربية.

وكانت هيئة الإذاعة البريطانية قد بدأت بثها العربي قبل فترة وجيزة آنذاك، ويبدو أنهم قد اتصلوا بالجامعة لمعرفة من يدرسون العربية. كان الجواب بالإيجاب فطلبوا مني الذهاب إلى لندن لإجراء مقابلة وظيفية.

وأذكر أنهم أخذوني للأستوديو للاستماع لنشرة أخبار بالعربية لم أفهم منها ولا كلمة واحدة! هل يعقل ذلك كيف تكون إنجلترا بامبراطوريتها الممتدة على معظم العالم العربي بدون متخصصين في اللغة العربية؟ وأذكر أن صديقي ديفيد كووان، الذي ألف كتاباً جمع فيه قواعد اللغة العربية كشف لي أنه أوكلت إليه مهمة إجراء اختبارات للأشخاص الذين كانوا بالخدمة المدنية بالسودان وأنهم لم يجدوا أي شخص يعرف اللغة العربية جيداً.

إذن كيف تعلمت العربية في النهاية؟

عندما قررت هيئة الإذاعة البريطانية توظيفي، كانت الغارات الجوية الألمانية قد بدأت وقد أخلي القسم العربي إلى مكان يسمى «إيفشام» حيث قررت هناك عدم العيش في المسكن الذي خصص لي وآثرت بدل ذلك الانضمام إلى زملائي العرب الذين قرر معظمهم الإقامة في كوخ كبير (من نوع أكواخ «نيسن») به سرير.

ومن الميزات الأخرى لهذا الكوخ قربه من المكاتب والاستديوهات و المطعم.

ولكن الميزة الأهم من وجهة نظري كانت هي أني سأعيش وسط العرب.

هؤلاء العرب تم توظيفهم كلهم من داخل إنجلترا، وبالطبع كانوا يجيدون الإنجليزية إلا أنهم لم يكونوا ليتحدثوا الإنجليزية لمجرد وجود شاب إنجليزي عمره

ثمانية عشر عاماً بينهم.

وفي الحقيقة فقد اندهشوا من هذا الشاب المصمم على تعلم لغتهم.

وهكذا كنت أقضي ساعات في الليل وأنا أراقبهم يلعبون البوكر وأسجل كل الكلمات الجديدة التي استفسر عنها. وقد أقنعوني بضرورة حفظ الكثير من دفاتر الملاحظات.

وقد دونت في إحداها الكلمات الجديدة وفي أخرى الأمثال باللهجات الدارجة، بينما تضم الثالثة مقاطع من الشعر والزجل (وهو شعر عامّي). وبعد وقت وجيز أوكلت إلي مسؤولية فحص كل الترجمات التي ستبث عبر الإذاعة.

وهكذا فأنا أعتبر نفسي قد دخلت ثلاث جامعات مختلفة: مدرسة اللغات الشرقية وجامعة كامبردج وأخيراً وأهمها القسم العربي بهيئة الإذاعة البريطانية ■

المحاضرة بتاريخ 2010/12/26

المحاضر :

عبدالله عبدالرحمن

باحث و إعلامي إماراتي

عنوان المحاضرة:

الغربية.. لمحات من ذاكرة البر والبحر وتراث البيئة والإنسان

سيرة ذاتية

. باحث وإعلامي إماراتي، وهو عضو جمعية الصحفيين في الإمارات، واتحاد الصحفيين العرب، واتحاد الصحفيين الدوليين، واتحاد كتاب وأدباء الإمارات، وجمعية التاريخ والآثار لدول الخليج.

من مؤلفاته:

. سلسلة كتب الإمارات في ذاكرة أبنائها صدرت في 3 أجزاء.

. كتاب نبض الأصالة في روح المسيرة، سنة 1989.

. مدخل للتراث الشعبي في الإمارات (بالمشاركة) عام 2003م

. حاز على جوائز عدة من بينها:

جائزة الكتاب المتميز عن دولة الإمارات العربية المتحدة لعام 1991/90م

. جائزة يوم الراوي عن جهود توثيق التراث الشعبي من دائرة الثقافة والإعلام بالشارقة عام 2003 م.



الغربية.. لمحات من ذاكرة البر والبحر وتراث البيئة والإنسان

بداية أود التعبير عن شرفي الكبير بهذا اللقاء وهذه الفرصة التي منحني إياها المركز الثقافي الإعلامي لسمو الشيخ سلطان بن زايد آل نهيان، ممثل صاحب السمو رئيس الدولة، حفظة الله، للمشاركة في إطار موسمه الثقافي الحافل بالأنشطة والفعاليات القيمة. وفي الحقيقة بقدر ما أنني عاجز عن الشكر والتقدير أجد نفسي في غاية من الحرج والحذر مغموراً بمشاعر التقصير تجاه عالم رحب وعمق غزير وحفاوة غنية مثيرة للشغف البحثي والمعرفي والتوثيقي متمثلة في المنطقة الغربية لإمارة أبوظبي. ومن محاسن الصدف أن يتزامن موضوع هذه المحاضرة مع انطلاق الفعاليات التراثية لمهرجان الظفرة في المنطقة الغربية، وذلك ضمن الاهتمامات المعاصرة الكثيرة المعنية بالتراث وتاريخ المكان في المنطقة الغربية. و هي اهتمامات انطلقت طبعاً من دعوات المغفور له، بإذن الله تعالى، القائد المؤسس الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان طيب الله ثراه، للشباب للارتحال داخل الوطن، وأن يعرفوا هذه الأرض المعطاء ويطلعوا على معالمها برحلات برية وبحرية، ويحفظوا أسماءها ومعالمها. و كانت هذه الدعوات هي منطلق هذه الرحلات التي تمت في أرجاء المنطقة في الفترة ما بين 1992 إلى 1994.

ولأن المنطقة الغربية تمثل 83،8 % من مساحة دولة الإمارات ولأن جغرافيتها تتميز بالشساعة والتنوع حاولنا خلال هذه الرحلات أن نغطي جزءاً كبيراً من هذه المنطقة. المنطقة حظيت كذلك برعاية كريمة من صاحب السمو الشيخ خليفة بن زايد آل نهيان رئيس الدولة، وبمتابعة من الفريق أول سمو الشيخ محمد بن زايد آل نهيان ولي عهد أبوظبي نائب القائد الأعلى للقوات المسلحة، وحظيت

أيضاً باهتمام سمو الشيخ حمدان بن زايد آل نهيان ممثل الحاكم في المنطقة الغربية، وقد تمخض عن هذه الاهتمامات الكثير من المكتشفات والحقائق التي تؤكد أهمية هذه المنطقة. فخلال عهد المغفور له الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، رحمه الله، اكتشف أن هذه المنطقة كانت خلال العصر المايوسيني أي قبل 6 إلى 8 ملايين سنة من الآن كانت أنهاراً ومروجاً خضراء وتعيش فيها أنواع حيوانية عديدة من أفيال و تماسيح و غيرها. وقد دفعت هذه الاكتشافات إلى انعقاد أول مؤتمر عالمي للفقاريات سنة 1995 في جبل الظنة في أبوظبي، ورفع المؤتمر وقتها توصيات هامة بهذا الخصوص. واستمرت اهتمامات الجهات المعنية بهذا العمق التاريخي للمنطقة. فالنتائج كانت مذهلة وتدل على تميز المنطقة، خصوصاً وأن المكتشفات التي توالت عبر السنين كانت فريدة من نوعها. وهناك خطة وضعت قبل السنوات الأربعة الماضية تقضي بتأسيس قاعدة بيانات كاملة لهذه النتائج والمكتشفات. وقد وجه الشيخ نهيان بن مبارك آل نهيان وزير التعليم العالي والبحث العلمي، بتدريس مكتشفات المنطقة وتاريخها وإدراجه في المناهج الدراسية.

نريد في هذا الإطار أن نؤكد كيف بدأ الاستيطان البشري والحياة في المنطقة الغربية، حيث إن الاستقرار في مثل هذه المناطق دائماً ما كان مرتبطاً بالبيئة والمناخ وخاصة الأمطار والمياه. وهذا من ضمن الاهتمامات المعاصرة ومن خلال عمليات المسح الآثاري التي تمت في المناطق الداخلية والساحلية والجزر في الغربية أثمرت النتائج عن مكتشفات مذهلة و بالغة الأهمية في الربط بين التسلسل التاريخي في المنطقة، حيث تبين وجود مكتشفات وآثار تعود إلى العصر الحجري (6000 إلى 7000 سنة)، ثم اكتشفت بعض الآثار التي تعود إلى 3000 سنة قبل الميلاد «العصر البرونزي»، والعصور الإسلامية الحديثة تؤكد كلها حدوث نوع من الاستيطان في هذه المنطقة. والأمر نفسه ينطبق على مكتشفات تعود إلى القرن السادس عشر وحتى القرن الثامن عشر، إذ إن بعض المؤرخين وعلماء الآثار أكدوا بعد دراستهم لهذه المكتشفات أن الاستيطان استمر من القرن السادس عشر إلى القرن الثامن عشر بشكل متواصل في هذه المناطق،

وذلك لوجود نيئة خصبة ومقومات مناسبة للحياة و الاستقرار وخاصة في الجزر.

في هذا السياق التاريخي وردت إشارات جغرافية وتاريخية لمناطق ومواقع كثيرة من المنطقة الغربية في مراجع تاريخية كثيرة ومدونات رحالة مسلمين كثر من بينهم ياقوت الحَمَوي والشريف الإدريسي، وغيرهم. كما أنه في خرائط و مراجع تاريخية أوروبية وردت إشارات كتلك التي دونها الرحالة الإيطالي بالبي سنة 1580 بشأن جزر أبوظبي (مثل دلما، صير بني ياس و غيرها) خلال رحلته إلى بعض جزر الخليج كتاجر للمجوهرات واللؤلؤ. هناك كذلك إشارات وردت في أوائل القرن العشرين دونها الرحالة الإنجليزي لوريمر، مثل منطقة المجن ومنطقة بدع زايد والكثير من المناطق الأخرى والجزر في الغربية. وطبعاً كل هذه المراجع و الكتب التاريخية بحاجة إلى تحقيق و إعادة نظر في بعض ما أشارت إليه.

و كنموذج لبعض الآثار التي شهدت على علاقة الإنسان بالمكان، ما ذُكر بشأن قلعة قديمة جداً من بين قلاع بني ياس وتسمى قلعة «السرة»، وهي تعود إلى حدود القرن 16. كما أن هناك آثار لبيوت عثر عليها في جزر مثل جزيرة دلما و جزيرة غاغا و هي من الجزر التي قمت بتغطيتها خلال رحلات استكشافية أجريتها بالمنطقة، و فوجئنا بوجود آثار بها تثبت بأنها كانت مأهولة في الماضي، لأنها من بين الجزر التي قلما كُتب عنها. وتضم نوعاً خاصاً من البيوت وزخارف ومقابر ومزارع النخيل.

ومن بين الآثار التي عثر عليها كذلك ما يطلق عليه العوانات القديمة أو الواحات التي كانت توجد بمناطق عديدة في الداخل والجزر، كتلك الموجودة على حدود منطقة السلع والمسماة «عوانات معمر». وطبعاً من خلال رحلاتنا التي ركزنا الجزء الأكبر فيها على المنطقة الغربية اكتشفنا أن بوصلة الحل والترحال في كل هذه المناطق تتمثل في الآبار. حيث إن تنقلات البدو غالباً ما ترتبط بالآبار كنقط عبور أو استقرار في تلك المناطق. وأغلب تسميات المناطق ترتبط بأسماء لآبار المياه مثل بدع زايد وبدع المطاوعة و السلع.

ومن بين الإشارات اللافتة التي ذكرت في كتابات رحالة غربيين نجد تلك


الشيخ سلطان بن زايد آل نهيان

التي أرّخها الرحالة البريطاني ويلفريد ثيسيغر الملقب بـ«مبارك بن لندن»، حيث يقول في مدخل كتابه «الرمال العربية»: «تتجمع سحابة ويتساقط المطر فيعيش الناس. وتتبدد الغيوم بلا مطر، فيموت أناس وحيوانات، ففي صحارى جنوب الجزيرة العربية لا يوجد نظام للفصول. فلا صعود ولا هبوط في النسغ، بل قفار خالية حيث تشير الحرارة المتغيرة وحدها إلى مرور السنين. إنها أرض قاسية وجافة، لا تعرف شيئاً عن اللطف أو الراحة، ومع ذلك عاش فيها أناس منذ أقدم العصور. أما الأجيال التي ولت، فقد تركت حجارة سوّدتها النار في مواقع الخيام، كما تركت بعض الآثار الواهنة للأقدام المطبوعة على سهول الحصباء. وفي أماكن أخرى، مسحت الرياح آثار أقدامهم. يعيش الناس هناك لأنه العالم الذي ولدوا فيه، والحياة التي يعيشونها هي الحياة التي عاشها أسلافهم من قبلهم. فهم يتقبلون المشقات والحرمان ولا يعرفون سبيلاً آخر.» وأورد ثيسيغر إشارات عديدة لمناطق بأبوظبي منها على سبيل المثال منطقة ليوا.

وهنا أتوقف لأعطي فكرة عن المناطق التي غطتها الرحلات التي قمنا بها في الغربية استجابة لدعوات المغفور له بإذن الله، الشيخ زايد، للشباب للارتحال والقيام برحلات استكشاف معرفية في ربوع الوطن. وأود أن أشير هنا إلى أن الرحلات التي أجريناها هي في طبيعتها رحلات صحفية توثيقية، وركزتُ فيها أساساً على ذاكرة المكان من خلال آثار الإنسان والبيئة وغير ذلك. إذن هناك جانب جغرافي و جانب مناخي ومعماري إضافة إلى عدة جوانب أخرى لهذه الرحلات.

كما أود أن ألفت إلى الحفاوة وحسن الضيافة والترحاب الذي كنا نلقاه بين أبناء تلك المناطق. وكانوا يوفرون لنا المواصلات مثلاً عند تعذر الاستمرار بالسيارات، وهذه من طباع أهالي هذه المناطق كباقي مناطق الإمارات. كما أنهم يتميزون بكونهم خبراء ببيئتهم و إجادتهم التعامل مع كل شيء مرتبط بحياتهم وبيئتهم ويستفيدون إلى أبعد الحدود من معطيات هذه البيئة (الشمس، القمر، النجوم، الرمل، الظل، الطرق والدروب). هذه الخبرة والثقافة مكنتهم من تحدي قسوة الطبيعة في هذه المناطق.

كما أن هذه الرحلات حاولت كذلك تغطية ملامح من العمق التاريخي للمنطقة الغربية، الإطار الجغرافي، خصوصيات المنطقة البيئية، تاريخ علاقة الإنسان بالمكان وآثاره، تنقلات السكان بالمنطقة، متغيرات الحياة والحركة عبر المواسم، ذكريات وتراث ومأثورات مجتمع الماضي و ثقافته الشعبية، رؤوس بحرية وجزر، بيئة الأعماق حول الجزر، فضلاً عن محاور أخرى عديدة. وشملت هذه الرحلات بعض المناطق الصحراوية النموذجية وكان تركيزنا مثلاً على منطقة بدع زايد وتحديداً إلى مرحلة بدايات التنمية. وهي أولى المناطق التي وصلتها التنمية ثم تلتها مناطق أخرى.

ثم انتقلنا إلى السهل الساحلي الغربي وهو من ناحية السلع القديمة والمركز الحدودي. وركزنا على تفاصيل وذكريات عن بدايات هذا المركز الحدودي و كذلك عن المرحلة التي سبقت وجوده. ثم طبعاً بيئة المكان و كيفية الحياة وتفاصيل عن معاني الأسماء في منطقة السلع وبعيا والغويفات، هذه مناطق بدو قديمة، ثم الرؤوس البحرية مثل الرميس والغويفات وغابة شبهانة (أكبر شجرة غار معمرة في المنطقة). وقد أنجزنا توثيقاً تلفزيونياً للمنطقة. وقد زار الشيخ زايد، رحمه الله، المنطقة التي توجد فيها هذه الشجرة وزارها مؤخراً سمو الشيخ حمدان وأمر بتنفيذ مشاريع إضافية لتطوير هذه الغابة والمنطقة ومناطق السلع.

وللرؤوس البحرية في تلك المنطقة مسميات وحكايات بالإضافة إلى الخيران الموجودة بها. ثم اطلعنا على جزيرة غاغا والجزر التي توجد في الطريق المؤدية إلى غاغا. بعض الجزر الأخرى كجزيرة أم الحطط قضينا فيها أيام خلال رحلات الغوص، وجزيرة هيرات وجزيرة دلما التي شملتها تغطية واسعة. واسوقفتنا مشاهد عجيبة في هذه المناطق. كما تمت التغطية من خلال تواجدنا هناك في رحلات الغوص الحديثة رفقة فوزي المحيربي «رئيس جمعية الإمارات للغوص». وقد أنجزت فيلماً لقناة أبوظبي حول نفس هذه المواقع والمغاصات فاز في المهرجان التلفزيوني لعام 1986. وهذه الرحلة في جزيرة هيرات هي حالياً مشروع كتاب حول الجزيرة وأعماق المغاصات، حيث لدينا صور كثيرة عن عالم الغوص اللؤلؤ وكل ذلك مرتبط بالمنطقة الغربية.

ومن هذا المنطلق تبرز أهمية تكثيف جهود التوثيق وخاصة بالاعتماد على المُعمّرين و الذين عاصروا الماضي. صحيح الأجيال تناقلت نسبة كبيرة من المعلومات وما زالت الذاكرة تحتفظ نسبياً بها عند الأبناء والجيل الجديد. لكننا بدأنا نفقد المعمرين الذين عاشوا وعاينوا وصنعوا هذا التاريخ. وعليه فإن مشروع التوثيق بالمنطقة الغربية بات بحاجة إلى جهود كبيرة.

في هذا السياق التراثي نجد مصطلحات فريدة تعبر عن ثقافة الإنسان. فمثلاً يقول أحد الرواة عن حياة البادية: «كنا نسكن الظفرة في خيام نصنعها من الشعر أو في عِشش من سعف النخيل. ومن النخيل كان الأطفال والنساء يتغذون على الرطب كوجبة رئيسية في فصل الصيف والقيظ حيث يغيب فيها الرجال للرحلات البحرية والغوص. ويستفيدون أيضاً من السمك المالح الذي كنا نأتي به من جزيرة أبو الأبيض والغبة والصراحة والغانمة على ظهور الجمال وبكميات كبيرة تصل إلى خمس أو ستة آلاف سمكة مملحة. أما الأرز فقد كان يتوفر منه كيس واحد في البيت طوال السنة الواحدة. وغالباً ما كان الأطفال يتولون عملية نقل المياه من ليوا إلى أبو ظبي على ظهور الجمال بينما الرجال في الغوص. لكن الحياة في البر تنبت بعد عودة الرجال من مجاهل البحر وأعماقه. ليس استغناء عن معطياته التي كانت المعيشة معتمدة عليها بل هجرة للبرد والأمطار والعواصف التي كانت تشهدها فصول البرد والشتاء. حياة البادية كانت تبدأ في هذا الفصل. إذ فيه نستنشقها ونتنفسها بين أحضان الطبيعة بعد أن كانت مكتومة في أعماق البحار. وفي فصل الشتاء كنا نشد الرحال على ظهور الركَاب (الجمال) ونجوب البراري والصحاري الشاسعة الممتدة من الخط الشرقي باتجاه دبي إلى الخط الغربي باتجاه قطر والسعودية مروراً بمَحاضر ليوا كالظفرة والحمرا وبينونة والعقبة والبطين وغيرها. وفي تلك البقاع كنا ننقل ونتبع الحياة بمياهها وعشبها والراحة والاستجمام والحياة البرية الأليفة المأكولة كالأرانب والظباء وكذلك الطيور. وكان الترحال يتم عادة في مجموعات تضم من خمس إلى خمسة عشرة عائلة وممتلكاتها من البوش والأغنام والخراف. وكانت منطقة الحير على الحدود القطرية هي الاتجاه الأول

في الغالب إذ إن براري الحير كانت تتميز بالأراضي الطينية وليست الرملية ولذلك فإنها بعد هطول الأمطار عليها بأيام سرعان ما تنبت بعد بعكس محاضر ليوا الرملية السطح التي كان النبات يتأخر فيها إلى فترات تصل لشهرين بعد هطول الأمطار عليها وتستمر إلى ما قبل بداية الصيف. إلى الحير إذاً كنا نتجه في رحلات كانت تستغرق 15 يوماً سيراً على الأقدام وأحياناً على ظهور الجمال وهي محملة بالزاد الكافي لتموين الرحلة التي تمتد إلى ثلاثة أشهر أو أكثر في تلك البقاع البعيدة. والتحرك في مسيرة الرحلة غالباً ما يبدأ مع آذان الفجر لغاية فترة الظهيرة، ثم نرتاح في الطريق ونتناول الغداء ثم نواصل حتى آذان المغرب ونبيت الليل، ثم ننطلق في فجر اليوم التالي وهكذا. وحين نصل هناك، حيث الأعشاب الخضراء تكسو مساحات شاسعة من الصحراء، ومياه الأمطار العذبة في انتظارنا، والنسمات العليلة، وتغاريد العصافير تخترق هدوء الفضاء بين حين وآخر، وغيوم السماء تظلل المكان فتبرك قوافل الجمال بمجرد أن ينزل عن ظهورها الحمل، نطلق عنانها لتسرح مع الأغنام والخرفان وترعى بحرية تامة فننصب خيامنا ثم نستلقي وسط تلك الطبيعة الخلابة ونستنشق عبيرها ثم ننظر إلى السماء بعيون شاكرة لربها الذي يمن على عبده بَعد العسر يسرا. في تلك البراري لم نكن نستقر في بقعة واحدة بل كنا في كل أسبوع نرحل من بقعة الى أخرى ونمارس هواية سباق الهجن بين حين وآخر. وكنا نحيي الفنون الشعبية كـ«العيالة» وغيرها، كما أن حفلات الزفاف كثيرا ما كانت تتم هناك في البراري. وفي هذه المناسبة كان العريس يضطر إلى توفير كافة احتياجات حفلة زفافه من أقرب سوق له. وحيث أن أبوظبي بعيدة عن حير - مسافة شهرين ذهابا وعودة - فإن عملية التزود بالمواد الغذائية اللازمة كالمشروبات والشاي والقهوة وغيرها كانت عادة ما تتم في الأسواق القطرية الأقرب. ولم تكن رحلاتنا وتنقلاتنا تقتصر على براري وبقاع الحير القطرية بل إننا كنا نهجرها بعد شهرين أو ثلاثة إلى القرايف أو اليافورة على الحدود السعودية حيث الرمال هناك تنبت أعشابا جديدة. وكانت الرحلة من حير إلى السعودية تستغرق من ستة إلى سبعة أيام. و بعد استقرارنا في تلك البقاع بأيام كنا نترك الأطفال والنساء و ننزل

نحن الرجال على مجموعات من خمسة إلى ستة مطايا إلى المدن السعودية و أسواقها لنَتنيَّر، أي نتزود بالتمور والأرز، ونحملها على ظهور مطايانا ونعود لنحتفظ بها كتموين لعدة شهور لرحلاتنا البرية. ذلك أننا بعد أن نقضي قرابة أربعة أشهر من التنقل و الترحال، نشد الرحال تجاه محاضر ليوا التي تكون قد اكتست براريها بالأعشاب وتوفرت فيها المياه. ومن أجل الأعشاب البرية، والمياه، والجو اللطيف كانت الحيوانات البرية تغادر جحورها وتخرج بحثاً عن الغذاء والماء والنور والهواء النقي، لهذا فقد كنا لها بالمرصاد بواسطة كلاب الصيد المدربة و«الحبايل» وهي المصايد الاصطناعية الحديدية، وأيضاً الطيور المدربة للصيد والبنادق. وكانت الأرانب أكثر أنواع الحيوانات انتشاراً في البراري، وكنا نجد على الشجرة الواحدة من إثنتين إلى ثلاثة أرانب متسلقة. وخلال ساعتين نخصصها للقنص بالكلاب المدربة، كنا نصيد من 10إلى 15 أرنباً. كما أن الطير الواحد قد يأتي له في نفس الفترة الزمنية من أربعة إلى خمسة أرانب. البعض أيضاً كان يصطاد بواسطة العصا أرنباً أو اثنتين. لكن الكلاب كانت أكثر وسائل الصيد استخداماً وكانت كل عائلة تمتلك كلباً أو اثنين على الأقل، و كثيراً من هذه الكلاب كان يتم استيرادها من قطر أو البحرين وتُدرب محلياً. وأعتقد أنه في عام 1961 -على حد تعبير الراوي - شنت دوريات الشرطة حملة إبادة شاملة بالرصاص على الكلاب. إلى جانب الأرانب التي كانت «الودام» (أي الغذاء الرئيسي من اللحم)، كنا أيضاً نصيد الكروان والحبارى بواسطة الطيور التي كانت أقل الوسائل استخداماً مقارنة بما هي عليه اليوم ومقارنة بالاعتماد على الكلاب بالأمس، وأيضا بالحبايل التي كان الفرد منا ينصب منها أربعة على الأقل في كل صباح ليصطاد بها أرنبين أو ثلاث في عصر ذلك اليوم. وفي محاضر ليوا لم نكن نستقر في بقعة ثابتة واحدة بل كنا رحالة من موقع لآخر ما بين الحمرا وبينونة وغيرها، حتى يحل فصل الصيف. و مع بداية الصيف تنتهي مواسم اليسر في البر فنعود إلى الظفرة لتستقر فيها عائلاتنا أشهر الصيف والقيظ بجانب زرع النخيل التي كانت بعكس عمومية واشتراكية معطيات البراري التي كانت متوفرة للعامة في حين أن النخيل كانت ممتلكات خاصة.

وإلى البحر، المصدر الرئيسي للدخل، كان الرجال لا يجدون بديلاً عنه سوى رأس مال بسيط من الحيوانات و خاصة أيضاً الجمال والنياق التي كان الإنسان يضطر أحياناً لبيع بعضاً منها عند الحاجة الماسة للسيولة وما أكثر حالاتها في تلك الأيام. وقبل الخروج من رحلات الغوص كان النواخذة يوفرون لنا سلفاً مقابل الخروج والعمل معهم بالأرز والقهوة وبعض الضروريات المعيشية التي كانت متاحة في ذلك الزمان. وبعد قضائنا لشهور من الراحة والألفة والإستمتاع مع أهالينا وأقاربنا في رحلات برية مطولة كنا خلالها نستيقظ كل صباح نسرح و نمرح و نرجع في الظهيرة لنأكل التمر و نشرب القهوة وبعد ذلك نتناول الغذاء الذي يشتمل على الأرز ولحم الأرانب وأوراق شجرة الأرطة التي كنا نستخدمها كسلطة، ونشرب اللبن الحامض اللذيذ، ثم «نتسدح» أي نستلقي في عشش وخيام تخترقها نسمات عليلة تهب علينا من الشمال والجنوب. وعصراً ننزل إلى عيون المياه لنسقي جمالنا ونسبح. ولم تكن في رحلاتنا لا تجارة ولا سوق، حيث كل الزاد كان بحوزتنا.

وبعد تلك الحياة البرية الممتعة تبدأ رحلتنا إلى المجهول في مجال البحار وأعماقها. ومن محاضر ليوا تخرج قوافل الجمال وعلى ظهورها رجال البادية تاركين أطفالهم ونساءهم وديارهم خلفهم باتجاه الساحل في أبوظبي حيث تنتظرهم سفن الغوص. وبعد سفرهم يعود الجمالون بقوافلهم إلى الديار في محاضر ليوا خلال رحلة تستغرق شهراً ذهاباً وإياباً من ليوا إلى أبوظبي وبالعكس.» وكان الجمالون ينقلون الناس ما بين مرفأ مغرق إلى ليوا، ومن بينهم الشاعر عتيج الهاملي الذي اشتغل في هذه المهنة وله أبيات شعر في هذا الجانب. وهناك مجموعة من المواضيع المستقلة التي تم توثيقها عن مثل هذه الرحلات والاصطياف وأيضاً عن ميناء مغرق، وكذلك عن عملية الارتحال من أبو ظبي بحراً إلى ميناء المغرّق أو المرفأ أو مغيرة و منها إلى ليوا في فصل الصيف.

ويستطرد الراوي: «أنا مثل غيري من رجال البدو، قضيت 25 سنة في الغوص» مما يعني أن أبناء البادية كانوا يعملون في الغوص في مواسم الصيف. هذا المقطع يعطينا فكرة عن كيف كانت تتم الرحلات البرية والحياة في البر في مختلف المواسم



في هذا السياق أيضاً يمكن أن نشير إلى بعض المصطلحات الخاصة بمجال الارتحال وكيف كان الإنسان يعتمد على النجوم والقمر والشمس لمعرفة اتجاه القبلة وفي التحركات، وهناك مصطلحات مأثورة تستحق الرصد والتوثيق. وهناك مادة خام هامة متاحة الآن حول هذه الرحلات تعطي مؤشرات للباحثين وتستحق الرصد والكشف لاستخراج محاور كثيرة للتوثيق والتطوير.

أيضاً عن ذكريات الترحال بين موارد المياه قمت بوضع خارطة لتنقلات البادية تشمل مواقع آبار المياه في صحاري المنطقة الغربية، وحاولت القيام بجولة على هذه الخارطة مع المعمرين وأبناء المنطقة للحديث عن ذكريات الحل والترحال في هذه المناطق. وعلى سبيل المثال خلال جولتنا في أرض المجن، وهي المناطق التي تضم السلع و بعيا والغويفات و رأس غميص غيرها، تعرفنا عبر الرؤية والرواية على العديد من المناطق فيها ونقلنا ملامح مثيرة عنها وبإيجاز فإنه سرعان ما انبعثت من أغوار الماضي وأعماق البحر وآفاق البر صدى الذاكرة الشعبية الحاضرة في المكان والزمان، ترافقها سمفونية موسيقية منبعثة من تعانق حركة الطبيعة النابعة بدورة المد والجزر على السواحل الناعمة المتعانقة مع تغاريد أصوات الطيور البرية والبحرية المستقرة منها والمهاجرة. أما الكلمات فقد كانت تردد منشدة الأبيات التالية:

ياغميص مثل الشيخ في الحكام ماهمته غاغا وراس عصام

و بعد بحث مستفيض في هذه المعاني وجدنا أن غميص هي شبه جزيرة محدودة المساحة لا تبدو عليها آثار كثيرة ملموسة اليوم عن استقرار بشري أو تواصل واضح مقارنة بغاغا، الجزيرة التي تعتبر بمثابة مزرعة آثار ومأثورات في الماضي. كما أن راس عصام جزيرة صغيرة عند البوابة الشمالية لجزر الياسات الكبيرة، وفي هذا السياق سنحاول الإجابة التفصيلية خلال رحلاتنا التي شملت تلك المواقع والجزر البحرية. لكن سمفونية الطبيعة ما زالت تعزف أجمل ألحانها خاصة في مواسم التكاثر والدفء الشتوي والمستقطب للطيور المهاجرة إلى هذه السواحل الساكنة الآمنة والمغذية. وكذلك الرؤوس والجزر البحرية. ومع التغير الناعم لأنغام تلك السمفونيات بين مواسم الهجرة والاستقرار أو المد الهادر

والجزر الساكن، نسمع أنشودة الذاكرة تقول:

يا غميص ما تبغاك غاغا عليك زعلانة من سنين

لو نسوق لها بطاقة من الشكر حمال بومَنين

وبالرغم من صدى السنين زمناً و مصطلحاً في أبيات غاغا الموجهة لغميص إلا أن نعومة العتاب ورقة الخطاب من ناحية والخوض في تفاصيل الماضي القريب في العلاقة بين هذين الحبيبين كما ترسمها لنا مخيلة الوالد المعمر (مهنا الكبيسي)، وهو من الملمين الكبار بذكريات ماضي هذه المناطق. هذان العاملان وصور وروايات أخرى كثيرة يكشفان لنا أن الزعل المعني شبه دلع وولع محبين، لكن العجيب في القول هو الإشارة الرمزية لغميص كمصدر تزويد لغاغا بهذا النوع من المواد الغذائية كالسكر، بينما العكس هو الصحيح، لاشتهار المحلات التجارية المركزية لمختلف هذه النوعية من المواد كانت على ضفاف جزيرة غاغا لخدمة المستقرين والعابرين. والأمر لا يعني انعدام المنتجات المُصدّرة من غميص، بل كما سيتضح لنا لاحقاً أن غميص كانت مركز التقاء أهل البر بأهل البحر ومقر التواصل والتبادل والمقايضات التجارية فيما بينهم، ناهيك عن عالم الصيد والأسماك في راس الحضرة وغيرها، وهل تنسى غاغا أم بريد مراعي غميص الموسمية السنوية؟ وهكذا فإن الأرض كلها خيرات لا غنى للإنسان عنها وعن معطيات الخصوصية الطبيعية لأي شبر منها في حله وترحاله عبر المواسم والزمان والمكان والأجيال. وعلى المثال نعود إلى السكون والإصغاء لصوت الذاكرة القائل:

عين السمك في غاغا وعين اللـبن في الياس

وعين العطر في دلما شـي بغير قياس

وإذا كان الشاعر قد استعمل العين في أبياته لوصف مناطق كثيرة للأسماك واللبن والعطر في كل من غاغا والياس ودلما، فإن مصطلح عين السمك الذي كان يطلقه القدماء على اللؤلؤ سرعان ما يلفت انتباهنا إلى المئات من المغاصات البحرية المنتشرة في الأعماق البحرية حول هذه الجزر وقد كانت مصدر الرزق الأساسي لأبناء المنطقة منذ زمن بعيد وحتى الأمس القريب.

وفي غميص كما في غيرها من المواقع البرية والبحرية، وخاصة تلك التي تخلدها الذاكرة والمأثورات بالأسماء الشعبية المتواثرة، تتجلى للتأمل والبحث ظاهرة مثيرة تشير إلى أن كل مكان له حكاية، وهي حكاية حضور فعال في ماضي وحاضر ومستقبل حركة الزمن والأجيال. ولكن أبطال الحكاية على الدوام في البحر والبر متعددون، بدءاً من الإنسان مروراً بالحياة الموسمية الخصبة وكذلك المرحلة التاريخية وظروفها الاقتصادية وانتهاءً بالمأثورات من الخبرات والعلوم والفنون الإنسانية.

لعلنا نلاحظ هذه الظاهرة عبر تصفحنا المتأمل لتفاصيل اللوحات الجغرافية الطبيعية والحياة الفطرية للبيئة ومتغيراتها الموسمية أو بمعطياتها الجوفية المتفاوتة نسبياً في المكان والزمان والكم والكيف، ثم يكون الأمر كذلك، بل وأكثر وضوحاً، عند تتبع حركة بطولة الحكاية في تلك اللوحات التي حاولت هذه الرحلات تجسيدها بالكلمة والصورة منذ انطلاقتها الأولى من الغويفات عابرة إلى الوجاجة ثم إلى مشاش بوضريس النائية وهكذا إلى سيوح السلع فالسلع القديمة والحديثة، و بعدها إلى بعيا عصرية الحافلة ثم إلى سواحل بعيا وميناثها. حاولنا تغطية كافة هذه المناطق وصولاً إلى ميناء بعية الإنتاجي للصيادين وشجرة شبهانة التي تحولت اليوم إلى غابة خضراء فسيحة في قلب صحراء أرض المجن.

إذن مادامت حكاية الحضور الفعال للبر والبحر والإنسان والحياة والزمان تملأ كل شبر من أرجاء الوطن، فإننا هنا في مواجهة لوحات بديعة تعكس صوراً من تلك الحكايات وإليها تجذبنا هذه الألسنة والرؤوس والأشرطة والمعالم البيئية الساحلية البحرية وبواطنها الداخلية البرية. وهي بعد أن ترسم لنا تفاصيل التفاعلات المتكاملة بين الأرض والإنسان والعناصر الأخرى المكمِّلة لأجمل اللوحات في راس غميص وراس الحضرة وبياضة النهمة وعلى ضفاف دوحة السميرة ودوحة الطلاب، والفزيعية و دوحة مهكك وراس مهكك وراس مشيرب وروضة الناقة مروراً بالسواحل الصخرية المتعرجة حتى جبل صرب و قصار بعيا ثم برقة المحاربة حتى سواحل السلع الخلابة. ولا تكتمل اللوحة إلا

بالإطلالة العابرة باتجاه الغرب و الشمال الغربي والشرق والجنوب الشرقي من غميص وفي حضن الخليج الدافئ، هنالك حيث المزيد من الحضور الفعال في كل من جزيرة غاغا مروراً بقصار المشب وقصار الذياب وقصاصير علي وجزر أم غميغيم والهزّم وخردال والمكاسب ثم الياسات والمهملية وأم الحطب وغيرها من المناطق.

والحقيقة أن هذه السلسلة من رحلاتنا غطت بالكلمة والصورة في البداية تلك المناطق والمواقع و لجزرالبحرية المحدودة لتشمل بعد ذلك بقية الأرجاء البرية والبحرية في الدولة وصولا إلى المرفأ والتي قمنا بتغطيتها تغطية واسعة. وأحياناً كانت بعض الرحلات تغطى و توثق بشكل محدود ولم تحظ بتغطية صحفية شاملة لكون رحلاتنا كانت في بعض الأحيان قصيرة (ثلاثة أيام لتغطية خمسة مناطق مختلفة ومتباعدة كمناطق برية و جزر مثلاً) كما أن الإمكانات كانت متواضعة. ولا يسعني إلاّ أن أشكر الذين ساعدونا في تلك التغطيات، من حرس الحدود وسلاح الجو بوزارة الداخلية و كل المواطنين أبناء المنطقة ■

الندوات

المحاضرة:

أ. د. رفيعة غباش

عضو مجلس الاتحاد العالمي للصحة النفسية.

(الندوة الأولى - الورقة الأولى)

عنوان الندوة:

«أنا المرأة الإماراتية.. وهذة تجربتي»

سيرة ذاتية

- رئيسة جامعة الخليج العربي بمملكة البحرين « 2009/2001 ».

- تحمل درجة الأستاذية في الطب النفسي والدكتوراه في تخصص وبائيات الأمراض النفسية من جامعة لندن 1992.

• لها مؤلفات في توثيق التراث وتاريخ الطب في دولة الإمارات.

- عضو في المجلس الاستشاري لتقارير التنمية البشرية في برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، ومجلس مستقبل العالم في ألمانيا، وعضوية مجلس الأمناء لجائزة الشيخ خليفة التربوية.

- انتخبت حديثا في عضوية مجلس الاتحاد العالمي للصحة النفسية.

- نالت جوائز العويس للبحوث 1992، 1994 و1995،

- ثم جائزة مواطنون على دروب التميز من جمعية أم المؤمنين النسائية 2002، وجائزة الشيخ حمدان بن راشد آل مكتوم للعلوم الطبية 2003/2004 عنوانا على ريادتها في مجالات الإبداع.



«أنا المرأة الإماراتية .. وهذه تجربتي»

إنني سعيدة جداً في الحقيقة بهذا الحضور الطيب، وسعيدة بوجودي بينكم، وسعيدة كذلك بهذا اللقاء الذي يعد اللقاء الرابع لي في أبوظبي على مدى عام منذ غادرت البحرين وعدت إلى وطني الإمارات، إذ يبدو لي أن العاصمة أبوظبي تنوي فعلاً استقطاب الثقافة لتكون عاصمة للثقافة على مستوى الوطن العربي، كما يريد لها القادة.

لكن في البداية أتقدم بجزيل الشكر للشاعر الأديب والأخ العزيز حبيب الصايغ على هذه المبادرة الطيبة، وعلى الفكرة نفسها، عندما قال لي عنوان المحاضرة «أنا المرأة الإماراتية وهذه تجربتي» وقد تفاجأت بالعنوان، ففي الحقيقة كنت محتاجة لأستعيد تجربتي بعدما أنهيت 8 سنوات في البحرين. ورجعت إلى الإمارات، وطلبت من سمو الشيخ نهيان بن مبارك آل نهيان وزير التعليم العالي والبحث العلمي إعطائي إجازة لمدة سنة أرتاح فيها وأراجع نفسي في أمور كثيرة.

لقد سعدت كذلك بكون شريكتي على هذه المنصة الدكتورة نجاة مكي لما يربطني بها من علاقة حميمة منذ سنوات الدراسة في مرحلة الجامعة وبعدها . وأشعر أن هناك تقاطعاً دائماً بيني وبين نجاة، وفي الاسكندرية منذ شهرين كان هناك معرض جميل جداً لنجاة والجميل فيها أنها وضعته على شاشة ووضعت أبياتاً شعرية لكل الشعراء العرب.

بالتأكيد لا يمكن الحديث عن أي إنجاز سواء شخصي ،أو عربي، أو على أي مستوى دون أن يكون هناك حضور للشيخ زايد طيب الله ثراه، فإذا تحدثت عن المرأة أجد أن الشيخ زايد اختصر لنا خمسين عاماً أو أكثر.كنا سننتظرها لنكون حيث نحن اليوم ولولا دعمه، لما كانت المرأة صاحبة إنجازفي دولة الإمارات.

وقد شاركت في هذا الدور لتمكين المرأة صاحبة السمو الشيخة فاطمة بنت مبارك رئيسة الاتحاد النسائي العام سواء على مستوى الاتحاد النسائي والجمعيات النسائية التي انضمت فيما بعد للاتحاد وفيما بعد على مستوى مؤسسة التنمية الأسرية،وبالتالي فقد أصبحت المرأة في مجتمع الإمارات حاضرة وفاعلة في الحياة العامة والأسرية ليس تحيزاً لصورة أختي موزة ولكنه حقيقي وشهادة بأن المرأة قدمت الكثير وتشارك في الكثير.

وكنت،والحمد لله،من أولئك الذين شملتهم تلك الرعاية السياسية من التكريم سواء على مستوى النجاح الطبي أو الأكاديمي أو العلمي. لكن حينما أردت أن أتكلم عن تجربتي احترت، هل أتكلم عنها على مستوى مراحلي العمرية، طفولة، ومراهقة، وشباباً، أو على مستوى الجغرافيا.

فحين أتحدث عن دبي أستحضر عملي في مستشفى راشد، وحين أتحدث عن مصر أتذكر دراستي في جامعة القاهرة، وحين أتحدث عن العين فأعني عملي بها طوال 8 سنوات في جامعة الإمارات، أما البحرين فقضيت بها هي الأخرى 8 سنوات.

يمكنني القول: إن مدة 28 سنة من عمري قضيتها في المطارات وبين الطائرات. أتكلم عن تجربتي في المؤسسات والجامعات المختلفة التي درست بها أو الجانب المهني فأنا طبيبة وكاتبة وأكاديمية وإدارية.

على المستوى الآخر الذي لاحظته في الفترة الأخيرة أنني أصبحت معروفة دولياً وعربياً أكثر مما أنا معروفة في الإمارات، وهذا يسعدني أحياناً وأحياناً أشعر أنني أتحمل مسؤولية أن يكون الإنسان في مستويات كثيرة. ولكن بالتأكيد لا تكتمل تجربتي إلا بالحديث عن الشخصيات التي أثْرت وأثّرت في هذه التجربة.

ليست مجاملة لسمو الشيخ نهيان بن مبارك، فمنذ تركي لمستشفى راشد والتحاقي بجامعة الإمارات وأنا أشعر أن وجودي تحت مظلة سمو الشيخ نهيان وادارته لجامعة الإمارات قد طور من قدراتي وغير واقعي سواء حين كنت معيدة أو حين عدت إلى جامعة الإمارات، وسوف آتي لذكر ذلك في حديثي.

لذا أقترح بدل أن أبدأ من مرحلة الطفولة وأتدرج في المواقع. سأبدأ بآخر محطة

كنت بها، وهي جامعة الخليج وهي جامعة ممولة من قبل ست دول خليجية، وتتميز بكون منصب الرئاسة فيها منصباً دورياً، أي أن كل دولة ترأسها لفترة معينة. وكنت مرشحة من قبل دولة الإمارات، وبدل فترة رئاسية واحدة مُنحت فترتين واستمريت لمدة ثماني سنوات، لقد شدني كثيراً الهدف الذي أنشئت من أجله جامعة الخليج:

وهو هدف حضاري: أن تشارك الجامعة في عملية بناء العقل العربي.

وهدف سياسي: أن تكون هناك مظلة تجمع بين أبناء المنطقة في دول الخليج ليكونوا قادة التعاون الحقيقي وليس الرسمي.

وهدف تنموي: وهو بطبيعة الحال كأي دور للجامعة.

شدتني كذلك بيئة الجامعة ومناخها وهو أن تكون في جو فيه الكثير من الألفة. لقد دعمتني القيادة السياسية في مملكة البحرين متمثلة في جلالة الملك حمد بن عيسى آل خليفة – حفظه الله– وسمو رئيس الوزراء اللذين لم يقصرا سواء باعتباري مواطنة من دولة الإمارات – وللإمارات تلك المكانة الخاصة في قلب شيوخ البحرين، أو باعتباري امرأة ولابد أن تدعم وتنجح، وبالفعل هذا ما حدث. لم يرفض لي بجامعة الخليج أي طلب طوال فترة رئاستي لها، وكان منهجي يعتمد على بناء ومد الجسور بين دول مجلس التعاون وتنمية موارد الجامعة التي كانت مفلسة ومستدينة في بداية عملي بها، بالإضافة إلى إقامة شراكة وتحقيق مبدأ العمل بروح الفريق.

ففي العادة يكون النجاح في دولنا بالأرقام، وأقصد بذلك الجانب المالي فالحمد لله نجحت في زيادة ميزانية الجامعة تقريبا 100 % عما كانت عليه عندما استلمتها. لقد كانت الميزانية التشغيلية للجامعة تقدر تقريبا بـ 80 مليون سنوياً، وقد نجحت في أن أجعلها 160 مليوناً لأن الدول المساهمة تعطي رقماً ثابتاً. أما النجاح فتمثل في ان مواردنا كلها كانت موارد ذاتية. بالطبع كانت هناك إنجازات أخرى تمثلت في معالجة الأمور الإدارية واستقطاب الشباب. لم نغفل دور الجامعة في البحث العلمي وبالفعل وضعنا شروطاً مشددة في مجال البحث العلمي ،حيث زاد اعداد الكتب المنشورة، كما ازداد عدد الطلبة 100 %، إلا أن هذه الزيادة لم





تكن على حساب جودة التعليم.

أردت كذلك، وأنا أعرف أنني سأتواجد اليوم بين مثقفين وشعراء، أن يكون لأهل الفكر مكانة في مخططي برئاسة الجامعة، فكان من أهم المؤتمرات التي عقدت المؤتمر الذي أهدي لروح العالم العربي أسامة الخولي وكان أحد أساتذة الجامعة وتوفي في الثمانين من العمر. وكذلك المفكر العربي محمد جابر الأنصاري، وهو مفكر بحريني معروف،وهو أكثر من ناقش قضية العقل العربي. وله منتدى سنوي باسمه في الجامعة يناقش فيه فكره.

استمر الدعم وكان لصاحب السمو الشيخ سلمان ولي العهد حضوره، وتوج هذا الدعم بقبول صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم نائب رئيس الدولة،رئيس مجلس الوزراء، حاكم دبي،دعوة متواضعة أتته مني ليكون راعياً للحفل الذي نظمناه بمناسبة مرور 25 عاماً على جامعة الخليج وحفل التخرج السادس، وبالفعل قبل الدعوة وحضر،وكان ذلك علامة بارزة في تاريخ جامعة الخليج العربي.

إن الفعاليات كثيرة والإنجازات أيضاً، والحمد لله،ولكن لضيق الوقت اختصرها بآخر إنجاز، فقد نجحنا في إنشاء مبنى مركز جوهرة بنت الإبراهيم ،حرم الملك فهد،طيب الله ثراه، وقد تبرعت ب 12 مليوناً للجامعة لكي تقوم بإنشاء معهد للأمراض الوراثية،وتبرع جلالة ملك البحرين بمساحة أكبر من مساحة الجامعة،وكان تحدياً بالنسبة لي أن أنجزه قبل أن أمضي وفعلاً قام مبنى من ألف متر مربع أنجز خلال سنتين،وكرمنا الله بإنجاز علمي على يد العالم العربي الدكتور معز بخيت،حيث اكتشف اكتشافاً مسجلاً في أمريكا وبريطانيا ودول أوروبا اسمه «إسراء» وهو إسم إسلامي لم يكن اختياره وليد الصدفة إنما هي كلمة علمية وهذا الاكتشاف العلمي سيفيد في أمراض الإيدز والسرطان والأمراض المضادة للجسم،وكانت جامعة الخليج أول جامعة عربية تسجل اكتشافا طبياً على هذا المستوى.

وبعد تجربتي في جامعة الخليج اقترحت إنشاء جامعة أخرى «الجامعة المفتوحة» على غرار جامعة ابن سينا التي افتتحت في اليونسكو بباريس،وتضم كل دول شرق

المتوسط، غير أن الاقتراح لم يؤخذ بعين الاعتبار.

حين خرجت من الجامعة،كانت هناك الكثير من كلمات الشكر والتقدير ولكن المتابع لأخبار البحرين وأخباري أنا بالذات،لا بد أنه لاحظ وجود حملة إعلامية شديدة ضدي استمرت مدة سنة ونصف. طبعاً من يعالج الفساد لابد أن يتوقع مثل هذه الأمور، وكنت دائماً أستعيد أبيات الشاعر البحريني علي عبد الله خليفة وأنا أتعرض لهذه الحملة. بل حتى بعد مرور فترة عن رحيلي من الجامعة وأُجريَ معي لقاء صحفي ذكرتُ خلاله زملائي الأطباء بلغة نقدية نوعاً ما،لذا شُنَّت ضدي حملة أخرى. ولكن في الوقت نفسه فقد وصلتني رسالة من سمو الشيخة سبيكة تشكرني فيها.

أعود لتجربتي، حيث يمكنني الآن بعد آخر محطة أن أعود إلى طفولتي، فأنا نشأت في بيت مميز إلى حد ما. بمعنى أن البيت كان فيه «أربعة إخوان وأربع أخوات» لكل منا توجهه الاستراتيجي والأيديولوجي،وهذا البيت كانت فيه روايات ديستوفسكي،والأخوة كرموزوف،وروايات إحسان عبد القدوس،وكذلك التوجهات السياسية، فقد كان هناك اليساري والليبرالي والمحافظ والإسلامي، ولكن لأطمئنكم صرنا بعد ذلك جميعاً وسطيين. لكن أعتقد أن تلك البيئة تركت تأثيرها في حياتي. ويجب أن أشير هنا كذلك إلى الأثر الكبير الذي تركه المغفور له الشيخ زايد في حياتنا. فنحن جيل زايد ونعتز بهذه المقولة.

كما أننا نشأنا في أسر كان فيها الكثير من آبائنا وأفراد أسرنا ممن آمنوا بالقومية العربية والوحدة العربية،وكان حضور الرئيس المصري الراحل جمال عبد الناصر موجوداً في كثير من البيوت. أما تجربة منديلاّ فحين كنت في لندن رأيت أمام سفارة جنوب إفريقيا اعتصاماً دام 24 سنة على مدار الساعة، فهم يضعون جداول ومن يرغب المشاركة في الاعتصام يسجل اسمه ويقف هناك، وكنت من بين هؤلاء الناس الذين شاركوا في هذا الاعتصام،وقد كان ذلك سلوكاً عفوياً،ولكنه أثرّ بي فيما بعد، فلما خرج منديلاّ من سجنه وزار الإمارات وقلده المغفور له الشيخ زايد وساماً أحسست أني شاركت في ذلك .

أول زيارة كانت ربما للشيخ زايد للمدارس كانت لمدرستنا آمنة بنت وهب ،وقد

طرح سؤالاً غن تاريخ قيام دولة الإمارات،وما هي إنجازاتها؟،وكانت لتوها قائمة ولم يمض على ذلك مدة سنة فرفعت يدي وانطلقت في الحديث مع الشيخ زايد،رحمه الله.

قلت له لا يكفي اتحاد الإمارات، فتفاجأ، سألني ماذا تريدين؟، قلت له أريد اتحاد خليجي، المقومات كلها موجودة، القيادة في شخصك،والدين موجود والتاريخ مشترك،والحدود نتعامل معها، أطلنا في الحديث في ذلك الوقت، وقال لي اكتبي لي رسالة قولي فيها توجهاتك،وسأل معالي عبدالله عمران وزير التربية آنذاك عني ومن أكون،فقال له إنها ابنة غباش فقال له إنها صورة عن أبيها.

أيام الدراسة كنت من المحافظين ومتزمتة نوعاً ما، فحين وقعت مظاهرات أيام احتلال إيران للجزر الإماراتية،خرج كل الناس في هذه المظاهرات إلا أنا فلم أفعل. غير أنني أذكر أني كنت نشيطة رياضياً،فقد كنت أرأس فريق كرة الطائرة وأشياء أخرى، بعد ذلك انتقلت إلى مصر لدراسة الطب، والحقيقة ذكرياتي عن الطب متواضعة ولكن ذكرياتي عن مصر كثيرة. كنت محظوظة بلقاء الكثير من الشخصيات السياسية المصرية كلطيفة الزيات ومصطفى طيبة،والدكتورة عواطف عبد الرحمن، هذا الزخم السياسي في مصر يمثل في اعتقادي المرحلة الثانية لتشكيل الوعي لدي.

عدت بعد دراسة الطب إلى الإمارات،وعملت كطبيبة في مستشفى راشد لكن في تلك السنة أعيد تأسيس جمعية النهضة النسائية،وكنت عضوة في جمعية الإمارات الطبية،وأسست مع زملائي نادي السينما،ونادي الطفل وجمعية مناصرة الجنوب اللبناني في عام 1983م .

أتذكر أول مرة شاركت فيها في انتخابات جمعية الإمارات الطبية. وقد فزت حينها بكل الأصوات رغم كوني ترددت في ترشيح نفسي في البداية. وحين وزعوا المناصب لأول مرة أحسست أنني كنت محاربة، فقد طلبوا مني أن أتنازل فرفضت، قالوا لي أن لوائح الجمعية تنص على أنه لا بد أن يكون قد مر على تخرجك ثلاث سنوات،وأنا وقتها لم يمر على تخرجي سوى سنة واحدة فقط. وليتخلصوا مني قاموا بحل مجلس الإدارة،لكننا أعدنا الانتخابات وفزت للمرة الثانية. هذا

على المستوى المحلي، أما على المستوى العربي،فقد صادف أن دُعيت للاشتراك في تقارير التنمية الإنسانية وكانت برئاسة مي خليفة نائبة الأمين العام للأمم المتحدة،وشاركت في أربعة تقارير من هذه التقارير وكانت بالنسبة لي إضافة نوعية على عقلي وتجربتي وعلمي ومعرفتي.

في المشاركات الدولية كنت في مؤتمر بالسويد كان ملك وملكة السويد،والأمير الحسن بن طلال،ورؤساء وزراء ست دول،وستون شخصية منتقاة في هذا المؤتمر الذي استمر مدة ستة أيام بجدوله الضخم، لم يكن فيه أي أثر لمشاركة العرب، كان فيه حديث عن كل شيء، عن الشعر والكيمياء والسياسة والسلاح الذري، أحزنني أنهم اختاروا عشر شخصيات يمثلون عشر طاولات، وكانت هناك صحفية معروفة لن أذكر اسمها حين وقفت للحديث قالت «شالوم» لأنه كان يجلس على طاولتها يهود.

لما جاء دوري كنت في الطاولة الثانية، تحدثت وقلت: «السلام عليكم، أنا رفيعة غباش امرأة عربية مسلمة» «بشيلتي»،واعتز بذلك،وتكلمت عن المؤتمر وجودته وقوته، وكيف لهذا المؤتمر العظيم أن يخلو من الوطن العربي، وقد كان هناك كتاب يوزعونه عن مجلس مستقبل العالم ويختارون 100 شخصية لم أر أي اسم عربي فيها.

وصلت الرسالة بوضوح،والأمر الذي نتج عنه أنني حين نزلت من على المنصة طلبوا مني أن أكون عضوة معهم أنا والأمير حسن بن طلال،ولا زلت أعمل معهم في قضايا البيئة .

على المستوى العربي شاركت وتبنيت الشبكة العربية للمرأة في العلوم والتكنولوجيا، استضفناها في جامعة الخليج،ودعمتنا في ذلك الوقت صاحبة السمو الشيخة سبيكة،والآن ومنذ شهرين نقلتها لمكتبة الاسكندرية،لأنه لم يبق لي سلطة في جامعة الخليج. الشبكة لازالت في بدايتها إنما لقيت صدى وردة فعل عالمية حتى الآن،وكتب عنها في مجلة «العلوم»،وهي من أهم المجلات ونحاول أن نبرز النساء العربيات اللواتي حققن إنجازاً ما في مجال العلوم والتكنولوجيا.

كثير من الناس عرفوني كصحفية أكثر مما يعرفونني كطبية أو أكاديمية،

البارحة وأنا أبحث في أوراقي وجدت مقالة للأستاذ حبيب الصايغ نشرها عام 1984 بعنوان «هلوسة مهداة إلى محمد الجراح»، يذكر فيها قصص أناس كثيرين،وذكرني من بينهم حيث قال عني بأنني أمارس أنشطة متعددة في جمعية الأطباء والاجتماعيين.

أعود في حديثي عن الصحافة التي بدأتها بشكل مبكر جدا. فمنذ كنت في المدرسة، كنت أكتب في المجلات وفي واحة الاتحاد في الصفحة الأخيرة وصحيفة البيان،وكان لدي بها عمود تداعيات،وعمود وجوه جميلة، بينما كانت هناك مجلة الرياضة والشباب،وكانت لي بها صفحة اسمها مساحة للهدوء استمرت ثلاث عشرة سنة،وصفحة رسائل القراء تناقش مشاكل نفسية واجتماعية، وعمود نحو ثقافة نفسية وعمود اسمه معكم. وهي من أجمل التجارب التي مررت بها.

ولدي مقالان أحدهما أدوار مختلفة للطلبة كتبته حين كنت طالبة في السبعينيات في مصر، أما رسالة من القلب فكتبتها أيام مجلة الأهلي وهي رسالة وجهتها إلى شخص عزيز علي هو القابع في الأبراج العاجية، كانت تجربة الإعلام والصحافة هي التي أوصلتني إلى الناس بشكل جميل. في مساحة للهدوء كنت كتبت مرة عموداً عن الدكتورة نجاة مكي أتكلم عنها واستمتع بلوحاتها، ووجدت قارئة اسمها منى إبراهيم لا أعرفها أرسلت لي نسخة عن لوحات نجاة ولا زالت في بيتي.

بالإضافة إلى الصحافة والطب ركزت اهتمامي على البحث في التاريخ، ولدي كتاب معروف في المجمع الثقافي حول تاريخ الطب شاركتني فيه الدكتورة مريم سلطان، وكان كتاباً توثيقياً جيداً. صدر مؤخراً ومنذ سنة أصدرت كتاباً جديداً عن شاعر مشهور في الإمارات وهو الشاعر حسين بن ناصر بن لوتاه، وكان تدشين الكتاب تحت رعاية صاحب السمو الشيخ حميد بن راشد.

كل هذه التجارب تضعني دائماً،والحمد لله،معززة ومكرمة بين أهلي ومن أجتمع معهم، وإن كان هناك شيء من التحدي أن تكون امرأة بين الرجال. وفي هذا السياق سألوني ذات مرة هل كونك امرأة بين الرجال أمراً أعاقك؟ قلت لهم بالعكس، ذلك سهّل علي الكثير من الأمور، ففي ثقافتنا العربية لا يخجلون المرأة ولا يرفضون طلباتها،وكل طلبات جامعة الخليج أجيبت أثناء رئاستي لها.

كما أريد أن أتوقف عند تجربتي الجميلة مع الطلاب، مباشرة بعد عودتي عقب نيل شهادة الدكتوراه عُينت مساعدة العميد في شؤوون طلبة جامعة الإمارات. هؤلاء الطلبة حين يحضرون مؤتمراً في البحرين يرغبون أن يكونوا برفقتي. كنت دائماً أشعر أنهم أبنائي، ولابد أن يكون لي هذا التواصل معهم، نحن نستنكر من غياب الوعي السياسي للطلاب، ولكننا كنا نشارك في كثير من المنتديات داخل الجامعة والطلاب يكونون حريصين على مناصرة أهل غزة ونكون معهم.

سأتكلم الآن عن علاقتي بالبحث العلمي، وهو ركن أساسي في تجربتي أنا كامرأة إماراتية.حيث وضع لنا سمو الشيخ نهيان بن مبارك آل نهيان وزير التعليم العالي والبحث العلمي تحدياً مفاده أنه من شروط الترقية هو إعداد بحث علمي منشور في الغرب. والحمد لله،عملت مع فريق من بين أعضائه البروفيسور أبو صالح وغيره،واشتغلنا في الكثير من الأبحاث،وأشهر دراسة لي كانت دراسة عن دبي، حيث طرقت أكثر من 500 بيت في دبي لأقيس الصحة النفسية، وكانت بعض أرقام الدراسة وقتها على النحو الآتي:

الاكتئاب بنسبة 13 %،والقلق بنسبة 7 %،والأمراض الكبرى بنسبة حوالي 2 %، وهذا الرقم كبير مقارنة بدراسات أخرى مثل دول شرق المتوسط. هذه الدراسة متخصصة جداً، وهناك دراسة ثانية عن الاكتئاب ما بعد الولادة لأن الكثير من الناس لا يفهمونه، وقد قدمت محاضرات كثيرة في هذا الموضوع. كان لدي الكثير من الأبحاث في أوروبا، أكثر من 40 بحثاً نشر لي مع فريق العمل.

السياسة التي اتبعتُها في إدارتي كانت سياسة مبنية على تجديد الفكر عن طريق تفعيل المشاركة. وكنت دائماً أحاول أن يكون لي قدر عال من التوازن في عملي. مؤخراً كنت أعطي محاضرات للجمهور حول الصحة النفسية الإيجابية واكتشفت أنني وجدت نفسي وسلوكي في مفهوم الصحة النفسية الإيجابية، هذا النجاح الذي وصلت إليه وأستمتع به كان نتيجة استغلالي للطاقات والإمكانات قدر الاستطاعة، وتعاملت مع الذات وحاولت أن يكون لي توافق مع نفسي. أبحث دائماً عن الطمأنينة في كل ما أعمل بالإضافة إلى روح الجماعة والعلاقات المتكافئة والانتماء والهوية الوطنية وهو المرتكز الأساسي للصحة النفسية.

في البحرين كانت مي خليفة أحدى الشخصيات التي تأثرت بها، وهي حالياً وزيرة الإعلام. فحين كنت في البحرين وخلال الثماني سنوات التي عملت بها ما من شخص شنت عليه حملات إعلامية أكثر من مي خليفة، ولا أحد حقق إنجازات كالتي حققتها مي خليفة حتى على المستوى العربي.
هناك أكثر من 12 مركزاً ثقافياً أقامته مي خليفة في كل أحياء المحرق الجديدة والقديمة، وكل التمويل كان من القطاع الخاص ومن جهودها،وفي الأخير لا يصح إلا الصحيح، لأن مي استرجعت مكانتها كوزيرة،واليوم تقدم الكثير من خلال عملها، فحين أمُر بصعوبات أتذكر مي خليفة فتهون الأمور علي. البارحة كنت أحاول أن أستعيد ذكرياتي في الإمارات. فبالإضافة إلى ابنة خالتي وصديقتي د. مريم التي شاركتني في الكثير من الأبحاث والإنجازات، كان للشيخة شمة بنت محمد بن خالد تأثيرها علي وعلى الكثير من السيدات الأكاديميات وغيرهن من الناحية النفسية والإنسانية. فنحن في العين ننتقل من مدينة إلى أخرى،ونحتاج إلى الدعم الأسري والإنساني، فكان حضورها يعني لنا كلنا الكثير كفريق يعمل في جامعة الإمارات. وفي السنتين الأخيرتين كان لها ذلك المجلس المشبع بالثقافة. أستعرض معكم آخر جلسة جمعت فيها كل الكتاب الذين فازوا بجائزة البوكر في أبوظبي لتعطينا فرصة للالتقاء بالكتاب وقراءة مادتهم الثقافية.
محطتي الأخيرة، وهي التي سأختم بها، كانت والدتي رحمها الله. لا يكتمل الحديث عني وعن نفسي إلا حين أتذكر ذلك النموذج الذي نشأنا عليه،وهو النموذج الصارم في التربية والتفتح العقلي. فالدين كان هو الأساس ثم العادات والتقاليد،وحين استعدت الكثير من مراسلاتها القديمة وجدت في رسائلها الكثير من الكلام الذي أستمتع بقراءته في كل مرة.
إحدى هذه الرسائل استوقفتني لأنها كانت توصيني بالصلاة وتقول لي: «لا تخلين ربك في كل خطوة تخطينا، ما أبغيك تقلدي حد،كوني ذات سيرة حسنة وأخلاق فاضلة وشرف رفيع، لا تطالعين على غيرك، خلّي غيرك يطالع عليك» ■

الندوة بتاريخ 31/ 5/ 2010

المحاضر:

د. نجاة مكي

فنانة تشكيلية

(الندوة الأولى - الورقة الثانية)

عنوان الندوة:

«أنا المرأة الإماراتية.. وهذة تجربتي»

سيرة ذاتية

- من أنشط الفنانات التشكيليات في الوطن العربي والإمارات العربية المتحدة خاصة.
- تخرجت في كلية الفنون الجميلة بجامعة القاهرة عام 1982.
- نالت الدكتوراه في النقش على النقود المعدنية والمسكوكات من نفس الجامعة.
- كما حصلت على درجة الماجستير في النحت البارز والميدالية بتقدير امتياز عام 1998.
- حائزة على جائزة الإمارات التقديرية في الفنون البصرية لعام 2007.
- مثلت د. نجاة مكي المرأة الإماراتية في عدد من المحافل الدولية بجدارة، ومن أهم مشاركاتها:
- ملتقى النحت الدولي الثاني بالصين.
- معرض «أجندة» الثالث في مكتبة الإسكندرية عام 2010م بمركز المؤتمرات.
- بينالي مكتبة الإسكندرية الدولي الرابع لكتاب الفنان.



«أنا المرأة الإماراتية .. وهذه تجربتي»

في البداية أرحب بالحضور، وأشكر سمو الشيخ سلطان بن زايد آل نهيان ممثل صاحب السمو رئيس الدولة على رعايته وعنايته بهذا الصرح الثقافي، كما أشكر الأستاذ الشاعر القدير حبيب الصايغ على توجيه الدعوة لي للتحدث عن تجربتي الفنية، ويسعدني أن تكون معي الأستاذة والزميلة رفيقة الدرب الدكتورة رفيعة غباش، وأنا سعيدة كذلك بوجود الأخ علي الإعلامي المشهور في هذا اللقاء.

بداية سأتكلم عن تجربتي الفنية ويهمني أن أحدد العوامل التي شكلت هذه التجربة، لقد كنت مولعة بالرسم منذ صغري ومثلما لكل إنسان إيقاع مميز كان إيقاعي هو البحث عن متعة اللون. لقد فتحت عيني ووجدت مختلف أشكال وأنواع الفنون، طبعاً هذا لم يأت من فراغ ،وإنما اكتسبته من البيئة المحيطة بي، مروراً بما أتعايش معه في المحيط الأسري.

ففي البيت لم تكن هناك ورقة تمر بي وتخلو من خربشة أو رسم، وبعد أن وعيت وجدت في جدران البيت مساحة تغريني للرسم عليها على أساس أن حوائط البيت كانت شاسعة، وأنا طفلة أحببت أن أملأ هذه الجدران بالرسومات. لم تكن لدي ألوان، فكنت أستخدم الفحم الموجود في المنزل، مما كان يسبب لي العقاب من طرف والدتي التي كانت تتضايق من تصرفاتي.

كنت أراقب والدتي وهي تقوم بترتيب الأشياء في المنزل بدقة متناهية، فأمسك بالقلم وأعيد صياغة هذه الأشياء التي تحمل نوعاً من الفن والخيال بشكل مختلف، مع العلم بالشيء، فالطفل دوماً يرسم ما يعرفه.

وكنت أجلس مع أخواتي وهن يطرزن المفارش الجميلة، فتعجبني ألوان خيوط التطريز الذهبية والملونة، فآخذ الخيوط وأجمعها وأحاول أن أشكلها وأقطعها قطعاً صغيرة، كذلك عيدان الكبريت، كنت أقطعها قطعاً صغيرة وأجمعها. هذا بالإضافة إلى قصص النسوة اللواتي كن تأتين لزيارة أمي كل مساء ومتعة حديثهن عن حكايات الغوص والجنيات والعفاريت والأشجار والقطط السوداء

التي كُن يحذروننا من ضربها وكل ما يدور في البيئة آنذاك.

هذه الأشياء،كنت أستمع إليها،ويتركز الكثير منها في خيالي والبعض الآخر يتبخر، فأمسك القلم وأسرد هذه الحكايات والأساطير على سطح الجدار،وأكون أنا شخصية من بين تلك الشخصيات التي أمثلها على الرسومات، أتحاور معها، ألعب معها، وكان ذلك يشكل كل عالمي الذي كان يسبب إزعاجا للأسرة.

كان والدي، رحمه الله، يملك محلاً صغيراً للأدوية الشعبية وكنت دائماً أرافقه إلى المحل فيعجبني تمازج الألوان الموجودة في هذه الأعشاب، أحس وأنا جالسة في محل أبي أنني داخل علبة ألوان، كانت رائحة الأعشاب تجذبني، وكنت أستغرب من وجود هذا الكم الهائل من الأشكال، فتنتقل عيني في التمازج اللوني الأخضر ثم الأصفر ثم البني والأحمر، بالإضافة إلى أشكال هذه الأعشاب والأوراق حيث كنت أدقق في الزعتر والمرامية وأوراق الحناء وغيرها. بعض الأعشاب تكون صلبة كالحجر وبها تعرقات تجذبني ألوانها، فكانت تدور برأسي كطفلة صغيرة أسئلة كثيرة لا أقدر أن أطرحها، أمد يدي لبعض الأعشاب كالنيلة ولونها الأزرق، فآخذ حينها الأكياس التي كان يستعملها والدي في بيع الأدوية وأرسم عليها، فهناك ألوان مواد أخرى «كالشب» فيه شفافية وجزء معتم وجزء به لمعة، وهذه الأشياء كانت تشدني هي الأخرى لأنني كنت أشعر أنني داخل صندوق عجائب، وحين أعود إلى البيت أعيد صياغتها مرة ثانية بشكل آخر، فأرسم إخواني وأرسم «الفريج» وأشياء أخرى.

حينما كانت أمي تقوم صباحاً لتصنع الخبز، كنت آخذ العجين وأصنع منها قططاً،وأحضر أعواد الكبريت والخيوط،أزين هذه الأشكال وأكون منها مجسمات فتكون طرية طبعاً وأضعهما عند تيار الهواء حتى تجف، ثم أجمعها صباحاً في علب صغيرة ومع مرور الوقت أصبح لدي لعب كثيرة فيها جمالية كبيرة، تشكل لدي أهمية كبيرة وأحتفظ بها دائماً.

حين أخرج من المنزل تعودت عيوني على رؤية الزخارف الجبسية المعمارية، والزخارف في الأبواب والشبابيك، وأدخل السوق وأجد طرقات تضيق ثم تتسع مما يعطي لعيني شسوعاً ورؤية إلى ما لانهاية. هذا كله خلق لدي رغبة في الإبداع، وكنت أشعر أن رأسي مليئة بالأشياء، وكنا كأطفال نجتمع في الطرقات نرسم على الجدران، فأصبحت علاقتي بالجدران علاقة حميمية،وكنت أرى فيها مساحات واسعة لأن الشحنات والعواطف التي كنت أشعرها حينها كنت أترجمها رسماً على الجدار. بعدها التحقتُ بالمدرسة فاكتشفت مُدرِّسة التربية الفنية نجاحي





في هذه المادة وعرفت موهبتي، فشجعتني وبدأت تأخذ بيدي وترشدني للطرق الأساسية التي أكمل بها الرسم، وبدأت أفهم المواضيع التي أرسمها. بدأت أرسم قاع البحر والبيوت وغيرها من الأشياء الأخرى، وطلبت مني الالتحاق بكلية للفنون لإنهاء دراستي. وبدأت الموهبة تزيد يوماً عن يوم وعندما أعود إلى البيت أواصل الرسم، وأصبح لدي كتب وكراريس وألوان، حيث تعلمت كيف أستخدم الألوان، وهذا ما زاد من حبي وتعلقي بالفن، ومع مرور الوقت زادت هذه الرغبة بداخلي، ففي فترات المساء كنت أذهب إلى بيت صديقتي «محفوظة » وقد كانت هي أيضاً مجتهدة في الرسم، وكنا نرسم مع بعض ونقضي بقية الوقت في قراءة مجلات «سمير» و«ميكي» . وخاصة مجلة «سندباد» وهي من المجلات التي أعطتني خيالاً واسعاً آنذاك، فالسندباد كان ينتقل من مغامرة إلى أخرى في هذه القصص والأساطير.

في المرحلة الإعدادية، اشتركت لأول مرة في معرض جماعي يضم فنانين، وفزت في المعرض بميدالية ذهبية، وكنت سعيدة جداً بهذا الفوز وقررت حينها إكمال دراستي في معهد أكاديمي. وبعد الثانوية التحقت بكلية الفنون الجميلة وحققت حلم الطفولة.

التقيت في الكلية بزملاء وزميلات كانوا هم كل عالمي الذي عشته في الغربة، لقد اجتهدت واستمعت إلى نصائح أساتذتي، وأصبح لدي طموح آخر في هذه الفترة وهو أن أعرض أعمالي في معارض جماعية مع غيري من الفنانين. وكان هذا الطموح يشغل بالي. بعد التخرج عدت من الكلية إلى الوطن وتم آنذاك إشهار جمعية الإمارات للفنون التشكيلية، وكنت من المجموعة التي ساهمت في هذه الجمعية بالأنشطة الفنية، كإقامة معارض جماعية، وكنا مجموعة من الفنانين منهم د. محمد يوسف، عبد الرحيم سالم، منى الخاجة وغيرهم. بالإضافة إلى وجود عدد كبير من الفنانين العرب الذين كانوا موجودين معنا وكوّنا مجموعة حيث كنا نجتمع في أوقات معينة، نتبادل ونطرح الأفكار ونتناقش فيها، إلى أن تم افتتاح أول بينالي وهو بينالي الشارقة بأمر من صاحب السمو الدكتور سلطان بن محمد القاسمي حاكم الشارقة، وكان هذا البينالي انطلاقة للفنان الإماراتي، وعرفت من خلاله أنماط وأساليب مختلفة، تعرفنا على أساليب جديدة طرحت في الإمارات حيث بدأ الفنان الإماراتي يأخذ أساليب متعددة في طريقة الفن، وبدأ كل فنان يكوّن أسلوبه ونمطه في الحركة التشكيلية.

بعد البينالي أصبحت لنا معارض شخصية وجماعية وأصبحنا واعين بدور الفن، واشتركت في معارض في دولة الإمارات أولاً ثم في معارض على مستوى الدول العربية والخليجية، حصلت في

بعض منها على جوائز وبعضها كان لي فيها حضور ومشاركة، وهذا الحضور أفادني كثيراً من خلال لقائي بغيري من الفنانين.

ومن ناحية أخرى كان لورش العمل في بينالي الشارقة دور كبير في تطوير تجربتي الفنية. ثم لما رجعت من القاهرة بعد تكملة مرحلة الباكلوريوس، عُينت في وزارة التربية والتعليم بقسم الوسائل التعليمية، وهذا القسم أفادني كثيراً لأن مديري كان رجلاً فنانا وهو الأستاذ الدكتورعبيد الهاجري ونائبه أيضاً كان فناناً، وفي هذه الحالة فإن التعامل مع الفنان يكون مختلفاً ،وقد كلفت آنذاك بإعداد الكتيبات والبوسترات وعُينت كمصممة. بالإضافة إلى وجود عدد كبير من الفنانين كزملاء موظفين من خلال الوسائل التعليمية وأحسست بعد تخرجي أنها ورشة عمل متعددة التجارب.

دخلت كذلك قسم الطباعة ،واطلعت على أساليب الطباعة التي كان لها دور في البرامج التي تقدم للأطفال والناشئين. فالرياضيات الحديثة في ذلك الوقت كانت تطرح من خلال وزارة التربية والتعليم، كما قمنا بإعداد برامج أذيعت من خلال تلفزيون دبي عن طريق مسرح العرائس التعليمي. كنت أصمم بعض هذه العرائس، وكنا نعرضها أحياناً في الحدائق العامة، أو في المجمع الثقافي بأبوظبي، حيث كان هناك تعاون بين المجمع الثقافي وجمعية الإمارات للفنون التشكيلية . وكنت عضواً في لجنة التحكيم في جميع معارض الأطفال و الناشئين في المجمع الثقافي، واستفدت من وجودي في هذه اللجان التحكيمية باختلاطي بفنانين لهم خبرة تفوق خبرتي ولهم دراسات وباع فني طويل. كل هذا أضاف لتجربتي مردوداً فنياً كبيراً، حتى في إقامة المعارض كنت أستشير غيري من الفنانين، لهذا والحمد لله حققت جزءاً من أمنياتي التي كنت أحلم بها وأنا طفلة.

بعد عشر سنوات من العمل في إدارة الوسائل التعليمية، فكرت في إكمال دراستي مرة أخرى حيث رجعت إلى القاهرة على أساس دراسة الماجستير في الحضارة المصرية القديمة ثم سافرت وبحثت كثيراً في كل ما يخص هذه الحضارة التي تعد من أرقى الحضارات الإنسانية. والحمد لله أكملت رسالة الماجستير، وبعدها رسالة الدكتوراه في العملات المعدنية، وبحثت في رسالة الدكتوراه في الحضارات القديمة أيضاً. عدت مرة أخرى إلى دولة الإمارات وعملت في وزارة التربية والتعليم لفترة معينة، ثم تقاعدت وتفرغت للفن، وهذا ملخص لتجربتي الفنية.

«في ختام كلمتها قدمت د. نجاة مكي عرضاً لبعض من أعمالها الفنية»■

الندوة بتاريخ 31/ 5/ 2010

المحاضر :

الأستاذ/عبد العزيز المسلّم

مدير إدارة التراث والثقافة بدائرة الثقافة والإعلام في الشارقة

(الندوة الثانية - الورقة الأولى)

عنوان الندوة:

ذاكرة المكان الإماراتي

سيرة ذاتية

- نائب رئيس جمعية التراث العمراني في الإمارات وأحد مؤسسيها.
- عضو المنظمة الدولية للمهرجانات والفنون الشعبية.
- رئيس لجنة جرد التراث غير المادي في وزارة الثقافة والشباب وتنمية المجتمع.
- وهو باحث وكاتب ألف مقالات كثيرة في التراث والتاريخ الشفاهي.
- له إسهامات في برامج تلفزيونية وإذاعية في التراث والتاريخ الشفاهي.

من أهم مؤلفاته

- دروب الورد
- أزياء الزينة
- خراريف
- مدائن الريح



ذاكرة المكان الإماراتي

ارتباط الإماراتيين بالمكان

موضوع الندوة غاية في الأهمية؛ فقد كان للمكان حضوره الكبير في وجدان إنسان الإمارات وكانت إبداعاتهم ملازمة لذلك، نتيجة كثرة الاغتراب الذي عاشه ابن الإمارات في مراحله التاريخية السابقة. لقد كان حضور المكان عند إنسان الإمارات للفخر والاعتزاز وتسمية المكان بأسماء الناس وأيضاً فقد تسمّى الناس بأسماء الأمكنة، ومثل الشوق والحنين، وأيضاً البعد والغربة؛ فقد حمل الإنسان الإماراتي مكانه في وجدانه بسبب عيشته الطويلة في البعد والغربة.

ومن هذه الإسقاطات أيضاً للمكان هو تسمية الأماكن بأسماء الأفراد أو بالأوقات التي تمر عليهم من خلال حلّهم وترحالهم، مثل موضوع المقيظ الذي كان على شكلين؛ الأول القريب، وهو في أشجار النخل، والآخر الحضارة وهي في أماكن الواحات البعيدة وبعض البساتين. ومن الأسماء التي تداولوها بينهم:

الحل والترحال في الأسماء

ضاعن: من الضعن، لأنهم كانوا يضعنون.

المسافري: مسافر

طارش: مرسال

غابش (غباش)، غبيشه: مبكر، وذلك لأنهم كانوا يغبشون ويذهبون في وقت الشفق.

مصبح: من الصباح

ضاحي: من الضحى

العصري: من العصر

ساري: وتصغر كذلك إلى سويري، أي مسافر الليل

هذه التسميات المرتبطة بالأوقات والأمكنة باتت تستخدم كأسماء أشخاص وأُسر في الإمارات.

ومن المفارقات الأخرى التي توصلت إليها كذلك هي تسمية الموطن الثاني:

تسمية الموطن الثاني

وهي تسمية تشمل سواء البلد الذي جاء منه الشخص أو البلد الذي ارتحل إليه ثم عاد منه، ومن هذه الأسماء على سبيل المثال:

أسرة "القطري" الموجودة حالياً في الإمارات الشمالية هم من أهل الشارقة كانوا قد ذهبوا إلى قطر في فترة ما ثم عادوا. نفس الأمر ينطبق على عائلة «الكويتي» بعد رحيلهم إلى الكويت وعودتهم منها، وعائلة العماني (في خورفكان)، والبصري، والشحري، والمغربي وغيرهم. وهي أسماء مسجلة في جوازات سفرهم ومعتمدة بشكل رسمي. فهم لا ينتمون إلى تلك الأقطار بل كانوا قد ذهبوا إليها وعادوا منها لاحقاً ليسموا بأسماء هذه الأقطار.

هناك أيضاً أسماء أسر تحمل أسماء أمكنة - في هذه الحالة إمارات- لا ينتمون إليها بل كانوا قد مكثوا فيها لفترة قبل عودتهم إلى إماراتهم الأصلية، مثل: عائلة الشارجي في رأس الخيمة، والعيماني في أم القيوين، والقيواني في عجمان، وغيرهم.

وهناك أسماء قديمة متداولة في الإمارات مثل: المدحاني، الحتاوي، الختّي، الشّميلي، الغمري، الظنحاني، الشّعمي وهي أسماء يعود أصلها إلى أماكن مختلفة ارتبط بها هؤلاء بطريقة أو بأخرى.

هناك كذلك أسماء ترتبط بأشياء متواجدة في مكان ما:

مكان الولادة (إناث)

حّبينه: نسبة إلى شجرة الحِبن

ياسه: شجيرة الياس

عشبه: موسم العشب

ريحانه: شجيرة الريحان

مكان الولادة (ذكور)

حرمول: نبتة الحرمل

حنظل: شجيرة الحنظل

عويد: تصغير لمسمى عود (عادة تسمى شجرة الغاف بـ «عود»).

وهناك بعض الأماكن التي ترجع تسميتها إلى أسر كانت تستقر فيها سواء بشكل دائم أو مؤقت:

الاستقرار الدائم أو المؤقت

استراحات القوافل: عود ميثا، عود بن سبت، طوي راشد(نسبة إلى راشد بن حميد)، طوي حليس (بن حليس).

أماكن المقيظ: نخل عبدالله بن رحمه (الشارقة)، نخل مريم (عجمان).

أماكن السكن: صير بني ياس (أبوظبي)، صير القواسم (صير بونعير، الشارقة)، جزيرة زعاب (رأس الخيمة)، الشويهيين في الشارقة (قوم الشويهي من جبل الشويهة).

هذه الغزارة في الأسماء وهذا الارتباط بالأماكن شكل ولازال يشكل مادة رئيسية للشعراء، حيث شملت قصائدهم أمكنة ومدى ارتباطهم بتلك الأمكنة. وجاء ذكرهم للأماكن على نحو يختلف بين شاعر وآخر.

المكان كمادة للشعراء

المكان الحقيقي: ذكر مباشر وواضح في القصائد.

المكان الرمزي: حسب الأهمية الرمزية للمكان لدى الشاعر.

المكان الخيالي.

أهمية المكان بالنسبة للشاعر المغترب

ذكر المكان أو التغني به يخفف من وطأة الاغتراب على الشاعر، خاصة إذا كان يعاني من أحد أنواع الغربة التالية:

الاغتراب المكاني.

الاغتراب الاجتماعي (إذا كان يقيم وسط قبيلة أو عشيرة هو ليس منهم).

الاغتراب العاطفي.

الاغتراب الزماني (العمري).

للمكان الحقيقي الذي نما فيه الشاعر وترعرع أثر كبير في رسم خياله ومن ذلك:

- التغني بالذكريات الجميلة للمكان.
- الشوق والحنين للعودة إلى ذلك المكان.
- الفخر والاعتزاز بالانتماء لذلك المكان.
- تذكر الأحزان والأتراح والمخاوف التي كانت له في ذلك المكان.

وفيما يلي نعرض نماذج لقصائد أتت على ذكر أماكن حقيقية يرتبط بها الشعراء.

المكان الحقيقي 1

لو عليه الشيل مهدودي ... نوره الوضاح وقيدي
ان غدا يمشي على هودي ... حلك الله يا قطا الذيدي

أحمد الهاملي

هنا إشارة واضحة ومباشرة لمنطقة الذيد التي ورد ذكرها لدى الكثير من الشعراء من بينهم ربيع بن ياقوت الذي قال:

المكان الحقيقي 2

على ربوع الموسميات ... شدو البلابل والتّغرّيد
يا زين صوت الراعبيات ... فـ الدرب ومْروّح تبا الذيد

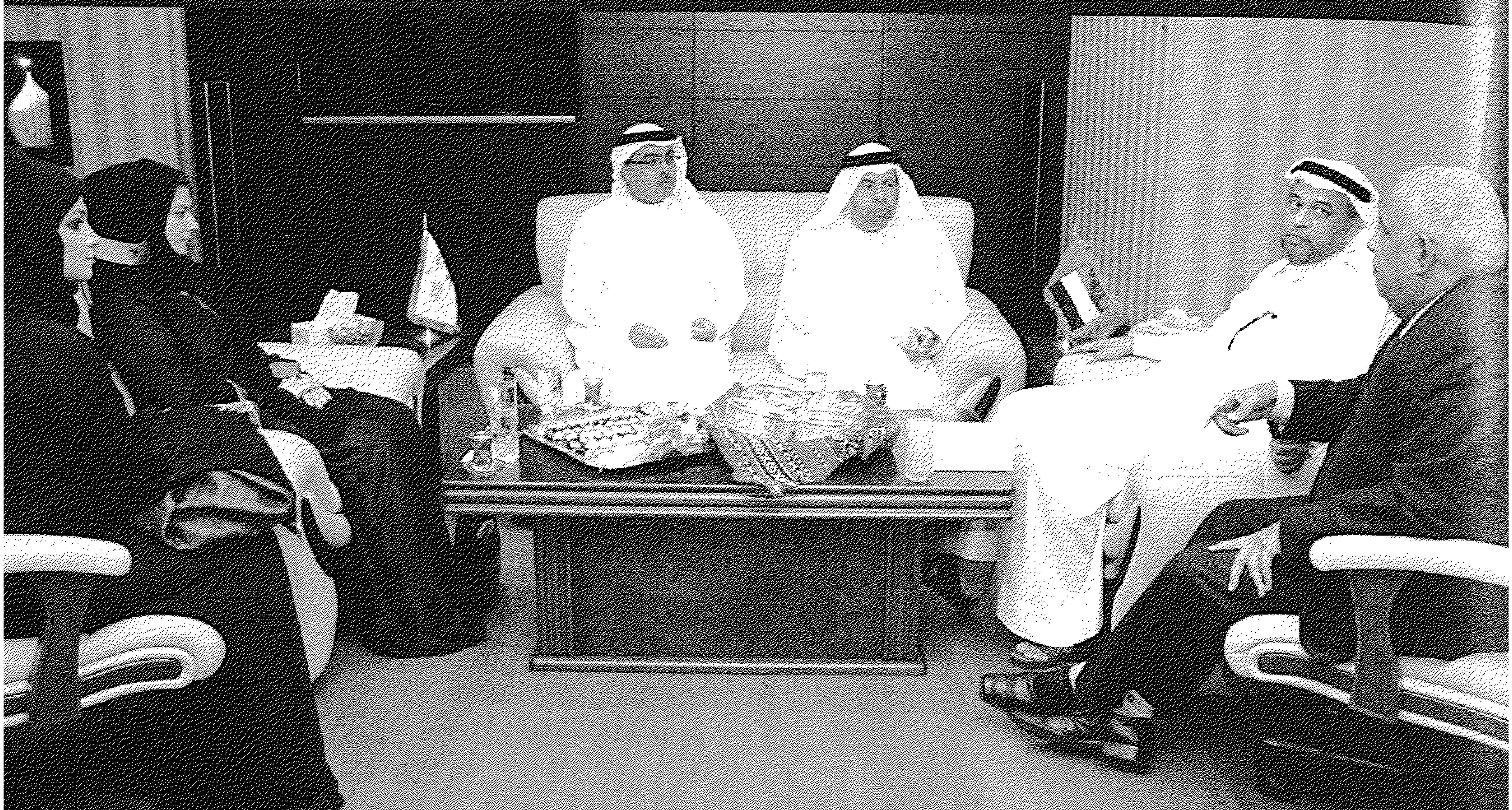
ربيع بن ياقوت

المكان الحقيقي 3

لي شار با لدمام ما شار ... بدعي عسى إن الله يجازيه
تصبح وتمسي دوم محتار ... والقلب ماله من يسليه

غانم العصري

هنا الشاعر أشار لذكر الدمام كمكان حقيقي تصعب الإقامة فيه.





المكان الحقيقي 4

شلوبي واقفوبي من السيف		وفارقت من حلوٍ وداده
وابرحـــت ما بين الميـاديف		مـيهود ويطالع بـلاده

المكان الحقيقي 5

وا عليـــه وا على حــالي		وا على الغوّاص مدّو به
واقطعوا به سيح ورمالي		صايْ الخدّين روفوا به

المكان الحقيقي 6

مـثل نـور العين نـدراكم		موفيين العهد ما خنّا
يا ظبا (ام خنّور) مرباكم		مـرتع الغـزلان يرعنّا

راشد بن طناف

أم خنور: الشارقة

المكان الحقيقي 7

عمري وروحي ف الشعيبة		لي ف الفضا سكّان عيمان
هنتـين والثـالثه عجيبة		والرابــعة تريح بـالأوزان

سالم البحري

المكان الحقيقي 8

باون والخاطر بياني ســكن		عيـمــان شــوقنــي هــواهـا
نشدت الناس عن عوقٍ بلاني		ثـرا العشـاق ما يحصـل دواهـا
أبــاك ألفـين لو مره تبـاني		مـا غير الـناس ما عيني جداها
وسبع لكوك قصرٍ من ثماني		وحـبة خـال إذا خـشم تلاهــا

علي الصوري النعيمي

المكان الرمزي: هو ذاك المكان الذي كان يتوق له الشاعر لسبب أو لآخر أو لأنه لم يقدر على ذكره بشكل صريح. وقد يكون مكاناً حقيقياً لكن الظروف لم تسمح للإتيان على ذكره.

المكان الرمزي 1

بو وجنتين الريم يفـــال عني يفل واتلاحـــق البيت
حييت باب البيت وآســـال عن دوس محبـوبي وحبيت
ما بيه من بابه ولرمـــال بي من ظهر ثـم رد في البيت

راشد الخضر

المكان الرمزي هنا هو عتبة باب بيت الحبيبة.

المكان الرمزي 2

ما فـاد معـروفي أنا فيـــك يحّـاد لا تـرحم ولا اتروف
من حاضر وغايب ببـريـك عنْك بْقناة اسويس بـاطوف
برْاس الرجا الصالح بخليك تلعب بـك المويـه بعاصـوف
تطبع وحـمّال العـرب فيـك تخسر وراس المال مصروف

راشد بن طناف

الأمكنة الرمزية: قناة السويس، رأس الرجاء الصالح.

المكان الرمزي 3

لا تظن بي حاســد واحني شـروى العسل والزبد في طاس
ف(الصير) انا شيرت سني والا انتــه اتيـاوش تبـا (داس)
سنير مع ربيّع عســى اني واتقـالصـوا في السيـر لا باس

راشد بن طناف

أشارت الأبيات إلى مكانين رمزيين : جزيرة الصير و جزيرة داس اللتين كانتا تشتهران في مواسم الغوص.

المكان الرمزي 4

في حياتي طالب الجنه في مماتي كود الاجيها
ما غبى شيٍ امغبنه في السما ماقدرت اغبيها

الجنة

المكان الرمزي 5

ساروا عني خلوني طيرٍ كسير يناح
في زيزا برزوني اتّهبّني لرياح

زيزا: صحراء

المكان الخيالي: أو المكان التصوري هو نوع من الهروب من الواقع، وتعبير عن الرغبات المكبوتة، صعبة المنال.

المكان الخيالي 1

لو حلْت مْ الأوطان حلنا وياك لو الربع الخرابِ
لو في ثقب ابره يسعنا اوياك آسع م الهضابي

راشد الخضر

المكان الخيالي هنا هو الثقب.

المكان الخيالي 2

ليتني في منحر الغالي ولي عطشت اشربت من ريجه
ريج خلي سكر ازلالي يبري العلات والضيجه

في إشارة إلى عُنق المعشوقة

المكان الخيالي 3

في قرف ميزه تروم تعْبر م الخان وتعبّر على قيس
ومْن الضّبابه تْروم تمْزر حيضان واتْمزّر فناطيس

المكان الخيالي 4

باني قصر في راس حبه   ومخطف الوادي معاليه

آحـــــب وآدور مـــحبه   وخلي بكاس الود بسجيه

خلاصة

معظم النصوص الشعرية مرتبطة بالمكان، سواء كان حقيقياً أو رمزياً أو خيالياً.

الإشارة للمكان الحقيقي تأتي دائماً بشكل صريح.

ذكر المكان الرمزي لا يكون دائماً بشكل صريح، لكن الإشارة له تكون من باب الإيحاء أو التمني، فهو أمل منشود، أو أمنية غالية.

المكان الخيالي أو التصوري هو نوع من الهروب من الواقع، وتعبير عن الرغبات المكبوتة، صعبة المنال ■

الندوة بتاريخ 2010/7/12

المحاضر:

الأستاذة/ فرح البستكي

مديرة قسم الاتصال وعلاقات المانحين في مؤسسة خليفة بن زايد للأعمال الإنسانية

(الندوة الثانية - الورقة الورقة الثانية)

عنوان الندوة:

ذاكرة المكان الإماراتي من وجهة نظر جمعية التراث العمراني في دولة الإمارات

سيرة ذاتية

- عضو في مجلس إدارة جمعية التراث العمراني.
- عضو في جمعية أصدقاء النخلة.
- لها اهتمام واسع بمجالات التخطيط ومشاريع التراث العمراني.
- لها اهتمامات إعلامية وبحثية واسعة.
- عملت بشكل مباشر مع العديد من المنظمات والبرامج الدولية مثل برنامج الأمم المتحدة الإنمائي والأنروا ومفوضية شؤون اللاجئين واليونيسيف وغيرها من المنظمات الدولية والإقليمية والمحلية.



ذاكرة المكان الإماراتي من وجهة نظر جمعية التراث العمراني في دولة الإمارات

في البداية، أود أن أربط ذاكرة المكان الإماراتي بأقوال المغفور له بإذن الله الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان مؤسس الاتحاد عندما قال:«لقد خرجت طلائع شعبنا الوفي تتقدمه قياداته الوطنية متمثلة في حكامه وأبنائه المخلصين، ليغرسوا نبتاً طيباً طاهراً في أرض طيبة طاهرة، وليعلنوا على الملأ أن هناك شعباً وفياً واحداً التقت إرادته وصح عزمه وسلك طريقه لتحقيق أمنية غالية طالما طافت بأحلامنا واستقرت في ضمائرنا، وها نحن الآن جميعاً أبناء بلد واحد تظلنا المحبة والإخاء، وترعانا وتشملنا عناية الله عز وجل.» يرمز هذا القول إلى ضرورة الحفاظ على ذاكرة المكان التي تحفظ لنا الانتماء والهوية والتاريخ والحنين إلى الماضي. أما سلبيات محو الذاكرة فتكمن في قطع الأواصر مع الأصول، والضياع والشتات، وفقدان الذاكرة، وضياع الهوية والانتماء، وضياع التاريخ.

من ملامح وخصائص العمران التقليدي في الإمارات:

يعدّ البناء التقليدي القديم هو ابن أرضه وبيئته، وبالتالي فإن الصحراء طبعت العمارة التقليدية بتربتها ولونها في الإمارات. وأهم ما يميز العمارة التقليدية التي تزخر بها دولة الإمارات هو النمط الذي واكب التطور المتنامي الذي طرأ على بنيانها الاجتماعي والاقتصادي والحضاري خلال الحقبات الزمنية المتعاقبة، حيث مثلت تلك المعطيات تسجيلاً دقيقاً لأحداث المجتمع من جهة وكيفية تفاعل العمارة لاستيفاء

المتغيرات والاحتياجات من جهة أخرى. ومن ملامح البناء:

اختيار موقع البناء: تأثر الموقع بشكل كبير بالجغرافية المناخية في الإمارات التي

تتميز بحرارة الجو والرطوبة وهو ما صعّب انتشار المناطق السكنية وتوسعها، حيث نجدها مستقرة وملتزمة بمنطقة الساحل في الغالب.

المواد المستخدمة في عملية البناء: كانت من الطبيعة، نظراً لصعوبة نقل المواد الأساسية.

حجم البناء: مرتبط أيضاً بالجغرافيا، وكانت المنازل تميل إلى صغر الحجم مقارنة بدول المناطق الأخرى مثل دول البحر المتوسط والعراق.

بساطة ومرونة الطابع المعماري، حيث يأخذ من الطابع المعماري في عدة دول حسب الاختلاط وتقارب الحضارات من خلال تنقل القوافل من مكان إلى آخر.

الزخرفة: كانت تتميز بعض البيوت الميسورة في حالها بكم كبير من الزخارف في فنائها الداخلي عن البيوت الأخرى بينما تميل الى بساطة الزخرفة في الواجهات الخارجية مثل غالبية المنازل.

الخصوصية: كانت المنازل تتميز بوجود فناء في الوسط ومحاط بالغرف المنتشرة في أطراف المنزل لخصوصية أهل المنزل من النساء والأطفال.

في مرحلة الستينيات وهي المرحلة الانتقالية دخلت على ملامح العمران تغيرات طفيفة تتصل بمواد البناء بينما حافظ على ذات التصاميم السابقة.

كانت استخدامات المباني التراثية قديماً تشمل:

- القلاع والأبراج الدفاعية
- المدارس
- المساجد
- البيوت السكنية
- الأسواق

القلاع والأبراج الدفاعية، ومنها العمارة الدفاعية: ومن أنواع هذه العمارة الأسوار والأبراج والحصون والقلاع. وتنتشر هذه المنعات والمباني ذات الطابع الدفاعي في أماكن مختلفة داخل المدن وفي أطرافها، وهي نوع من العمارة المحلية ذات الطابع الدفاعي التقليدي، حيث كان الأهالي يستخدمونها في صد العدوان الخارجي، وكذلك لحماية وحفظ الأمن في البلد. وهناك الأبراج الدائرية والمربعة الشكل. وتعتبر الأبراج





خط الدفاع الأول للمدينة وحولها تبنى الأسوار التي تحيط بالمدينة ولهذه الأسوار بوابات محكمة.

ومن أشهر الحصون والقلاع في الإمارات:

من أبرز معالم أبوظبي، قصر الحصن ويعود تاريخه إلى عام 1793م، وفي العين هناك حصن الجاهلي)الذي شيده الشيخ زايد بن خليفة آل نهيان عام 1898م)، وحصن المويجعي والحصن الشرقي وغيرها في المنطقة الغربية. يعتبر قصر الحصن أقدم مبنى تاريخي في أبوظبي، تم بناؤه حوالي سنة 1795، حيث أمر الشيخ شخبوط بن ذياب ببناء قلعة محصنة ومقر إقامة له ولعائلته. وتم دمج برج المراقبة في حصن أكبر اشتمل على برجين دائريين وبرجين مربعين بالإضافة إلى مبانٍ داخلية تم تشييدها حول فناء مركزي. أصبح القصر مقر الإقامة الرسمي ومركزاً لحكم الشيخ شخبوط الذي حكم من 1793 إلى 1816م. كما تعتبر قلعة الجاهلي واحدة من أكبر القلاع في الدولة، وقد كانت مقر الإقامة الصيفية للعائلة الحاكمة. تم البدء في بناء القلعة في عام 1891 تحت حكم الشيخ زايد الأول، وتم إنجازها بحلول العام 1898. وبعد وفاة الشيخ زايد سنة 1909، واصل ابنه الأكبر الشيخ خليفة الإقامة في الحصن مع عائلته وقام بزراعة المنطقة. وبقي تاريخ قلعة الجاهلي خلال الثلاثين سنة التي تلت غامضاً، لكن ما يُعرف أن القلعة تعرضت للهجر والإهمال في بداية الخمسينيات عندما حلّت القوات البريطانية بمدينة العين واتخذت القلعة كقاعدة لوحدة «قوات عُمان المتصالحة». وتمت إضافة ثكنات ومبانٍ أخرى إلى المكان الذي كان يضم أيضاً القلعة والبرج.

وفي دبي نجد قلعة الفهيدي وغيرها من القلاع المنتشرة في دبي، وفي حتا نجد حصن حتا وبنيت في عام 1790 م. وفي الشارقة نجد«حصن الشارقة» الذي يعود تاريخ تشييده إلى بداية حكم الشيخ سلطان بن صقر القاسمي الكبير الذي تولى الحكم 1803 – 1866 م. وفي عجمان «حصن عجمان» الذي بني عام 1775 م، وفي أم القيوين «حصن أم القيوين»، وفي رأس الخيمة «حصن أو قصر الزبّاء» الذي يعود بناؤه إلى فترة قديمة، وهو يقع في منطقة شمل، أما «حصن القواسم» بمدينة رأس الخيمة فقد بني عام 1736م. وتنتشر في المنطقة الشرقية الكثير من الحصون والقلاع

من أهمها «قلعة الفجيرة» التي يعود تاريخها إلى حوالي عام 1670 م، و(قلعة البثنة) التي بنيت في عام 1735 م.

المدارس القديمة

ومن أقدم المدارس في الإمارات:

المدرسة التيمية المحمودية؛ أسسها الشيخ علي بن محمد المحمود في الشارقة 1905م، وهي أول مدرسة شبه نظامية في الإمارات.

المدرسة الأحمدية؛ أسسها الشيخ محمد بن أحمد بن دلموك في دبي، وهي أول مدرسة شبه نظامية في إمارة دبي 1912م.

المدرسة السالمية؛ أسسها التاجر سالم بن مصبح السويدي في ديرة، وهي ثاني مدرسة شبه نظامية في إمارة دبي. 1924م

مدرسة السعادة؛ أسسها كلٌّ من يوسف بن عبدالله السركال ومحمد بن عبيد البدور وهلال بن رمضان الشميس في ديرة 1926م.

مدرسة الفلاح؛ أسسها الشيخ محمد علي زينل في بر دبي 1927م.

مدرسة بن خلف؛ أسسها التاجر خلف بن عبدالله العتيبة في أبوظبي، وهي أول مدرسة شبه نظامية في إمارة أبوظبي 1930م.

مدرسة الشيخ سلطان بن سالم في رأس الخيمة 1932م.

المدرسة النهيانية في العين 1959م.

المساجد القديمة

أهم النماذج القديمة من المساجد في الدولة

- مسجد البدية؛ من أقدم المساجد في الإمارات ويقدر عمره بأكثر من خمسة قرون أو أكثر.

- مسجد سيف بن رباع الظاهري؛ يقع جنوب-غرب واحة الجيمي محاطاً بمزارع النخيل. وثمة مساحة مغطاة مصنوعة من سعف النخيل في الجهة المقابلة لهذا البناء المستطيل بجوار مكان الصلاة. أما داخل المسجد، فيوجد محراب باتجاه قبلة الصلاة.

- بينما تختلف مساجد دلما الثلاثة (المريخي والدوسري والمهندي) من حيث الحجم، فإنها تتمتع بقواسم مشتركة عديدة. ووفقاً للتقاليد المعمارية في منطقة الخليج العربي، فليس للمساجد مآذن ينطلق منها نداء الصلاة. وتتشابه المساجد من حيث مخططاتها وتصاميمها وزخارفها. ويتميز بناؤها بالجسور والألواح التي يتخللها عدد من النوافذ، وهي مزودة بالبارجيل (وهو برج هوائي) يسمح بتوفير أكبر قدر ممكن من التهوية. وفي كل مبنى، تم ضبط جدار قِبلة الصلاة عن طريق المحراب. ومن العادة أن يُحاط المحراب بإطارات مستطيلة ومزخرفة الشكل تبرز عمقه. أما مسجد المهندي فكان يضم زخرفة في شكل صورة قارب محفورة في الجص على الحائط الشمالي لرواق المسجد.

المنازل القديمة

أهم النماذج من المنازل التقليدية

من أهم المنازل في واحة الجيمي منزل الشيخ أحمد بن هلال الظاهري ويعود تاريخه إلى منتصف القرن التاسع عشر، وهو مبنى كبير ومحصّن. حيث يوجد برج على الجانب الشمالي للمنزل، وآخر في الركن الجنوبي-الشرقي يمنح مزيداً من الحماية للجهة الغربية للمنزل. أما شمالاً وشرقاً، فتوجد مزرعة نخيل. كان الشيخ أحمد بن هلال ممثلاً للشيخ زايد بن خليفة في العين. وقد لعب الشيخ دور الوسيط بين الحاكم في أبوظبي والشعب في العين وشمال عُمان، حيث كان يستقبل الناس ويستمع إلى انشغالاتهم ويلبي طلباتهم في ساحة اجتماعات خاصة مجاورة لمدخل بيته. وإلى الجنوب، يرتفع برج مراقبة الشيخ أحمد بن هلال الظاهري. وقد تم بناء هذا البرج الذي يبلغ ارتفاعه 14 متراً بهدف الدفاع عن عدة قرى في المنطقة وإحباط محاولات قطع إمداداتها بالمياه. وتقف قرب البرج شجرة سدر كان يعتقد أنها مصدر إلهام قصيدة ألّفها الشاعر سعيد بن محمد الظاهري، حفيد الشيخ أحمد. وأيضاً هناك منزل ابن حمودة الظاهري الذي أمر ببنائه قبل 200 سنة خلت. وكان حفيده الأكبر، حمودة بن علي النعيمي الظاهري، أحد كبار المسؤولين وأصبح وكيل وزارة الداخلية في ما بعد، ثم في وقت لاحق وزيراً للداخلية والمستشار الشخصي للمغفور له الشيخ زايد



بن سلطان آل نهيان. كما يوجد في الفناء المركزي للمنزل مُصلى وبئر عميقة.

من المنازل في الماضي هي العريش التي كانت تستخدم في فصل الصيف، وأيضاً المنازل في رؤوس الجبال في إمارة رأس الخيمة.

تم الحفاظ على ذاكرة المكان من خلال الاستخدامات الحديثة في دبي والشارقة والعين على هيئة:

- تعديل وترميم الواجهات والعمل على إضفاء الطابع التقليدي على واجهات المباني الحديثة.
- تطوير الساحات العامة بوضع النماذج المعمارية.
- إعادة تأهيل بعض المباني إلى متاحف، فنادق تراثية، ومطاعم ومقاهي، صالات العرض الفنية.

سنة 2004 استطعنا تحويل مجموعة من الغرف التراثية في سوق العرصة القديم كنزل وحاولنا تجميع أثاث تقليدي، وكان يدار بطريقة تقليدية.

كيفية الحفاظ على ذاكرة المكان من وجهة نظر جمعية التراث العمراني.

1 - ترميم المناطق والمباني التاريخية؛ أود أن أذكر هنا أن إمارة دبي والشارقة شرعت قوانين خاصة بالمحافظة على المباني الأثرية وتسعى الجمعية بالتعاون مع الجهات الرسمية لاستصدار قانون اتحادي للحفاظ على المباني وتسجيلها باليونسكو.

2 - إحياء المناطق التاريخية.

3 - الحفاظ على الذاكرة الشفهية من خلال الكتب والمطبوعات والأفلام.

4 - إدخال صور تاريخية ومعلومات في المناهج الدراسية.

5 - إقامة المسابقات والمهرجانات في مجالات التراث.

6 - إقامة المتاحف التراثية.

أود الإشارة الى إحصائية غير رسمية لعدد المباني التاريخية في الدولة، وقد تم إعدادها بجهود خاصة لجمعية التراث العمراني لحصرها وهو ما يقارب 3100

مبنى تاريخي على مستوى الدولة وهي موزعة على النحو التالي: أبوظبي 600 أغلبها في المنطقة الغربية ومدينة العين، وفي دبي 550 تم حصر الرقم من بلدية دبي، وفي الشارقة 600، وفي عجمان 50، وأم القيوين 150، والفجيرة 550، ورأس الخيمة 600.

وفي الختام، يقول أبو العلاء المعري:

مررت برسم في سيات فراغي — به زَجَلُ الأحجار تحت المعاول
أَتُتْلِفُها شُلَّتْ يمينُك خلها — لمعتبر أو زائر أو مسائل
منازل قوم حدثتنا حديثُهم — فلم أر أحلى من حديث المنازل

و يقول سعد بن ناشب:

فإن تهدموا بالغدر داري فإنها — تراث كريم لا يبالي العواقبا ■

الندوة بتاريخ 2010/7/12

المحاضر:

أستاذ أحمد محمد عبيد

باحث في التراث الوطني في هيئة أبوظبي للثقافة والتراث.

(الندوة الثانية - الورقة الورقة الثالثة)

عنوان الندوة:

المكان في لهجة أهل الإمارات

سيرة ذاتية

- شاعر وكاتب وباحث ومحقق ومخطط ثقافي.
- هو عضو في اتحاد كتاب وأدباء الإمارات.
- له أكثر من 45 إصداراً في الشعر والنثر والدراسات الأدبية والتاريخية واللهجات والثقافة.
- له مشروعات ثقافية عدة من بينها:
  - المشروع الوطني لتوثيق لهجات الإمارات.
  - المشروع الوطني لتوثيق تراث الإمارات.
  - المشروع الوطني لتوثيق المسميات الجغرافية.
  - كما له مشروع يحمل اسم «مبادرة أحمد عبيد الثقافية»، وموسوعات مثل:
  - موسوعة المؤلفين والمحققين والمترجمين الإماراتيين
  - موسوعة أعلام الإمارات.



المكان في لهجة أهل الإمارات

يتسم المعجم اللغوي الخاص بالأماكن ووصفها في لهجة الإمارات بالثراء والتنوع والدقة، وهو امتداد لحصيلة لغوية قديمة كانت مستخدمة في اللهجات التي سادت هذه المنطقة قديما كلهجات قبائل الأزد وعبد القيس وتميم وغيرها، وقد استمر هذا الثراء اللغوي حتى وقتنا الحاضر بسبب مداومة استعمال هذه الألفاظ واستخدامها حسب العلاقة المتبادلة بين الإنسان والمكان، وكلما كانت هذه العلاقة متقاربة أو لصيقة كان حضور هذا المعجم في الإنسان المتصل به كبيراً.

أولا - ملاحظات حول المدلولات اللغوية:

ينقسم المكان في اللهجة إلى طورين؛ أولهما المعنى اللغوي للمكان، مثل «السيح»، ثم الطور التالي حين تتحول بعض المعاني إلى أسماء أعلام دالة على المكان مثل«سيح المهب».

المكان في لهجة الإمارات بطوريه قديم منذ أيام الفصحى، وانتقل من الفصحى إلى اللهجات الحالية المتداولة بالمسمى نفسه ما أمكن مع تغير طريقة نطقه حسب بنية اللهجة التي يُنطق بها، مثل «جَبل علي» الذي تغير نطقه حسب لهجة دبي إلى «يبَل علي».

أطلق الأقدمون معنى اسم المكان تبعاً للوصف الطبوغرافي الخاص به، خاصة الطبيعة الرملية والصخرية ثم المائية أو البحرية أو النباتية، وفي الطبيعة الصخرية والرملية عادة تكون صفات الارتفاع والانخفاض واضحة وهي التي تحدد طبيعة المكان مثل «النّيد» و«الهو» (المكان المنخفض).

يتسم المعنى اللغوي أو الصفة التي أطلقت على المكان بالدقة الشديدة، فالأماكن في نظرنا تتشابه في وصفها الطبوغرافي من أول وهلة، لكننا لا نجد معنى لغوياً قد أطلق على صفة مكانية لا تناسبه، ونجد هذا الثراء والدقة خاصة في المعاني التي تطلق على الكثبان الرملية مثل «نقن، دعثور، هيالي، حدبة، طعس.. إلخ».

مسميات المواضع - الأماكن

يتحول المعنى اللغوي إلى مسمى علم على المكان المراد إطلاق التسمية عليه، حسب الطبيعة المكانية أيضاً، فينتقل من المدلول اللغوي إلى اسم العلَم، مثل «شرم» وهي السيف«الشريط لساحلي» الممتد بين بحر ومنطقة جبلية، أو معنى مائي مثل «لمسافي» جمع «المسفاة» أي الماء الجاري على حصا الوادي وهي صيغة جمع تقابلها أسماء بالصيغة المفردة مثل مسفاة قريات في سلطنة عُمان ومسفاة العبريين، و«الفايضة» في العين أو جبل «الفصيل» في خورفكان، صفة للجبل المنفرد، أو «ضدّنى»، وهي الأرض السهلة، أو «الحلاة» القرية المعروفة على طريق المسافي - دبا وهي كما يذكرها ابن دريد في «جوهرة اللغة»: الأرض التي تنبت ذكور البقل، أو «المرفأ» الموضع الذي ترفأ فيه السفن أي تنزل أشرعتها.

تحديد مسميات الأماكن يعود إلى رغبة الإنسان في الحصول على دقة الوصف المطلوب في حال البحث عن إنسان مفقود أو بعير ضال أو عدو مترصد في مكان ما، فيكون الإخبار عن مكانه في الموضع الذي أطقت عليه تسمية خاصة به لتسهيل عملية تحديد المعلومة.

تتلاءم مسميات المواضع مع الصيغ الصرفية للعربية الفصحى ومع الصيغ المتحولة عنها في اللهجات المعاصرة، ولذلك يمكن إرجاع أي مسمى إلى أصله الفصيح من دون صعوبة. توجد مسميات لأماكن في دولة الإمارات لها ذكر في كتب التراث مثل: زكت، حفيت، توام، جلفار، الفجيرة، خورفكان، كلباء، دبا، الحلاة، الصبخه وغيرها.

تندر بل تكاد تنعدم تلك الأسماء ذات الجذر الثنائي، مثل اسم «دد» في الشعر الجاهلي، كما قال الشاعر طرفة بن العبد في معلقته الشهيرة:

كأن حدوج المالكّية غدوةً   خلايا سفين بالنواصف من دَد

جذور الأسماء والأماكن الموجودة في دولة الإمارات تعود الى الجذر الثلاثي أو الرباعي وفي بعض الأحيان الى الخماسي، لا يوجد جذر ثنائي حتى في الأماكن القديمة التي ذكرت عند الجغرافيين على اعتبار أنها من بقايا اللغات السامية القديمة. والذي رجح البعض أن يكون هو اسم جبل «داد» في بلدة الحلاة، وهو ليس كذلك، وأسماء الأعلام ذات الجذر الثنائي كانت موجودة في الفصحى القديمة.

كبار السن من أهل منطقة «خت» يقولون عن معنى كلمة «خت» أنه اسم صنم كان في المنطقة في عصر الجاهلية، ونجد، مقابل ذلك، عند الأنباط وهم من الشعوب العربية

صنم اسمه بي خت، وهناك صنم من أصنام شعوب وادي النيل في مصر اسمه اسرخت، وهناك رأي قوي يتبناه الدكتور علي فهمي شتيم رئيس مجمع اللغة العربية في ليبيا أن لغة أهل مصر القديمة هي لهجة عربية قديمة وأن الآله والأصنام المعبوده في مصر القديمة هي في أصولها أصنام ذات أسماء عربية وأنا من مؤيدي هذا الرأي بناء على دلائل معينة.

بعض الأعلام تنتهي بألف ونون مثل سويحان، وحبشان، وخور فكان .. وهذه الصيغة توجد في الفصحى القديمة مثل «سمنان» وهي من بقايا الصيغ القديمة في اللغات السامية، وتكثر في اللغة الآرامية خاصة في لهجات بلاد أهل الشام القديمة.

كثير من مسميات المواضع تخضع للإضافة، ويعود ذلك إلى ارتباط المكان تاريخيا باسم شخص أو حيوان أو نبات يكثر فيه أو صفة قديمة مجهولة، مثل: خور فكان، وُعيب الحنا، وادي القور، وهور العنز، وموشر الزبا، بل قد يتعدى ذلك إلى أكثر من ثلاث لفظات في المسمى الواحد مثل «دُكوك خير مكنوز» في رول ضدنا.

تطلق صفات جمع المؤنث السالم على بعض الأماكن مثل: القصيدات. تطلق صفة التصغير على بعض الأماكن مثل: الحويبط، في غرب شرم. تندر الأسماء ذات الصيغ القديمة المستعملة في الحميرية أو لغات اليمن القديم، على أوزان «فعّلوت وفعليت» ومن بقاياها اسم «مصفوت». هناك معجم كبير وواسع قمت بجمع ما أمكنني، وفي ما يلي قائمة بمسميات الأمكنة في مختلف أحوالها الجغرافية ومعانيها، بحسب ما تستخدم في لهجة أهل الإمارات.

الأراضي المسطحة

- براحة: متسع من الأرض كيفما كان، ويُطلق أيضاً على سفح الجبل، وتُطلق على المكان الواسع صفة «برِّح».
- بر: الأرض الصحراوية.
- بلقع: الأرض القَفْر التي لا شيء بها.
- جندلية: المتاهة في الصحراء، أو هي مساحة مترامية الأطراف مثل السيح، والجندل في اللغة: المكان الغليظ فيه حجارة.
- دارَة: هي في اللغة «كل أرض واسعة بين جبال»، وهي قليلة في دولة الإمارات، ومنها

«الدارة» في جبال رأس الخيمة قرب شعم، ويطلق عليها «مَدارة» في لهجة المنطقة الغربية.

– دَعْنَة: هي الأرض، وكذلك معناها في اللغة.

– ديرة – سَطحة: أرض فوق الجبال مسطحة جرداء أو بها نخيل، وتكثر في جبال رأس الخيمة، وتسمى «سطحة» في لهجات المنطقة الشرقية.

– رقعة: وهي «قطعة من الأرض تلتصق بأخرى».

– زِرّية – زرجة: أرض صحراوية مستوية لا ينبت فيها الشجر.

– سَمّط: أرض صلبة مستوية، وفي اللغة «سِمط الرمل: «حِبْله»، «والحَبْل: الرمل المستطيل».

– سيح: منطقة صحراوية ترابية واسعة، والسَّيْح في اللغة: الماء الجاري على وجه الأرض، ومنه: سيح المهَب، بين الذيد وثوبان في المنطقة الوسطى.

– صليب: الأرض الصلبة الشديدة، وفي اللغة «مكان صُلْب وصَلَب: غليظ حَجِر».

– صَميم: أرض صماء أي صلبة وكثيرة الحجارة.

– طفّ: أرض صلبة ممتدة، وفي اللغة «الطّفوف: جمع طف، وهو ساحل البحر وجانب البر».

– عَرْصة: الساحة بين البيوت والدور، وهي في اللغة «كل بقعة بين الدور واسعة ليس فيها بناء».

– مسطاح: الأرض المسطحة، أو التي لا تخرج ماء ولا تنبت شجراً.

– وطِية: سفح الجبل في لهجة الشحوح، وهي البراحة في بقية لهجات الإمارات.

المرتفعات الرملية

– برقا: البُرْقَة: تل رملي صلب، وفي اللغة «البُرْقَة والبَرقاء: أرض غليظة مختلطة بحجارة ورمل».

– حِدبة: حُدبَة: مرتفع رملي مقوس السطح، والجمع «حُدَب» في لهجات البدو في الساحل الغربي، وفي اللغة «الحِدَب: الغلظ من الأرض في ارتفاع، والجمع: حِداب».

– خريمة: الخريمة هي المنطقة الرملية المكشوفة، كما في اللهجة الدارجة، ولعل أصلها «خُرَيْمَة» تصغير «خَرماء» وهي «رابية تنهبط في وَهْدة» أي منخفض من الأرض، و«أكَمة خرماء: لها جانب واحد لا يمكن الصعود منه».

– دَعْثور: تل رملي صحراوي كامل الاستدارة، متوسط الارتفاع، ولعله التل لذي يطأه





الناس بكثرة، وفي اللغة «أرضٌ مُدَعثرَة: موطوءة».

- دكّ: تل ترابي صلب، في لهجات المنطقة الشرقية.

- دِمّيَة: تل صغير رملي يرتفع عن الأرض ثلاثة أمتار تقريبا، من دون حجارة عليه، لا تنبت عليه الأشجار، في لهجة العين.

- رِزْم: تل رملي مرتفع في لهجة المنطقة الغربية.

- سِيّالي: كثيّب رملي ذو رمال لا يمكن الاستقرار عليها لأنها تبتلع من يقف عليها، من لهجات البدو في المنطقة الوسطى.

- شامخ: تل رملي صحراوي مرتفع، أصغر من «القعيدة» قليلاً، في لهجات العين وأبوظبي والمنطقة الغربية.

- طعس: من التلال الرملية الصحراوية.

- عَرقوب: كُثيِّب رملي مرتفع عن الأرض، وفي اللغة «العُرقوب من الوادي: موضع فيه انحناء والتواء شديد» وقيل «طريق ضيق في الوادي البعيد القعر، لا يمشي فيه إلا واحد».

- عُروض: ظهر النقا، أو التل الرملي.

- قرن- جرن: تل قليل الارتفاع، ومنه التل المشهور في أبوظبي «جرن يافور»، والأصل أنه يطلق على قرن الجبل، ثم استُعمل للتل، وفي اللغة «القُرْنَة: الطرف الشاخص من كل قعيدة- جعيدة: تل رملي صحراوي كأكبر ما يكون من التلال، في لهجات العين والمنطقة الغربية، وفي اللغة: القَعيدة من الرمل: «التي ليست بمستطيلة، وقيل: هي الجبل اللاطي بالأرض، وقيل: هو ما ارتكم منه» أي ما صار ركاما.

- قف: والجمع الدارج لها: قْفاو، أي قِفاف، ثم ابدلوا الفاء واو، والقف حجارة غاص بعضها ببعض، مترادف بعضها إلى بعض، حمرٌ لا يخالطها من اللين والسهولة شيء، وهو جبل غير أنه ليس بطويل في السماء، فيه إشراف على ما حوله، ومن مواضعه: قْفاو الحوية.

- قَلّة: بقلب القاف جيماً، في لهجة العين، وهي تل بارز في أرض واسعة مستوية. به حجارة كبيرة ورمل، على نبات قليل بعد سقوط المطر.

- راس: لعله المرتفع الرملي الصلب الذي نحتته عوامل التعرية والتجوية فصار مرتفعا كأنه رأس للناظر إليه من بعيد.

- الرزم: تل رملي مرتفع، في لهجة المنطقة الغربية.

– ندّ: تل ترابي مرتفع، مثل ند الشبا، في دبي، وهو في اللغة «التل المرتفع في السماء، لغة يمانية» أي من لهجات أزد عمان.

– نقا: تل رملي صحراوي على شكل هلال، يسمى الرمل في باطنه «هيل» في لهجة دبي وما حولها، و«هيّالي» في لهجات أبوظبي وما جاورها، وهو في اللغة: النّقَى من الرمل: القطعة تنقاد مُحدودبة... وهذه نَقاةٌ من الرمل للكثيب المجتمع الأبيض الذي لا ينبت شيئاً».

– نكود: مرتفع رملي عالٍ، في لهجات البدو.

– نَيْوَة: أي النجوة، ما ارتفع من الأرض فوق مستوى الوادي بمنجاة من السيل، وفي منطقة ضدنا يوجد موضع بها الاسم على رأس الوادي قرب البحر.

– هَيَر- حَيَر: الأولى في لهجة أبوظبي والعين، والأخرى في لهجة المنطقة الوسطى والشمالية، وهو نقيان أو ندود متتابعة، ولعل هذا الاختلاف من أمثلة إبدال الهاء حاء، مثل: «كحَف» في لهجة الشحوح بدلا من«كهف».

– يْوار: مرتفعات رملية ممتدة على جوانب الوديان المنخفضة، في لهجات المنطقة الشرقية، أو تكون مع نقطة التقاء واديين حيث تمتد في اتجاههما، ولعلها: الجوار، وفي اللغة «الجَوار: الماء الكثير».

المنخفضات والأودية

– بَطْحة: أي بطحاء، وهي أرضية باطن الوادي.

– بْون: طرف الوادي أو حافته.

– بيح: أكبر ما يكون من الوديان، ومنه سُمي «وادي البيح» في إمارة رأس الخيمة.

– جِرف- يِرْف، وهي اللغة «ما أكل السيف من أسفل شق الوادي أو النهر».

– جفْرة- يِفرة: حفرة واسعة في الأراضي الترابية والطينية، تكون أحيانا بحفر الإنسان ذلك الموضع طلبا للماء فيه. وفي اللغة «الجُفرة: الحفرة الواسعة المستديرة».

– حادي: جانب الوادي إذا كانت الأرض مرتفعة عن الوادي، وهو طرف الأرض، ومنه يكون السقوط في الوادي.

– حَدرة: مجرى ينحدر فيه ماء المطر من الجبل إلى أسفله، من لهجات المنطقة الشرقية.

– حقنة: حقنة: لعل المعنى القريب لها أنها المنخفض من الأرض، تشبيها لها بالحاقِنة، وهي «الوَهدة المنخفضة بين الترقوتين من الحلق».

– حَنْيَة: المنحنى في الوادي أو الجبل.

– حَوِّيصة: حفرة مدورة في الرمل، في لهجات إمارة أبوظبي.

– خبّ: منخفض واسع في الأرض، يكون في الصحراء والسهول القريبة من الجبال، وفي اللغة «الخَبّة في الرمل كهيئة الفالق، غير أنها أوسع واشد انتشارا». الخُبّ: الغامض من الأرض..« والخَب »سهل بين حزنين يكون فيه الكمأة».

– خَطْمَة: واد صغير يجري فيه ماء السيل، في لهجة الظهوريين.

– داعوب– مِدّعاب – مِدعب: مجرى لماء المطر يجتمع فيه الماء، في لهجات الساحل الغربي، وفي اللغة «ماء داعب: يستن في سبيله»، وفي لهجات الساحل الشرقي يقال للوادي حين يهدر بشدة: يدبَع، وفي الساحل الغربي: يدعب.

– دريب: مجرى لماء المطر، أصغر من الداعوب.

– روّاغة: ما يتبقى من الماء الراكد في المستنقعات الناتجة عن تجمع مياه المطر، قبل أن تجف المياه تماما، في لهجات المنطقة الشرقية.

– زروف: لعل مفردها زِرّف، وهي اندفاع ماء السيل في الوادي.

– ساروق: ويسمى ساروج، بإبدال القاف جيما قاهرية، وهو البراحة في الأرض الرملية التي تقع بين مرتفعين أو أكثر من التلال الرملية وتكون كالوادي.

– سَفَري: ماء السيل القادم في الوادي من منطقة بعيدة ممطرة، من دون أن يكون هناك مطر في الأرض التي وصل إليها الوادي، فيفاجئ الناس على حين غرة، في لهجات المنطقة الشرقية.

– شِعب: مجرى لماء المطر، يصب في الوادي الكبير، من لهجات الساحل الغربي.

– عَدامة: الأرض المنخفضة في الصحراء، وفي اللغة «أرض عَدْماء: بيضاء».

– غِشّ: مجرى صغير لماء المطر، في لهجات المنطقة الشرقية.

– غليل: واد فيه نخل، وأكثر ما يكون في الوديان الجبلية القريبة من موارد المياه والقرى المأهولة، والغليل أيضاً: الوادي الصغير بين الجبلين.

– غِيل– مَحبَس: ما يتبقى من ماء السيل بعد انتهائه في بطن الوادي، وهو في لهجات

الساحل الشرقي «غيل»، وفي لهجات الشحوح «مَحبس».

– غيط: الغيط لغةً هو الغَوْط، يقال «غاط يغُوط غَوطاً: حفر، ويقال: اغوط بِئرك أي أبعد قعرها، وهي بئر غَوِطة أي بعيدة القعر، والغَوْط والغائط: المتسع من الأرض مع طمأنينة» .

– هَجلَة: منخفض من الأرض يتجمع فيه الماء على هيئة غدير، وفي اللغة «الهَجْل: مطمئن ينبت وما حوله أشد ارتفاعاً»، والمطمئن: المنخفض.

–مسِّيال– مسيلَة: مجرى مائي عرضه ثلاثة أمتار تقريباً، في البر الترابي، تتجمع فيه مياه الشعاب الصغيرة فيكون وادياً صغيراً مستقلاً يصب في المزارع أو تتجمع مسايل عدة لتصب في الوادي الكبير.

–مَشْرَب: موضع مستوٍ يُسمح من خلاله بمرور مياه الأمطار المتدفقة من قطعة زراعية إلى أخرى منخفضة، ويسمى أيضاً: مَنسَف ومضْرس.

–مَضْرَس: موضع مفترق الوادي إلى أكثر من شعبة، وكل شعبة تصبح وادياً منفرداً.

–مَنكس: هو الوادي الذي لا يجتمع فيه الماء، وهو أيضاً مفترق الوادي إلى شعبتين حين يصير إلى منطقة زراعية قريبة من العمران أو يقترب من البحر، حيث تغلق إحدى الشعبتين بالتراب ليجري في الشعبة الأخرى، أو تكون مغلقة سابقاً ويتم فتحها لإضعاف قوة اندفاع الوادي.

–منْهول: أي: مَنهل، مجرى تتجمع فيه مياه الأمطار الساقطة من الجبال أو السفوح لتصب في المسايل أو الوادي الكبير.

–هُوتَة: حفرة واسعة عميقة جداً، في لهجات المنطقة الشرقية، وفي اللغة «الهَوتَة والهُوتة... ما انخفض من الأرض واطمأن».

–هور: مستنقع منخفض تتجمع فيه مياه الأمطار، وفي اللغة «هو ما اطمأن من الرمل» وهو «بحيرة تغيض فيها مياه بحيرات وآجام فتتسع ويكثر ماؤها، والجمع أهوار». ومنه هور العنز في دبي.

–يو: الجمع يُوّان، وهو الجَوّ، وهو منخفض رملي بين الكثبان الرملية يسير فيه المارة، وفي اللغة «الجَوّ والجَوّة: المنخفض من الأرض» و«ما اتسع من الأرض واطمأن وبرز».

الجبال

- يِيب - جيب: قمة جبلية في لهجة الشحوح، ومن جبالهم «يِيب الأَروس» أي «جَيب العَروس»، والعروس هنا هو المعرس الرجل، وهذا من بقايا العربية القديمة، وهذا الجبل للخنابلة، بطن من هذه القبيلة الكريمة.

-حَقب: صخور بيضاء ممتدة في الجبل بخط مستقيم، ومنه سُمي جبل «الأَحقب» في راس الخيمة بهذا الاسم.

-خَرّة: هُوّة عميقة بين جبلين، سميت لذلك بسبب أن ما يسقط فيها يخر إلى القاع بسرعة كبيرة.

-دَحرة: جانب من الجبل عريض مائل، ينحدر عليه ماء المطر الساقط على أعلى الجبل إلى السفح، في لهجات المنطقة الشرقية.

-دَقالَة: طرف الجبل إذا كان عمودياً وغارقاً في البحر، في لهجات دبا والظهوريين.

-رِكبة: الجبل الصغير بين جبلين أكبر منه، فكأنه كمفصل الركبة بينهما، في لهجات المنطقة الشرقية.

-رِعْلة: قمة جبل عالية في لهجة الشحوح، ومنه «رعلة بن خَنبول» للخنابلة منهم، و«رعلة دِمّان» لبني شميل، و«رعلة لِحْريم» للخنازرة وبني مرة والقَيَشَة منهم، وفي اللغة «الرّعَل: أنف الجبل».

-شاقّ: فرجة بين جبلين مع انخفاض فيها، وهي أقل عمقاً من «الناحور»، من لهجات المنطقة الشرقية.

-شامخ: جبل عالٍ مرتفع ذو قمة باسقة، وهو أكثر أنواع الجبال المعروفة، والجمع شوامخ، ومنه المثل الشعبي «ضَربة بشامخ يبل ما تهمني».

-فَيّة: أي فَجّة، وهي فرجة بين جبلين.

-فدكة: والجمع «فْدوك»، أي القطعة من الجبل، في لهجة الشحوح، وهي الجبل المتهدم إلى أكثر من قطعة كبيرة، وفي اللغة «فَدَك القطنَ تفديكاً: نفَشَه، وهي لغة أزدية» أي من لهجات أزد عمان، ولعل المعنى هو التصدع في الجبل، المشابه للتفرق والنفش في القطن.

- قارة: جبل صغير منفرد بمثابة حجر عملاق، وهي في اللغة «الجُبَيل الصغير المنقطع من الجبال، والصخرة العظيمة.. وهي أصغر من الجبل».

- قرْن- جِرن: نتوء بارز في الجبل، أو الجبل الصغير، وفي اللغة«الجَبَيل المنفرد، وقيل هو قطعة تنفرد من الجبل، وقيل هو الجبل الصغير» ومنه قرن الضباع، في جبال دبا الغربية، بينما هو التل في لهجات إمارة أبوظبي.

- قمّة: رأس الجبل وأعلى مكان فيه، والجمع «قْميم».

- مِشْياق: طريق أو منفذ أو موضع في قمة الجبل، يشكل اجتيازه انتقالاً إلى الجهة الأخرى من الجبل، وفي اللغة «الشِّيق: سُقْعٌ مُستوٍ دقيق في لِهْب الجبل لا يُستطاع ارتقاؤه.. وقيل هو أعلى الجبل».

- مُوشاح: طريق أو منفذ في قمة الجبل أو بين جبلين مثل المِشياق، ولعل حرف الحاء هنا مبدل من العين لأنهما من الحروف الحلقية، وفي اللغة «وَشَع الجبلَ..: علاه، وتوشَعت الغنم لجبلَ إذا ارتقت فيه ترعاه» ولعله في أصله: المَوشع، ثم قالوا: موشاع أو موشاح، ولم أجده في المعاجم في مادة «وشح»، والإبدال بين العين والحاء موجود، كقولهم: عيفاه وحيفاه، نوع من الأسماك.

- ناحور: هُوّة شديدة العمق بين جبلين عاليين، من لهجات المنطقة الشرقية.

- نِقفَة: قطعة من الجبل، وتبدل القاف جيماً قاهرية في لهجات أبوظبي.

المغارات والطرق

-خانوق: طريق ضيق، وفي اللغة «الخانق: مضيق الوادي، والخانق: شِعب ضيق في الجبل». ومنه قرية «الخوانيج»، ولعلها الخوانيق أو الخوانق.

-خْدود: نفق جبلي محفور باليد ليتمكن الناس من العبور منه، ولعله أصله «أُخدود».

-خَنخوش: فتحة صغيرة في الجبل، تسكن فيه بعض الحيوانات.

-خِيط: «طريق في الجبل»، في لهجة الشحوح.

-درب: الطريق أيا كان، ولعل الدرب أكثر من يطلق على طريق السائرين في الصحاري والجبال والسهول.

-سِقْع- سُوت: غار واسع ممتد، أكبر من الكهف، وهو «سق» في لهجة الشحوح، و«سوت» في لهجتهم وبقية لهجات الإمارات.

-سِكّة: الطريق الصغير بين النخيل والبيوت. وتكثر في النخيل.

-عاير: سكة بين البيوت مسدودة في نهايتها.

-غار: المدخل الجبلي المعروف.

-غَدفَة: طريق جبلي مرتفع ينتقل فيه المرء على الجبل من جهة إلى جهة أخرى على الجانب الآخر، وهو أصغر من «العَقَبة»، وبه سُميت قرية الغَدّفة شرقي مسافي الفجيرة.

-كفّ- كَهف- كَحف: الكهف المعروف، يُطلق عليه «كف» في لهجة ضدنا، والجمع «كُفوف»، وهو «كحَف» في لهجة الشحوح، بإبدال الهاء حاء لأنهما من حروف الحلق، والجمع«كُحوف».

-محْدار: طريق هابط في الجبل أو التل.

-مطلاع: طريق صاعد في الجبل أو التل.

-مقّلع: تجاويف صغيرة في الجبال والمرتفعات الترابية والأودية يُستظَل بها ويُحتَمى من المطر، تكثر فيها خلايا النحل البري.

-هزع: طريق تسلكه الإبل.

بالطبع أتمنى أن تكون هناك جهة رسمية ذات اختصاص وإمكانية تتبنى المعجم الخاص بالأماكن في دولة الإمارات أو معجم المعاني اللغوية المجردة في اللهجة المحلية وقد جمعت منها الكثير، وهناك مجالات لم تبحث. هناك جهود لتوثيق مسميات الأماكن في الدولة وهو أمر هام جداً، ونقدم الشكر لجهود هيئة المسح العسكرية على مدى طويل حيث أنجزت أكثر من 13 ألف موضع عن طريق الكثير من الأدلاء الذين ساهموا في ذلك، وهذه المادة للأسف غير متوفرة إلا لقلة من المختصين. وأعتقد أن المواضع في دولة الإمارات أكثر من ذلك وربما تصل إلى 17 ألف موضع أو أكثر ونحتاج إلى توثيقها في الدولة كما وثقت في دول أخرى بالبحث عن أصول هذه الأماكن القديمة وتوثيقها بصورة حديثة.

توصيات الندوة

اتفق المشاركون في الندوة على توصيات عدة وهي:

1 - دعوة وزارة التربية والتعليم إلى تضمين المناهج الوطنية موضوعات تعريفية بأهم الأماكن التاريخية والأثرية في الدولة، وأهم الأحداث أو الأسماء أو الشخصيات التي ارتبطت بهذه الأماكن، وشكلت جزءاً من تاريخها وأهميتها.

2 - دعوة الجهات المعنية لاستكمال حصر وتسجيل الأماكن التاريخية والأثرية وتوثيقها بالصوت والصورة، وإتاحة المعلومات المتجمعة عن ذلك للدارسين والباحثين ومن يطلبها من أفراد أو جهات.

3 - وضع لافتات تعريفية باللغة العربية وبلغات أخرى للتعريف المختصر بالأماكن التاريخية والأثرية، وذلك في أماكن بارزة ومختلفة حتى يراها الزائرون، والعابرون للمكان أو الأثر.

4 - تشكيل لجنة من ذوي الاختصاص لإجراء البحوث الرصينة التي تؤرخ للأماكن التاريخية والأثرية ومناطق وأحياء الدولة، ووضع ثبت تاريخي لها عن أهم الوقائع أو الأحداث التي ارتبطت بها.

5 - إنتاج برنامج- برامج متلفزة عن الأماكن المختلفة المشهورة، وغير المشهورة بالدولة، في إخراج مميز، يتضمن تفاصيل ومعلومات وافية عنها من حيث الموقع، والأهمية، وسبب التسمية، وغير ذلك، بالاستعانة بنتاج اللجنة المشار إليها في التوصية السابقة.

6 - دعوة وزارة التربية والتعليم، والتعليم العالي والبحث العلمي، والثقافة والشباب وتنمية المجتمع، والهيئات أو الجهات المعنية الأخرى إلى تشجيع الباحثين من أبناء الدولة على التخصص في هذا الموضوع وتفريغهم لذلك وطباعة نتائج أبحاثهم وشراء نسبة من هذه المطبوعات تفي باحتياجاتهم وتشجعهم على مزيد من البحث.

7 - إنتاج برنامج أو كتاب صوتي يضم أهم هذه الأماكن وأسماءها مع النطق الصحيح لها وذلك وفق اللهجة المستخدمة في المنطقة الواقع بها المكان، للتغلب على اختلافات الترجمات المختلفة للرحالة الأجانب أو الأطقم الأثرية الأجنبية العاملة في الدولة.

8 - عقد مؤتمر أو ندوة موسعة لمزيد من البحث والدرس في الموضوع نفسه، تتناول محاور أخرى، ويدعى إليها مختصون آخرون ونشر الأبحاث وأوراق العمل المقدمة ورفد الجهات المعنية بها، وقد تبنى المركز الثقافي الإعلامي لسمو الشيخ سلطان بن زايد آل نهيان ممثل صاحب السمو رئيس الدولة هذه الفكرة وسيعمل على تنفيذها ■

الندوة بتاريخ 2010/7/12

المحاضر:

فضيلة الشيخ د. أحمد الكبيسي

داعية وأحد علماء الإسلام العراقيين.

(الندوة الثالثة - الورقة الأولى)

عنوان الندوة:

كيف نستقبل رمضان

سيرة ذاتية

- شارك في كثير من المؤتمرات الإسلامية وشارك في العديد من البرامج الإذاعية والتلفزيونية في العراق والإمارات.
- رئيس قسم الدراسات الإسلامية في جامعة الإمارات (أحد مؤسسيها).
- عضو في المجلس الأعلى في الجامعة الإسلامية - المدينة المنورة.
- رئيس جمعية العلماء في العراق.

من أهم مؤلفاته

- في رحاب القرآن.
- فلسفة نظام الأسرة في الإسلام.
- الغبن والتغرير في عقد البيع.
- الأحوال الشخصية في الفقه والقضاء والقانون (جزآن).
- التركة، تكوينها ومدى تعلق الحقوق بها.
- أحكام جناية السرقة في الفقه والقانون.
- القضاء في الإسلام.
- الفقه الجنائي الإسلامي.
- البرمجة اللغوية.
- أحسن القصص - قصص القرآن الكريم.



كيف نستقبل رمضان؟

بدءاً جزى الله خيراً سمو الشيخ سلطان بن زايد آل نهيان عن هذه الالتفاتة حيث سخر مكتبه الإعلامي لمثل هذا النشاط في رمضان. بذلك يكون سموه قد أحسن استقبال رمضان على طريقته الخاصة. فكيف نستقبل نحن رمضان؟.

ليس هناك اثنان يتساويان في استقبال رمضان، فلكلٍ ظروفه وقدرته وفهمه لاستقبال هذا الضيف كما ذكر الدكتور محمود، أن رمضان ضيف علينا. وهذا الضيف يختلف الناس في معرفة قدره، وعلى معرفة الناس ونسبة علمهم بذلك يكون استقبالهم. ولهذا ما من اثنين يتساويان في هذا الاستقبال.

إذا دخل ملك من ملوك أي دولة على أي بيت كما هو شأن شيوخ الإمارات الذين يدخلون على بيوت كل المواطنين فجأة يزورونهم ويتفقدونهم ويستقبلونهم.

وهذا ما شاهدناه بأم أعيننا. وكما شاهدنا ذلك، شاهدنا أيضاً ردة فعل الناس عندما يأتيهم الملك كضيف يختلفون في حسن استقباله على قدرتهم ومعرفتهم وشخصيتهم. وأسباب كثيرة تجعل الناس يتفاوتون في الاستقبال. وهذا هو الأمر في استقبال رمضان.

قبل أن أشرح ما هي عناصر حسن استقبال رمضان، أقول أحسن من يستقبل رمضان وأحسن من يحسن استقبال هذا الشهر، هو هذا العامل الذي ترونه في الشارع، في العمل من ساعة شروق الشمس إلى ساعة غروبها، يعمل في الشمس وهو صائم.

هذا خير المستقبلين لرمضان، وهو الذي ذهب بالأجر كله. إن من صام يوماً حاراً لوجه الله فإن لله معه يوماً آخر يوم القيامة.

تستقبل رمضان على قدر كرمك، رمضان ضيف كريم جداً. ما من شيء بعد الله عز وجل أكرم من رمضان.

رب العالمين له إرادة ومشيئة. المشيئة تتغيّر وربك يخلق ما يشاء ويمحو ما يشاء ويثبت. فالمشيئة تتغير والإرادة ثابتة. إن ربّك فعال لما يريد. ورب العالمين له تعبيران في كلمة «يريد». يقول: ﴿يريد الله أن يتوب عليكم﴾، بدون لام. هنا أعلن الإرادة. في آية أخرى ﴿يريد الله ليتوب عليكم﴾. تتبع القرآن الكريم، كلما رأيت فعل «يريد» متعد بدون لام أو متعد باللام. بدون لام يعني إعلان الإرادة. ﴿يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم﴾، أعلنوها. ثم «أرادوا ليطفئوا»، انتقدوا الأسباب باشروا. ورب العالمين قال ﴿يريد أن يتوب عليكم﴾ مع الإرادة، يريد أن يتوب عن هذه الأمة. لما قال ﴿يريد الله ليتوب عليكم﴾، اتخذ الأسباب. ومن الأسباب رمضان. أسباب التوبة كثيرة لا تحصى كيف يغفر الله الذنوب تقول كما قال المصطفى (صلى الله عليه وسلّم): (لا يدخل النار إلا شقي). إن رباً بهذا الجمال وهذا الكرم وهذه السعة وهذه المغفرة كيف يدخل عبداً النار، إلا إذا هذا العبد هو الذي أراد النار أي اشتهاها. ومن أعظم أدواتها رمضان لأنه الفعل الوحيد الذي ليس في وسع العقل البشري أن يدرك مضاعفات أجره. قال:« وعمل لا يعلم أجره إلا الله» وهو الصوم. الصوم هو العبادة الوحيدة التي ليس في وسع العقل البشري أن يعرف كم هي مضاعفات أجرها. هذا الاستقبال إذاً لهذا الضيف الكريم على وفق معرفتك باستقبال الكرماء، وهذا يختلف فيه الناس.

يحدثنا القرآن الكريم عن استقبال هائل حاصل في التاريخ، وقد أثبته القرآن الكريم. من الممكن أن تعرف إذاً كيف يكون الاستقبال من خلال هذه القصة في حسن الاستقبال فإن طبقت على استقبال رمضان ستناسبه بشكل تام. وهي تتعلق باستقبال سيدنا إبراهيم لضيوفه. كان سيدنا إبراهيم يسمى «أبا القرى» وهو الذي ابتكر قرى الضيافة وجاء في الحديث أن خاطبه الله تعالى له: «يا إبراهيم إني لم أتخذك خليلاً،على أنك أعبد عبادي. ولكن أطلعت على قلوب المؤمنين فلم أجد قلباً أسخى من قلبك». ما كان سيدنا


إبراهيم يستطيع أن يأكل إلا إذا جاءه ضيف. الكلام في إبراهيم يطول. جاءه ضيوف لا يعرفهم ﴿ونبئهم عن ضيف إبراهيم﴾، وقد أكرموا إكراماً عظيماً. إذاً علينا أن نعرف كيف أكرم هؤلاء الضيوف وكيف استقبلوا. علينا أن نعتبر أن هؤلاء الضيوف هم رمضان ونتعلم من إبراهيم كيف نستقبلهم.

أولاً، حسن السلام وحسن الاستبشار والترحاب. هذه الخطوة الأولى. إذا جاءك رمضان ضيفاً فعليك أن تستبشر به. فإذا استبشرت به كما في الحديث فهذا أول حسن الاستقبال كما فعل سيدنا إبراهيم بضيفه. بعد أن أجلس الضيوف، راح سيدنا إبراهيم إلى أهله بصمت وسرية. فلا يجوز أن يتباهى المرء وأن يماري فمن حسن استقبال رمضان أن يخلص المرء العمل لله .

ثانياً، على المرء أن يهيئ كل عباداته في رمضان بصمت من دون ادعاء وتباه. وفي رواية: «فجاء بعجل حنيذ». يتكلم عن الكم والكيف. لما راح إلى سارة يطلب منها أن تذبح عجلاً سميناً لضيوفه الثلاثة مما يعتبر وليمة كبيرة لهم. كما أنه كان يكلف ثروة في ذلك الزمان. في رواية أخرى «حنيذ» تعني مشوي شواءاً في غاية الإتقان والدقة.

إذاً عليك في رمضان أن تعطي كل عباداتك، كل ما تستطيع أن تعبد الله به كما فعل إبراهيم كل ما استطاع أن يكرم به ضيوفه. هو هذا العجل وأنت ما هو عجلك في رمضان؟ صلاة الليل والتهجد والاستغفار. فجاء بعجل حنيذ وبحسن الأداء. كما أن هذا العجل هو في الكم هائل فمن حيث الكيف كان مشوياً شواء في غاية الإتقان فعليك أن تتقن عباداتك في رمضان ،وهذا من حسن الاستقبال، كما كان ذلك من حسن استقبال ضيوف إبراهيم. ﴿جاء بعجل حنيذ﴾ فقرّبه إليهم. لاحظوا الالتفاتة القرآنية، فهو لم يقل«تفضلوا إلى الأكل» كما نفعل اليوم.

وعليك كذلك أن تقرّب عباداتك إلى الله في غاية الخضوع وفي غاية التذلل. والتذلل للضيف من أعظم إكرامه. فتذلل هكذا لله في رمضان. وكما يقول الشاعر «وما زلت عبد الضيف ما دام نازلاً» وما شيمة لي غيرها تشبه العبد». أنت من أذل ما تكون لله في رمضان وهذه الذلة هي العزة بنفسها. إذا كان



التذلل للوالدين عزة عظيمة يوم القيامة، فما بالك بالتذلل لله عز وجل. والله يقول: أنا مع المنكسرة قلوبهم. من تواضع لله رفعه. أنت في رمضان كما أنت في الحج، عندما تطوف تسعى. أنت متذلل مطأطئ تشعر بالصغر أمام رب العالمين، وأنت عبده الذي تشحذ مغفرته وعفوه وعطاءه وهو العزيز الجبار الكبير الرؤوف الرحيم. حينئذ من حسن استقبال رمضان ألا تتباهى وتتظاهر وتتفاخر، تعلّم التذلل لله وتعلّم الروغان من الناس. لا تفسد صومك لا تفسد أجرك، فهذه مرحلة هائلة. فافترض أن هذا آخر رمضان في حياتك. وينبغي أن يكون هذا الشهر هو الذي سيدخلك الجنة بكل ملابساته. وثقوا أن عباداتنا لا تساوي شيئاً بدون رمضان. فبيئة رمضان وإطاره السليم يسمح أن تصل إلى الله مباشرة إن أحسنت استقباله وما من ضيف أعظم من أن يأتيك هذا الشهر لأنه أعجوبة العجائب. لهذا لا يجوز أن نقول إنه شهر الصيام، فالصيام جزء من حسناته وأفعاله وأعماله. فهدية الكعبة هي الكعبة. لا تقل إن الكعبة هي من أركان الحج بل من ضمن طقوسها الحج والطواف. رمضان إذاً هو رمضان، هبة الله الناس لهؤلاء الذين قال فيهم ﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعان﴾ ولهذا أنت في رمضان مستجاب الدعوة مغفور الذنب تقدمت ما تقدمت وتأخرت ما تأخرت درجات. ومهما حدّث الناس في وسائل الإعلام والجوامع عن فضل رمضان فإنه لن ينتهي. ولو اطلعتم على الغيب لعرفتم أن أفضال رمضان من العبادات التي ليس في وسع العقل البشري بقوانين الدنيا أن تلم به. ولهذا من جاءه رمضان فلم يغفر له أبعده الله. إبليس نفسه يطمح إلى أن يغفر الله له في رمضان. فتأملوا الحديث (ليرحمنّ الله الناس رحمة يوم القيامة يتطاول لها إبليس). ولهذا أنت في رمضان عليك أن تحسن استقباله كما فعل إبراهيم في حسن استقبال ضيفه. سأقرأ ما جاء في قصص سيدنا إبراهيم. لقد كان في قصصه عبرة. اقرأ ماذا يعني هذا الاستقبال الحافل بكل الجزئيات، وكل جزئية فيها عظة. وحينئذ لماذا كل هذا الاحتفاء؟ طبقها على رمضان ترى نفسك قد أحسنت من حيث المبدأ. هيئ الأجواء قبل أن يأتي رمضان كما فعل سيدنا إبراهيم واستقبله

ببشر وسعادة. ثم على عباداتك أن تكون خالصة لوجه لله بدون إعلال ولا تبجح أو تظاهر فإياك الرياء في هذا الشهر. هذه فرصتك الوحيدة. من دون رمضان لا أمل من حيث أن عصرنا هذا هو العصر الذي قال فيه المصطفى (ص) (القابض فيه على دينه كالقابض على جمرة من النار). رمضان يحل المشكلة وينهي القضية بالكامل. فإذا لم تحسن صيامه ولم تحسن استقباله على هذا النحو المطلوب فقد خسرت رمضان ولذلك نقول إن رب العالمين رحيم ورؤوف رحيم بكم إذا أخطأتم ورؤوف بكم إذا أحسنتم. حينئذ، كل يستقبله على طاقته. وأعظم ما في هذا الأمر من حسن الاستقبال أنك تخلص النية لله. من أجل ذلك قدّم له كل ما تستطيع. يعتبر هذا الشهر شهر امتحان وشهر استخلاص وشهر إخلاص. وكما يقول المثل«ليس المهم نقص البدايات لكن المهم كمال النهايات». اعمل الشيء الصعب إذاً فرُب صائم ليس له في صيامه إلا الجوع والعطش. وعليك في رمضان أن تقوم بالأمور التالية:

أولاً، لا يجوز أن يكون أحد الأبوين غاضباً منك. صالح أمك وأبوك في رمضان ولو كان ذلك صعباً.

ثانياً، إذا كان لك خصومة مع أحد لدرجة أنك لا تلقي السلام عليه فلا رمضان لك. عليك بالمصالحة. كما يجب أن تصالح وتبر معارفك من صلة الرحم.

ثالثاً، الغيبة. لا يجوز أن تغتاب أحداً. (الصوم جنة ما لم يخترق) قالوا: بما يخترق يا رسول الله؟ قال: بالغيبة. إذا اغتبت أحداً في رمضان فهذه القوة الهائلة الفعالة لرمضان في إنقاذك من النار ومغفرة كل ذنوبك تزول.

هذا ثمن استقبال رمضان إذا أردت أن تكون ممن قال بهم النبي (صلى الله عليه وسلم) (من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر). هذه الخطوة الأولى. الله يضيف على رصيد حسناتك حسنات ثلاث وثمانين سنة قيام ليلها وصيام نهارها بلا ذنوب في ليلة القدر. وبالتالي القاعدة المعروفة عمن زادت حسناته على سيئاته فذلك هو الذي يدخل الجنة بغير حساب. و(من نوقش الحساب هلك) حسب قول المصطفى (صلى الله عليه وسلم).

عليك إذاً أن تقوم بهذه الأشياء الصعبة: بر الوالدين وبر الرحم وتصالح من كنت متخاصماً معه وتحفظ لسانك لا تذكر فيه أحداً بسوء. إذا فعلت ذلك فقد أحسنت استقبال هذا الضيف لأنك كريم كما أنه هو كريم. ولا يكرم الكريم إلا كريم. فليكن رمضان في بيتك مكرماً بهذه الشروط ■

الندوة بتاريخ 2010/08/13

المحاضر :

فضيلة الشيخ الحبيب علي زين العابدين الجفري

عالم دين يمني بارز

(الندوة الثالثة - الورقة الأولى)

عنوان الندوة:

ياباغي الخير أقبل

سيرة ذاتية

- أخذ العلم على يد عدد من العلماء في الحجاز وحضرموت ومصر وسوريا وغيرها.
- حائز على إجازات في العلوم الإسلامية. من اهتماماته تحسين صورة الإسلام ونبذ التطرف والدعوة إلى تبني نهج الوسطية.
- له العديد من البرامج على القنوات الفضائية، والمقالات والكتابات المنتظمة في عدة جرائد منها جريدة المصري اليوم.
- يعدّ واحداً من أكثر الشخصيات المسلمة تأثيراً في العالم.
- مدير عام مؤسسة طابة، أبوظبي الإمارات العربية المتحدة 2005

أقام فضيلته دروساً ومجالس للتعليم والإرشاد والتوجيه والتوعية والدعوة إلى الله في بلدان شتى استهلها عام 1991م داخل مدن اليمن وقراها النائية. وفي عام 1993م، بدأت رحلاته الدعوية الخارجية وما زالت متواصلة. وقد شملت رحلاته الخارجية بلداناً في مختلف القارات.

من أهم مؤلفاته

- معالم السلوك للمرأة المسلمة.



ياباغي الخير أَقبل

الحمدالله الذي خلقنا لنربح عليه لا ليربح علينا، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد الذي وصفه أنس بن مالك رضي الله عنه فقال:« كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أجود بالخير من الريح المرسلة، وكان أجود ما يكون في رمضان». اللهم صلى وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه إلى يوم الدين.

في الحديث عنه، صلى الله عليه وسلم، إذا أقبل رمضان نادى مناد من الملائكة، يقول: يا باغي الخير أقبل.. ويا باغي الشر أقصر. هذا المعنى، الحديث عنه في اتخاذ الوسائل التي ذكرت، يقوم على أساسين مهمين. أعتقد أن رمضان بخيراته التي لا تحصى ، تتمحور على هذين الأساسين. جميع خيرات رمضان تقوم على هذين الأساسين.

الأساس الأول، معنى الإقبال من قلبك أنتَ وأنتِ. مفهوم إرادة الخير، يا باغي الخير...

والأساس الثاني، ما يحدثه رمضان في نفسك أنت.

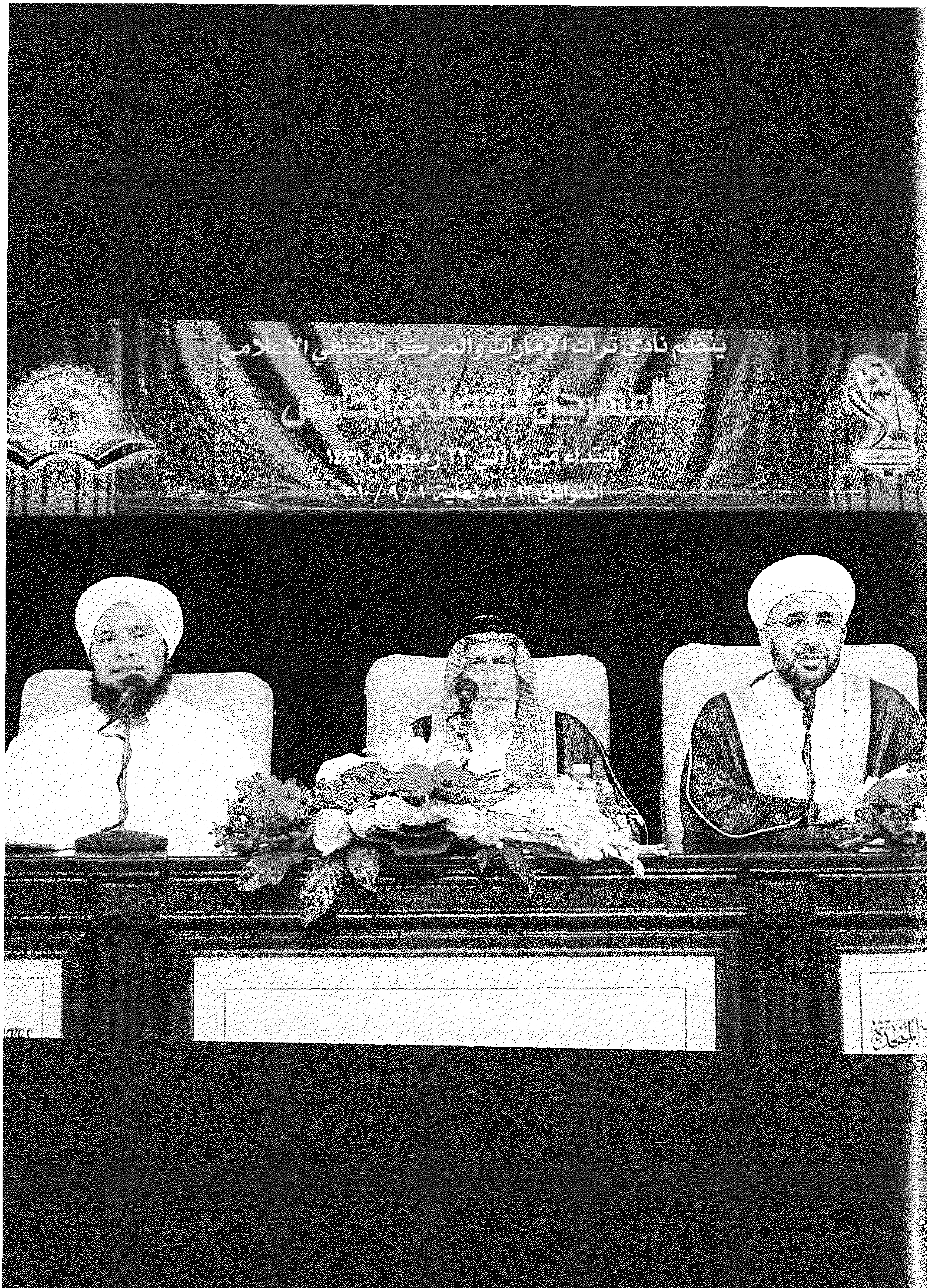
إن الله سبحانه وتعالى هو رب رمضان، وهو رب شوال، وذي القعدة، وذي الحجة، وبقية الشهور. فلا يُتصور أن نعبده في رمضان وأن نستقيم على الأمور التي ذكرها سيدي الشيخ أحمد، ثم إذا انتهى رمضان وولى، هاتها يا ساقي. تصبح النفوس بعد ذلك مبتعدة عن معنى المعاملة مع الله. لكن مفهوم ما نستفيده من رمضان عميق جداً لأنه يغوص على أنفسنا.

أما الأساس الأول : يا باغي الخير أقبل. الملائكة تنادينا منذ أن دخل رمضان، في كل وقت الملاك ينادي قائلاً يا باغي الخير أقبل. يا من شعر في داخله أنه يريد الله. أعظم مرادات الخير في الوجود أن تريد الله عز وجل. الناس يتفاوتون وتتفاوت

مراتبهم بتفاوت ما يريدونه وما يبغونه من الحياة. تقول لإنسان، ما هو طموحك في الحياة؟ ماذا تريد أن تكون؟ يجيب أحدهم، أريد أن أكنس الشارع وهذا شيء طيب لأنه لولا مكنس الشارع لما استطعنا أن نمشي في الشارع. لكن هذا ما فكر فيه. ويجيب الآخر، أريد أن أكون طبيباً، هذا جيد أيضا، لأنه لولا الأطباء لفسدت الأبدان. وآخر يقول أريد لأن أكون رجل أعمال، والرابع مخترعاً، والخامس إعلامياً، واقتصادياً... مرادات الناس تختلف، لهذا اختلفت مراتب الناس في الدنيا والآخرة على أساس اختلاف مراداتهم. ماذا يريد الواحد منا؟ كانوا يذكرون عن أحد الصحابة أنه سافر من نجد إلى المدينة، واصل الليل بالنهار في السفر، فلما وصل الى النبي صلى الله عليه وسلم ، قال:« يا رسول الله لقد واصلت الليل بالنهار، أظمأت نهاري، وأسهرت ليلي، وأضنيت راحلتي خشية أن تموت قبل أن أراك. ولدي سؤال أود أن أطرحه» فقال له: «سل». قال :« يا رسول الله ما هي علامة الله في من يريد وما هي علامات الله في من لا يريد». ما هي العلامة التي أعرف بها أن الله يريدني، ويريد أن يقربني. أن الله يريد أن يسعدني. وما هي العلامة التي أعرف بها أن الله الآن لا يريدني. ما هي علامة السعيد والشقي...؟

أتعرفون ما كان رد النبي صلى الله عليه وسلم؟ كان رده بسؤال. قال له:« كيف أصبحت؟» هذا هو الجواب. كيف أصبحت؟ بمعنى أنه إذا أردت أن تعرف ماذا يريد الله بك انظر ما الذي تفكر أنت فيه. ما الذي تظهره لله من نفسك ومن قلبك. ما هي نيتك فيما تفعل. قال :« يا رسول الله أصبحت أحب الخير وفعل الخير، وأفرح بما أدركت من الخير، وأحزن على ما فاتني من الخير». قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم:« حسبك. هذه علامة الله في من يريد. ولو أرادك للأخرى لهيأك لها». أي أن علامة إقبال على كل منكم ما يحصل في داخله من نية. فهذا أول معنى. يا باغي الخير أقبل... هي لحظة الإقبال التي تحصل لك. جميع حياتك التي تعيشها، كم ستعيش؟ ستون سنة، سبعون، ثمانون، فلنقل مائة سنة إذا فسح لك العمر، بعدها الموت. لكن هذه الحياة التي نعيشها بطولها وعرضها قيمتها تتمثل في لحظة الإقبال التي تحصل من قلبك على الله.

كانوا يذكرون رجلاً اسمه الفضيل بن عياض وهذا الرجل كان قاطع طريق. هذا


ينظم نادي تراث الإمارات والمركز الثقافي الإعلامي
المهرجان الرمضاني الخامس
إبتداء من ٢ إلى ٢٢ رمضان ١٤٣١
الموافق ١٢ / ٨ لغاية ١ / ٩ / ٢٠١٠
CMC

الرجل أصبح بعد ذلك من كبار المقربين الى الله واللحظة التي حولت الفضيل بن عياض من سارق إلى مقرب هي لحظة يا باغي الخير. لحظة الإقبال التي حصلت من قلبه. كان يريد أن يسرق بيتاً فقفز من حائط إلى حائط، فسمع رجلاً يصلي في جوف الليل في البيت، وسمعه يقرأ قوله تعالى: ﴿ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله﴾. فلما سمع هذه الآية ارتج. كان هناك موعد بينه وبين ربه وهو لا يشعر، فدخلت هذه الآية قلبه، ألم يأن لك أن تستشعر أن لك رباً تعامله. فأقبل وتاب وطلب العلم وصار من كبار أئمة المسلمين. ورجل آخر في نفس مقام فضيل بن عياض اسمه بشر بن الحارث اشتهر بين العلماء باسم بشر الحافي. لماذا سمي بشر الحافي؟ كان هذا الرجل من أغنياء وكبار تجار مكة. وكان يحيي ليالي مكة بالطرب والرقص والغناء والغفلة. لم يستشعر أنه بجوار أقدس بقعة في الوجود أنه بجوار الكعبة. وفي ذات ليلة طرق الباب طارق فقامت جارية من البيت وفتحت الباب، وإذا برجل رث الهيئة، فأرادت أن تعطيه بعض الدريهمات فقال: «ما لهذا جئت. جئت أسألك، صاحب هذا البيت حر أم عبد؟ قالت بل هو حر وابن حر. قال صدقت، لو كان عبداً ما كان هذا حاله». وانصرف الرجل. فسألها بشر، من الطارق؟ فقصت له القصة. فلما سمعها تقول نعم إنه حر و لو كان عبداً لما كان هذا حاله، أخذته حاله وخرج يركض وهو حافياً يقول من أين ذهب الرجل. قالت له من هذا الطريق. فأخذ يركض حتى أدركه. قال له «يا شيخ أنت الذي طرقت الباب قبل قليل؟ قال نعم. قال له: أعد علي المقالة. فبكى بشر الحافي وقال، بل عبد عبد عبد، أشهدك أني قد تبت الى الله». فكانت ساعة الصلح بينه وبين الله وهو حافٍ فسمي بعد ذلك ببشر الحافي. المعنى الذي فهمه بشر الحافي في تلك اللحظة له صلة بالآية التي سمعها فضيل بن عياض. بمعنى، هل أنت تفهم الحرية على أنها نوع من المسؤولية العالية في التعامل مع الله عز وجل. تتصل بعبوديتك لله و بارتباطك بالله أم أن مفهوم الحرية عندك ارتبط بالتمرد حتى على أوامر الله سبحانه وتعالى. فكان ذلك باب توبته ورجوعه إلى الله. يا باغي الخير أقبل... في هذه الأيام والليالي فرصة الإقبال على الله.جاء في بعض الأحاديث أن الله يأمر في أول ليلة من ليالي رمضان، فتفتح أبواب الجنان كلها. فلا يبقى باب إلا وفتح وتغلق أبواب النيران كلها. وتستجاب الدعوات وتتوالى الملائكة، والحق سبحانه وتعالى

تعلمنا أنه ينادي في الثلث الأخير من الليل طول أيام السنة هل من مستغفر هل من تائب. قالوا إلا في رمضان ينادي من أول الليل. هل من مستغفر هل من تائب؟ هل من ذي حاجة هل من سائل؟. الله وهو الغني عنا يبسط يديه إلينا ويسألنا أن نسأله. ونحن الفقراء إليه كيف نقابل هذا الأمر. في هذا الشهر تهب نسائم الجنان. في هذا الشهر مسألة مهمة ترتبط بالنقطة الثانية. أن العذر الذي نعلق عليه أخطاءنا ألغي. لأن من خصائص شهر رمضان أن الشياطين ومردة الجن يُقيدون. عندما يسرق سارق يقول الشيطان غلبني . يا فلان ما لك أقمت علاقة غير صحيحة؟ يقول الشيطان غلبني. دائما نحن نعلق إشكالاتنا على الشيطان. فيأتي الآن هذا الحديث ليقول إن العذر الذي تتعذر دائماً به الآن مغلق. الشياطين مصفدة في شهر رمضان. فإذا صفدت الشياطين وعلمت أن الشياطين لا توسوس لك ثم وجدت نفسك لم تتغير معنى هذا أن المشكلة ليست من الشيطان وحده. الذي يجد نفسه في رمضان مقبلاً على الله أكثر معناه أنه انزاح عنه الشيطان. لكن الذي يجد رمضان كغير رمضان بالنسبة له نقول له انتبه لأجل هذا جاء رمضان. إذ نستشعر فرصة الصلح بيننا وبين الله لما قد مضى من الأيام الماضية . ما معنى يا باغي الخير، يعني يا من تعثرت عليه صلته بالله، الله الآن مقبل عليك. والحق يناديك سبحانه وتعالى.

لو جاءك شخص عزيز عليك، والد أو جد أو عم أو خال أو شيخ من الشيوخ أو صاحب منزلة أو وزير وقال إنه يريد التكلم معك. أتقول له ليس لديك وقت؟ أم أنك تقبل عليه وتكلمه؟ رب العالمين يقول لك أنا الآن مقبل عليك إقبالة خاصة. الفريضة في رمضان بسبعين فريضة. والنافلة بفريضة ثوابها عند الله عز وجل و لن ينتهي تعداد فضائل شهر رمضان.

ننتقل إلى النقطة التالية، لحظة الإقبال على الله، ما هي علامة الله في من يريد. في أول أيام رمضان تعهدت على نفسك أن تصلي في جماعة، وأن تصلي التراويح كاملة وأن تقرأ شيئا من القرآن، وأن تبطل بعض الأشياء غير الطيبة، لكن بعد اليوم الثالث من رمضان، والرابع، والخامس بدأت النفس تتثاقل، وبدأت الهمة للتراويح تقل، وبدأ ضبط اللسان يقل. معنى هذا أنك لم تستشعر مفهوم ابتغاء الخير. إذا قلنا إن الشياطين تصفد في شهر رمضان فمعنى هذا أن الله يزيل عنك أحد أسباب

الضلال. ليعينك على معالجة السبب الثاني. ما هو السبب الثاني للضلال والانحراف. السبب الثاني الذي يجعل الناس يضلون، يبغضون بعضهم، يؤذون بعضهم، يعتدون على بعضهم ، يقتلون بغير وجه حق، يسرقون، ويفعلون ما يفعلون، هو النفوس. نفس قابيل هي التي أخذها الحسد والغيرة من هابيل. لماذا كتب له الله أن يتزوج تلك فقتله حتى يوقف الزواج مع أنه يعلم أنه لن يتزوج تلك التي كان يريدها هابيل. لكن الحسد ترتب عليه أن لا يعطي للآخر فرصة الحصول على الشيء الذي كان يريده. جاء شهر رمضان لنقبل على أنفسنا. نحن نأخذ بزمام التربية. رب العزة سبحانه وتعالى أقسم بكل مظاهر الكون (والشمس وضحاها، والقمر إذا تلاها، والنهار إذا جلاها، والليل إذا يغشاها، والسماء وما بناها، والأرض وما طحاها). كل مظاهر الكون ثم ختم بالقسم بك أنت. الله أقسم بك فقال ﴿ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها﴾. والكلام هنا عن الفلاح والخيبة، والنجاح والفشل هو ليس بكلام نسبي. فالكلام النسبي هو كلام البشر. الكلام هنا عن تقرير رب العزة لمعنى الفشل ومعنى النجاح، لمعنى الفلاح ومعنى الخيبة . قال الله الفلاح كل الفلاح في تزكية النفس. في أن تلتفت إلى نفسك وتبدأ بتزكيتها. يا رب هذه النفس التي أمرتني أن أزكيها وجعلت سعادتي في تزكيتها هل كانت في الأصل سيئة؟

الجواب كلا. في الإسلام، وهذا هو الخلاف بيننا وبين الديانات الأخرى، في ديننا أن الأصل في الإنسان الصلاح وليس السوء. ليس الأصل في الإنسان الخطيئة. الأصل في الفطرة السلامة. كل مولود يولد على الفطرة. يقول الله عز وجل في كتابه الحكيم ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين﴾. ما سبب الانتكاسة؟ الشهوات، النفوس، الرغبات، الاختلاط بالآخرين، النزاع الذي يحصل بين البشر. هذا مجال للتزكية فجعل الأمر أن نزكي أنفسنا، أن نستعين بالله عز وجل على تزكية أنفسنا. هل الله يحتاج منا قراءة القرآن؟ كلا. هل الله سبحانه وتعالى بحاجة لصلاتك، للعمرة التي تقوم بها؟ كلا.

الله غني . يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله، والله هو الغني. لكن الله أمرك بالإكثار من قراءة القرءان مع التدبر وحضور القلب والإكثار من الصلاة. ليست صلاة التراويح على حسب الرغبة. قال الله تعالى أجهد نفسك، أكرهها على ما لا تريد. لأنك

عندما تكرهها في النهار بمنعها من شهوة الطعام والشراب وهي تشتهي، ثم تكرهها في الليل بمنعها من الراحة وهي تميل إلى الراحة بأن تقوم وتصلي تبدأ أنت تأخذ الزمام في السيطرة على نفسك. أكبر مصائب العالم اليوم، على مستوى الأسر، والمجتمعات، والدول، والعالم؛ اليوم الذي يحصل من صراعات على الأموال، من استغلال للضعفاء والفقراء والمساكين، من احتلال للأراضي بغير وجه حق من إراقة الدماء في شرق الأرض وغربها من تلاعب على أخلاق الناس ومصائر الناس، كل الإشكالات الكبيرة في العالم لو فتشتم بدقة عليها ستجدونها مشكلة نفس. هذا يريد أن يسيطر وهذا يريد أن يتغلب وهذا يريد أن يفوز وهذا يريد المنصب الفلاني ولا بد له أن يخلق مشكلة لمديره حتى تتم ترقيته إلى المنصب الفلاني لكي يحل مكان مديره. فجاء شهر رمضان حتى تتهذب هذه النفوس. لم يأت رمضان ليمنع صاحب التجارة من تجارته، وصاحب الصناعة من صناعته، وصاحب الفن من فنه. جاء شهر رمضان ليعلمك كيف تأخذ أفضل ما يمكن من المجال الذي أنت فيه. فعلمك أن تستقيم على طاعة الله. مجاهدة النفس في شهر رمضان تثمر أن ينتهي شهر رمضان وقد أصبحت نفسك مطمئنة إلى الله. هذه هي علامة القبول في رمضان. أن يكون حالك مع الله في رمضان أفضل من حالك معه قبل رمضان. كيف يحصل هذا؟ في أول ليلة العيد تطلق الشياطين. ما الذي يحصل؟ يأتي شيطانك مستعجلاً بعد غياب شهر كامل فيصدم بنفس غير التي فارقها قبل رمضان. نفس قد تنورت بنور الله قد ذاقت حلاوة الإقبال على الله سبحانه وتعالى والصلة بالله، فيجد نفساً ترفض السوء والشر.

هناك نوعان من العبادة. عبادة مشتركة عامة يعمل عليها جميع المسلمين، من قراءة قرآن بتدبر، من صلاة، من صدقة، من تقرب إلى الله بالعبادة، بالذكر لله عز وجل. وهناك نوع آخر من العبادة وهي أن تعبد الله بما آتاك الله. بماذا ميزك الله؟ كل إنسان ميزه الله بميزة عن الآخر. الله عز وجل برحمته وعدله قسم بين البشر. وهذه مسألة ثبتت علمياً في الدراسات العلمية أنه لا يوجد فرق بين منطقة وأخرى في نسب الذكاء. نسب الذكاء في إفريقيا مثل نسب الذكاء في حواضر مدننا، مثل نسب الذكاء في روسيا. نسب الذكاء بين البشر واحدة . بمعنى في كل مجتمع 2.5% خارقي الذكاء و2.5% شديدي الغباء و17% متوسطي الذكاء أو فوق المعدل والنسبة نفسها

لمتوسطي الغباء. والباقي يتراوحون بينهم في النسبة. من أهم العبادات التي تتقرب بها إلى الله في شهر رمضان أن تنظر بماذا ميزك الله.

جزء من التقرب إلى الله أن تزكي. ليس فقط عن المال، بل عن المعرفة أن تُعلِّم من حولك ما لديك من معرفة. إذا أنعم الله عليك بنعمة المال فمن أهم ما تتقرب به إلى الله في رمضان أن تنفق المال في أوجه أنت تحرص على إتقانها. كما تحرص عند قراءة المصحف على الترتيل بتجويد وضبط مخارج الحروف، أيضاً في المال. إن مفهوم الصدقة في مجتمعاتنا المسلمة فيها شيء من التخلف. الصدقة ليست أن تغلب شح نفسك فتصدر المال. هذا نصف الصدقة. نصف الصدقة أن تكسر حاجز الشح والمنع حتى تسخى النفس وتبذل. والنصف الثاني في الصدقة هو أين تذهب الصدقة. القضية هي كيف تحسن توظيف المال الذي آتاك الله إياه في نفع البشر، في كسوة العاري وإطعام الطعام، في بناء المستشفى والمدرسة والمسجد، في نشر كتاب الله.

لكن أيضاً ذكر فقهاؤنا أنه ينبغي أن يخصص من الزكاة مقدار يعمل على أن يعطى لأناس بحيث لا يأتي العام المقبل وهم محتاجون إلى الزكاة، ما يسمونه اليوم بالمشروعات الصغيرة أوالمتوسطة. فتفكر أن يخرج المال منك إلى نفع الخلق وإغناء المعوذين المحتاجين. أن نخصص شيئاً من أموالنا للبحث العلمي.

اليوم نحن أمة تعاني التخلف في البحث العلمي، اليوم أصبحنا في مؤخرة الأمم .

مع أننا أمة أول ما أنزل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قوله سبحانه وتعالى: «إقرأ». نحن أمة «إقرأ». ينبغي أن يكون فينا من يؤسس المراكز . ذكروا في بعض السنوات أن مجموع التبرعات الخيرية في الولايات المتحدة الأمريكية 360 مليار دولار، 65% منها يذهب لاتجاهين، للبحث العلمي وللتنمية الصحية.

هذه مسؤولية ينبغي على تجارنا في رمضان أن يعلموا أن النصف الثاني من تهذيب أنفسهم في رمضان أن يفكروا. هل الزكاة أخرجت أو لاً. والذين يشتكون من الخسارات والهبوط الاقتصادي وتجميد الأرصدة نقول لهم في الحديث:« ما تلف مال في بحر أو بر إلا بحبس الزكاة» الذي يخرج الزكاة كما ينبغي وكما ينبغي في إيصالها إلى المكان الصحيح فهذا لا يمكن أن يتلف ماله أبداً. وهذا مثال فيما يتعلق بالمال. قس عليه في الأمور الأخرى فيما يتعلق بالعلم، وبالصناعة، وبالفكر. جزء أساسي من حسن

استقبالك لرمضان وحسن عبادة الله في رمضان مراجعة النفس. هل أنا مخلص في عملي هذا، هل نتاج السنة التي أعمل بها في المؤسسة ينقل المؤسسة إلى أعلى. لأننا في ديننا نحن، من الأشياء التي قررها الفقهاء يسمونها «فرض الكفاية» أن يوجد في مجتمع المسلمين من يغنيهم أن يكونوا عالة على غيرهم في شؤونهم . يشتركون مع الآخرين ويتعاملون مع الآخرين لكن من دون أن يكونوا عالة تحت يد الآخر. كان الشيخ الشعراوي رحمه الله يقول:« من لا يأكل من فأسه لا ينطق من رأسه». أي الذي لا يوفر الاكتفاء الذاتي لمجتمعه من طعام ولباس وصناعة وفكر وتعليم وبحث علمي، لا يمكن أن يكون سيد قراره في الأرض. فهذه من الأشياء التي ينبغي أن نفكر بها في شهر رمضان. أن نراجع أنفسنا. كم مرة ظلمت موظفيني، كم مرة لم أبال في تعاملي معهم، كم مرة أضعت وقتي في أمور لا تنفع والأسوأ من ذلك، تدخل على موظف في شهر رمضان وهو في وقت الدوام، ويأتي المعامل لتقديم المعاملة فيقول له انتظر لكي أنتهي من قراءة القرآن. هل تعلمون أن هذا يأثم في قراءة القرآن؟ هذا حرام. إذا قرأت القرآن في وقت الدوام عند وجود عمل وأخرت الناس، أنت آثم. لأن هذا الوقت ليس بملكك. أنت بعت هذا الوقت لصاحب العمل. فأنت مسؤول أمام الله حتى تحلل لقمة عيشك أن يقام العمل كما ينبغي. وهكذا يجب مراعاة النصف الثاني. كيف أوظف حضوري مع الله في شهر رمضان لإتقان العمل الذي أقامني الله فيه ■

الندوة بتاريخ 2010/08/13

المحاضر:

أحمد بن شبيب الظاهري

عضو المجلس الوطني الاتحادي عن إمارة أبوظبي منذ عام 1998.

(الندوة الرابعة - الورقة الأولى)

عنوان الندوة:

المجلس الوطني الاتحادي
التجربة والأفق

سيرة ذاتية

- حاز على درجة الماجستير في إدارة الأعمال من جامعة أبوظبي، وماجستير تجارة دولية من فرنسا، وماجستير إدارة الموارد البشرية من جامعة أبوظبي.
- حصل على شهادة البكالوريوس في الاقتصاد، من جامعة ليبيرتي الأمريكية.
- عمل في عدة مجالات أبرزها جهاز أبوظبي للاستثمار، وتولى عدة مناصب منها المدير التنفيذي لإدارة هيئة التدريب ولإدارتي التدريب والبعثات، ومحلل في دائرة الأسهم، ومدير قسم في دائرة الخزانة، ونائب المدير التنفيذي في دائرة الشؤون المالية والادارية في جهاز أبوظبي.



المجلس الوطني الاتحادي
التجربة والأفق

في البداية أتقدم لصاحب السمو الشيخ سلطان بن زايد آل نهيان ممثل صاحب السمو رئيس الدولة، بجزيل الشكر على دعمه لهذا المركز ودعمه لاستمرار الندوات على مر السنين، وللأستاذ حبيب الصايغ على إدارته الجيدة وعلى دعوته لنا.

خلال فترة عضويتي في المجلس الوطني الاتحادي منذ عام 1998 تعلمنا واستفدنا بعض الأشياء من إخواننا الذين ساعدونا في تفهم العمل البرلماني والعمل التشريعي. وكيفية تأسيس الدستور، ووضع لوائح المجلس الوطني ليحقق المرجو منه للدولة.

لكن أود أولاً أن أبدأ بلمحة تاريخية عن المجلس الوطني: عند بداية سنة 1968 والتوجه إلى إنشاء اتحاد بين الإمارات التسع في المنطقة كانت فكرة إيجاد مشاركة سياسية أو مشاركة شعبية تضمن لهذه الدول التسع أن يكون لها كلمة ورأي خلال العمل المؤسسي من أهم العناصر الرئيسية آنذاك. وقد أتى ذلك من خلال الصلاحيات التي أُعطيت للمجلس الوطني. وتطورت هذه الأفكار لما وصلت إليه وأنشأت دولة الإمارات السباعية وأقر الدستور ثم اللائحة الداخلية للمجلس التي صدرت في عام 1977، والتي تطورت وسار عليها المجلس.

مر المجلس بمراحل دستورية مختلفة. ففي السابق كان يمر بمرحلة دستورية مدته خمس سنوات، لأن الدستور الاتحادي مدته خمس سنوات ويجدد بعدها. و استمر هذا الوضع حتى عام 1996. حيث بعد هذه السنة أُقر بأن هذا الدستور هو الدستور الدائم للدولة وأن أبوظبي هي العاصمة. خلال تلك الفترة حصلت متغيرات أساسية سنة 2006. ففي 2 ديسمبر 2005 أعلن صاحب السمو الشيخ خليفة بن زايد آل نهيان عن تطوير في عمل الدولة وهي مرحلة التمكين، وعن إجراء انتخابات بمشاركة شعبية، وعن زيادة في عدد أعضاء المجلس وتطوير الدستور.

و يلاحظ المتتبع لأعمال المجلس وأعمال الدولة الدعوة التي وجهت لشعب الإمارات في شخص الهيئة الناخبة لإجراء الانتخابات في ديسمبر 2006. ونتج عن هذه الانتخابات انتخاب 20 عضواً في المجلس في حين عَينت الإمارات الأعضاء الآخرين واكتمل المجلس.

من الأشياء الأساسية التي حصلت في هذه الفترة تطور عمل المجلس بروح جديدة وآمال ومتابعة جديدة ترتبت عن مبدأ المشاركة، ونحن كأعضاء لمسنا هذا التغير، حيث أصبح بإمكان أي شخص من الجمهور مثلاً أن يتصل بعضو البرلمان ويسأله عما أنجزه وغير ذلك. أما التطور الآخر اللافت فيتمثل في التعديلات التي حصلت في ديسمبر 2008 حين مُددت ولاية المجلس لتصبح أربع سنوات بدلاً من سنتين. بالإضافة إلى أن الإتفاقيات الدولية باتت تُعرض على المجلس لمناقشتها وإبداء الرأي فيها بناءً على قرار رئيس الدولة، بالإضافة إلى اللائحة الداخلية للمجلس التي تقرر أن يقوم المجلس بإعدادها ورفعها للمجلس الأعلى مباشرة بدون حاجة إلى التشاور مع الحكومة بشأنها.

هذه بعض الصلاحيات الجديدة التي عدلت دستورياً وأعطت للمجلس مكانة أفضل. وهذه الأمور كلها حصلت خلال السنوات الأربع الماضية. ما الذي سيحصل خلال الأربع سنوات القادمة؟ نتوقع أن يحصل المزيد والمزيد. هناك سؤال دائماً ما يُطرح عن المجلس: ما هو المستقبل؟

نحن نعيش دائماً على أمل. نعيش على أن يكون هناك قرار سياسي بشأن تطور المجلس بشكل تدريجي. وفي هذا الصدد كان هناك نقاش في المجلس خلال الدورة الماضية حول مستقبل المجلس بعد انتهاء الفصل الحالي. فجاء رد الحكومة أن المجلس سوف يستمر على ما هو عليه إن لم يكن بالشكل الأفضل. وهذه رسالة إيجابية من الحكومة بأن المجلس سوف يتطور. وقد تكون آمال الناس وتوقعاتهم كبيرة لكن يجب علينا أن نأخذها بتدرج لأن هذا للمصلحة.

أعود إلى التجربة الشخصية في المجلس. هناك سؤال يُطرح، هل العضو المنتخب في المجلس هو مثل العضو المعين في المجلس؟

الجواب نعم. ففي النهاية أنت تخدم شعب الإمارات بغض النظر عن كونك منتخباً






صاحب السمو الشيخ خليفة بن زايد آل نهيان
رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة

أو معيناً. إلا في بعض حالات الأعضاء المنتخبين الذين يرون أن لهم طريقة عمل مختلفة. إن الإنسان الذي ينتمي إلى شعب الإمارات وسلوكه وأخلاقه وقيمه سوف لن يخرج عن هذا الإطار الحضاري، فهو إما مكلف أو مشرف بهذه العضوية وبالتالي فهو يتعاون مع إخوانه على نفس المستوى ونفس الطرح. وقد يكون الأعضاء المعينون أكثر نشاطاً من المنتخَبين في بعض الحالات لأنهم يرون أنهم مكلفون أكثر. أما الآخرون فقد يسعون لإثبات شيء ما وقد لا يحققونه. لكن الحمد لله، من خلال تجربتنا خلال السنوات الأربع الماضية وجدنا أن الأعضاء كلهم متساوون في بذل الجهد والعطاء والغيرة على الوطن ■

الندوة بتاريخ 2010/10/03

المحاضر :
أحمد الخاطري
عضو المجلس الوطني الاتحادي.

(الندوة الرابعة - الورقة الثانية)

عنوان الندوة:
المجلس الوطني الاتحادي
التجربة والأفق

سيرة ذاتية

- تراأس دائرة ومجلس القضاء في إمارة رأس الخيمة.
وماجستير تجارة دولية من فرنسا، وماجستير إدارة الموارد البشرية من جامعة أبوظبي.
- حصل على بكالوريوس في الشريعة من جامعة الإمام محمد بن سعود في المملكة العربية السعودية، ونال شهادة الماجستير في القضاء من المعهد العالي للقضاء بجامعة الإمام محمد بن سعود.
- عضو في العديد من المنظمات القانونية العربية والدولية.



المجلس الوطني الاتحادي
التجربة والأفق

بداية أشكر سمو الشيخ سلطان بن زايد آل نهيان ممثل صاحب السمو رئيس الدولة على رعاية هذه المنارة الثقافية التي نتمنى أن تتحقق رسالتها في مجتمع دولة الإمارات، وأن تقود رسالة العلم والثقافة وتوعية المجتمع بواجباته وحقوقه. وأشكر الأستاذ حبيب الصايغ على دعوته، وتنظيم واستضافة هذه الندوة. وأشكر جميع الحضور الذين يأملون أن نقدم لهم بعض المعلومات عن هذا المجلس الذي أجزم بأنه سيبقى صرحاً شامخاً يساهم في تنمية دولة الإمارات تنمية سياسية.

من المعروف أن كل برلمان أو كل مجلس اختصاصه التشريع. وتتفاوت برلمانات العالم حول هذا الاختصاص ومدى فاعلية البرلمان، وقدرته على إصدار هذه التشريعات وهذه القوانين وانعكاسها على الحاجة الفعلية والحاجة السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

إن المجلس الوطني منذ بدايته،أي منذ أن بدأ مسيرة العطاء، ظل يتمتع باختصاص تشريعي. وأنا أختلف مع الكثير من الكتاب، بل جميع الكتاب. فما وجدت أحداً إلا وقال إن هذا المجلس هو استشاري وليس تشريعياً. ولو حللنا المدلول اللفظي لهذه «التهمة»، إن صح التعبير، لوجدنا أن الاستشاري ليس ضد التشريعي. إن ما يبديه الاستشاري غير ملزم للجهة التي يعتبر نداً لها، أما الجهة التي هي أعلى منه وأقوى منه سلطة فهنا المقارنة غير عادلة. فالمجلس له دور تشريعي وأنا أحيي صديقي العزيز الدكتور محمد بن سالم على كتابه الذي استفدت منه كثيراً حينما أصّلَ تاريخ المجلس الوطني، ووضع مؤشرات علمية لمسيرة وعطاء المجلس الوطني لاثني عشر فصلاً تشريعياً. وطوال حديثه كان يتكلم عن الدور التشريعي المحدود للمجلس الوطني وذلك في حالة انعقاد الدورة، ودعوني أشرح في هذا المقام: أن المجلس عبارة عن فصول تشريعية. كانت مدة الفصل التشريعي في السابق سنتين وأصبح الآن بعد المد أربع سنوات، وهذه

المدة تتزامن مع الفصل التشريعي، وهذا الفصل هو عبارة عن أدوار انعقاد. يبدأ المجلس بالانعقاد في شهر أكتوبر بعد التعديل الحالي والقائم، وينتهي بنهاية شهر يونيو، وتبدأ إجازة برلمانية مدتها ثلاثة شهور وتزيد قليلاً. وإذا كان المجلس في حال انعقاده فإن مجلس الوزراء لا يستطيع، باعتباره السلطة التنفيذية، أن يصدر قانوناً خلال دور الانعقاد دون أن يمر على المجلس، وُيمارس المجلس صلاحيته كاملة إما في قبول المشروع أو تعديله أو رفضه. وخلال خبرتي في الفصول، حيث بدأت في عام 1997 من الفصل الحادي عشر، رأيت أن عدة مشاريع عُرضت على المجلس ورفضها، لكنها أقرت بعد ذلك من طرف المجلس الأعلى للاتحاد. لكن هذا الدور المحدود واجهته عقبات باختصاصاته الحالية وقبول القانون أو تعديله أو رفضه. صحيح أنه لا يحق للمجلس أن يقترح القانون، وهذه الآلية موجودة في كثير من البرلمانات إن لم يكن في أغلب البرلمانات. ونحن عندما نناقش موضوعاً عاماً نصدر توصيات أو لا نصدر، ونكتفي بالنقاش. في الدول التي يتمتع البرلمان فيها بسلطة اقتراح القانون يتحول هذا النقاش إلى مشروع قانون يتقدم به البرلمان عبر قنواته الدستورية. هذا هو الفرق. نعم أقول إن الدور التشريعي قاصر على ما يُعرض عليه من طرف مجلس الوزراء، لكن هذا الدور في فترة من الفترات، أو في فصل من الفصول مثلما قرأت في الدراسة أو الكتاب وصل إلى حد كبير من الفاعلية أو التفاعل. المثال على ذلك هو مشروع قانون العقوبات. ظل عاماً ونصف تقريباً في المجلس الذي استطاع أن يغيّر فيه الكثير من عقوبات الإعدام. وكان له دور فاعل في هذا القانون إلى أن خرج إلى النور. إذاً، نقول إن لهذا المجلس دوراً تشريعياً وليس له كل الدور التشريعي بل هو مشترك مع السلطات الأربع حسب الدستور. يشترك مع مجلس الوزراء، باعتباره الجهة التي تقترح المشروع، والمجلس الأعلى للاتحاد ورئيس الاتحاد. إذاً أربع جهات تشترك في ذروة نقاش المشروع إذا قدم من مجلس الوزراء ومر عبر المجلس الوطني، ثم رفع إلى المجلس الأعلى للاتحاد، ثم أصدره رئيس الاتحاد. يمر عبر أربع سلطات منصوص عليها في الدستور، لكن المشكلة تكمن في العقبات التي تواجه هذه الممارسة، منها غياب المجلس. إن الدراسة التي رصدت مسيرة المجلس وجدت أن المجلس في الفصول التي شملتها للدراسة يغيب في ثلاثين سنة. ولا يتعدى العمل الفعلي للمجلس خمس





سنوات أي ثمانية أشهر تقريباً في ثلاثين سنة. إذاً هناك فترات خاصة بين الفصول التشريعية. فلم يتصور حقيقةً المشرِّع الدستوري أن يغيب المجلس ولم يخطر على باله أن المجلس قد يغيب سنوات، والسبب في ذلك أن بإمكان السلطة التنفيذية أن تصدر التشريعات التي تحتاج إليها في فترة غياب المجلس، بالإضافة إلى قصر مدة الفصل التشريعي. حيث كانت فترة الفصل التشريعي سنتين وقد تنبهت له القيادة السياسية، رعاها الله، فجعلت مدة الفصل التشريعي أربع سنوات.

ومن المؤشرات على أن المجلس له دور تشريعي، اختصاصه في التعديل الدستوري. إذ ليس لمجلس الوزراء أي دور في تعديل الدستور فهو يقترح من المجلس الأعلى. ويمكن استدراك هذا الأمر بالنصوص الحالية بحيث لا يكون هناك فراغ في هذه السلطة. أن تبدأ في موعدها، وأن تشكل في موعدها، وأن تقوم بواجبها في مجال التشريع. ومن العقبات أيضاً التي تواجه التشريع في النظام الحالي المتبع، غياب الخطة التشريعية. الآن، أعلنت الحكومة خطة استراتيجية في ظل قيادة صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد، رعاه الله. هناك خطة لكل وزارة للحكومة ككل، فلو كانت هناك خطة تشريعية تعلن الحكومة كل سنة أو كل سنتين أو كل خمس سنوات، ولو عرفت ما هي التشريعات التي تنوي القيام بها، سيسهل على المجلس مهمة دراسة هذه التشريعات واستباقها ووضع أفكار حول هذه التشريعات وقدرتها على إضافة بعض الأمور الوطنية التي يحتاجها الوطن.

كما تحتاج المشاريع التي تأتي إلى ما يسمى بالبيان التشريعي أو الغاية التشريعية، لماذا اقترحت الحكومة القانون الفلاني، وما الهدف منه؟ فإذا عرف هذا، استطعنا أن نختصر الكثير من اللغط والحديث والنقاش، لأن الغاية التشريعية من هذا المشروع معروفة وبالتالي يبحث الكل عن تحقيق هذه الغاية. وهذا أمر ميسور في ظل القانون الحالي.

حاولت أن أجاري في حديثي العنوان، وأن أقول هذا هو الوضع الحالي، وهذه هي العقبات. والآن ما هي الأمنيات؟ الأحلام ليس لها سقف. لوُوجدت في المستقبل آلية للمجلس الوطني الاتحادي وأعطي صلاحية اقتراح القانون، أعتقد أن ذلك سيحسن العمل البرلماني في دولة الإمارات، وسيكون العمل البرلماني فاعلاً ومؤثراً بفعل اقتراح

القوانين. يبقى التاج الذهبي لدولة الإمـارات، وهـو المجلس الأعلى وما لديه من صلاحيات، صمام أمان لدولة الإمـارات وينبغي على هذه الصلاحيات الواسعة أن تبقى للمجلس الأعلى باعتباره السلطة العليا. لكن هناك سلطة تنفيذية وتقابلها سلطة تشريعية تمارس الرقابة، تأخذ حقها كاملاً غير منقوص في التشريع، وتقدم للمجتمع مشاريع قوانين، بل تصدر قوانين فاعلة تستطيع أن تلبي احتياجات العمل.

من الأمور التي ينبغي أيضاً أن تتحقق للمجلس الوطني بالإضافة إلى أداة التشريع، ألاّ يكون هناك قوانين تصدر في فترة غيابه. أحياناً تصل فترة الغياب إلى ثلاثة أشهر. فما الحاجة إلى إصدار قانون في هذه الفترة..؟

قال سمو الشيخ حمدان بن راشد رعاه الله نائب حاكم دبي، وزير المالية والصناعة، «من التجربة، القوانين التي تمر على المجلس هي الأقل خطأ» بل أصبحنا نقول بالنسبة لبعض القوانين، تريثوا أحيلوها إلى المجلس لكي يناقشها. والدليل على ذلك، القانون البحري حيث من الممكن للحكومة أن تصدره خلال الإجازة الحالية للمجلس الوطني لكن أبت إلا أن تحيله إلى المجلس بعد عودة انعقاده ■

الندوة بتاريخ 2010/10/03

المحاضر:

ميساء راشد غدير

عضو في المجلس الوطني الاتحادي، وهي إعلامية متميزة

(الندوة الرابعة - الورقة الثالثة)

عنوان الندوة:

المجلس الوطني الاتحادي التجربة والأفق

سيرة ذاتية

- حاصلة على بكالوريوس في التربية من جامعة الإمارات.
- عملت في مجالات عدة منها التدريس، ومديرة إدارة الأخبار والمعلومات في المكتب الإعلامي لحكومة دبي، لصاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل كتوم.
- كاتبة مقال وعمود يومي في صحيفة البيان.



المجلس الوطني الاتحادي
التجربة والأفق

في البداية، أتوجه إلى إدارة المركز الثقافي الإعلامي لصاحب السمو الشيخ سلطان بن زايد آل نهيان ممثل صاحب السمو رئيس الدولة بالشكر والتقدير لدعوتكم الكريمة للمشاركة في هذه الندوة. إن وجودنا في هذا المكان يؤكد دور الإرادة السياسية التي أرادت أن أكون في المجلس الوطني الاتحادي، ومادام عنوان الندوة هو التجربة والأفق، فيفترض إذاً أن أتحدث عن تجربتي كامرأة في المجلس الوطني الاتحادي.

يسجل هذا المجلس في الفصل التشريعي الحالي حضور المرأة للمرة الأولى في تاريخ المجلس الوطني الاتحادي. وبكل فخر، كنت أول امرأة ترشح نفسها للانتخابات في دولة الإمارات العربية المتحدة في العام 2006 بعد إعلان صاحب السمو الشيخ خليفة بن زايد آل نهيان دخول المرأة في القوائم الانتخابية. كان ذلك تحديداً صعباً بالنسبة لي كامرأة في مجتمع الإمارات، وكان إعلان ترشحي للانتخابات بالنسبة لأسرتي بمثابة الصدمة، وقوبل بالرفض في البداية، لكنني قررت الاستمرار، وأعلنت ترشحي بتأييد صاحب سمو الشيخ محمد بن راشد الذي شجعنا على أن المرأة مثلما نجحت في مجالات عديدة مثل التعليم والإعلام كان لا بّد لها أيضاً أن تدخل في مجال السياسة، وأن تثبت جدارتها خاصة أن الإرادة السياسية أرادت لها أن تكون في المجلس الوطني الاتحادي.

خضت الانتخابات، وكنت سعيدة في تلك التجربة. تعلمت أشياء كثيرة وسجلت وقفات في محطات كثيرة لا أستطيع نسيانها. كنت كالطفل الصغير الذي يتعلم أشياء جديدة في حياته رغم اعتقادنا عند ترشحنا بأننا على دراية بكل الأمور، لكنني اكتشفت وقتها أنني كنت أتعلم أشياء لم أكن أتخيل أنني سوف أتعلمها. اكتسبت من تجربة الانتخابات الكثير من الخبرات.

بعدما دخلت تجربة الانتخابات لم يكتب لي النجاح ولكنني لم أحزن. كان الكل

يتوقع فوزي عن إمارة دبي، ولكنني لم أفز، ولم تفز أي سيدة في دبي بصفتها أكثر الإمارات انفتاحاً. وكان الشيخ محمد بن راشد من أكثر المؤيدين للمرأة وحضر يوم الانتخابات وسئل من قبل الصحفيين:« هل تتوقعون فوز المرأة». فأجاب: «إن المرأة هي روح المكان». كان لدي أمل بدخول المجلس ليس للفوز بشرف دخول المجلس كمؤسسة اتحادية، وإن كان شرفاً بالفعل، ولكن من خلال عملي ككاتبة لامست هموم الناس، وتعايشت معها خلال سنوات. منذ عام 2002، كان لدي عمود يومي تعرفت من خلاله على هموم الناس وتواصلت مع الكثير من المسؤولين وشعرت بقربي من الناس، من الغني والفقير والمسؤول، من كل المستويات. شعرت أنه لا بد لي أن أكون في هذه المؤسسة وأن أمثل شعب الإمارات. والحمد الله تم تعييني في المجلس الوطني الاتحادي وكنت ضمن السيدات التسع اللواتي وجدن داخل المجلس الوطني الاتحادي بعد فوز الدكتورة أمل القبيسي على مستوى إمارة أبوظبي. فأصبحنا تسع سيدات من أصل أربعين عضواً فازت واحدة منهن في الانتخابات وتم تعيين السيدات الثماني الأخرى من قبل الحكومات المحلية. وسوف ألخص تجربتنا في المجلس الوطني الاتحادي كمايلي:

حسب وجهة نظري ومن خلال اطلاعي على كل الفصول التشريعية، يمكنني القول أن ما يميز هذه التجربة التي نعيشها كمجلس وطني اتحادي هو، أولاً، الدماء الشابة الموجودة في المجلس. كذلك الخبرات المتنوعة، والاختصاصات المتنوعة، والفكر الموجود في المجلس متنوع. يمكننا القول إنه في السابق كانت السمة الغالبة في المجلس لكبار الشخصيات وممثلي الإمارات، أي العائلات البارزة في كل إمارة أو الناس المعروفين في كل إمارة. إن ميزة هذه التجربة أنها جاءت بدماء شابة جديدة تم انتخابها من قبل الشعب. فمعظم الشباب الذين تم اختيارهم وهم 20 عضواً قاموا بحملات انتخابية ناجحة خاصة على مستوى إمارة أبوظبي ورأس الخيمة. فازوا بالانتخابات بجدارة وحققوا نسبة أصوات عالية، والأمر نفسه كذلك في إمارة دبي. والميزة الثانية هي أن مستوى الحوار ما بين مجلس الوزراء والمجلس الوطني الاتحادي كان راقياً وهادئاً ومتفهماً. على عكس بعض الدول التي كانت تسجل نقاشات محتدمة تصل إلى مستوى التضارب بالأيادي في البرلمان.

اتسم المجلس الحالي أيضاً بالنشاط على المستوى الخارجي خاصة على الصعيد









السياسي وفي القضايا التي تهم دولة الإمارات خاصة في مسألة الجزر. فقد أصبحنا نشعر أن المؤسسة الاتحادية البرلمانية أخذت دوراً أكبر من الأدوار السابقة التي اكتسبها في الفصول التشريعية السابقة .اتسمت هذه التجربة الحالية ببعض جوانب القصور أو الهنات.

وبالعودة إلى الحديث عن تجربتي يمكننا القول إنني كنت أتعلم من هذه التجربة. وهناك أمور نود سماعها منكم، أود أن أشعر بالإحراج من أسئلتكم مثلاً أن أسأل ماذا قدمت أنا كامرأة.

نحن كنساء ناقشنا مواضيع عامة، وترأسنا لجاناً ودخلنا في وفود على المستوى الداخلي والخارجي، ونلنا عضوية في لجان. ولكن هناك آمال وتطلعات أكبر نصبو إليها في المجلس الوطني الاتحادي. هناك أخطاء أو هنات بالطبع لم نكن نأمل وقوعها خلال تجربتنا، لكن ذلك لا يمنع تصحيحها قبل خروجنا من المجلس أو تركها على الأقل على ورق حتى يتم تصحيحها من المجلس المقبل. هذه هي تجربتنا البسيطة كأول مجلس نصفه منتخب ونصفه معين. هذه هي تجربتنا كأول امرأة توجد في هذا المجلس ضمن تسع سيدات، ضمن مجلس منتخب ومعين، خضنا تجربة الانتخابات. وهو أول مجلس يمدد له لمدة أربع سنوات ويبقى لنا من الزمن أربعة أشهر وينتهي الفصل التشريعي ■

يسعى المركز الثقافي الاعلامي لسمو الشيخ سلطان بن زايد آل نهيان ممثل صاحب السمو رئيس الدولة الى طرح سؤال الثقافة بمفهومها الشامل لمختلف أوجهها المختلفة كالفكر والسياسة والفلسفة والعلوم والاقتصاد، وغيرها من جوانب المعرفة. والمشاركة في الحراك الثقافي الذي تشهده دولة الامارات. والتركيز على مجال الاعلام والدراسات الاعلامية. والاسهام في ترسيخ ثوابت المجتمع وعاداته. وبناء الانسان المثقف وتعزيز الهوية الوطنية. وابراز ثقافة الاعتدال والتسامح والوسطية التي تنتهجها الدولة. والتعريف بالشخصيات الاماراتية في المجالات كافة.

وفي سبيل ذلك يقوم المركز بتنظيم المحاضرات والندوات. واصدار الدراسات والكتب الثقافية والعلمية والفكرية. والمشاركة في معارض الكتب والانشطة والفعاليات المصاحبة

الطبعة الأولى
2011

إصدارات

المركز الثقافي الإعلامي لسمو الشيخ سلطان بن زايد آل نهيان
ممثل صاحب السمو رئيس الدولة
The Cultural and Media Centre for H.H. Sheikh Sultan Bin Zayed Al Nahyan
H.H. The President's Representative

ص.ب: 5727 أو 6420 فاكس: 0097126663088 هاتف: 0097126666130
Website: www.cmc.ae
Email:administration@cmc.ae